بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

1- هذه الآية الرابعة والعشرون من سورة محمد(ﷺ) ويعبر عنها بسورة القتال نزلت في المدينة، روي: إن من أراد أن يعرف حالنا وحال عدونا - أي الكفار- فليقرأ سورة محمد(ﷺ) فانه يراها آية فينا وآية فيهم، وهذه الآية الشريفة وقعت في وسط هذه السورة التي تكفلت بيان حال الإسلام والمسلمين والصفات الصالحة فيهم وبيان حال الكفار الضالين والصفات السيئة الثابتة عليهم .

2- وهذه الآية المباركة وردت عقيب ذم الكفار على بعض الصفات الخبيثة التي استوجبت لعنهم (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)محمد:23، أي بانحرافهم عن طريق الاستقامة وضلالهم عن سبيل الهدى استحقوا لعنة الله فصاروا صماً لا يسمعون وعمياً لا يرون وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، ثم أراد سبحانه أن يوقظهم من نومتهم وينبههم عن غفلتهم لعلهم يرجعون ويرشدون فسألهم التدبر في القرآن إن لم تكن قلوبهم مقفلة مغلقة .

3- وقد ورد الحث المتكرر والترغيب في التدبر في القرآن والتفكر في آياته، قال تعالى (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)النساء: 82. وقال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) ص: 29 .

والمراد من التدبر هو التفكر والتأمل والنظر، والمراد من التدبر في القرآن الذي أمرنا به هو التفكر في القرآن لمعرفة معانيه واستيعاب مضامينه، والخطاب موجه الى عموم الناس فان هذه الآية وان كانت مرتبطة بما سبقها من الآيات، لكن الخطاب عام وقد ورد في الرواية إن القرآن نزل بنحو (إياك أعني واسمعي يا جاره) فظاهره قصة وواقعه حكمة ومورده خاص ومعناه عام والقرآن حي لا يموت يجري مجرى الشمس والقمر ولا ينقطع ما دامت السماوات والأرضون كما ورد بذلك الروايات عن المعصومين، ومنه يتبين أن الآية لا تختص بمن سبق ذكره بل تعم كل أحد فتدعو كل البشر الى التدبر فيه والتفكر في آياته ومضامينه، فيتبين منه أن الناس العارفين باللغة وقواعدها

وبلاغتها يمكنهم أن يعرفوا آيات الله سبحانه ويفهموا نصوص القرآن بمقدار ما أوتوا من العلم والفهم ولذا أمروا بالتدبر والتفكر في غير واحد من الآيات وطلب في غير واحد من الروايات تعلم القرآن وتعليمه لغرض العمل به قال رسول الله (ﷺ):- (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً) وهذا حديث متواتر روته طوائف المحدثين في سننهم ومسانيدهم، وقال مولانا الصادق (ع): (الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة).

4- والهمزة للاستفهام التوبيخي يراد منه تأنيب من سبق ذكره ممن لعنه الله لأنه انحرف عن طريق الهدى الى سبيل الفساد والضلال، وكأنه سبحانه يقول عتاباً وتوبيخاً: لم لا تتدبرون القرآن وتتفكرون في آياته لتعرفوا الحق والهدى وتبعدوا عن الضلال والباطل؟ هل على قلوبكم أقفال مغلقة تمنعكم من التفكر والتبصر والاعتبار، فالآية تدل على محبوبية التدبر في القرآن والتفكر في معانيه والتأمل في مضامينه، وإلا فمن لا يتدبر يكون قلبه مقفلاً وعقله مغلقاً لا ينفتح للهدى الذي يدعو إليه القرآن ويرغب فيه الرحمن وقد ورد في تفسير الآية المذكورة عن الإمامين الصادق والكاظم (عليهما السلام) أن معناها: (أفلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق) أي إن الآية الشريفة ترغب في التدبر والتفكر فيما جاء في القرآن العزيز لكي يعملوا به ويقضوا الحقوق ويؤدوا فرائض الله عليهم من الحقوق والواجبات ويبتعدوا عن المعاصي والمحرمات وقد جرت سيرة الصحابة الصالحين على أن يأخذوا من رسول الله (ﷺ) عشر آيات ويتعلموا معانيها ويعرفوا حلالها من حرامها فيضبطوا ذلك ثم ينتقلوا الى عشر آيات أخرى، هكذا روي في موسوعة (البحار) للعلامة المجلسي وتفسير (الجامع لأحكام القرآن) للعلامة القرطبي وغيرهما .

5- والتدبر المرغوب فيه هو التفكر لمعرفة المعاني الظاهرة في القرآن بحسب الطرق والوسائل المتعارفة في فهم الكلام العربي الفصيح مع ملاحظة القرائن المتصلة والمنفصلة التي تلقي الضوء على المعنى المراد، وقد أوضح الفقهاء في مباحث (ظواهر الألفاظ) كيفية استظهار المعنى وطريقة تعيين المراد وتشخيص المعنى المقصود من ألفاظ الكتاب والسنة

اعتماداً على الإمارات المعمول بها عند العقلاء في محاوراتهم ومخاطباتهم، وهذا غير تفسير القرآن بالرأي المذموم في روايات الفريقين فان التفسير يعني كشف القناع عن الأمر الغامض المشتبه، فيكون معنى تفسير القرآن بالرأي هو القول فيه بحسب الهوى والبيان له بحسب الرأي وهو مختص بالمتشابه الذي غمض معناه واستتر مضمونه فلا يشمل المعاني الظاهرة من القرآن بعد التفكر والمضامين الواضحة في آياته بعد الاستعانة بقواعد الفهم وقرائة الكلام وقد قال مولانا الصادق (عليه السلام): ((إنما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء فيعرفونهم)) .

6- والتدبر المرغوب فيه تختلف نتائجه وتتفاوت ثمرته بلحاظ الأشخاص المتدبرين وبمقدار ما أوتوا من العلم والفكر والمعرفة بأدوات التفسير من قواعد اللغة العربية ومفرداتها وخصوصيات المعاني والبيان، وبمقدار ما وهبوا من الذكاء والفكر، وأرقى الذوات التي عرفت القرآن وفهمت معانيه هم من خوطبوا به، هم محمد وأهل بيته (ع) وكما قيل: (أهل البيت أدرى بالذي فيه) قال تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)فاطر:32، فهم الوارثون وهم العارفون به حق معرفته، ولذا نحن نستعين بهم في الأحاديث المأثورة عنهم لغرض فهم القرآن واستيعاب معارفه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

1- هذه الآية التاسعة والستون من سورة العنكبوت وهي آخرها وخاتمة آياتها يغلب على الظن أنها نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة عنها وفي وقت اشتد فيه البلاء على المسلمين الأوائل وكثرت المحن والفتن نظير زماننا الذي كثرت

فيه الفتن والشبه الضالة المضلة عن طريق الله ولذا تعرضت السورة بآياتها لتقوية الإيمان في نفوس المسلمين وحثهم على الجهاد وتدريبهم على الصبر .

2- الجهاد على ما يستفاد من اللغة هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة في طلب أمر وتحصيله وهو على نوعين:-

الأول/ جهاد الأعداء والكافرين والمفسدين في الأرض والبغاة وأمثالهم وهو مما يتكفله بحوث الفقه الشريف .

الثاني/ جهاد النفس وهو بذل الوسع في محاربة النفس واستفراغ الطاقة في منعها عن هواها ورغبتها في معصية ربها ومولاها .

وهذه الآية الكريمة نظير قوله تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)الحج:78، تشمل القسمين: جهاد العدو الخارجي وجهاد العدو الداخلي، وهكذا ورد في الرواية الشريفة عن الصادق (ع) فانه قسم الجهاد الى فريضة وسنة ثم قسم جهاد الفرض الى قسمين فقال: ((فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله تعالى وهو أعظم الجهاد، ومجاهدة الذي يلونكم من الكفار فرض)) .

إذن الذين جاهدوا فينا هم الذين بذلوا جهدهم وقدرتهم في الله أي في سبيل مرضاته: أما بجهاد العدو الخارجي وهم الذي يلونكم من الكفار، وأما بجهاد العدو الداخلي وهو النفس الأمارة بالسوء، وهذا الثاني أفضل من الأول كما صرحت به الروايات العديدة منها قول الصادق والكاظم عليهما السلام: إن النبي (ﷺ) بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل يا رسول الله: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس، ثم قال (عليه السلام): ((ان أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه)) وقال (ﷺ): ((**المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل))** ولعله صار جهاد النفس أفضل من أجل أن في مجاهدة النفوس في طاعة الله سبحانه وتهذيبها وإبعاده عن معصية الله سبحانه تربية وتصميماً على القرب الى الله والبعد عما يوجب غضبه وسخطه وهذا مفتاح السلوك الى الله سبحانه ولذا استحقوا الجزاء الأعظم وهو هدايتهم الى سبل الله سبحانه .

3- (لنهدينهم سبلنا):

هذه اللام ترشد الى الجزاء العاجل الذي أعده الله لمن جاهد في الله حق جهاده وأخلص النية لله سبحانه في جهاده، وجزاؤه هدايته لسبله سبحانه أي إرشاده سبحانه ودلالته على طرقه وسبله التي لا يعرفها أو لم يهتد إليها بعد، وقد روي عن رسول الله (ﷺ) انه قال: ((من عمل بما علم علّمه الله ما لم يعلم)) و((من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم)) وهو توضيح وبيان لهذا الجزاء الذي تفضل الله به على من جاهد نفسه حق الجهاد وأخلص النية لله جل وعلا، وقد ورد أن ((العلم نور يقذفه الله سبحانه في قلب من يشاء بحكمته)) وهذا مرشد آخر الى هدايته عبيده المجاهدين الى سبله وطرقه.

ولا تختص سبل الله سبحانه بسبل الجنة وسبل الثواب بل تعم جميع سبله وان كانت تنتهي بأجمعها الى الجنة والثواب والرضوان .

4- (وان الله لمع المحسنين)

والمحسنون هم الذين أحسنوا عملهم وجاهدوا في سبيل الله خير جهاد وائتمروا بأوامره ومطلوباته وانتهوا عن زواجره وممنوعاته لا يصرفهم عن ذاك الغرض صارف ولا يتمكن أن يمنعهم عن ذاك الهدف شيطان مانع، يقتدون في ذلك برسول الله (ﷺ) ثم من تابعه على طريقته بإحسان .

وفي هذه الجملة تعهد من الله سبحانه أن يكون مع هؤلاء المحسنين المجاهدين وأن لا يفارقهم، وهذا تأكيد منه جل وعلا أن يعينهم برحمته على الإحسان وأن يحوطهم بقدرته وفضله وأن يشملهم بعنايته ولطفه، وهذا جزاء آخر لمن جاهد في الله حق الجهاد وبذل جهده في تحصيل الاعتقاد الصحيح والعمل الحسن الجميل وقد وردت الرواية عن الباقر (عليه السلام) إن هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشياعهم .

بسم الله الرحمن الرحيم
(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

1- هذه الآية الثالثة والثمانون من سورة القصص تنتظم عقيب عدة آيات تعرضت لقصة قارون وهو غني قريب في النسب من موسى (ﷺ) وهي قصة واقعية وفيها حكمة يراد منها التذكير بسنة الله سبحانه في الدنيا مع المتجبرين والمتكبرين والمستغلين في الأرض الذين غرتهم كنوز الدنيا وخيراتها وما منحهم الله سبحانه من المال أو الجاه أو الرئاسة أو العلو أو العلم أو القوة أو العشيرة وغفلوا عن كونهم الفقراء الى الله المحتاجين الى قدرته وعنايته وتسديده فإذا سحب منهم ما منحهم وجدوا حقيقة فقرهم الى الله سبحانه ولات حين مناص (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ)القصص:81، ثم عقب سبحانه قصة قارون ببيان سنة من سنن التشريع الإلهي الكوني (تلك الدار الآخرة..) وكأنها نتيجة حتمية مستنبطة من القصة وقد روى العلامة الطبرسي في (مجمع البيان) أن أمير المؤمنين (ﷺ) كان يمشي في الأسواق وهو والٍ يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ (تلك الدار الآخرة) ويقول نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وفي أهل القدرة من سائر الناس، وروى العلامة القرطبي في تفسيره عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرّ علي بن الحسين (ﷺ) -وهو راكب- على مساكين يأكلون كسراً لهم -أي قطعة خبز- فسلم عليهم فدعوه الى طعامهم، فتلا هذه الآية ثم نزل وأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني، فحملهم الى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم، وروى الشيخ الصدوق في (الفقيه) عن الصادق عن آبائه: إن رسول الله (ﷺ) نهى أن يختال الرجل في مشيه وقال: ((من لبس ثوباً فاختال فيه خسف الله به من شفير جهنم وكان قرين قارون لأنه أول من اختال فخسف الله به وبداره الأرض، ومن اختال فقد نازع الله في جبروته)) .

2- (تلك الدار الآخرة).

إشارة الى الجنة والنعيم الذي وعد به عباده المتقين في كثير من الآيات ووصفها بأحلى الصفات ونعتها بأجمل النعوت (فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) الزخرف:71 .

ولعل وجه الإشارة بأداة البعيد بقوله (تلك) هو الإشارة الى علو مكانة تلكم الدار الآخرة وشدة شرفها حيث لا تؤتى إلا بالعمل الشاق ولا تنال إلا بالجهد الفائض.

(نجعلها) هذا هو جعل إلهي تشريعي وقد جاء فيه بصيغة المضارع والاستقبال لا من جهة عدم تحقق هذا الجعل قبل هذا الوقت، بل بمعنى أنها مخصصة لهؤلاء الذين لا يريدون –مستقبلاً- علواً في الأرض ولا يبغون فساداً ومهيأة لهم بلحاظ الزمن المقبل الآتي.

3- (علواً في الأرض) :-

إرادة العلو هو التكبر والتجبر والتعالي على أهل الأرض (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)القصص:4، أي تكبر وتجبر وتعالى في الأرض حيث رفض العبودية لله سبحانه وادعى لنفسه الربوبية وطلب من أهل مصر أن يذعنوا له إلهاً ورباً، إن فرعون وقارون أمثلة ضربها الله سبحانه وتعالى عبرة وتذكرة لمن أراد العلو في الأرض والفساد في الناس ليعتبروا من مصيرهما وعاقبة أمرهما وليتذكروا أن (العاقبة للمتقين) .

إذن إرادة العلو في الأرض هو طلب الكبر والعظمة على الغير من مخلوقات الله سبحانه، إنها الاستكبار والاستعلاء على عباد الله جل وعلا، وهذه رذيلة كبيرة استحقرها الله سبحانه وذم من أرادها وطلبها وسعى من أجل تحصيلها .

4- المراد من العلو والكبر هو أن يرى الإنسان نفسه أكبر ووجوده أغلى وشخصه أعظم من غيره لوجود صفة كمال في نفسه –قد تكون موجودة حقيقة وواقعاً وقد لا تكون موجودة واقعاً وقد لا تكون موجودة إلا في اعتقاده ومخيلته- وهذه الرؤية تدعو الإنسان الى أن تصدر منه أعمال وآثار تنطلق من هذه الرؤية وتنبثق عن تلكم النظرة، وقد روى السيد ابن طاووس في (سعد السعود) عن (جمع الجوامع) للعلامة الطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: ((ان الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحت الآية)) وهذه الرواية الشريفة تعطي مصداقاً للعمل السيء المنبثق عن النظرة

الكابرة والرؤية المتعالية، وهناك مصاديق كثيرة تتغير وتتبدل وتتجدد عبر الأيام وتغير الأوقات وتطور الأحوال .

5- استفاضت الآيات الشريفة والروايات الكريمة في بيان ذم الكبر والتيه بالنفس وفي تحذير العقلاء عن عواقبه الوخيمة قال الله تعالى: (ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)الزمر: 72، (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)غافر: 60- أي صاغرين أذلاء، وقال رسول الله (ص): ((ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ وملكٌ جبار ومقل مختال)) أي قليل العمل كثير الزلل بالاختيال والتكبر، وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): ((الكبر رداء الله والمتكبر ينازع الله ردائه)) وقال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): ((ان في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له: سقر، شكى الى الله عز وجل شدة حره وسأله عز وجل أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم)) وهناك عشرات الأحاديث غير ما اخترناه قد رواها علماء الحديث في موسوعاتهم الحديثية من شاء يراجع الوسائل مثلاً الجزء الحادي عشر أبواب (58، 59، 60) من أبواب جهاد النفس .

6- وقد ذكر علماء الأخلاق بحوثاً في علاج الكبر وبيان أسبابه ومناشئه مقدمة لعلاج هذا الداء الوبيل من حيث أتى وسرى الى النفس الأمارة بالسوء. لكن يكفينا أن نتدبر كتاب الله وسنة محمد وآل محمد (ص) وسيرة الصالحين التابعين بإحسان وما جاء في ذم الكبر ومدح التواضع وما ورد في وجوب إيثار رضى الله سبحانه على هوى النفس ورغبتها وإرادتها فانه خير علاج لمن عقل وتدبر وخير دواء لمن عرف واستبصر، وقد روى ثقة الإسلام الكليني بسنده الصحيح عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: قال الله عز وجل: (وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلو ارتفاعي لا يؤثر عبد مؤمن هواي على هواه في شئ من أمر الدنيا إلا جعلت غناه في نفسه وهمته في آخرته وضمنت السماوات والأرض رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر).

7- (ولا فساداً) الفساد: هو ما يقابل الصلاح، هذا المعنى الوسيع الجامع هو الظاهر من الآية الكريمة وهو مستفاد من

كلمات اللغويين في تفسير لفظة الفساد، لكن أغلب المفسرين ذكروا: إن معنى الفساد في الآية الشريفة هو قتل الأنبياء والمؤمنين أو أخذ المال بغير حق أو الأخذ بغير حق أو الدعاء الى غير عبادة الله سبحانه، وهذه المعاني بأجمعها ترجع الى معنى واحد هو ابتغاء معصية الله سبحانه وهو يؤول الى الفساد المقابل للصلاح فان الله سبحانه بنى تشريعاته على طبق مصالح ومفاسد في الأفعال فلم يحرم إلا ما فيه مفسدة شديدة ولم يوجب إلا ما فيه مصلحة أكيدة، فكل معصية تؤول الى الفساد والخراب والضرر وكل من ابتغى الفساد وأراده فقد إبتغى معصية الله وأرادها وكل من أراد معصية الله قد أراد الفساد والخراب .

ومن هذا البيان يتجلى أن إرادة العلو في الأرض مصداق خاص من مصاديق وألوان إرادة الفساد في الأرض، ولعل وجه التخصيص بالذكر لإرادة العلو هو الاعتناء بأمرها أو لبيان شدة قبحها وعظم مفسدتها أو لغرض التمهيد والتوطئة لذكر العام – إرادة الفاسد- فان الحديث في الآية عن علو قارون واستعلائه.

8- في هذه الآية الشريفة إطلاق في معناها وسعة في مدلولها لكنه قد ورد عليه تخصيصان وتقييدان في موردين:-

المورد الأول: قوله تعالى: (إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً)النساء: 31، ولا ريب في ظهور هذه الآية في مورد الامتنان والتفضل على المسلمين إذا اجتنبوا عن المعاصي الكبيرة الجليلة، يخفف الله عنهم سيئاتهم ومعاصيهم الصغيرة ويدخلهم الجنة بإذنه، وليس هذا إغراء على ارتكاب المعاصي الصغيرة أو استصغاراً لبعض المعاصي أو تسامحاً في شأنها إذ أن نفس الإقدام على المعصية ولو كانت أصغر معصية من دون اعتناء واكتراث بكونها معصية الله هو مصداق للمعصية الكبيرة التي أمرنا باجتنابها، وإنما تريد الآية الشريفة وعد المؤمنين بتكفير سيئاتهم الصغيرة التي لا يخلو منها إنسان لضعفه في نفسه أو غفلته أو جهله بشرط اجتناب كبائر المحرمات وعظائم المعاصي.

المورد الثاني: الآيات العديدة والروايات الكثيرة المروية في كتب الحديث من الطريقين مما دل على ثبوت الشفاعة لمحمد وآل محمد (عليهم الصلاة والسلام) والملائكة ولبعض المؤمنين

ممن شهد بالحق واتخذ عند الله عهداً ورضي الله له قولاً وأذن له بالشفاعة (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) البقرة: 255، وقد اشتهر عن رسول الله (ص) قوله: ((ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)) وهناك روايات متواترة مضموناً دلت على ثبوت الشفاعة لبعض عباد الله من المؤمنين الصالحين حيث يشفعون يوم القيامة عند الله سبحانه وتنفع شفاعتهم وتصير وسيلة لعفو الله سبحانه وغفرانه لمن شفعوا لهم من أصحاب الكبائر.

9- وقد يدعى وقوع تخصيص ثالث في هذه الآية الشريفة التي دلت بوضوح على أن الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم والثواب المستديم لا ينالها من أراد الفساد والطغيان وابتغى الكبرياء والاستعلاء بأن يقال: قد وردت راويات كثيرة جداً صريحة المدلول أو قريبة من الصراحة في أن الاعتراف بولاية محمد وآل محمد (عليهم السلام) توجب الخلاص من عذاب الله وسخطه وناره وجحيمه، مثلاً ورد في الكافي والوافي في أبواب وجوب الحجة ومعرفته وفي باب وجوب موالاتهم والإقتداء بهم والكون معهم بالخصوص روايات كثيرة وبعضها صحيحة السند تفيد هذا المعنى – يعني كفاية محبتهم وولايتهم لنيل الدار الآخرة بل لنيل السعادة العظمى والدرجات العليا في الآخرة- روى سعد بن ظريف عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قول رسول الله (ص): ((من أحب أن يحيى حياةً تشبه حياة الأنبياء ويموت ميتة تشبه ميتة الشهداء ويسكن الجنان التي غرسها الرحمن فليتول علياً وليوال وليه وليقتد بالأئمة من بعده، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي اللهم ارزقهم فهمي وعلمي، وويلٌ للمخالفين لهم من أمتي اللهم لا تنالهم شفاعتي)) .. هذه الرواية ونظائرها يكاد يكون صريحاً في أن مجرد ولايتهم ومحبتهم كاف لبلوغ الدرجات العليا في الدار الآخرة وان كان قد استكبر واستعلى أو أفسد وطغى وارتكب معاصي الله سبحانه حتى العظمى .

لكن هذا وهم فاسد دفعه الأئمة المعصومين (سلام الله عليهم) حيث ورد في المقابل روايات كثيرة يعسر حصرها وجمعها تصرح بأن مجرد الولاية والمحبة لا ينفع وأن مجرد الانتساب الى أهل البيت بولاء أو نسب أو نحوهما لا يجدي ما

لم ينضم إليه العمل الصالح والورع عن محارم الله وعن الفساد والإفساد في الأرض، وقد أثبت ثقتي الإسلام في كتابي (الكافي) و(الوافي) هذه الروايات ويوجد في غيرهما عدة أخرى وقد تضمنت التأكيدات الكثيرة والتشديدات الكبيرة على عدم الاغترار بالولاية والمحبة من دون ضم طاعة الله والورع عن محارمه والتقوى في السر والعلانية، قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) مخاطباً أحدهم: ((فو الله ما شيعتنا إلا من أطاع الله تعالى، يا جابر أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه)) ونحوهما كثير.

9- ((**والعاقبة للمتقين**)) أي العاقبة المحمودة السعيدة في الدار الآخرة لمن اتقى الله وأطاعه، روى زيد الشحام قال: سعت أبا عبد الله (ع) يقول:- ((عليكم بتقوى الله والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق وحسن الجوار، وكونوا دعاة الى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، وعليكم بطول الركوع والسجود فان أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال: يا ويل أطاعوا وعصيت، وسجدوا وأبيت)).

10- ومن المعاني الجليلة التي تضمنتها هذه الآية الشريفة الإرشاد العملي نحو التواضع حيث أمر الله سبحانه رسوله الكريم (ص) أن يقول ابتداء: (إنما أنا بشر مثلكم)الكهف:110، وأخّر جهة الجلال والعظمة فيه -أعني جهة الرسالة والنبوة- (يوحى إلي) وقد كان رسول الله (ص) قدوة في التواضع إذ كان مع أصحابه وأتباعه كأنه أحدهم لا يمتاز عليهم ولا يعلو ولا يتكبر، كيف؟ وقد حذر هو (ص) من التكبر وأرشد الى التواضع وقال ابنه صادق آل محمد (ع): ((ان في السماء ملكين موكلين بالعباد فمن تواضع لهو رفعاه ومن تكبر وضعاه)) ولابد أن يكون التواضع لله تقرباً اليه .

والروايات في مدح التواضع والحث عليه كثيرة جداً، وقد صح في الخبر الشريف عن أهل بيت محمد (ص): (إن من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس وان تسلم على من تلقى وأن تترك المراء وان كنت محقاً ولا تحب أن تحمد على التقوى)) وقد روى حبر الأمة عبد الله بن عباس (رض) انه كان رسول الله (ص) يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل

الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير، وروي عن نبي الله وحبيبه عيسى بن مريم (عليه السلام) قال للحواريين: لي إليكم حاجة اقضوها لي، فقالوا: قضيت حاجتك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: كنا أحق بهذا منك، فقال: إن أحق الناس بالخدمة العالم إنما تواضعت هكذا لكي ما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم، ثم قال عيسى: ((بالتواضع تعم الحكمة لا بالتكبر، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل)) وقد صح عن مولانا الصادق (عليه السلام) قوله: ((اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)) نسأله تعالى التوفيق لأن نكون متواضعين في جميع شؤون حياتنا في تعلمنا وتعليمنا، في جلوسنا ومجلسنا، في علاقاتنا وارتباطاتنا، في قيامنا وقعودنا، في سلامنا وتحيتنا، وفي باقي مناحي حياتنا انه نعم المولى والموفق والمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

1- هذه الآية الخامسة من سورة البينة وهي سورة حاسمة تبين أصول الرسالة المحمدية وما أريد من أهل الكتاب ومن المشركين وهي تدعوهم الى الإيمان -عن حجة وبينة- برسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وتأمرهم بالعبادة لله خالصة له سبحانه، ثم تتحدث عن الجزاء: فمن كفر تعده بنار جهنم خالداً فيها، ومن آمن وعمل صالحاً تعده بجنة عدن ورضوان من الله اكبر. وهذه الآية الشريفة تتكفل بيان أصل من أصول الرسالة المحمدية وهي أن يعبدوا الله مخلصين له الدين والعبادة.

2- المراد من عبادة الله سبحانه –والتي هي الغاية من الأمر الربوبي والأصل الثاني من الرسالة المحمدية- هي السلوك إليه سبحانه والتذلل له والانصياع لأوامره ونواهيه، فان العبادة على ما يظهر من وضعها اللغوي هي السلوك والتذلل فيقال: طريق معبدة أي مسلوكة ومذللة، وعبادة الله: السلوك إليه والسير على نهجه ودينه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه سواء تطلبت قصد التقرب أم لم تتطلب وهذا هو التذلل لله

وهي العبادة له، وهي مساوقة في معناها لدين الله سبحانه وللعمل الصالح والإحسان الذي أمرنا به.

3- (مخلصين له الدين) الإخلاص في الدين هو تنزيه الدين والعبادة والتبعية لله في العمل عن غير الله سبحانه بأن يقصد بأعماله جميعها رضا الله سبحانه دون سواه، ولو رجعنا الى كتب اللغة وجدنا ان إخلاص الدين لله يعني تمحيض الدين وتخليصه وتصفيته من شوائب الرياء يقال (أخلص دينه لله) أي امحضه وترك الرياء في دينه، وقد قيل: إن الإخلاص أن تستوي أعمال العبد في الظاهر والباطن فلا يظهر انه يعمل لله سبحانه وفي الواقع هو مشرك بالله غيره يرائي غير الله أو يرجو السمعة عند بعض مخلوقات الله سبحانه، فالإخلاص ضد الرياء والسمعة حيث إن الرياء أن يعبد الله ويطيعه ليرى الناس منه ذلك وليجلب أنظارهم إليه ويعتقدوا فيه خيراً ليس فيه واقعياً، والسمعة أن يعبد الله ويعمل صالحاً رجاء أن تحدث له سمعة وجاه عند الناس وقد نهينا في آيات كثيرة عن الشرك بالله في الدين والعبادة والعمل الصالح (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)الكهف:110 (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)يوسف: 106، كما ورد في الروايات التعبير عن الرياء بالشرك، قال رسول الله (ص): ((ومن عمل عملاً مما أمر الله به مراءاة للناس فهو مشرك ولا يقبل الله عمل مراء)) وقد فسر أبو عبد الله الصادق آية (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) بقوله: ((الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه)) وقد سئل رسول الله (ص) فيم النجاة غداً؟ فقال (ص): ((إنما النجاة في أن لا تخادع الله فيخدعكم..) قيل له: فكيف يخادع الله؟ قال: ((يعمل بما أمره الله ثم يريد به غيره، فاتقوا الله في الرياء فانه الشرك بالله، ان المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر حبط عملك وبطل أجرك فلا خلاص لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له)).

اذن المرائي المشرك هو الذي يطلب بعمله الصالح إظهار تدينه للناس منضماً إلى اظهاره لله وقصده له سبحانه، فلو كان لا يقصد بعمله إلا الناس وإلا إظهار الصلاح والتدين أمام الناس

من دون قصد التقرب الى الله فهذا منافق وفي الدرك الأسفل من النار قال الله تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً) النساء: 142 .

4- ظاهر الآية الشريفة وجوب اخلاص الدين وتخليص العمل من الرياء والسمعة وشوائب النية المفسدة فيكون طلب الرياء وقصد السمعة الجيدة عند الناس عملاً محرماً ومعصية كبيرة وهو الذي دلت عليه الروايات العديدة وقد عبرت بعضها عنهما بالشرك كما تقدم .

واذا كان العمل حراماً لا يصلح التقرب به الى الله جل شأنه فانه لا يتقرب الى الحبيب بما يبغضه ويكرهه وقد دلت بعض الروايات على ذلك حيث سبقت رواية مسعدة عن الباقر (عليه السلام) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قال: (إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء يا كافر يا فاجر يا غادريا خاسر حبط عملك وبطل أجرك) .

وروى البرقي عن الصادق (عليه السلام) قول الله جل وعلا في الحديث القدسي الشريف ((يقول الله عز وجل: أنا خير شريك، فمن عمل لي ولغيري فهو (أي العمل الذي أشرك به مع الله غيره) لمن عمله: غيري)) ، وروى مسلم في الصحيح عن النبي (ص) قال: قال الله عز وجل: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه برئ فهو للذي أشرك).

5- الرياء المبغوض المبطل للعمل الصالح الموجب لانقلابه الى عمل سئ هو ان يدخل في قصده رضى غير الله ورؤية غير الله سبحانه حين العمل أو قبله مقارناً له بحيث يكون لرضى غير الله مدخلية في تحريكه نحو العمل وإيجاده، وأما الرياء بعد العمل وبعد انتهائه واكتماله بحيث كان العمل بتمامه خالصاً لله ولم يلاحظ فيه إلا الله سبحانه –فهذا لا يقتضي بطلان العمل لوقوعه صحيحاً خالصاً صافياً عن ملاحظة غير الله سبحانه، نعم هو خلاف الأولى والأفضل حيث إن الأولى لمن عمل صالحاً أن يخفيه ويكتمه لا أن يعلنه أمام الملأ والناس مادام عملاً صالحاً قصد به وجه الله خالصاً، نعم لو اطلع غير العامل على العمل من دون إرادة –سواء اطلع أثناء العمل أو

علم به بعد انتهاءه بحيث فرح العامل وسر بإطلاع الغير عليه وصار له صيت حسن به- فلا بأس به روى زرارة في الصحيح عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) سألته عن الرجل يعمل الشئ من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك قال: ((لا بأس، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير اذا لم يكن صنع ذلك لذلك)) أي إذا لم يكن صنع الخير واتى بالعمل الصالح لأجل رؤية الناس أو لأجل السمعة وليظهر له الخير عند الناس، روي عن أبي ذر (رحمه الله) قوله لرسول الله (ص): الرجل يعمل العمل لنفسه ويجبه الناس قال: ((تلك عاجل بشرى المؤمن)) ونحن نعرف إن الإنسان على نفسه بصيرة وهو مطلع على ما يدور في خلده ويجول في باطنه هل عمل لله وحده ثم اطلع الغير فسره ذلك؟ أم عمل لله وأتى بالخير حين العمل قاصداً به ربه وغيره؟ نسأله تعالى العصمة والخلاص والإخلاص وتصفية الأعمال من شوائب السمعة والرياء انه سميع مجيب .

6- ينبغي أن يختبر الإنسان نفسه في هذا المجال خشية فساد أعماله وحبط أجره، فيراقب نفسه هل تتوفر فيها علامات المرائي التي أرشدنا إليها أمير المؤمنين (ع) فيما روي بطريق معتبر عنه: (ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس ويكسل إذا كان وحده ويحب أن يُحْمَدَ في جميع أموره) وهنا مزال الإقدام فليجاهد المرء نفسه ويختبر قصده ليميز حاله هل هو في صف المرائين والمشركين أم في صف الصالحين المتقين، واذا وجد نفسه –لا سمح الله بذلك- في عداد المرائين الواجدين للصفات الثلاثة يبدأ بالعلاج: التوبة أولاً ثم محاربة النفس الأمارة ومجاهدتها بالجهاد الأكبر حتى يصل الى مرحلة يتيقن فيها استواء السر والعلن عنده ومساواة الظاهر للباطن وصفاء أعماله من شوب الرياء وقصد السمعة عند الناس وإلا فمن كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه عند الله كما قال باقر آل محمد (ع) .

7- وبعد صلاح السر واستوائه مع العلن وبعد تساوي الظاهر والباطن وبعد التوبة عما مضى لا بد من أن يقضي أعماله ويتداركها مما فات وبطل بالرياء والسمعة، فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له كما ورد في الحديث الشريف وان الله يحب التوابين كما بشر سبحانه في قرآنه، لكن التوبة ترفع

العقاب وتزيل الإثم وحسب ولا تصحح العمل الذي مضى باطلاً بسبب الرياء أو وقع فاسداً بقصد السمعة فيه بل يبقى باطلاً محتاجاً الى تدارك وقضاء .

8- هذه الآية الشريفة سبقتها آية (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) أي الحجة، وبمقتضى قرينة السياق قد يقال هذه الآية خوطب بها الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فلا تشمل المسلمين بخطابها، لكن هذا وهم فاسد لا يصح صدوره من عارف فان كتاب الله العزيز وقرآنه المجيد دستور عمل وكتاب رسالة ليس كتاب قصة ولا موسوعة تاريخ تعنى بأخبار السابقين أو تخاطب خصوص الأمم الماضية بل هو كتاب رسالة وتشريع ولذا كانت آياته حتى القصص والخطابات المتعلقة بمن مضى يراد منها استحصال حكمة واستنتاج عبرة، يضاف الى ذلك قوله تعالى: (وذلك دين القيمة) بعد قوله: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاة) فان هذا التعقيب يؤكد استمرار الأمر وامتداده فان دين محمد (ص) هو دين القيمة أي دين قائم بالحق ودين الاستقامة، يضاف الى ذلك عدة من الآيات والروايات تأمر بإخلاص الدين لله سبحانه قال تعالى: (إِنَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ {2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)الزمر:2 .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

1- هذه الآية الخامسة بعد المئة من سورة النحل والظاهر نزولها في مكة المكرمة عندما اتهم مشركو العرب رسول الله (ﷺ)بأنه يتلقى العلم والمعرفة والقصص والحكايات وأخبار الكتب السابقة والأمم السالفة من رجل أعجمي قصداً منهم الى إنكار نبوته (ﷺ)وتكذيبه في دعوى رسالته .. وقد

جاءت في هذه السورة عدة آيات تفضح هؤلاء المنكرين وتثبت كذبهم بالحجة والبرهان قال تعالى: (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) هذا تقرير التهمة عن هؤلاء الجماعة ثم قال تعالى مجيباً: (لسان الذين يلحدون إليه أعجمي) أي لسان البشر الذي يميلون إليه وينسبون علوم محمد (ﷺ) إليه وانه أخذها منه ثم نسبها الى الله (جل وعلا) لسانه أعجمي وهذا القرآن لسان عربي مبين قد تحدى فصحاء العرب بفصاحته وبلاغته وعجزوا عن أن يأتوا بمثله .. ثم قال سبحانه (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعني لست أنت الذي تكذب وإنما هم الكاذبون وهم الذين لا يؤمنون بآيات الله ولا يصدقون دلالات الله، وهذا تنزيه لنبيه (ﷺ)عن افتراء الكذب عليه سبحانه وتبرئة له من تهمتهم وإرجاع التهمة عليهم وإلقاؤها على أشخاصهم حيث إنهم لا يؤمنون بآيات الله ولا يردعهم وازع الخير عن تكذيب رسول الله (ﷺ)ثم أكد ذلك بقوله: (وأولئك الكاذبون) يعني ان صفة الكذب ثابتة فيهم وأنت براء.

2- هذه الآية من حيث الجوهر الكامن في مضمونها تستبطن مبغوضية الكذب ورذالة صفته وخسة فاعله وتدل على أن من يفتري الكذب ويبتدعه لا يؤمن بآيات الله، فمن كان يؤمن بالله لا يقدم عليه وقد روي في (تفسير العياشي) عن أبي الحسن الرضا(عليه السلام)انه استشهد بهذه الآية تطبيقاً على رجل كذاب جاء ذكره في مجلسه الشريف حيث يظهر من الرواية انه اعتبر الكاذب ممن لا يؤمن بآيات الله.

وروي في بعض التفاسير إن رسول الله (ﷺ)سئل: هل يزني المؤمن؟ قال: قد يكون ذلك، ثم سئل هل يسرق المؤمن؟ قال: قد يكون ذلك، ثم سئل: هل يكذب المؤمن؟ قال (ص): لا، ثم اتبعها رسول الله (ص) بقراءة قوله تعالى (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله).

3- والآيات الذامة للكذب والأمرة بالصدق والداعية إليه كثيرة جداً لا يسع المقام استعراضها بل كل الديانات السماوية دعت الى الصدق وزجرت عن الكذب، كيف لا؟ وقد استقر في العقول وارتكز في أذهان العقلاء سقوط الكاذب عن الأنظار حتى عند الكاذبين، وجلال الصادق في أعين الناس حتى عند من لا يصدق، وعليه تتوقف صدق الرسالة السماوية؟! وقد صدع

الأنبياء والأوصياء بالحث على الصدق والتنفير من الكذب عملاً وقولاً، سلوكاً وحديثاً فكانوا القدوة ونسأل الله أن نكون الأتباع، والروايات الواردة عن أهل بيت الرحمة في ذم الكذب وما فيه من الآثار الوضعية السيئة والآخروية الشديدة فوق التواتر الكثير، نكتفي تبركاً بواحدة من الروايات المعتبرة سنداً والواضحة معنىً قال مولانا الباقر (عليه السلام) ((ان الله عز وجل جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب)) رواه الكليني في (الكافي) والشيخ الصدوق في (عقاب الأعمال) ولعله لهذه الرواية وأمثالها أفتى الفقهاء (رض) بأن الكذب معصية عظيمة وكبيرة من الكبائر.

4- يظهر من بعض الأخبار حرمة الكذب في الوعد ووجوب الوفاء به وقد مدح الله سبحانه نبيه اسماعيل بصدق الوعد قال تعالى (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً)مريم: 54، وقد قدم سبحانه صفة الصدق في الموعد على صفة الرسالة والنبوة ولعله للإشعار بأن هذه الصفة الحسنة العالية أهّلته لتسنم منصب الرسالة والنبوة وقد ورد في الخبر الصحيح عن الإمام الصادق (إنما سمي إسماعيل (عليه السلام) صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكان فانتظره سنة فسماه الله صادق الوعد، ثم إن الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظراً لك) رواه الشيخ الكليني في أصول الكافي، وروى الشيخ الصدوق في علل الشرايع وعيون أخبار الرضا (عليه السلام) عن الإمام الرضا (عليه السلام) بمضمون مقارب لهذا المضمون كما روى الشيخ الكليني في (أصول الكافي) بسند معتبر عن الصادق (عليه السلام) انه قال: ((عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ ولمقته تعرض)) أي لغضب الله عرّض نفسه وهذا يكشف عن مبغوضية (خلف الوعد) وذلك قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ {2} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)الصف: 3-4، فجعل الوعد كالنذر في كونه التزاماً شديداً مسؤولاً عنه يوم القيامة لكن يختلف عنه في عدم ثبوت الكفارة عند خلفه مع ثبوت كفارة خلف النذر في عالم الدنيا .

5- ويتضاعف القبح والمبغوضية والعقاب على الكذب إذا انضم إليه اليمين وقد حذرت منه الآيات والأخبار والفتاوى لاسيما في التعامل والاتجار وفي الشهادة والقضاء، قال الله

تعالى مادحاً للمؤمنين (**والذين لا يشهدون الزور**)الفرقان:72، فجعل عدم شهادتهم بالكذب والزور من الصفات الحسنة المستحقة للمدح والإجلال.. وقد وردت الروايات في ذم الحالف بالله سبحانه لترويج سلعته وتجارته بل ورد الذم على الحلف في البيع والشراء وان كان صادقاً، قال الإمام الكاظم في ما رواه الشيخ الكليني (قده) في كتاب المعيشة ((ثلاثة لا ينظر الله لهم: أحدهم رجل اتخذ الله عز وجل بضاعة لا يشتري إلا بيمين ولا يبيع إلا بيمين)) وأشد أنواع الكذب: الكذب على الله أو على رسوله وقد روي من الطريقين التهديد والوعيد عليه وانه يتبوء مقعده من النار، والكذب على الله أ و على رسوله هو الإخبار عنه بخبر لم يقله ولم يصدر منه .

6- وقد صرحت بعض الأخبار بحرمة الكذب في الجد والهزل روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: ((لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجده)) أي حتى يداوم على ترك الكذب وحتى يستمر عليه فيصير الصدق عادته وديدنه في كبار الأمور وصغائرها وبه يستقر الإيمان في قلبه ويجد طعمه في باطنه، روى الشيخ الصدوق في (الخصال) بسنده ان رسول الله (ص) قال: ((أنا زعيم -أي كفيل- ببيت في ربض الجنة –أي نواحيها- وبيت في وسط الجنة وبيت في أعلى الجنة لمن ترك المراء وان كان محقاً ولمن ترك الكذب وان كان هازلاً ولمن حسن خلقه)).

7- وليست التورية من الكذب المبغوض وذلك معنى التورية ان تقصد باللفظ الذي تتفوه به معنى صحيحاً مطابقاً للواقع صادقا ولكن يفهم المخاطب به معنى آخر خلاف ما قصده المتكلم وخلاف الواقع كما لو قال أحد لغرض إنكار شئ (علم الله ما قلته) وأراد بـ(ما) الموصولة أي (علم الله الذي قلته) ولكن المخاطب يفهم النفي: انه ما قال ذلك القول، ويمكن توضيح التورية بنحو آخر:- أن يلقي الإنسان كلاماً ويفهم العقلاء من أهل تلك اللغة معنى لكن المتكلم لا يقصده ولا يريده وإنما يقصد معنىً آخر من كلامه من دون نصب قرينة على مراده فيقع السامع في الخطأ، هذا هو معنى التورية التي تتضمن معنى الإخفاء والستر حيث أخفى المتكلم مراده الواقعي فتخيل السامع انه أراد المعنى الآخر المتبادر من سماع مثل

كلامه، وقد روي عن مولانا الصادق (عليه السلام) انه سئل عن الرجل يستأذن عليه فيقول لجاريته قولي (ليس هو ها هنا) أي عند باب الدار فأجابه (لا بأس، ليس بكذب).

8- وقد رخص الشرع في الكذب عند الضرورة فان الضرورات تبيح المحظورات وما من شئ حرمه الله إلا وقد أحله لمن اضطر إليه كما ورد في الخبر بل ورد في الأخبار الكثيرة جواز الحلف كذباً لدفع الضرر عن البدن أو عن العرض أو عن المؤمنين .

9- وهكذا ورد في بعض الروايات الترخيص في الكذب لأجل الإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين قال الله في محكم كتابه الكريم (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)الحجرات:10 وورد في بعض الأخبار المعتبرة إن (المصلح ليس بكذاب) يعني ينزل منزلة الصادق وثواب المصلح وقد سئل الصادق عن معنى الإصلاح بين الناس فأجاب: (تسمع من الرجل كلاماً يبلغه فتخبث أو تخبث نفسه فتقول سمعت فلاناً قال فيك من الخير كذا خلاف ما سمعته).



بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

1- هذه الآية العاشرة بعد المائة من سورة الكهف بها ختام السورة وقد تضمنت ما لم تتضمنه غيرها من آيات الله فقد تضمنت الإشارة والتذكير بأصول الدين: التوحيد والنبوة والمعاد، فأمره تعالى لنبيه **(**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) تذكير بنبوته (ﷺ)ومؤدى الوحي (انما الهكم إله واحد) وهو تذكير بتوحيد الله سبحانه وما رتبه على التوحيد: (فمن كان يرجو لقاء ربه) وهذا تذكير بالمعاد والرجوع الى الله .. كما تضمنت الآية درساً أخلاقياً بليغاً في التواضع والتوحيد في العمل الصالح وقد صدق رسول الله (ﷺ)حينما قال: ((لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم)) فان هذه الآية جمعت ما لم تجمعه غيرها من أصول الدين وأصول الأخلاق الفاضلة.

2- أمر الله سبحانه نبيه (ﷺ) أن يقول (إنما أنا بشر مثلكم) لا امتاز عليكم ولا أعلو عليكم إلا في جهة الوحي والرسالة وهذا تواضع جميل علمه الله نبيه الكريم وعلمنا ان الإنسان مهما علا فهو إنسان وهو بشر مقيد بقيود المادة يأكل ويمشي ويسير في الطرقات تؤلمه البقة وتنتنه العرقة وتقتله الشرقة وقد استثنى الله سبحانه جهة العلو والعظمة (**يوحى إلي**) لما كان عليه من الصفات العظيمة والقريبة الى رضوان الله بحيث أهّلته للرسالة والوحي إليه.

3- ثم علمه سبحانه عمدة ما يوحى إليه وأساسه وركيزته وهو (إنما إلهكم اله واحد) يلزمكم توحيده ونفي الشريك عنه –أي يلزمكم توحيده في الاعتقاد القلبي بأن لا تعتقدوا وجوداً كاملاً يشارك الله في ألوهيته، كما يلزمكم توحيده في العمل أن لا تعملوا عملاً صالحاً تشركوا بالله فيه وتعملوه لله ولغير الله فتكونون مشركين في عبادة الله سبحانه، ولأهمية التوحيد في العمل أكده سبحانه بالتفريع فقال:-

4- (فمن كان يرجو لقاء ربه) فرّع سبحانه على التوحيد العمل الصالح الخالص لله وقد صح في الاعتقاد إن الله روح مجرد عن الجسم فلابد من تأويل الآية الكريمة برجاء لقاء رحمة الله

ومظاهر ملكوته وسلطانه يوم العود والرجوع للحساب وحينئذ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً.

والعمل الصالح تعبير عن العمل الجميل الذي يرضى به الله أو يأمر به سبحانه ولما كان العمل قابلاً لأن يؤتى به لله وحده وان يؤتى به لله ولغيره من خلقه أمر بإخلاص العمل وتصفيته من الرياء واراءة غير الله.

5- وقد تكرر في الكتاب العزيز التحذير من الرياء والأمر بإخلاص العمل لله وهذه الآية من أبلغ الآيات في ذلك وأجمعها وأعمها فقد قيدت العمل الصالح الذي يرجى به لقاء الله ويراد به رضوانه وثوابه بأن يكون خالصاً لله من إشراك غيره به فقد روى الفريقان أن رسول الله (ص) قال: ((ان ربكم يقول: أنا خير شريك فمن أشرك معي في عمله أحداً من خلقي تركت العمل كله ولم أقبل إلا ما كان لي خالصاً)) ثم قرأ رسول الله (ﷺ) هذه الآية الكريمة (فمن كان يرجو...) .

وهذه الآية عامة شاملة لكل عمل غير خالص النية فمن صلى مراءاة لغير الله فهو مشرك ومن صام مراءاة لغير الله فهو مشرك ومن أنفق زكاته أو خمسه أو نحوهما من العبادات المالية مراءاة لغير الله فهو مشرك ومن جاهد في سبيل الله مراءاة لغير الله فهو مشرك ومن طلب العلم والفقه مراءاة لغير الله فهو مشرك ومن قرأ القرآن أو ذكر الله أو صلى النافلة مراءاة لغير الله فهو مشرك وقد خاف رسول الله (ص) على أمته هذا الشرك قال: ((هو أخوف ما أخافه على أمتي)) وقال: ((هو فيكم أخفى من دبيب النمل)) وروي في صحيح مسلم ان رسول الله (ص) قال: ((قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)) وروي في سنن ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري: خرج علينا رسول الله ونحن نتذاكر الدجال فقال: ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيخ الدجال)) فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل)) وسئل رسول الله (ص) عن الشهوة الخفية فقال: ((هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه)).

6- ينبغي التفريق بين الرياء والسرور بالعمل فان الرياء هو أن يتحرك بعمله من منطلق رؤية الغير وملاحظة غير الله بعمله في بدأ العمل أو في أثنائه فيشوب عمله برضى غير الله ويخلط قصده ويشوه عبادته بطلب رضوان غير الله بحيث يكون داعياً الى العمل أو محركاً نحو تحسين العمل. لكن قد يعمل الإنسان عملاً صالحاً خالصاً لله بأن لا يدعوه الى العمل رؤية أحد وإظهار نفسه بصورة العبد الصالح ثم يطلع احد على عمله فيسره ذلك ولا بأس بسروره هذا وقد سئل الإمام الباقر (ع) عن الرجل يعمل الشئ من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك –أي إطلاع الغير علی عمله الصالح- قال الإمام (عليه السلام): ((لا بأس ما من أحدٍ إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك)) وقد قال الله (بل الإنسان على نفسه بصيرة)القيامة: 14، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا لا يريدون به ما عند ربهم يكون دينهم رياءً لا يخالطهم خوف يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم)) فعلينا ان نحذر الرياء في جميع أعمالنا وأن نكون يقظين في مقاصدنا ونوايانا وان لا يخدعنا الشيطان فنشرك مع الله غيره في عمل أو عبادة فنسقط من رضوان الله ونبتعد عن طريق أولياء الله.

وقد سئل الصادق (عليه السلام) عن قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) هود: 7 قال: ((ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة)) وهي ان يصدق في نيته فيتقرب الى الله دون سواه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾

1- هذه الآية الثالثة والآية الرابعة بعد المائة من سورة الكهف وقد وقعتا عقيب آيات تحدثت عن بعض أحوال الذين

كفروا في الحياة الدنيا وعن جزاءهم في الحياة الأخرى، وقد حسب كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين استنتاج متفرع على ما تقدم من بيان بعض أحوال الذين كفروا فزعموا اختصاصهما بالكافرين أو بخصوص اليهود والنصارى، وقد يؤيد هذا الفهم بما جاء عقيب هاتين الآيتين من قوله تعالى: (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) أي كفروا بالنبوة المدعومة بعرض الآيات البينات (ولقائه) أي كفروا بلقاء ربهم وانكروا العودة والقيامة التي يحصل فيها لقاء الله سبحانه والإطلاع على مظاهر ملكوته وسلطانه وقدرته على الحساب والجزاء (فحبطت أعمالهم) وفسدت واضمحلت وضاع ثوابها وأجرها (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) ثم قال سبحانه:(ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً) .

2- والظاهر من هاتين الآيتين الشريفتين هو العموم وسعة المدلول ولا موجب للاختصاص المزعوم، فانه نداء وخطاب من الله سبحانه لحبيبه ورسوله محمد (ﷺ) أن يسأل أمته وأصحابه سؤال تعليم وإرشاد لأخسر الناس أعمالاً، ثم يجيبهم بالجواب الوسيع: إن الأخسرين أعمالاً هم الذين سعوا في الحياة الدنيا وعملوا واجتهدوا فيها لكن ضل سعيهم واضمحل عملهم وضاع اجتهادهم مع أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وأنهم يعتقدون أنهم أجملوا عملاً وأتقنوا سعياً، وهذا البيان الربوبي يعم ويشمل بسعته ووسعته كفار أهل مكة وفجرة قريش واليهود والنصارى وأهل الكتاب ومشركي مكة وعبدة الأوثان ونحوهم ممن ذكر عنوانه في كتب التفاسير كما يعم ويشمل غيرهم ممن سعى في الحياة الدنيا وضاع سعيه وضل اجتهاده فلم يصب الحق ولم يدرك القبول، بل يعم بعض الطوائف أو الأشخاص ممن أسلم لله لكن أفسد عمله وحبط أجره بالرياء في العمل أو العجب بالنفس مثلاً، فالآيتان الشريفتان تجري على جميع الناس الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم أحسنوا صنعاً في الحياة الدنيا، وقرينة سياق الآيات السابقة واللاحقة تقتضي شمول الكفار لكن لا تختص بهم .

3- قد يقال: إن الآية المتعقبة لهاتين الآيتين وصف وإشارة إلى الذين ضل سعيهم وخسروا أعمالهم فتوجب الاختصاص

بالذين كفروا بآيات ربهم ولقائه يعني أنكروا النبوة وجحدوا العودة، ويؤكد الاختصاص بما تعقبها من الآيات.. لكنه وهم وضعف نظر فان غير الكافرين والمشركين ممن اظهر الإسلام إذا عمل عملاً يوجب ضلال سعيه وخسران عمله يدخل تحت الآيتين الشريفتين إذا انطبق عليه وصفها بأن رائى في أعماله الصالحة أو أعجب بنفسه وعمله وانه يعمل الخير والصلاح فهو يحسب انه أحسن صنعاً مع انه في الواقع وبنظر الحق جل وعلا هو قد أساء صنعاً وأحبط ذلك الأجر الذي أعده سبحانه لمن أحسن صنعاً وأصلح عملاً، فيكون مشاركاً لأولئك في النتيجة حيث يخسر أعماله ويكون ممن أنكر لقاء الله عملاً وان أقرّ به لساناً ويكون ممن كفر بآيات الله وأنبيائه سلوكاً وان اعترف بآياته لفظاً فلا يقوم له وزن عند الله يوم القيامة ولا يثبت له أجر عند الله يوم المعاد. ولعله يؤيد صحة التعميم ما روي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) من ان أهل هاتين الآيتين هم كفرة أهل الكتاب: اليهود والنصارى وقد كانوا على الحق فكفروا بربهم وابتدعوا في أديانهم فحبطت أعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ثم قال (عليه السلام): ((وما أهل النهروان منهم ببعيد)) أي الخوارج الذين حاربوا في وقعة النهروان، وهو إخبار بالتعميم في الآيتين لمن يجري عليه الوصف وينطبق عليه النعت، وهكذا روي عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) إن مقصود الآيتين (هم النصارى والقسيسون والرهبان وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة وأهل البدع).

4- إذن ظاهر الآيتين الشريفتين بعد التدبر والتفكر فيهما يعطي ان من الناس من يعمل الأعمال التي يحسبها صالحة ويعتقدها حسنة لكن يقرنها باعتقاد فاسد أو كفار أو يقرنها بما يوجب حبط عمله وضياع أجره من رياء أو سمعة أو عجب أو نحوها فيكون من الأخسرين أعمالاً ومن الذين ضل سعيهم وخاب جهدهم وهم يحسبون أنهم أحسنوا صنعاً وأجملوا عملاً وإنما خسروا عملهم وضلّ سعيهم لأجل القرين السوء الذي قرن به عمله وصحب به سعيه، والقرين السوء قد يكون اعتقاداً فاسداً يسري الى العمل الصالح والسعي الحسن فيفسده ويذهب بأجره وأثره، وقد يكون قصداً فاسداً يسري الى العمل

الصالح فيفسده ويحبط أجره وجزاءه نظير الرياء والعجب وطلب السمعة.

والرياء كما تقدم هو أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً لوجه الله ولغرض اراءة الناس وجلب أنظارهم نحوه ليعتقدوا فيه خيراً ليس هو فيه واقعاً حيث يعتقد الناس فيه انه لا يقصد بعمله سوى الله ورضوانه ولا يعتني بسلوكه بغير رضى الله وهو يريد اراءة غير الله سبحانه من مخلوقاته، وسبق الحديث حول الأعمال المشوبة بالرياء والفاقدة للإخلاص.

وطلب السمعة هو أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً لوجه الله ولغرض حصول السمعة والجاه والاحترام لدى الناس كي تعلو رتبته عندهم، وهو من أفراد الرياء والشرك في العمل وقد روي عن علي (ع) بعدة طرق ((اخشوا الهم خشية ليست بتعذير)) يعني ليس فيها تقصير ((واعملوا لله في غير رياء ولا سمعة، فانه من عمل لغير الله وكله الله الى عمله يوم القيامة)).

5- والعجب هو أن يعتقد الإنسان عظمة العمل الذي يصدر عنه جهلاً من أن الله هو المنعم عليه بالقدرة والحول والقوة التي يتمكن بها من إتيان العمل وإيجاده ولولا فضل الله عليه لما قدر على شئ ولو سلب الله عنه القدرة في لحظة شل عن العمل وعجز عن أي شئ، أو غفلة منه عن أن العظمة لله سبحانه ولما أعطى ووهب من الحول والقوة، ولعله الى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله : ((إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله)) وإذا ضعف عقل الإنسان عن التفكير غفل عن الالتفات الى أن الحول والقوة على العمل مستمد من الله سبحانه ثم حسب أن ما أنعمه الله عليه واقعاً هو نعمة له وفضيلة له وحسنة له فيستكثرها ويعجب بها ويحسب انه يحسن صنعاً بذلك وهو قد حبط أجره وأفسد عمله بهذا التصور الناشئ من الجهل أو الغفلة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((حسبك من العلم أن تخشى الله، وحسبك من الجهل أن تعجب بعملك)) **و** ((من دخله العجب هلك)).

6- والعجب من الصفات الرذيلة والنعوت المذمومة القبيحة في الشريعة المقدسة ينشأ من الجهل أو الغفلة عن عظمة المنعم الحقيقي وعظمة نعمته علينا فيسوقه الجهل وتؤدي به

الغفلة الى العجب واستعظام العمل أو استكثار صدوره عنه، ولو نزع ثوب الجهل ورداء الغفلة لعرف أن العظمة للمنعم الحقيقي الذي أنعم عليه بالحول والقوة والصحة والقدرة والمال والمعرفة فصدر عنه العمل ونجا بهذه المعرفة من الوقوع في العجب والغرور والدلال، وقد استفاضت الروايات بذم العجب وتحذير العباد عنه وقد صح عن رسول الله (ﷺ)بعدة طرق انه قال ((ثلاث مهلكات: هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه)) وورد في نهج البلاغة قول علي أمير المؤمنين (عليه السلام): ((سيئة تسوئك خير عند الله من حسنة تعجبك)) وان ((الإعجاب يمنع الازدياد)) فان السيئة التي يندم فاعلها عليها وتسوء نفسه بفعلها يزول أثرها بهذه الندامة والتوبة بل يؤجر على التوبة حينئذ، لكن الحسنة التي يفعلها مقترنة بالعجب يبطل أجرها ويزول أثرها وتمنع من ازدياد القرب إليه.

7- الكبر يختلف عن العجب حيث أن الكبر وإرادة العلو في الأرض تعني أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره ووجوده أعلى وشخصه أعظم لوجود صفة كمال عنده أو لتوفر نعمة لديه أما وجوداً واقعياً حقيقياً أو وجوداً وهمياً يتخيله بنفسه وفكره لا واقع له، ثم تنبثق عن هذه الرؤية المتعالية المتكبرة بعض الأعمال الكاشفة عنها، وأما العجب فهو مجرد رؤية صفة كمال أو نعمة في نفسه وعمله بحيث تعجبه وتغره وتخدعه فيستعظم وجودها عنده ويستكثر صدور العمل عنه من دون أن ينضم إلى تلك الرؤية رؤية نفسه أكبر وأعلى من غيره، وحينئذ يعرف وجه كون الكبر أعظم مفسدة وأشد تهلكة من العجب في نظر الشرع الأقدس.

8- والعجب مهلكة سواء اقترن بالعبادات أم بغيرها من الأعمال الحسنة الصالحة وهو مفسد للعمل وحابط للأجر ومذهب بالفائدة، وقد روي عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) انه سئل عن العجب الذي يفسد العمل فأجاب وقال: ((العجب درجات، منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب انه يحسن صنعاً، ومنها: ان يؤمن العبد بربه فيمن على الله عز وجل ولله عليه فيه المن)) وقد روى رسول الله (ص) المحاورة بين موسى الكليم (عليه السلام) وبين إبليس، قال موسى لإبليس: أخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن ادم

استحوذت عليه (يعني غلبت عليه) قال إبليس: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه، وقال (ﷺ):- قال الله عز وجل لداود: ((يا داود: بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فانه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك)) وحينئذ ينبغي أن يجاهد المؤمن نفسه عن سريان العجب والغرور بالعمل إلى نفسه فلا يعجب بعبادته لو كان من أهل العبادة ولا يعجب بعلمه لو كان من أهل العلم ولا يعجب بماله لو كان من أهل المال ولا يعجب بورعه لو كان من أهل الورع ولا يعجب برأيه لو كان من أهل الاجتهاد والرأي ولا يعجب بجاهه لو كان من أهل الجاه ولا يعجب بولايته لو كان من أهل السلطان ويتذكر قوله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً)النور:21، بل لهلك من أعماله السيئة لو نصب الله عباده للحساب.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾

1- هذه الآية الثامنة والأربعون بعد المائة من سورة النساء، وقد نزلت في المدينة المنورة بعد إستقرار الإسلام وانتشار أصوله وعقائده، وقد أريد منها بيان أحكام الدين وفروعه، وهذه الآية تنتظم وسط تلكم السورة الشريفة.

2- (الجهر بالسوء): يراد بالجهر –على ما يظهر من استعمالاته- الإبداء والإظهار، في مقابل الإخفاء والإسرار والكتمان، والسوء من القول يراد منه كل قول يسوء من قيل فيه ويؤذي من ذكر به ويزعج من قصد به لكونه سباباً وشتماً أو

نميمة وافساداً أو غيبة وانتقاصاً أو بهتاً وافتراءاً أو ذماً وهجاءً.. فكل ذلك داخل تحت إطلاق الآية ومشمول لسعة مدلولها ما دام لم يقيد السوء من القول بنوع خاص أو صنف معين فيعم كل نوع من قول السوء-الذي هو مقابل قول الخير-.

3- (لا يحب الله..) بقرينة ورود الآية في مجال التشريع تكون تعبيراً عن المبغوضية وعدم الإرادة، فان الله سبحانه يتنزه عن الحب المتعارف عند المخلوقات لأنه ينبع وينبثق عن العلاقات الشخصية والنوازع الجسدية الموجودة عند المخلوقات، وإنما حبه سبحانه يكشف عن الصفات الذاتية الكامنة في محبوبه مما فيه صلاح البشر أو فسادهم، فيكون نفي حبه عبارة عن انتفاء المصلحة وثبوت المفسدة في متعلقه، ونتيجة ذلك حرمة الجهر بالسوء من القول ولزوم هجره فانه لا يحبه الله ولا يريده.

4- خص بعض المفسرين معنى الآية الشريفة بأن الله سبحانه لا يحب الشتم، وبعض بأنه سبحانه لا يحب الدعاء على الغير بسوء، وبعض بأنه سبحانه لا يحب أن يذم أحد آخر أو يشكوه الى غيره أو يذكره بسوء، ولا يوجد مبرر لتخصيص مدلول الآية بعد إطلاقها وسعة معناها وشموله لكل ما يصدق عليه انه سوء القول أو القول السوء أو السوء من القول في مقابل قول الخير، فالظاهر من الآية والبادي من معناها هو التعميم والسعة وكل ما قيل يعود إليه ويندرج تحته فيه كمصداق له وفرد من أفراده.

5- (إلا من ظلم): هذا استثناء وتخصيص وتضييق في مدلول الآية بإطلاقه وسعته، فمن وقع عليه ظلم من أحد لا يبغض الله سبحانه أن يجهر المظلوم ويظهر سوء القول في من ظلمه فيجوز له التظلم الى الناس بإظهار ظلامته من ظالمه وإبداء الوقيعة فيه وهتك سره وستره من ظلمه وأذاه إياه سواء رجا امتناعه عن ظلمة مستقبلاً أو اقتضى الانتصار من موذيه أم لا وذلك بمقتضى سعة الاستثناء وإطلاقه، وقد روى العلامة الطبرسي في (مجمع البيان) عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه من نزل ضيفاً عند أحد ولم يحسن ضيافته فلا جناح عليه في أن يذكره بسوء صنعه من تقصير ضيافته وهتك جنابه.

6- (وكان الله سمعاً عليماً): ختم سبحانه بيانه في هذه الآية بالتذكير والتنبيه بأنه يسمع كل قول حتى قول السوء الذي

لا يحبه ولا يريد تحققه وانه يعلم كل شيء حتى ما لا يحبه ولا يريده ولا يرغب فيه، وهذا ايماء الى الرقيب الحافظ والعتيد الحاضر وانه يحفظ ويسجل ويراقب ويدون، نسأله العصمة والانتباه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

1- تنتظم وسط سورة الحجرات هذه الآية الثانية عشرة وقد نزلت كأخواتها في المدينة المنورة لبيان بعض آداب المعاشرة والاجتماع حسب شريعة الله .

2- (إجتنبوا كثيراً من الظن): أمرت بالاجتناب عن كثير من الظن، يراد من أمره (اجتنبوا) اعتزلوا جانباً وناحية بعيدة عن الشئ وهو تعبير متعارف يقصد منه التحذير عن شئ والمنع عنه والإبعاد منه خوفاً من الوقوع في المفسدة وفي الندامة حينما لا تنفع الندامة.

والظاهر أن المراد من الظن المأمور بالاجتناب عنه والابتعاد منه هو ظن السوء بالمؤمنين في مجال العشرة والاجتماع، لا أن يراد منه مطلق الظن حتى ظن الخير بالمؤمنين، وإلا لقال: (كل الظن) أو (جميع الظن) ولم يقل (كثيراً من الظن) أو (بعض الظن أثم).

قال سبحانه (لولا إذ سمعتموه –أي الأفك والكذب الذي رمي به من رمي –ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً)النور: 12، بما أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم من بعض وهم كالجسد الواحد المترابط عبر عن ظن بعضهم ببعض خيراً بظنهم بأنفسهم خيراً فإنهم إخوانهم وأخواتهم وهم كأنفسهم ، وكلمة (لولا) أداة حث وتحضيض تحث على فعل الخير بظن الخير وظن الحسنى في حق من رمي بالسوء والإفك والكذب، وهذه الآية الشريفة يتجلى منها أن ظن الخير بالمؤمنين وحسن الظن بالمؤمنات أمر محبوب لله سبحانه، وحينئذ لا يمكن دخوله في الآية المبحوثة وهو خارج عن (بعض الظن) وكثير الظن الذي جعلته الآية اثماً ومعصية مأموراً باجتنابه .

وقال تعالى (وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً)الفتح:12، وهي تتحدث عمن ظن السوء برسول الله (ﷺ) وبعض صحابته الكرام المنتجبين أي ظن أن يستأصلهم العدو ولا يرجعوا الى أهلهم أبداً، وقد رتب سبحانه على هؤلاء الظانين ظن السوء الهلاك والبور، فكانوا قوماً هالكين بائرين في نظر الله سبحانه لأجل ظن السوء، فهذه الآية توضح إن إساءة الظن بالمؤمنين أو المؤمنات رذيلة تستحق السقوط والهلاك كما أوضحت الآية السابقة ان حسن الظن بالمؤمنين أو المؤمنات فضيلة مرغوبة عند الله سبحانه، ومنهما يعلم أن (بعض الظن) المأمور باجتنابه هو الظن السوء لا الظن الآخر.

3- قال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك عنه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً)) وقال صادق أهل البيت (ع): ((إذا إتهم المؤمن اخاه إنماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء)) أي كما يذوب الملح في الماء. وينبغي أن يعلم أمران:-

الأول- ليس المراد من سوء الظن المذموم بنص القرآن والسنة: الشك الحاصل في النفس من بعض الظواهر المرئية أو المسموعة في الخارج لأنه قد يهجم على النفس هجوماً سريعاً من دون إرادة ولا اختيار فلا يؤاخذ أحد عليه لخروجه عن الاختيار، بل المراد من سوء الظن ميل النفس وترجيحها ما توهمته من تلك الظواهر المرئية أو المسموعة بحيث يستتبع ذلك الميل تغييراً في الجوانح والجوارح وتبدلاً في العلاقة والتصرف مع ذاك المظنون فيه السوء من بعض مظاهره، فينبغي على المؤمن أن يحذر من ميل النفس وما يستتبعه من الاتهام الباطني ويبتعد عن ترتيب آثار ظن السوء لأن الله يقول (اجتنبوا كثيراً من الظن) وأن رسول الله (ﷺ) يقول حسبما رواه الفريقان: (إذا ظننت فلا تحقق) ويقول: (فمخرج المؤمن من سوء الظن أن لا يحققه) أي يعالج سوء ظنه بأخيه المؤمن بالاجتناب عن تحقيقه على صفحات وجهه وحركات جوارحه، لأن المؤمن لا يتهم أخاه خشية ذوبان إيمانه في قلبه، بل يستبدل ذلك بحسن الظن وحسن المعاملة وحمل فعله على خير محمل يمكن حمله عليه.

الثاني- قال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((اذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه خزية فقد ظلم، واذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر)) وقال مولانا الصادق (عليه السلام) ((لا تثقن بأخيك كل الثقة فان صرعة الاسترسال لن تستقال)) وهذه حكمة عالية ونصيحة راقية تريد تحذير المؤمن في الزمان الذي يغلب فيه الفساد على الصلاح وتريد حفظه من صرعة الاسترسال وخطر الغفلة والانجرار وراء العاطفة المسترسلة فيظن الخير كله بشخص لم يختبره أو يعتقد الصلاح كله بشخصٍ لم يمتحنه مع أن الأعم الأغلب في زمانه هو الفساد والانحراف، فلابد من التثبت قبل الترسل ولابد من التأكد قبل الاغترار والوقوع في الهلكة.

وهذه الحكمة لا تنافي ما دلّ من الآيات والروايات على ذم سوء الظن، وذلك لأن هذه الحكمة تريد منك أن يكون حسن ظنك في زمان السوء والفساد مرتكزاً على أساس رصين وامتحان أكيد بعيد عن التبسط والترسل وترتيب آثار الخير والصلاح قبل التوثق والتأكد والاختبار فان صرعة الاسترسال لن تستقال.

4- (ولا تجسسوا): هذه الجملة تنهى عن التجسس وتحرمه على المؤمنين. والتجسس يراد منه التفحص عن عورات المؤمنين والتتبع لما استتر من خصالهم والتطلع لما ستر من أحوالهم والاستكشاف لما كتم من أسرارهم، جاء في الحديث الشريف ((إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تنابزوا وكونوا عباد الله اخواناً)) وورد قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):- ((يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه: لا تتبعوا عثرات المسلمين فانه من تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثراته ومن تتبع الله عثراته يفضحه)).

5- (ولا يغتب بعضكم بعضاً): نهت الآية وزجرت المكلفين عن اغتياب بعض المؤمنين بعضاً، والاغتياب مصدر (إغتاب) والغيبة اسم المصدر له. والذي يبدو –بمعونة كتب اللغة- من لفظ (اغتاب) انه وقع فيه وذكره بعيبه، وقد جاء في الرواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من طرق متعددة تفسيرها بأنها (ذكرك أخاك

بما يكره) وقد اعتمده جمع من علماء الفقه والأخلاق فعرّفوا الغيبة بأن تذكر أخاك بعيب يكره ظهوره أو يكره إظهاره، لكنه تعريف غير واضح الأبعاد ولذا استندنا في تعريفها الى بعض الروايات الأخرى لأنها أوضح معنى وأجلى تفسيراً للغيبة وتمييزاً لها عما يشاركها من البهتان والعيب الظاهر، جاء في بعض الروايات ((الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه)) –أي من العيوب- (والأمر الظاهر مثل الحدة والعجلة فلا)) وقد سئل صادق آل محمد (ص) عن الغيبة فأجاب ((هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل وتبثّ عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حد)) والحد هو العقوبة المحددة المثبتة على بعض الجرائم، وحينئذ يكون تعريف الغيبة بأن يذكر المؤمن أخاه في غيابه بعيب مستور غير ظاهر لعموم الناس – تعريفاً أوضح وأجلى وأقرب الى الواقع.

6- بعد أن نهى سبحانه عن الاغتياب صريحاً أراد سبحانه –انطلاقاً من علمه سبحانه بتسامح كثير في هذه الرذيلة- أن يؤكد النهي ويصور رذالته تصويراً بالغاً فقال: ((أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)) .

وقد شبه الاغتياب بالأكل من الميتة، ولعله لأجل أن المستغاب غائب عن مجلس الغيبة فكأنه ميت وقد أكل المؤمن من لحمه حال كونه ميتاً باغتيابه، كما شبّه سبحانه عرض المؤمن الذي غابه أخاه وانتقصه باللحم لأنه ينقص بالأكل كما ينقص عرض المؤمن باغتيابه، ولم يقل سبحانه (يأكل لحم المؤمن) وقال (لحم أخيه) اشعاراً للمستغيب بأنه قد نال من عرض أخيه المؤمن ولا ينبغي له ذلك لأن المؤمنين أخوة والأخوة بينهما تقتضي التحابب والتوادد لا التباعد والانتقاص، وقد أتى سبحانه بأداة الاستفهام (أيحب..) للإنكار على هذا الجرم والمفسدة الهادمة للمجتمع والموجبة لضعف العلاقة الإيمانية بين المؤمنين، ثم أحب سبحانه تقريرهم واعترافهم برذيلة الاغتياب حيث أنهم يكرهون بحسب الطبع البشري السليم أكل لحم الأخ حين موته فلابد أن يكرهوا ما هو شبهه ونظيره، وهذه وسيلة بديعة من الوسائل العربية البليغة في تركيز المعنى المقصود بيانه وتأكيد المدلول المراد إيضاحه بنحو الإقناع والتقرير والإذعان لا بنحو الجبر والفرض والإلزام وه   و أدب قرآني وخلق

رحماني ينبغي الاستفادة منه والسير عليه والتخلق به في مجال المعاشرة والاجتماع فقد أمرنا رسول الله (ص) بأن نتخلق بأخلاق الله سبحانه كما ورد في الحديث الشريف ((تخلقوا بأخلاق الله)).

7- (واتقوا الله ان الله تواب رحيم): بعد أن أعطى سبحانه إرشاداته في هذه الآية الشريفة أراد أن يختمها بالتذكير بتقوى الله والحث على خشيته ومراقبته في سلوكه وتصرفاته، ثم وعد سبحانه بأنه تواب رحيم لينبه الغافلين والمتمردين والمجترئين على هذه المعاصي وغيرها بأنه تواب يقبل التوبة من عباده إذا صدقوا في توبتهم وانه رحيم بعباده إذا رغبوا في عفوه ورحمته.

8- بعد أن عرفنا معنى الغيبة والاغتياب ينبغي أن يعلم انه لا فرق في حرمتها بين أن يقصد المستغيب انتقاص أخيه وبين أن لا يقصد إلا الإخبار بعيبه ونقصه من دون قصد الانتقاص والإعابة عليه، فانه قد اغتاب أخاه المؤمن في كلتا الحالتين وإن كانت عقوبته وإثمه مع قصد الانتقاص أعظم.

كما لا فرق في صدق الغيبة بين إظهار العيب المستور بلسانه قولاً أو إشارة أو بيده كتابة أو تمثيلاً أو بغير ذلك مما يصدق عليه انه اغتياب وذكر عيوب المؤمن ونقائصه مما قد ستره الله.

9- وقد استثنى الفقهاء من حرمة الغيبة بعض الموارد: منها جواز كشف المظلوم عيب ظالمه وان تستر به فيبين للناس ما أورده عليه من الظلم والأذى، وجوازه مستفاد من الآية السابقة (لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ)النساء:48.

ومنها جواز كشف عيوب المتجاهر بالفسق المعلن بالعصيان المشتهر بالذنب، لأنه قد ألقى جلباب الحياء عن نفسه وفضحها وهتكها بإعلان عصيانه.

ومنها ذكر العيوب الظاهرة غير المستورة إذا كان ذكره خالياً من قصد الانتقاص والاستخفاف وإشاعة العيب عليه أو هتك اعتباره لدى الناس.

ومنها ذكر عيوب المبتدع في الدين، جاء في الخبر الصحيح قوله (ص): ((إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي

فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة - أي الغيبة لهم- وباهتوهم -أي اذكروا لهم معايب مختلقة ليست فيهم - كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة)).

ومنها: غيبة المؤمن بقصد نصح آخر وحفظه وانقاذه من الوقوع في مفسدة أعظم من الاغتياب كما لو خيف على مؤمن –لو لم ينصح بغيبة مؤمن آخر- أن يتضرر من زواج أو في شركة أو في معاملة ضرراً بليغاً فيجوز له أن يستغيب بقصد إنقاذه من سوء خلق من يريد تزويجها أو من خيانة من يريد مشاركته أو سوء معاملة من يريد التعامل معه لكن بشرط أن تترتب مفسدة عظيمة لو لم يستغب وينصح أخاه المؤمن.

10- يظهر من بعض الروايات الشريفة وجوب الدفاع والانتصار للمؤمن المغتاب ولزوم الذب عنه وردّ المستغيب عن اغتيابه، وليس معنى ذلك هو النهي عن الغيبة كمنكر من المنكرات فان النهي عن المنكر واجب مستقل لا يختص بما نحن فيه من المنكر فكما يجب في غير الغيبة يجب فيها بأن ينكر بقلبه ثم ينكر بلسانه ووجهه إذا اجتمعت شرائط وجوبه.

وإنما معنى الرد والنصرة الواجب عند غيبة الأخ المؤمن هو تنزيه المؤمن المستغاب من العيب والنقص الذي إغتيب به، ويختلف هذا بحسب اختلاف أنواع النقائص والعيوب، فاذا إغتيب المؤمن في موضع وجب علينا الإنكار عليه بقلبنا ثم بوجهنا امتثالاً لواجب النهي عن المنكر وقد صح أن رسول الله (ﷺ) أمرنا ان نلقي أهل المعاصي بوجوه مكفهرة وهذا واجب النهي عن المنكر، ووجب علينا ثانياً الذب والدفاع والانتصار لمن إغتيب فان كان اغتيابه بذكر عيب من عيوب الدنيا فننصره بنفي العيب عنه وتنزيه المؤمن منه وأن نقول للمستغيب: العيب ما عابه الله والنقص ما أبغضه الله وحرمه علينا، وان كان اغتيابه بذكر عيب من عيوب الدين والآخرة وجهناه بما يخرجه عن الحرام واعتذرنا عنه بما يقتضيه الحال وبما يوافق الحمل على الصحة.

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾

١ -هذه الآية الثانية عشرة بعد المئة من سورة النساء التي نزلت في المدينة المنورة وتضمنت الحديث في جملة من آياتها عن الأحكام الاجتماعية الإلهية وأومأت الى بعض المظاهر الاجتماعية الفاسدة الموجودة في مجتمع المدينة المشرفة آنذاك كما هي موجودة في كل مجتمع وكل زمان حيث يستفاد من روايات أسباب النزول صدور سرقة من أحدهم ثم بعد انكشافها حاول السارق أن يرمي بها بريئاً فألقى المسروق في بيته وترافع المسروق منه مع ذوي السارق عند النبي الأكرم (ﷺ) وحاولوا أن يستحصلوا من الرسول الأعظم (ﷺ) قضاء على البرئ الذي ألقيت السرقة في بيته ليتوصلوا إلى تبرئة ساحة ابنهم –السارق الواقعي- فأنزل الله سبحانه عدة آيات من قرآنه المجيد لتبرئة البرئ وفضح المجرم، منها الآية التي نحن بصدد الحديث عنها .

٢ -وهذه الآية الشريفة بخصوصها تعطي حكماً اخلاقياً الهياً متعلقاً برذيلة خلقية كانت في نفس المجرم السارق وكان لها الأثر والمدخلية في تحريكه نحو جريمة أخرى وراء جريمة السرقة التي انكشفت وافتضحت وهي جريمة البهتان ورذيلة الافتراء على الغير تبرئة لساحته وتنزيهاً لشخصه .

٣ -(ومن يكسب): الكسب هو أن يعمل الإنسان عملاً يعود عليه بنفع أو يدفع عنه ضرراً أو يجلب له خسارة أو يدفع عنه خيراً، وبعبارة مختصرة: الكسب فعل للإنسان يضره أو ينفعه .

(خطيئة): صيغة مبالغة من الخطأ الذي هو ضد الإصابة، قال الراغب في (مفرداته): (من أراد شيئاً فاتفق منه غيره يقال: إنه أخطأ، وان وقع منه الفعل كما أراده يقال: أصاب) إنتهى، فاذا رميت عصفوراً وأصاب سهمك غيره صدفة واتفاقاً يقال عنك (أخطأت الهدف) وإن رميته وأصبته كما أردت وقصدت يقال: (أصبت الهدف) فلفظة الخطأ تستبطن ضمناً معنى انتفاء القصد والتعمد، ويؤكده مقابلة الخطيئة بالإثم في الآية الشريفة فان الإثم يعني العمل الذي يأتي به الإنسان ويستحق عليه

العقوبة جزاءاً على سوء صنعه فهو يستبطن القصد نحو العمل السيء والعمد إليه.

ولم يقل سبحانه (ومن يكسب خطأ) بل قال (ومن يكسب خطيئة) لما فيه من حلاوة البيان وجمال النظم وللدلالة على أن الفعل الذي كسبه عريق في الخطأ بالغ فيه أقصى مراتبه لكونه جرأة على الله سبحانه وخروجاً عن شريعته المقدسة، لكنه خروج غير مقصود وجرأة غير متعمدة بخلاف الإثم فانه خروج عن الشرع مقصود وانحراف متعمد، وهذه المقابلة مستفادة من العطف بـ(أو) الموجود في هذه الآية.

٤ -(ثم يرم به بريئاً) أي يقذف بما كسبه من الخطيئة أو الإثم بريئاً ويسنده الى من هو نزيه عن ذاك العمل ليتخلص من تبعة ما كسب وينجو من عقوبة ما فعل ويسلم من سوء عاقبة ما صنع .

٥ -(فقد احتمل بهتاناً واثماً مبينا): البهتان هو الكذب والافتراء على الغير بما يوجب بهته عند سماعه أي دهشته وتحيره من عظمة افترائه عليه وباطل ما أسنده إليه وفظاعة كذبته عليه .

والإثم المبين هو الذنب الواضح الذي لا يقبل المناقشة والإشكال في ثبوته .

واحتمال البهتان والإثم المبين يعني تكليف نفسه حملهما، وهنا تشبيه بديع حيث شبه ذنب البهتان ووزر الإثم – بلحاظ ثقلهما على ظهر المذنب- بالجسم الثقيل الذي يحمل فيثقل حامله ويجهده .

وقد أسند الاحتمال إلى البهتان والإثم المبين فقال سبحانه (فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً) وفيه استعارة جميلة حيث عبر عن إسناد العمل السيء الذي كسبه الى غيره بالرمي –وهو لفظ يغلب استعماله في رمي السهم- فكأنه افترض المذنب المفتري على غيره: انه يفتك بالمتهم البريء ويرميه بسهم البهتان فاقتضى أن يحتمل حملاً ثقيلاً يبعده عن الخير مدى حياته ومن دون مفارقة .

٦ -هذه الآية الشريفة تتضمن ذم البهتان بأبلغ ذم وتثبت عليه الإثم المبين والعقاب الأكيد، فالبهتان رذيلة مهلكة للنفس وجريمة مفسدة في الاجتماع ومعصية كبيرة في الشرع، وقد

أراد الله سبحانه تحذيرنا منها وإبعادنا عنها، وقد صح عن رسول الله (ﷺ) من طرق الفريقين أحاديث الزجر عنها والتنبيه على سوء عاقبتها في الآخرة، وأفتى فقهاء الإسلام بالإجماع بحرمتها وكونها من المعاصي الكبيرة، وهي مصداق الظلم الذي يدرك العقل مستقلاً قبحه .

٧ -ورد كلمة (بهتاناً) منكرة منونة لتفيد عظمة الجرم وفخامة الرذيلة، وكفى دليلاً واضحاً من القرآن المجيد على حرمتها وجلالة قبحها وجاء في الخبر الصحيح عن صادق أهل البيت(ع) (من بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه بعثه الله [حبسه الله] في طينة خبال حتى يخرج مما قاله) قال الراوي: وما طينة خبال؟ قال (ع): (صديد يخرج من فروج المومسات) ولا ريب في أن البهتان جهر بالسوء من القول لا يحبه الله وهو اغتياب للمؤمن يبغضه الله وهو ظلم وإيذاء وطعن وافتراء وكذب واتهام وهي مجموعة خصال رذيلة دلّ العقل على قبحها وتكاثرت النصوص المنقولة عن أهل بيت العصمة بتحريمها، والبهتان يحتوي جميع هذه الرذائل القبيحة والمعاصي الكبيرة ولذا تلحق الفاعل في الآخرة جزاء كل واحدة منها .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾

1- هذه الآية الثامنة والخمسون من سورة الأحزاب وهي سورة مدنية تضمنت وصايا متفرقة وقصصاً متعددة، منها هذه الآية الشريفة وقد سبقها قوله سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً) ثم انتقل عنها إلى (إيذاء المؤمنين والمؤمنات) .

وقد قيل إن هذه الآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون علياً (عليه السلام) ويكذبون عليه ويسمعونه كلاماً مؤلماً فنزلت هذه الآية، وهي عامة تجري في جميع المؤمنين والمؤمنات إذا وجه إليهم أحد أذى بقول أو فعل أو حركة أو نحو ذلك .

2- المراد من إيذاء المؤمنين والمؤمنات توجيه كلام أو فعل مؤلم إلى المؤمنين أو المؤمنات أو هو إيجاد فعل أو حركة أو كلام يوجب إيذاء أحد المؤمنين أو إيلام أحد المؤمنات .

3- وقد ميز الله سبحانه بين أذى الله ورسوله في الآية السابقة وبين أذى المؤمنين والمؤمنات في هذه الآية حيث قيدها بقوله سبحانه (من غير ما اكتسبوا) وأطلق الإيذاء المذموم في الآية السابقة، وذلك من أجل أن أذى الله ورسوله على كل حال هو سوء وشر، بل هو كفر يوجب لعنة الله في الدنيا والآخرة والعذاب المهين والعقاب الأليم، لكن أذى المؤمنين والمؤمنات ينقسم إلى قسمين:-

قسم يكون الإيذاء فيه بحق وجزاء لما اكتسب وفعل كإيذاء المجرم وإيلام العاصية بنحو الحد الشرعي أو التعزير والتأديب حسبما هو مقرر ومذكور في كتب الفقه أو إيذاء القاتل بالقتل قصاصاً ونحو ذلك.

وقسم يكون الإيذاء من دون حق أي بلا فعل أو قول اكتسبه المؤمن أو استحقته المؤمنة فهذا إيذاء باطل وحرام وهو مقصود الآية الشريفة .

4- دلت الآية الشريفة على أن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات من دون استحقاق لإيذائهم ومن دون جرم اكتسبوه – هؤلاء يحتملون بهتاناً ويتحملون إثماً مبيناً، وقد سبق توضيح البهتان قريباً وهو أن تقول في الغير ما هو كذب عليه وتطعنه بعيب هو برئ منه وغير موجود فيه ، ولعله سبحانه شبه الإيذاء بالبهتان بلحاظ عدم الاستحقاق فان إيذاء المؤمنين والمؤمنات من غير حق ومن دون اكتسابهم جرماً يقتضيه كالبهتان الذي هو قول المعيب في الغير من غير حق مع براءة المبهوت من ذلك العيب ومع عدم استحقاقه، وقد مرت الآية السابقة بيان

بعض النكات البلاغية الجميلة في مثل هذا التعبير القرآني الجميل، ولا موجب للإعادة .

5- هذه الآية الشريفة نص صريح في حرمة إيذاء المؤمنين والمؤمنات وهو إثم مبين لا ريب فيه، وهذا خلق قرآني عظيم أحب الله سبحانه أن يؤدبنا عليه ويصلحنا به، وندب أوليائه لحث المسلمين عليه، روى المفضل بن عمر الجعفي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) قوله:- ((إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين المؤذون لأوليائي –أولياء الله أحباؤه المتقون ((ان أولياؤه إلا المتقون)) الأنفال: 34 – فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم فيقال:- هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم فيؤمر بهم إلى جهنم)، وقد اشتهر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله الشريف: ((ألا أنبئكم بالمؤمن؟ من إئتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم، ألا أنبئكم بالمسلم؟ من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة)) صدق رسول الله، وقد ورد في الخبر الصحيح قول الصادق (عليه السلام): قال الله عز وجل: ((ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن، وليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن)) .

٦ -ورد حديث قدسي في عدة من روايات أهل بيت العصمة (ع) مضمونه قوله سبحانه (من أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي) ومعنى (أرصد): استعد لمحاربة الله عندما أهان ولي الله، وإهانته نحو من الإيذاء والإيلام.

ومن هو ولي الله؟ أجابنا القرآن المجيد عن هذا السؤال حيث قال في سورة الأنفال:34 ((إن أولياؤه إلا المتقون)) وهي صريحة الدلالة لأنها تنفي وتثبت: تنفي الولاية عن كل أحد، وتثبتها لخصوص المتقين وهم الذين إتقوه وآثروا رضوانه سبحانه على رضى أنفسهم ورغبتها، قال سبحانه –كما جاء في عدة من الأحاديث القدسية- ((وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلوّ ارتفاعي: لا يؤثر عبد مؤمن هواي على هواه في شئ من أمر الدنيا إلا جعلت غناه في نفسه وهمته في آخرته وضمنت السماوات والأرض رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر)) فابشروا -عباد الله المتقين- بوعد الله وهو أصدق الصادقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾

١ - هذه الآية العشرون من سورة الرعد وهي سورة حفلت باستعراض آيات الله وعجائب خلقه ليتدبر أولوا الألباب ويتذكر ذووا العقول منها لغرض ترسيخ التوحيد الفطري في نفوسهم وتمكينه من عقولهم ثم لينتقلوا إلى التوحيد في مجال العمل وإلى الوفاء بعهد الله الواحد الأحد والتحفظ على ميثاقه الذي واثقوه به وعاهدوه عليه.

٢ - هذه الآية تشير إلى هدف الهي عظيم وغرض شرعي كبير من ارسال الرسل وبعث الكتب –ومنها كتاب الله العزيز وقرآنه المجيد- ألا وهو الوفاء بعهده وترك نقض ميثاقه. وقد وردت هذه الآية عقيب قوله سبحانه (إنما يتذكر أولوا الألباب) وهي تفيد معنى حاصراً وتعطي أن التذكر والتفكر خصوصية منحصرة بذوي الألباب وأولي العقول والإدراك، ثم جاءت الآيات اللاحقة ببيان نعوت ذوي الألباب وصفات أولي العقول: وأولها قوله سبحانه ((الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)) وثانيهما ((والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب)) ثم تتوالى الآيات ببيان خصالهم، فيستفاد من هذا السياق أن أولي الألباب هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق فمن لا يفي بميثاق الله أو ينقض معاهدته ليس من أولي الألباب ولا من ذوي العقول والإدراك .

٣ - يظهر من كتب اللغة وقواميسها أن المراد من العهد والميثاق معنى واحد ومدلول فارد: ألا وهو الأمر المحكم القوي الشديد، وأن المراد من الوفاء ما هو مقابل الغدر وضده تقول (أوفاني غريمي حقي) أي أتمه علي، وتقول: (أوفى الكيل) أي أتمه ولم ينقص منه، وتقول (أوفيت العقد) أي أتممته وأكملته ولم أنقصه أي أبقيته على إبرامه وإحكامه ولم أبطله، ومعنى ((أوفوا بالعهد)) أي أتموا ما أحدثتموه من العهد واحفظوا ما أوثقتموه من الميثاق وداوموا على إحكام ما أعطيتموه من الالتزام، وحينئذ يكون معنى نقض الميثاق هو إفساد ما أبرمه من الميثاق المحكم وهدم ما شده وأحكمه من العهد المبرم .

٤ - أطلقت الآية الشريفة (عهد الله) و(الميثاق) ولم تقيدهما بعهد معين وميثاق مخصوص فالظاهر منها إرادة ذلك الميثاق العظيم والعهد الكبير الذي أخذه الله سبحانه على جميع عباده بعد أن أشهدهم على أنفسهم وأقرّهم على أرواحهم ((ألست بربكم، قالوا بلى)) الأعراف: 172. أي بلى شهدنا بربوبيتك والوهيتك ووحدانيتك ونحن عبادك ولذا ترى كل مولود في عالم الدنيا يولد على تلكم الفطرة الموحدة والخلقة المعترفة ((فطرة الله التي فطر الناس عليها)) الروم: 30 ، إنها فطرة التوحيد التي فطر الناس عليها بعد إقرارهم بها وشهادتهم عليها وإذعانهم لها، لكنهم بعد تكامل حواسهم وترقي مدركاتهم وتوجه التكليف إليهم وتسرب الشبهات لأذهانهم ينقسمون إلى طائفتين: طائفة تحافظ على العهد وتدوم عليه في مجال السير والسلوك والعمل، وطائفة تنقض العهد وتفسد الميثاق وتنحرف عن جادة الرحمن وتسلك عبادة الشيطان فأراد سبحانه من عباده أن يذكروا ويتذكروا ما عاهدوا الله وما احكموا له من الميثاق إن كانوا من ذوي الألباب.

وهذا المعنى الوسيع الذي استظهرناه مع غض الطرف عما قيل في تفسير الجملتين في الآية الشريفة في بعض كتب المفسرين – هذا المعنى هو الذي أراده حبر الأمة عبد الله بن عباس (رض) حينما فسر الآية- حسبما نقل عنه- بقوله: (الذين يوفون بعهد الله: يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى) .

إذن ظاهر الآية الشريفة –وهي وصف مختص بذوي الألباب- تذكير الخلق من ذوي الألباب بضرورة الوفاء بالعهد الذي أبرموه لبارئهم والميثاق الذي أحكموه لفاطرهم، فانه –بعد إطلاق العهد والميثاق- ليس يوجد عهد أو ميثاق يصح التعبير عنه بهذا النحو من الإطلاق والسعة أوضح من ذلك العهد والميثاق الذي أشرنا إليه وأشار إليه سبحانه في سورة الأعراف:172 .

٥ - تكرر في الكتاب المجيد الحث على الوفاء بالعهد والنهي عن نقض الميثاق بما يقرب من ثلاثين موضعاً أو يزيد، وهي تأكيدات على التذكر -لمن كان له عقل يفكر به ولب يدرك

به- لعهد الله وميثاقه، لينعكس على السلوك العملي بتمثيل الربوبية له سبحانه ولبس زي العبودية منا، كيما يتحقق التوحيد منا في مجال العمل كما تحقق منا على صفحات قلوبنا، إذ لا يختص التوحيد المطلوب منا بعقد القلب عليه وحسب، بل لابد من التعدي والتجاوز إلى مرحلة السلوك وصفحة العمل، فلا تكفي شهادة أن لا اله إلا الله في القلب وعلى أطراف اللسان مالم يقترن بها السير والعمل على وفقها ليصدّق العمل القلب ويوافق السلوك الشهادة فيكون وافياً بعهده عملاً بعد أن أوفى قلباً ويكون صادقاً في ميثاقه سلوكاً بعد أن كان صادقاً جناناً، ومن الواضح انه لا يكون الإنسان صادقاً في عهده جناناً وموفياً بميثاقه سلوكاً حتى يستقيم سلوكه على الصراط القويم الذي شرعه الله في كتابه المجيد وسنة نبيه الحميد، وإلا فأي انحراف عن جادة الشرع الأقدس هو دخول في جادة الشيطان وزيغ عن طريق الهدى الذي سنّه الرحمن وعبّده لنا الحبيب المختار (ﷺ) .

٦ -ورد في عدة من الروايات الشريفة تفسير قوله سبحانه (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) التوبة: 105 – بأن أعمال العباد تعرض على رسول الله (ﷺ) وخليفته (عليه السلام) في كل زمان وفي كل صباح أو كل يوم وليلة أو عشية الاثنين والخميس في كل اسبوع -على اختلاف الروايات- فما كان من عمل صالح سرّه وحمد الله عليه، وما كان من عمل سوء ساءه واستغفر الله عليه.

هذه الآية الشريفة مع ما ورد في تفسيرها نظير الآية الشريفة التي نحن بصدد تفسيرها يراد منهما التنبيه والتذكير في مجال السلوك والعمل وعند كل صباح ومساء لذاك العهد والميثاق الذي شهدنا عنده لله بأنه ربنا وشهدنا على أنفسنا بأننا عبيد موحدون لا يحيد سلوكنا عن العهد ولا ينحرف عملنا عن الميثاق ويدوم سيرنا على التوحيد.. وهذه طريقة إلهية وسنة قرآنية لتثبيت العهد وترسيخ الميثاق في سلوكنا وعملنا، نسأله تعالى العون والتوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾

١ -هذه الآية الحادية والعشرون من سورة الرعد، وهي تعقب الآية الماضية وتبين وصفاً آخر من صفات ذوي الألباب وخصال ذوي العقول.

٢ -(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ):- نعت ثان من نعوت ذوي الألباب وهو فرع من فروع الوفاء بالعهد وباب من أبواب حفظ الميثاق، فهو خاص عقيب العام جيء به للتأكيد عليه والاهتمام به، وهذه الجملة الشريفة ذات مدلول وسيع ومعنى مطلق أي يعم كل ما أمر الله به أن يوصل وأن لا يقطع، ويؤكد العموم والشمول: ما روي عن ابن عباس (رض) ان رسول الله (ﷺ) قال:- (ان البر والصلة ليخففان سوء العقاب يوم القيامة) ثم تلا (ﷺ) هذه الآية الشريفة، وبمقتضى قوله سبحانه عقيب هذه الجملة (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) يكون المراد مطلق الأمر الالهي التشريعي بالوصل فانه الذي يخشى الله سبحانه فيه ويخاف سوء حسابه عنه، إذ الخوف والخشية من مخالفة تشريعاته وترك أوامره الشرعية .

٣ - ذهب أكثر المفسرين -حسبما ذكر العلامة القرطبي في تفسيره- إلى تفسير هذه الجملة بصلة الأرحام والأقارب، لكنه تخصيص من دون مخصص يوجبه وتضييق في المدلول الوسيع من دون مضيق يقتضيه فان صلة الأرحام لا ريب في أنها مما أمر الله بها أن توصل ولا تقطع وقد اهتم الشرع الأقدس بها ويكفينا أن نتذكر قوله سبحانه: (وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) النساء:1، وقد تواترت الروايات بالتأكيد على صلة الرحم وأنها تنسيء الأجل وتزيد في الرزق وتزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب يوم القيامة وان الرحم متعلقة بالعرش يوم القيامة تقول: (صل من وصلني واقطع من قطعني) وغير هذا كثير، لكن الأمر بالتواصل مع الأرحام هو بعض ما أمر الله به أن يوصل وليس تمامه، وهنالك بعض آخر امر الله به أن يوصل وأن لا يقطع أمره به في كتابه العزيز أو في سنة حبيبه الكريم (ﷺ) نظير صلة رسول الله (ﷺ) بإكرام ذريته وقرابته وأهل بيته، وصلة المؤمنين بحفظهم من هتك العرض من الغيبة ومن النمّ عليهم مع غفلتهم، وصلة الإيمان بالله بالإيمان بملائكته وكتبه التي أنزلها

ورسله التي بعثها ((لا نفرق بين أحد من رسله)) البقرة: 285، وصلة الإسلام بامتثال واجباته وباجتناب محرماته .

٤ -وهكذا ورد في راويات كثيرة من طرق الفريقين تفسير الآية (يصلون ما أمر الله به أن يوصل) بصلة الرحم، وليس هذا تخصيصاً لعموم الآية وتحديداً لإطلاقها وسعة مدلولها، وإنما هو تطبيق العموم على أوضح أفراده وأظهر مصاديقه، ولذا ورد في بعض الروايات المفسرة: تفسيرها برحم آل محمد (ﷺ) وإنها متعلقة بالعرش تنادي (اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني) ثم أعقبه قوله: (وهي تجري في كل رحم) وهذا شاهد صدق على التعميم،نعم صلة الرحم لأهميته عند الله ورد التخصيص بذكره، وأعظم منه صلة رحم محمد (ﷺ)، ولايختص الوصال المأمور به بهما بل يعم غيرهما، كما يشهد بالتعميم ما رواه في الكافي عن الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية بقوله: (نزلت في رحم آل محمد (ﷺ) وقد يكون في قرابتك) ثم قال: (ولا تكونن ممن يقول في الشئ انه في شئ واحد) أي لا تكن ممن يقول في الشئ المطلق انه وارد في الشئ الواحد والمورد الخاص .

٥ -صلة الرحم التي ورد التأكيد عليها تعني معاملة القريب بالبر والإحسان والمودة بنحو السلام عند الملاقاة والزيارة عند المرض والإحسان عند العوز والحاجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث على الطاعات والقربات لينال ما أعده الله للمحسنين ويبعد عما توعد به المسيئين، ونحو ذلك مما يصدق عليه الإحسان -عرفاً أو شرعاً- إلى القريب والتواصل مع الرحم .

٦ -((ويخشون ربهم)): هذا نعت آخر من نعوت ذوي الألباب ووصف آخر من أوصاف ذوي العقول، وهو أن يخشى ربه بمعنى أن يخاف ربه خوف مهابة وإجلال وخوف معرفة وإقرار بعظمة من يخاف وجلال من يخشى فهي خشية مقرونة بالعلم والمعرفة ولذا خص سبحانه خشيته بالعلماء حين قال (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء) فاطر: 28، إذن من كان عالماً بربه وعارفاً بكماله وجماله وجلاله دخلت الخشية قلبه وانعكست على سلوكه، ومن لم يكن عالماً ولا عارفاً لا تكن في قلبه خشية وإنما هو خوف وحسب .

٧ - ((ويخافون سوء الحساب)): وهذا نعت آخر يثبته سبحانه لذوي العقول وأولي الألباب يعني إنهم يخافون المناقشة الدقيقة والحساب الشديد والاستقصاء في السؤال، فيؤول لا محالة (سوء الحساب) إلى (شدة العقاب).

٨ - قال سبحانه في سورة الحجرات (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر (ﷺ) : (المؤمن اخو المؤمن لأبيه وأمه، وذلك ان الله وتبارك وتعالى خلق المؤمن من طينة جنان السماوات وأجرى فيهم من ريح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه وأمه) .

هذا صنع الله وتشريعه في عباده المؤمنين وهذا أدبه وتوجيهه في عباده المتقين جعلهم أخوة لأب وأم وأمرهم بالإصلاح بين الأخوة والتقريب بينهم اذا تنازعوا أو تباغضوا أو تباعدوا، فأراد سبحانه منا أن نصل أخوة الإيمان ولا نقطع ما وصله الرحمن، والنمُّ على المؤمنين والنميمة بينهم تعني السعي في قطع رابطة الإخوة بين المؤمنين والإفساد في الأرض والبغي بغير الحق، وهي قطع لما أمر الله به أن يوصل فلذا استدل بعض الفقهاء على حرمة النميمة ببعض هذه الآيات المشار إليها .

٩ -النميمة: لفظة مشتقة من (نمّ الحديث) وهي تعني نقل الحديث السوء من مؤمن إلى مؤمن بنحو يؤدي إلى الفرقة والشر والفساد بين جماعة المؤمنين .

وقد ورد الذم الأكيد في القرآن العزيز فقد عاب سبحانه من يمشي بالنميمة في سورة القلم: حين قال ((هماز مشاء بنميم)) وكثرت الروايات من طرق الفريقين عن رسول الله (ﷺ) بالوعيد عليها وقد جاء في الصحيح عن رسول الله (ﷺ) قوله لأصحابه: ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء المعايب)) أي الذين يقصدون نسبة المعايب وإسناد النقائص إلى الأبرياء من تلكم العيوب والنقائص، وقد ورد في وصية رسول الله (ﷺ) إلى أمير المؤمنين علي (ﷺ): ((يا علي: إحذر الغيبة والنميمة فان الغيبة تفطر -أي الصائم- والنميمة توجب عذاب القبر)) وقد تعددت الروايات الناطقة بأن النمام أو القتات

حرمت عليه الجنة كما حرمت على سفاك الدماء ومدمن الخمر، ولأجل ذلك أجمع فقهاء الإسلام على كونها معصية كبيرة .

١٠ - تتحقق النميمة غالباً بالقول السئ المفسد بين المؤمنين كأن يقال لمؤمن: (قال فيك فلان كذا وكذا) فيحدث هذا الحديث السيء المنقول فرقة وفتنة وفساداً بين المؤمنين، وقد تتحقق بغير القول والكلام نظير الكتابة بأن يكتب إلى مؤمن انه (قال فيك فلان كذا وكذا) أو (كتب عنك فلان في رسالة أو جريدة كذا وكذا)، وقد تتحقق بالإيماء والإشارة بما يؤدي إلى الإفساد بين المؤمنين ووقوع الفتنة وحصول الفرقة بينهم، ولا تنفك النميمة غالباً عن بعض ذمائم الأخلاق ورذائل الصفات التي حث الشارع المقدس على الابتعاد عنها نظير الكذب والغيبة والخيانة والنفاق وتفريق جمع المؤمنين وتمزيق توادد المسلمين، ولذا يتضاعف العقاب ويشتد العذاب على ذي النميمة حينئذ، نعوذ بالله منها ونستعينه على الابتعاد عنها وعن ضمائمها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

١ -هذه الآية الحادية عشرة من آيات سورة المجادلة وهي سورة مدنية بآداب المعاشرة في مجتمع الإسلام مع المؤمنين ومع المنافقين المغضوب عليه والضالين .

٢ -هذه الآية الشريفة تكفلت الإرشاد إلى بعض آداب المعاشرة والمجالسة والاجتماع وقد ورد في سبب نزولها روايتان: الرواية الأولى وهي المشهورة وتستفاد من بعض الروايات المأثورة وتتلخص في أن المسلمين في صدر الإسلام وفي مجتمع المدينة المنورة كانوا يتواردون على مجلس النبي (ﷺ) زرافات ووحداناً خصوصاً في يوم الجمعة حتى يضيق المجلس بهم ويتضامون فيه –أي ينضم بعضهم الى بعض مجتمعين قرب رسول الله حتى يتضاغطوا- وذلك تنافس منهم على القرب من رسول الله (ﷺ) وحرص منهم على الانتفاع من

أحاديثه وإرشاداته وفيوضاته ، وفي يوم جاء جمع من أهل بدر – وهم أهل كرامة وشرف ورفعة عند رسول الله (ﷺ) –وقد سبقهم إلى مجلس الرسول بعض المسلمين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه ولا تنحى احد من المسلمين كيما يجلسوا حتى مضى وقت وهما حيال رسول الله (ﷺ) قائمون على أرجلهم ينتظرون من يوسع لهم مجلساً، وعرف النبي ذلك وشق عليه (ﷺ) فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم أنت يا فلان وقم أنت يا فلان... حتى فسح لأهل بدر المجلس، فشق هذا الأمر على من أقيم عن مجلسه وعرف الرسول (ﷺ) الكراهية والمشقة في وجوههم وغمز المنافقون في صفوف المسلمين بغية التفرقة بينهم فقالوا للمسلمين: ألستم تزعمون ان صاحبكم يعدل بين الناس؟ فوالله ما عدل وما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم، فنزلت هذه الآية تأمر الذين آمنوا بأدب المجالسة وتدعوهم إلى التوسعة والتعاطف والتسامح وترك التضيق والتكبر.

هذه رواية ورواية أخرى في سبب النزول عن ابن عباس (رض) تتلخص في أنها نزلت في مجالس القتال حيث كان المسلمون الأوائل (رض) إذا اصطفوا يبوئ لهم رسول الله مقاعد للقتال وينظم لهم صفوف الجهاد تسابقوا إلى الصف الأول فلا يوسع أحد لأحد ولا يفسح بل يتضامون في الصف الأول أمام العدو تسابقاً إلى القتال ورغبة في نيل الشهادة فأمروا بالتفسح والتوسع وترك التضايق والتضام كي ينظم الرسول صفوفهم ويرتب مواقفهم .

٣ - (يا أيها الذين آمنوا): هذا الخطاب موجه إلى عموم المؤمنين يدعوهم إلى أحسن الأدب فلا يختص بمن حضر مجلس رسول الله (ﷺ) أو في مقاعد القتال فانهما مورد نزول الآية ولا يوجب المورد تخصيص عموم الخطاب ولا يضيق سعة دائرته، إذن يعم الخطاب الذين آمنوا أينما جلسوا وفي أي عصر ومصر اجتمعوا للخير والعلم وتحصيل الثواب سواء كان مجلس وعظ وإرشاد أو مجلس علم أو مقعد قتال أو مجمع الجمعة أو غير ذلك من مجالس المؤمنين.

٤ -((إذ قيل لكم تفسحوا في المجالس فأفسحوا يفسح الله لكم)) : تفسحوا: أي توسعوا في المجالس أن يتنحى بعض

الجالسين عن بعض القادمين كيما يسع المجلس أخيه كما وسعه فلا يضيق ولا يمنع أحد احداً من تحصيل مكان في المجلس .

وقد وعد الله سبحانه جزاء لمن يستجيب دعاء التوسع ونداء التفسح بأن يفسح الله له ويوسع عليه كما فسح لأخيه في الدنيا ووسع عليه ، وهذا جزاء مطلق لم يتحدد بفسحة معينة ولم يتضيق بسعة خاصة فهو سبحانه بحكمته ولطفه وخبرته يختار لعبده فسحة في آخرته أو في قبره أو في دنياه، وفي مجلسه أو في رزقه أو في غير ذلك مما يرغب المؤمن فيه السعة والفسحة ويراه اللطيف الخبير سبحانه صالحاً له ومناسباً وفيه صلاح عبده وموافقة حكمته سبحانه .

٥ -(واذا قيل: إنشزوا فانشزوا يرفع الله..):

(فانشزوا): أمر بالنشوز، وهو ارتفاع عن شيء وذهاب عنه وانصراف منه، وحينئذ يكون النشوز عن المجلس -الذي أمر به في هذه الآية- يعني الارتفاع عن المجلس والنهوض عنه والانصراف منه وهذه الجملة توضح أدباً آخر من آداب المعاشرة والاجتماع لا يختص -كما ذكرنا بمجالسة رسول الله (ﷺ) أو في مجتمعه وعصره- كما شاء بعض المفسرين، بل تفيد معنى عاماً ومدلولاً وسيعاً هو انه: أيها المؤمنون: إذا دعيتم إلى القيام عن مجلس -بعد أن سبقتم إليه وصار لكم حق فيه- قوموا وانهضوا وانصرفوا عن المجلس تواضعاً لله وامتثالاً لأمره سبحانه ولعل المؤمن صاحب المجلس لما دعاكم إلى النشوز عن مجلسه كان له غرض صحيح من دعوته كأن يكون قصد الاستراحة أو قضاء بعض حوائجه التي لا يرغب كشفها لأحدٍ من المؤمنين أو أراد أن يستبدل من هو أفضل علماً أو عملاً ممن دعاه للنشوز أو نحو ذلك، ومقتضى الأدب القرآني هو القيام والانصراف تواضعاً بل وعدم الملل والضجر من ذلك تكبراً .

٦ - جعلت الآية الشريفة جزاء لاستجابة دعوة النشوز ورغبة الانصراف وهو ((يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات)) وقد كسر فعل الجزاء (يرفع) لوقوعه في جزاء الأمر (فانشزوا) وحقه السكون لولا إلتقاء ساكنين فأوجب كسر الساكن الأول وهو عين الفعل .

فإذا امتثل المؤمن أمر الله سبحانه بالنشوز والانصراف بعد أن قيل له: (انشز) إستحق جزاء الله فرفع درجته وأعلى منزلته لأن نشوزه هذا على وفق الإيمان ويكشف عن علمه بأدب الرحمن اذ لو لم يعلم أدبه سبحانه لم يكن نشوزه لله وتخلقاً بأخلاقه وامتثالاً لأمره وتقرباً لساحة قدسه . وهذه الآية – بجزائها هذا- تتوافق مع قول رسول الله (ﷺ) في حديثه الشريف المشهور ((من تواضع لله رفعه الله)) فهما يفيدان أن المتواضع لله بالنشوز عن المجلس –حسبما أمر به- برفع الله له الدرجات ويعلي له المنازل والمقامات وذلك لما أوتي من العلم والإيمان وفعل الحسنات .

٧ - هذا الجزاء يكشف عن فضيلة العلم وعلو مقام العالم عند الله اذا انضم إلى علمه: الإيمان والتقوى والورع عن محارم الله والامتثال لأوامره والتأدب بآدابه، وقد كثرت الآيات والروايات في الدلالة على هذا المعنى، يكفينا من آياته الكريمة أمره سبحانه لحبيبه المصطفى أن يسأل أتباعه سؤال إقرار واعتراف -لا سؤال استفهام واستعلام: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) الزمر: 9، وهي ترشد إلى أن ذوي الألباب وأصحاب العقول والإدراك هم الذين يتذكرون وهم الذين يعترفون برجحان العالمين وعدم تساويهم مع الجاهلين .

٨ - مقتضى التناسب والتلاؤم بين (الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم) وبين الجزاء الجليل وهو رفع الدرجات عند الله وعلو المنازل والمقامات هو اختصاص ذلك بالعالم الذي ينتفع به الناس ويكون خيراً لهم فهو المرفوعة درجاته والراقية مقاماته عند الله سبحانه، وأفضل العلم وانفعه و العلم بما جاء في القرآن العظيم والسنة المطهرة، وهذا ما يفهم من عدة من الآيات والروايات، قال الله سبحانه (وَأنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) النحل: 44، فالقصد من إنزال الكتاب المجيد والغرض من إنزال الذكر الحكيم هو أن يبين للناس ما جاء في الكتاب المنزل من الأنوار والفيوضات لعلهم يتفكرون ويتذكرون وينتفعون بأنواره ولنا –أعني التابعين بإحسان إلى يوم الدين- في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة، وقال الباقر (عليه السلام): ((عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد)) وقال

الصادق (ع): ((اذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين فيوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء)) وورد في الحديث الشريف أيضاً ((يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)) وأكرم بمنزلة هي وسط بين منزلة الأنبياء وبين منزلة الشهداء، والأخبار في فضل العلم النافع لا تعد ولا تحصى .

٩ -مقتضى الآية الشريفة حيث جمعت بين إيتاء العلم والإيمان حسب البيان المتقدم هو أن هذا الجزاء العظيم أعده الله سبحانه للعالمين بعلمهم على وفق الإيمان بامتثال أوامر الرحمن واجتناب نواهي القرآن، وهذا المعنى تفيده عدة من الآيات والروايات، قال الله سبحانه: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) الزمر: 9، وهذه الآية الشريفة ظاهرة الدلالة على أن الذين يعلمون وهم قانتون لله آناء الليل يحذرون الآخرة ويرجون رحمة بهم ويتقربون بالعمل على وفق ما تعلموا إلى ساحات قدسه، هؤلاء أفضل من الذين لا يعلمون أو لا يقنتون لله رجاء رحمة الله، إنما يتذكر أولوا الألباب، وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) صنف العلماء إلى قسمين: ((عالم آخذ بعلمه فهذا ناجٍ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك وان أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه)) وعن الصادق: ((اطلبوا العلم وتزينوا بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلّمونه العلم وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)) وقد سئل الصادق (عليه السلام)عمن عنى الله سبحانه بقوله: ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)) فاطر: 28، قال: ((يعني بالعلماء من صدق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم)) وقال مولانا زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام): ((وما العلم بالله والعمل إلا إلفان مؤتلفان)) يعني هما صديقان ملتئمان وأنيسان منسجمان فمن عرف الله خافه وخشيه ثم دعاه الخوف وحرضته الخشية على العمل الصالح والورع والتقوى.

١٠ - ((والله بما تعملون خبير)) وهذا ختم الآية الشريفة وفيه تنبيه وتذكير بأن الله جل وعلا بما له من القدرة الواسعة

والاحاطة العلمية الجامعة خبير بما نعمل عليم بما نفعل محيط بما نتصرف لا يخفى عليه شئ من سر أو علن .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

١ -هذه الآية الشريفة معروفة بآية النفر، وهي الآية الثانية والعشرون بعد المئة من سورة براءة -سورة التوبة- وهي سورة مدنية جليلة القدر عظيمة المضامين حفلت باستعراض كثير من آيات الجهاد والحرب والنفر إلى القتال وتضمنت البراءة من المشركين ومقاتلتهم وتعرضت لتخلف بعض المسلمين عن أمر رسول الله (ص) بالفرار إلى القتال وندمهم وتوبتهم على التخلف بعد أن جاء الذم والتأنيب في حقهم، فكانت آية النفر وسط آيات النفر إلى القتال وذم التخلف عن النفر وتأنيب المتخلفين .

٢ -((وما كان المؤمنون لينفروا كافة)):

ما -أداة نفي- لينفروا: اللام لتأكيد النفي، وينفروا: أي يخرجوا.

هذه الجملة الشريفة تنفي أن يكون للمؤمنين حق النفر بأجمعهم، وفي معناها احتمالان :-

الأول: ليس للمؤمنين أن ينفروا بأجمعهم إلى الجهاد والقتال في سبيل الله وليس لهم أن يخرجوا بتمامهم إلى سوح القتال

ويتركوا النبي (ص) وحيداً فريداً ليس معه أحد، وهذا الاحتمال اختاره جمهور المفسرين ويساعده قرينة السياق حيث وقع هذا النص القرآني عقيب آيات القتال والنفر وبعد المنع عن التخلف عن رسول الله (ص)، وقد روي عن ابن عباس أن المتخلفين عن الجهاد لما شدد الله النكير عليهم والذم لهم عزموا أن لا يتخلف احد منهم عن جيش أو سرية أبداً، ولما حان الوقت ودعا الرسول الى قتال هبّوا جميعاً نافرون وبقي الرسول (ص) في المدينة وحده فنزلت الآية الشريفة تنفي أن يكون للمؤمنين حق النفر بتمامهم إلى الجهاد .

الثاني: ليس للمؤمنين أن ينفروا بأجمعهم إلى (التفقه في الدين) وليس لهم أن يخرجوا بتمامهم الى طلب العلم ومعاهد الفضيلة بحيث يتركون بأجمعهم عيالهم وأطفالهم وعجزتهم بلا كافل ولا ولي معين، وهذا الاحتمال يتوقف على غض الطرف عن قرينة السياق بأن تلاحظ فقرات الآية بتمامها مستقلة عما سبقها وما لحقها من آيات ومضامين، ويرى انه سبحانه أطلق النفر وتجرد عن ذكر متعلقه وبيانه ثم تعقبته جملة أخرى تحث على النفر للتفقه في الدين، فيعلم حينئذ متعلق النفر الأول ويعرف انه النفر للتفقه في الدين .

٣ - في ضوء الاحتمال الأول يكون مقصود الآية نفي وجوب النفر التام إلى سوح القتال وعرصات الجهاد دفعاً لتوهم وجوب النفير العام عند كل غزوة أو قتال يدعو إليه رسول الله (ص)، وذلك بعد أن سبقت آيات النفر وآيات ذم المتخلفين قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ... إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)38-39 براءة، وقال سبحانه (انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ)41براءة، وقال عز وجل(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ)براءة: 120، وقد ذهب بعض أعلام المفسرين الى أن هذه الآية كانت حكم الإسلام حين كانت أعداد المسلمين قليلة، ثم لما كثر عدد المسلمين نسخت بآية النفر فأباح الله لبعضهم التخلف ورخص لهم الاكتفاء بنفر بعض المؤمنين بقدر الحاجة من الجند المقاتلين. والصحيح عدم وقوع النسخ هنا فان الآية الأخيرة تمنع التخلف عن رسول الله

وامتثال أمره بالنفر إلى الجهاد إذا أمرهم وآية النفر تنفي وجوب النفير العام إلى الجهاد ومن ثمة لا يأمر رسول الله بما لم يوجبه الله، ولا موجب للنسخ ولاداعي للالتزام به، بل الآيتان محكمتان جزماً، هذا كله مع الالتزام بالاحتمال الأول، ومع الالتزام بالاحتمال الثاني فعدم النسخ أوضح .

وفي ضوء الاحتمال الثاني يكون مقصود الآية الشريفة: نفي وجوب النفر العام الى رسول الله (ﷺ) للتفقه في الدين، أو نفي وجوب الهجرة الشاملة الى مراكز الحوزات العلمية ومعاهد التفقه لتحصيل العلم بالمعارف الإلهية الحقة والقوانين السماوية العادلة .

4- ((فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين)):-

لولا: أداة تحضيض وحث لما تدخل عليه. فرقة: جماعة كثيرة. طائفة: جماعة قليلة. التفقه في الدين: تحصيل العلم والفقه في الدين.

هذه الآية الكريمة بعد أن نفت حق المؤمنين في أن ينفروا بأجمعهم إلى الجهاد –على الاحتمال الأول- أو أن ينفروا بأجمعهم الى طلب العلم وتحصيل الفقه في الدين- على الاحتمال الثاني- أعطت الحل الأمثل وطرحت الأسلوب الأكمل وهو أن ينفر من كل جماعة كبيرة من المؤمنين تعيش ضمن وحدة مركزية جامعة في قبيلة أو عشيرة أو بلدة: أن ينفر طائفة منهم إلى جماعة قليلة تنطبق على الواحد والاثنين والثلاثة يخرجون إلى معاهد العلم ومراكز التفقه في الدين ليتعلموا ويتفقهوا ويحصلوا المعارف الدينية الحقة .

٤ -((ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم)):-

الإنذار: هو الإبلاغ والإرشاد مع التخويف والتحذير .

((رجعوا إليهم)): يحتمل في عود الضمير احتمالان: يحتمل أن يراد منه اذا رجع قومهم –وهم النافرون الى الجهاد- وقضوا ما عليهم وعادوا الى المتخلفين عن رسول الله (ﷺ) الذين تفقهوا في الدين وأدركوا ما نزل من القرآن واستوعبوا معانيه فينذر المتخلفون المتفقهون النافرين المجاهدين الذين لم يحضروا نزول الآيات لانشغالهم بالجهاد، ويحتمل أن يراد منه اذا رجع النافرون للتفقه في الدين إلى أوطانهم وعادوا إلى عشائرهم

وأهلهم وذويهم فينذرونهم بما تفقهوا من دينهم وتعلموا من أحكام شريعتهم .

وهذه الجملة الشريفة تبين الغاية العظمى والغرض الأقصى من النفر للتفقه في الدين، وهو الإنذار والتبليغ والإرشاد: الإرشاد إلى آيات الله وأحكامه والتبليغ بقوانينه وتشريعاته والتخويف من عذابه وعقابه والتحذير من غضبه وانتقامه، هذا هو الغرض الأفضل الذي اختاره الله لعباده المتفقهين وهذه هي الغاية الكبرى التي ينبغي أن يقصدها رجال العلم والفقه والدين... إنه أدب إلهي رفيع وخلق رحماني جميل ترشدنا إليه آية النفر وتحثنا عليه، ألا فليعمل العاملون لدينهم من هذا المنطلق وفي هذا القصد ولأجل هذه الغاية دون سواها من الغايات الرذيلة والأغراض الخسيسة والأهداف الزائلة، قال رسول الله (ص): ((من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري –أي يجادل- به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار)) وهذا حديث شريف متفق على روايته بين المسلمين يحذّر طلاب العلم من الانحراف بالغرض والغاية الى غير ما أراده الله في آية النفر كأن يطلب العلم للتفاخر والمباهاة أو للمجادلة وإظهار العلم وطلب الشهرة بين الناس أو للدعاية إلى نفسه لتقبل الناس عليه وتهوى القلوب إليه وتدر الأموال عليه وما شابه ذلك من الأغراض الخسيسة التي لا خير فيها ولا دوام ولا تكسب رضا الرحمن .

6- ((لعلهم يحذرون)):-

لعل أداة ترجي، والضمير فيه يعود إلى (قومهم) الذين ينذرونهم ويبلغونهم ويخوفونهم، الحذر هو الخوف الحاصل عقيب التخويف والإنذار .

هذه الجملة الشريفة تشير إلى الثمرة المرجوة من التفقه في الدين المرغوب فيه شرعاً لغرض الإنذار، وهي رجاء أن يحذر القوم الذين أنذروا وأرشدوا: أن يخافوا من غضب الله وعذابه إذا لم يمتثلوا أوامره أو لم يبتعدوا عن نواهيه ومحرماته.

٧ - هذه الآية الشريفة أصل قرآني في الندب الى طلب العلوم الدينية وهي قانون رحماني في الحث على التفقه في أحكام الدين ومعارف الإسلام، وتتضمن إرشاد المتفقهين إلى أدب اخلاقي كبير هو أن يكون غرضهم من التفقه تعليم الناس

وإرشادهم لعلهم يحذرون الله ويقربون منه بالطاعة والانقياد، ومن الواضح ان هذه الآية بهذه المضامين تعم جميع الأعصار والأمصار، ولا تختص بعصر نزولها أو مكانه، فتدل على محبوبية النفر والخروج من الأوطان الى معاهد العلم وحوزات التفقه فانه هجرة إلى الله ورسوله مشروطة بأن تكون هجرته لغرض الإنذار والتبليغ والإرشاد أملاً في تحذر الناس وتخوفهم من غضب الله ورجاءً لانعكاسه على السلوك بالصلاح وتقوى الله، وهذه ثمرة عظمى من التفقه قال رسول الله (ﷺ) لعلي (عليه السلام) يوم بعثه إلى اليمن ((يا علي: لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً أحب إليك مما طلعت عليه الشمس وغربت)).

٨ -المراد من التفقه في الدين تحصيل البصيرة في علوم الدين سواء في أصوله أم فروعه، في عقائده أم أحكامه، في فرائضه أو سننه، في أخلاقه أو آدابه، وهو عنوان وسيع ومفهوم كبير يعم جميع المعارف الدينية المستقاة من آيات الكتاب العزيز وأخبار السنة المطهرة.

٩ -استفاضت الآيات وتواترت الروايات في الحث على طلب العلم وفي الندب إلى التفقه في الدين بل رفعت مقام العلم إلى أعلى مستوى مأمول، يكفينا أن نتذكر قوله تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)المجادلة- 11، وأن نفكر في أمره تعالى لحبيبه المصطفى ((وقل رب زدني علماً))طه-114، فلو كان ثمة شئ أفضل عنده سبحانه من العلم أو أشرف عنده منه لأمر الحبيب حبيبه أن يدعوه بطلب الزيادة منه، وفي آية النفر إشعار بفضيلة العلم وعلوها وأنها لا تقل عن فضيلة الجهاد تحت راية الحق حيث دعت عباد الله إلى الخروج من الأهل والنفر إلى معاهد التفقه ضمن آيات النفر إلى الجهاد والقتال في سبيل الله .

واشتهر في الرواية عن رسول الله (ﷺ) قوله: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)) وقد حث الأئمة الأطهار على التفقه كثيراً فقالوا: ((إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين))، ((من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزك له عملاً)) وقالوا: ((تفقهوا في الدين فانه من لم يتفقه منكم في الدين فهو إعرابي ان الله يقول في كتابه: ((ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون))

والمراد من الإعرابي سكان البوادي الذين لم يتعلموا ولم يتثقفوا، وقد روي عن الصادق (عليه السلام) بطريق صحيح: ((لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)) وفي يومٍ جاء قوم من المسلمين إلى صادق أهل البيت وقد بلغتهم رواية عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إختلاف أمتي رحمة)) ظانين أن إجتماعهم واتفاقهم عذاب، فقال لهم الصادق –صلوات الله عليه-: ((ليس حيث ذهبتم،بل أراد رسول الله قوله تعالى: ((فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين)) فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويختلفوا إليه فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم، انما أراد اختلافهم من البلدان، لا اختلافاً في دين الله، إنما الدين واحد))، هذه الروايات ونظائرها كثير تدل على محبوبية التفقه في الدين من كل أحد من دون اختصاص بطائفة أو جماعة، نعم هناك بعض الروايات ناظرة إلى طائفة خاصة وهي المتخصصة في معارف الدين وعلوم القرآن والسنة، جاء في الحديث المستفيض أو المتواتر المتفق على روايته ((كل من حفظ أربعين حديثاً مما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً)) وقد صح في الرواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما رواه ثقة الإسلام الكليني والعلامة الترمذي والحافظ ابن ماجة قوله: ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى به، وانه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في جوف الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم والكواكب، وان العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ منه اخذ بحظ وافر)) وروى ابن عباس –حسبما جاء في سنن ابن ماجة- قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)).

١٠ - استفدنا من هذه الآية الشريفة أن المقصود من دعوة الله بعض عباده للتفقه في الدين هو الإنذار والتبليغ والإرشاد لما فيه خير العباد ونجاتهم يوم المعاد وهو العلم الذي ينتفع به ويحتاج إليه الناس في أمور دينهم ويرغب فيه الشرع الأقدس انه ((آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة، وما وراء ذلك فهو فضل)) كما جاء في الحديث الشريف المتفق على

روايته بين المسلمين وقد رواه مفصلاً ثقة الإسلام الكليني في (أصول الكافي) عن الإمام موسى الكاظم أن رسول الله (ﷺ) دخل مسجده ووجد جماعة من المسلمين احتفوا وطافوا حول رجل فسأل عنه فأجيب بأنه علامة –أي كثير العلم- وانه أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، فقال النبي (ﷺ): (ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من علمه) ثم قال (ﷺ): ((إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل)) انتهى.

والظاهر انه يريد من الآية المحكمة: الآية القرآنية الخالية من التشابه والغموض بحيث يعرف معناها ويفهم مدلولها ويستوعب مقصودها، انه فضل عظيم يرغب فيه رسول الله (ﷺ) لأتباعه المسلمين، والآية المتشابهة يحتاج استيعاب معناها ومقصودها إلى علم راسخ يحل به التشابه والغموض ولذا ينحصر فضل معرفتها بالراسخين في العلم، فلم يجعله رسول الله (ﷺ) في هذا الحديث لكل أحد.

والظاهر من الفريضة العادلة : هو ما شرعه الله سبحانه في قرآنه وأوضحه في كتابه من أحكام وقوانين، والظاهر من السنة القائمة: هو ما بينه رسول الله (ﷺ) في سنته المطهرة وثبت بيانه (ﷺ) بأسناد صحيحة ودلالة واضحة ظاهرة لا غموض فيها، هذه الثلاثة هي العلوم النافعة التي حث الشرع المقدس على تعلمها وتحصيلها من كل احد وإن كان تعلمه محدوداً أي لم يتخصص بها أو لم يتوسع في معرفتها .

١١ - يستفاد من هذه الآية الشريفة ان التفقه في الدين محبوب لله ولأوليائه ومطلوب لهم كوسيلة إلى العمل والسلوك الصالح ولغاية جليلة هي الإنذار والإرشاد والتحذير ((لعلهم يحذرون)) ويستفاد من الروايات العديدة ما يستفاد من هذه الآية ومن الآية السابقة، قال الإمام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام): ((مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لاتعلمون ولمّا تعملوا بما علمتم، فان العلم اذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدد من الله إلا بعداً)) وينبغي أن يعلم انه لا خير في التفقه والتعلم وحفظ الحديث وروايته ودراية معناه إذا لم يكن حباً لله وابتغاءاً لرضوانه واقتراباً من ساحة قدسه، وقد

وردت الروايات العديدة الناطقة بأن من طلب الحديث والتفقه لبعض الأغراض الدنيوية الخسيسة فاته خير الآخرة ولم يكن له في الآخرة نصيب، وهذا بخلاف من طلب العلم والتفقه وأراد به رضوان الله وحسن الآخرة والعاقبة فانه يعطيه الله الدنيا والأخرى فلابد من إخلاص النية لله وتصفية القصد للآخرة .

وهناك آداب كثيرة في طلب العلم والتفقه في الدين ورد بيانها في أحاديث الرسول العظيم وأهل بيته الكرام (عليهم صلوات الملك العلام) وجاء شرحها في بعض كتب الأعلام لعل خيرها (منية المريد في آداب المفيد والمستفيد) ومؤلفه الشهيد السعيد الفقيه الجليل زين الدين بن علي الجبعي العاملي الشهير بالشهيد الثاني وقد جمع فيه الآداب الشريفة والخصال الحميدة التي ينبغي أن يتحلى بها العالم والمتعلم وفقنا الله لمراضيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

١ - هذه الآية السادسة من سورة الحجرات وهي سورة مدنية تضمنت بيان أحكام الشرع الشريف وبعض آدابه مما يرتبط بعلاقة الفرد مع ربه أو بعلاقته مع أخيه في المجتمع الواحد... وهذه الآية الشريفة من تلكم السورة وهي ترتبط بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان في العيش ضمن العلاقات الاجتماعية السائدة وترشد إلى قانون إلهي وناموس إجتماعي جليل.

٢ - ((يا أيها الذين آمنوا)) هذا الخطاب والنداء متوجه إلى كل من حصل في قلبه الإيمان بالله ورسوله والمعاد إليه، ومن الطبيعي أن يحتاج النداء إلى مخاطب ينادى بما يصدق عليه

النداء، ويمكن أن يكون الخطاب متوجهاً إلى جمع كبير وعدد كثير ويكفي اتصاف بعضهم بذاك الوصف والعنوان المخاطب به وان كان الباقون غير متصفين أو غير موجودين ثم يوجدون بعد ويشملهم الخطاب والنداء، روى زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال: (ما سُلّت السيوف ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ولا جهر بأذان ولا أنزل الله : ((يا أيها الذين آمنوا)) حتى أسلم أبناء قبيلتي الأوس والخزرج)) وذلك حيث انطبق عنوان ((الذين آمنوا)) على أبناء القبيلتين ولا مانع من شمول هذا الخطاب ممن لا ينطبق عليه هذا العنوان المنادى به ثم ينطبق عليه أو ممن لم يوجد حين نزول النداء ثم يوجد وينطبق عليه، فتوجه هذا الخطاب وهذا النداء عام إلى كل المؤمنين ولايختص ببعض دون بعض.

٣ - ((ان جاءكم فاسق بنبأ عظيم))

الفسق بحسب أصل معناه: هو خروج شيء من شيء على وجه الفساد، يقال: فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها، ويقال: فسق ابليس عن أمر ربه أي خرج عن طاعة ربه ومال عن طريق الحق، والفاسق هو الخارج عن طريق الحق العاصي لأمر الرب جل وعلا.

والنبأ: هو الخبر، وقد أفاد بعض اللغويين والمفسرين ان الخبر لا يقال له نبأ الا إذا كان ذا شان عظيم وفائدة جليلة فخصوا النبأ بالخبر العظيم الشأن والجليل الفائدة .

والتبين: هو التثبت في الأمر والتأني في الشيء والتفحص عنه طلباً لظهور الشيء ومعرفة حقيقته واستيضاحاً لما هو الواقع رفعاً لخفائه وغموضه، وقد روي قراءتها (فتثبتوا) بدل (فتبينوا) وهما متقاربان في رسم اللفظ ووزنه ومعناه .

٤ - مورد نزول الآية الشريفة –حسبما جاء في الروايات المستفيضة من طرق الفريقين- أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث الوليد بن عقبة إلى بعض القبائل العربية –وهم بنو وكيعة أو بنو المصطلق على اختلاف الروايات وكانوا حديثي عهد بالإسلام- ليجلب صدقة أموالهم وزكاة مواشيهم وكانت بين الوليد وبين تلكم القبيلة إحنة وعداوة جاهلية فلما اقترب من أرضهم وشارف ديارهم وبصروا به ركبوا إليه مستقبلين فرحين بقدوم عامل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فظنهم الوليد خارجين لقتاله فرجع إلى

رسول الله (ﷺ) مدعياً انهم ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة، فغضب رسول الله (ﷺ) عند سماع خبر الوليد وفكر في أن يغزوهم واستعد المسلمون لذلك، فنزلت الآية الشريفة مصرحة بفسق الوليد ووجوب التثبت من خبر الفاسق، فبعث رسول الله حينئذ إلى تلكم القبيلة خالد بن الوليد وجمعاً من المسلمين ليتفحصوا عن حالهم ويتأكدوا من أمرهم، وقال لهم رسول الله(ﷺ): إرمقوهم عند الصلوات، فانطلقوا إليهم وأتوهم ليلاً متخفين فبعث خالد عيونه إليهم ليتحققوا أحوالهم فرجعوا إليه مخبرين بمشاهدة مظاهر الإسلام منهم وسماع الآذان في ربوعهم أوقات الصلاة ورؤية أداء الصلوات والتهجد بما حفظوا من آيات القرآن، فذهب خالد إليهم وقابلهم وتبين له واقع حالهم وانهم لا زالوا متمسكين بدين الإسلام غير ممتنعين عن أداء الزكاة وقد استلمها منهم ورجع إلى رسول الله بالخبر اليقين والنبأ الصحيح، وفي بعض الروايات: ان بعض أفراد القبيلة جاؤا إلى رسول الله(ﷺ) حاملين زكاة أموالهم ومواشيهم مستغربين مما رأوا من رجوع عامل رسول الله مستفهمين عن سر الإياب قبل أخذ الصدقة والزكاة .

٥ -هذه الآية الشريفة تعلم المؤمنين كيفية التعامل مع خبر الفاسق خصوصاً في الأخبار العظيمة الشأن مثل الخبر المتعلق بالأحكام الإلهية نظير خبر الوليد بارتداد جمع من المسلمين حديثي العهد بالإسلام حيث يترتب على ردتهم جواز مقاتلتهم واغتنام أموالهم وسبي نساءهم .

٦ -من هذه الآية الشريفة ومن أخبار نزولها ومن طبيعة المجتمع الإنساني ومن تشابه المجتمعات في السلوك ومن تقاربها في أصول التعامل بين الأفراد يتبين التعارف على قبول الخبر الوارد وينكشف التوافق على تصديق النبأ الواصل ويتضح التصادق على الأخذ والعمل وترتيب الآثار، وقد كان مجتمع الرسول الكريم(ﷺ) كغيره من المجتمعات يتقبل الخبر الوارد عليه ويصدق النبأ الواصل إليه ويعمل به ويرتب الأثر عليه، ولما جاءهم خبر الوليد بارتداد جمع من المسلمين أو بمنعهم الزكاة الواجبة أخذوا بالخبر وصدقوه وكأنه حقيقة صادقة مطابقة للواقع، ولذا غضب رسول الله(ﷺ) واستعد أصحابه لغزوهم وهموا بمحاربتهم، فسبقتهم الآية الشريفة بالنزول لتؤسس

لهم قانوناً الهياً عظيماً وتسن لهم أصلاً شرعياً كبيراً هو التبين في خبر الفاسق والتأكد من صدق نبأه قبل العمل به والتصديق له حيث لا يؤمن كذبه ولا يتيقن صدقه، فيلزم التحقق من صدق خبره ومن مطابقته للواقع ويجب تأخير ترتيب الآثار لما بعد انكشاف الواقع فيعمل على وفق ما تبين ويؤخذ بالواقع الذي تأكد، ومن هنا بعث رسول الله جمعاً من المسلمين بقيادة خالد ليتجسسوا على القبيلة ويتحسسوا أحوالهم وقد رجعوا بكذب خبر الوليد الفاسق وعدم مطابقته مع الواقع الذي تأكدوا منه، وقد اشتهرت الرواية عن رسول الله ((العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن)) ولعلها صدرت منه (ﷺ) في هذه الواقعة وبمناسبتها .

٧ - وردت كلمة (فاسق) في الآية منكرة غير معرفة وهكذا وردت كلمة (بنبأ) منكرة غير معرفة، ويفهم من هذا عموم القانون الإلهي وشيوع الأصل الشرعي الذي أسسته الآية وسريانه في جميع الأنباء من جميع الفساق، وفي ضوئه: هذه الآية الشريفة باقية في مضمونها ومستمرة في قانونها إلى يوم القيامة لم تنسخ قطعاً ولم تتغير جزماً ولم تختص بخبر الوليد وان نزلت في واقعته وخبره لاسيما لو تذكرنا ان القرآن نزل تبياناً لرسالة ودستوراً لديانة ولم ينزل رواية لقصة أو حديثاً عن واقعة وحسب .

٨ - ((ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)):- الجهالة:- اسم مصدر مأخوذ من (جهل يجهل جهلاً جهالة) وقد عرّفت بأن يفعل الإنسان فعلاً بغير علم ومعرفة ومن دون حكمة ودراية حيث لا ينبغي صدور مثل ذلك من عاقل.

الإصباح: هنا بمعنى الصيرورة، أي فتصيروا على ما فعلتم نادمين أي مغتمين على ما وقع منكم من قبول خبر الفاسق عن أمر ربه ومتألمين مما صدر عنكم من الأخذ بنبأ العاصي لدين بارئه ومتمنين ان لم تفعلوا ذلك، فان الندامة في اللغة تعني الغم على وقوع شئ مع تمني عدم وقوعه .

٩ - هذه الجملة توضح سر الأمر القرآني بالتثبت والتأكد من خبر الفاسق، وتبين انه للتحذر من إصابة القوم المخبر عنهم بجهالة تعقبها ندامة دائمة وتأسف متواصل وغمّ مستمر وتمنّ لعدم الوقوع فيما وقعوا فيه من الخطأ .

١٠ - بعد هذا البيان يتلخص معنى الآية ويتضح بالقول: ان جاء فاسق بنبأ فتثبتوا ولا تتعجلوا الأخذ به والقبول له، بل تفحصوا وتحققوا عنه حذراً من أن تصيبوا قوماً بجهالة بفعل أخذكم بخبره من دون تأكد وتفحص عن حقيقة الأمر وواقع الحال فتصبحوا بعد ظهور برائتهم نادمين وتصيروا بعد انكشاف سلامتهم مغتمين لما فعلتم من الجهالة التي لا ينبغي صدورها عنكم حينما ظننتم بخلاف الواقع وقبلتم خبر الفاسق من دون تفحص وتأكد وتحقيق .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {135} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

١ - هاتان: الآية الخامسة والثلاثون والآية السادسة والثلاثون بعد المئة من سورة آل عمران وهي سورة مدنية جليلة القدر مترابطة المعاني متحدة الهدف تسير بالمسلمين نحو تكميل أنفسهم واجتماعهم، وهاتان الآيتان تقعان وسط هذه السورة المباركة، يقصد منهما تكميل أنفس المؤمنين بعد الانحراف ويراد منهما تطهير قلوب المؤمنين عقيب العصيان، وتحثان على التوبة والاستغفار وترغبان إلى ترك الإصرار على الذنب والعصيان وتعدان بالجزاء الخالد والغفران والجنات .

٢ - روي في سبب نزولها عدة روايات أشهرها وأوضحها ان جمعاً من المسلمين جاؤا إلى رسول الله (ﷺ) وقالوا: ابن بني اسرائيل أكرم على الله منا، كان أحدهم اذا أذنب ذنباً أو أتى معصية أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: (اجدع أنفك) أو (اقطع أذنك) أو (افعل كذا أو كذا) فسكت رسول الله عنهم فنزلت الآيتان فاستدعاهم رسول الله وقال لهم: (ألا أخبركم بخير من ذلكم) ثم قرأ عليهم الآيتان وقد أراد الله سبحانه أن يكشف سماحة في رسالة حبيبه المصطفى وأن يبين سهولة في شريعة نبيه المجتبى وأن يمنح كرامة لأمة رسوله المرتضى حينما جعل سبحانه التوبة والاستغفار كفارة الذنوب بدلاً من الكفارة البدنية والعقوبة الجسدية التي جعلها على غيرهم، وهذه كفارة ميسورة عوض الكفارة العسيرة المفروضة على بعض الأمم السالفة ولذا أطارت عقل إبليس وأفقدته رشده، روى الشيخ الصدوق باسناده عن جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) انه قال: لما نزلت هذه الآية الشريفة صعد ابليس جبلاً بمكة يقال له (ثور) فصرخ بأعلى صوته بعفاريته –جمع عفريت وهم أتباعه الكبار- فاجتمعوا اليه، فقال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، فقال الشيطان الأكبر: لست لها، ثم قام آخر فقال مثل ذلك فقال له: لست لها، فقال الوسواس الخناس: أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال الشيطان الأكبر: أنت لها، فوكله بها الى يوم القيامة، واخرج الحافظ الترمذي عن عطاف بن خالد قوله: بلغني انها لما نزلت صاح ابليس بجنوده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا: مالك يا سيدنا؟ قال: نزلت آية في كتاب الله لا يضر بعدها أحداً من بني آدم ذنب، قالوا: وما هي؟ فاخبرهم بها، قالوا: نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على حق، فرضى منهم بذلك .

٣ - (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم):-

الفاحشة مأخوذة من فحش يفحش فحشاً – وهو نظير: قبح يقبح قبحاً، أي هما متشابهان في الوزن والمعنى- وفي الغالب تستعمل اللفظة في القبيح المفرط في قبحه والخارج

عن الحد المتعارف وقد تستعمل في كل شئ خرج عن حده المتعارف فيقال: فلان فاحش الطول أي تجاوز طوله الحد المتعارف .

والظاهر أن قوله تعالى (اذا فعلوا فاحشة) يعني إذا فعلوا سيئة بالغة في السوء وأتوا قبيحاً شديداً في القبح وعملوا ذنباً كبيراً في الاساءة، فتعم الفاحشة كل قول أو فعل يشتد قبحه من المعاصي والذنوب، لكن قد اشتهر استعمالها على ألسنة الفقهاء في الزنا، بل قال الله سبحانه في محكم كتابه المجيد ((ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا)) الإسراء: 32، لكن هذا وصف للزنا باعتباره احد مصاديق الفاحشة وأظهر أفرادها ولا يقتضي اختصاص الفاحشة به كما يظهر من بعض المفسرين بل تعم الفاحشة الزنا والسرقة والربا وغيرها من المعاصي الشديدة والقبائح الرذيلة .

والظاهران قوله تعالى (أو ظلموا أنفسهم) كناية عن عصيان الله ومخالفته التي تؤدي بالسوء على أنفسهم وتؤول بالضرر على أجسادهم بسبب استحقاقهم عقوبة العصيان وجزاء مخالفة الرحمن .

وهذه الآية الشريفة تبين حال صنف من المسلمين وهم العصاة الذين فعلوا فاحشة كبيرة أو ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية -صغيرة كانت أم كبيرة، قليلة كانت أم كثيرة- .

٤ - ((ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)):-

هذه الآية الشريفة تبين وصفاً من أوصاف المتقين، فاذا صدر ذنب من المسلم التقي ورجع إلى رشده ولبه وعقله إلتفت إلى خطيئته وانه قد تبع الشيطان وخالف الرحمن فحينئذ يذكر اله ويستغفر لذنبه أي يذكر ذاته المقدسة ويتنبه إلى تقصيره اتجاهها ويتوجه إلى عقابها ووعيدها فينطلق إلى التوبة والاستغفار من ذنبه، والفاء في قوله تعالى: (ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) تدل على أن الاستغفار أشبه بالفائدة المترتبة على ذكر الله وأقرب إلى الأثر المتفرع عليه، يعني لما ذكروا الله واستذكروا سؤاله وحسابه استغفروا وتابوا من ذنوبهم وكان الاستغفار ثمرة ذكره وفائدة استذكار حسابه.

٥ - ((ومن يغفر الذنوب إلا الله)):-

هذا استفهام تقريري يقصد منه تقرير المسلمين المذنبين بحقيقة عظمى حالة العصيان وعقيبها، أي بعد إنقضاء المعصية وانتهاء الفاحشة التي فعلها وبعد التدبر والتفكر والعودة إلى الرشد يذكر الله ويعترف ان لا غافر للذنوب إلا الله فيلتجأ إليه مستغفراً لذنبه وتائباً من عصيانه عازماً على عدم الإصرار وترك العودة إلى المعصية، وهذه هي فائدة التفكر والعودة إلى الرشد والرجوع إلى الله والإنابة إليه حين يتوجه أن لا غافر للذنوب سوى الله وحين يلتفت أن جميع القوى لا تنجيه من عاقبة ذنبه ولا تخلصه من سوء فاحشته .

٦ - ((ولم يصروا على ما فعلوا)):-

هذه الجملة الشريفة معطوفة على قوله سبحانه ((ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)) والجملة السابقة هي معترضة متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه جيء بها لنكتة معنوية جميلة .

والإصرار على فعل يعني الثبات عليه والمواظبة له والعزم على الاستمرار والدوام، ومعنى هذه الجملة: انهم ذكروا الله سبحانه ودخلت خشيته في القلب وانطلقوا إلى الاستغفار والتوبة والعزم على عدم العودة إلى ما فعلوا من الفاحشة ولم يقيموا على ما صنعوا من المعصية، روى ثقة الإسلام الكليني في (أصول الكافي) عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) وقد سئل عن قوله عز وجل ((ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)) فقال: ((الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بالتوبة فذلك الإصرار)) .

٧ - ((وهم يعلمون)) هذه جملة حالية أي تبين حال المستغفرين الذين لم يصروا على ما فعلوا، ومعناها: إن هؤلاء في الوقت الذي ذكروا الله فيه عقيب الفاحشة ثم استغفروا ربهم وتركوا الإصرار والإقامة عليها في ذاك الوقت هم يعلمون سوء ما فعلوا وفحش ما صنعوا وهم يعلمون أن لا غافر للذنوب إلا الله وهم يعلمون أن الاصرار على الذنب لا ينفعهم بل يضرهم ولا تزول معه فاحشتهم، فالجملة حالية ومرتبطة بتمام ما سبق .

٨ - ((أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)):-

أولئك: إشارة إلى المسلمين المتقين الموصوفين بصفات سابقة على هذه الآية حيث قال الله سبحانه ((وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين)) ثم فسر المتقين بمن تحلى بأوصاف وتلبس بخصال فقال عز من قائل ((الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)) وقد اكتملت الآية الشريفة بسرد أربعة من خصال المتقين، لكن بقيت صفة جليلة وخصلة حميدة هي ركن قويم في التقوى وهي صفة الاستغفار والتوبة من الذنب وعدم الإصرار عليه فذكرها في آية مستقلة اهتماماً بعظيم شأنها واعتناءً بكبير أهميتها حتى يتوجه المتقون لعظيم عناية الله بها ويستفيدوا منها في سلوكهم ويتقربوا بها إلى بارئهم فقال ((والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)) ثم أشار سبحانه إلى أولئك المتقين المتصفين بالخصال الخمسة المتقدمة بقوله سبحانه: ((أولئك جزاؤه مغفرة من ربهم)) أي أولئك جزاؤهم على جهاد أنفسهم بالإنفاق في السراء والضراء وبكظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان والتوبة الصادقة وأجرهم على هذه الصفات هو قبول التوبة والاستغفار وتحقق العفو والغفران ودخول الجنات الموصوفة في القرآن بأحلى الصفات ((تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها)) أي دائمين بلا انقطاع ولا زوال ((وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون)) الزخرف:71.

وينبغي أن يعلم أن مغفرة الله وعفوه سبحانه عن ذنوب عباده تفضل وإحسان وكرامة وامتنان، إذ لا يجب على الله قبول التوبة والاستغفار، بل اذا اقترف العبد فاحشة وأتى معصية استحق ما أعدّه الله لمثله من العذاب والعقاب، ولو عفى الله سبحانه وغفر وفاءً بوعده ((جزاؤهم مغفرة من ربهم)) كان ذلك فضلاً منه وكان رأفة ورحمة وهو الرحمن الرحيم .

٩ - (ونعم اجر العاملين):-

هذا الجزاء والأجر الذي وعد الله به العاملين بالخير والتقوى هو خير الأجر وأفضل الجزاء.

١٠ - في هذه الآية دلالة على أن المتقين قد تصدر منهم السيئة وقد يطوف عليهم الشيطان فيغويهم ويسول لهم العصيان لكنهم يمتازون بالتوبة ويتصفون بالاستغفار بعد الحوبة، ولا ريب في أن التوبة من الذنب من أعظم الواجبات الإلهية حتى صار شعاراً للمؤمنين المتقين، وهي تعني العودة إلى الله عن الانحراف والطغيان وتتضمن الرجوع إلى المولى بعد التمرد والعصيان، وهذا المعنى من التوبة هو الماحي للذنوب والمسقط للعقوبة ((والتائب من الذنب كمن لا ذنب له)) لكن ينبغي أن يعلم أن هذه الآثار العظيمة –محو لذنوب وزوال العقوبة- لا تترتب في الواقع ما لم تكن التوبة نصوحاً وما لم يكن الرجوع صادقاً.

روى السيد الشريف الرضي في (نهج البلاغة) وابن شعبة في (تحف العقول) عن أمير المؤمنين تفسيراً للتوبة النصوح والاستغفار الحقيقي الذي ينبغي صدوره من المسلم العاصي إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه حيث قال أحد المسلمين (استغفر الله) بمحضر أمير المؤمنين فقال له: أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً،والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسد ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول (استغفر الله).

هذه الرواية الشريفة تبين لوازم التوبة الصادقة وعلامات العودة الناصحة: فالأول هو أن يظهر العاصي الندامة على ما صدر عنه من الفحش والعصيان، قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام):((والله ما ينجو من الذنب إلا من أقرّ به))، ثم قال (ع): (كفى بالندم توبة) وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (ما من عبد أذنب ذنباً فندم عليه إلا غفر الله له قبل ان يستغفره) أي قبل أن يحرك شفتيه ولسانه بكلمة (استغفر الله وأتوب إليه) لأنه بالندم

يتحقق الرجوع إلى الله والتوبة من معصيته، وقال( ): ((من سرته حسنته وسائته سيئته فهو مؤمن)) .

والثاني: أن يعزم على عدم العودة إلى معصية الله أبداً وطيلة العمر، ولولا هذا العزم النفسي والتصميم الروحي لم ينفع الاستغفار القولي ولم يكن المستغفر بلسانه ممن شملته الآية ((ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم... ولم يصروا على ما فعلوا
’’ وهو في الحقيقة متردد في التوبة والعودة بل قد
بلسانه مصراً على المعصية مقيماً على
الفاحشة، وحينئذ أي توبة له لو قال (استغفر الله) وهو مصرّ في سلوكه على معصية الرحمن ومقيم في واقعه على متابعة الشيطان؟ وقد جاء في الحديث النبوي الشريف المتفق على روايته ((لا صغيرة مع الإصرار)) وقال أبو جعفر الباقر ( ): ((المقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ)) وقال أبو عبد الله الصادق ( ): ((لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته مع الإصرار على شئ من معاصيه)) وقال الفقهاء (رض): إن المعصية الصغيرة مع الإصرار عليها والإدامة لها كبيرة ولا تبقى صغيرة، ويحكم العقل بأن المصر على الذنب والمقيم عليه مع التفاته إلى أنه عصيان الله ودوام عليه هو مستكبر ومستهين بأمر الله غير معتن بهتك حرماته؟ سأل أبو بصير الصادق ( ) عن قوله تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)التحريم: 8، قال: ((هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً)) قلت: وأينا لم يعد؟ فقال: ((يا أبا محمد –كنية أبي بصير- ان الله يحب من عباده المفتن التواب)) والمفتن –كما في نهاية ابن الأثير ومجمع البحرين- هو الممتحن بالذنب والتوبة أي يمتحنه الله بالذنب فيتوب ثم يعود إلى الذنب ويتوب، وقال الصادق ( ): ((ان الله يبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير)) وقال ((انه والله ما خرج عبد من ذنب باصرار)) إذن ما لم يعزم المسلم العاصي على ترك العودة إلى المعصية لم تنفعه التوبة.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة، فانه تنقسم الذنوب إلى قسمين:

الأول- مجموعة الذنوب المتمحضة في مخالفة أمر الله أو نهيه نظير ترك الصلاة والصيام ونحوهما مما لا يترتب فيه ضياع حق آدمي أي لم يتعلق به حق انسان.

والثاني- مجموعة الذنوب المشتركة بين تضييع حق الله وحق آدمي مثل السرقة والربا ونحوهما مما يتضمن انتهاك حرمة الله ومخالفة أمره أو نهيه وفيه ظلم آدمي وتضييع حقه أو ماله، فاذا أذنب المسلم ذنباً من قبيل الثاني أي مما يتعلق بحق آدمي يجب عليه –لكي تكون توبته صادقة- أن يؤدي إلى المخلوقين حقوقهم التي تجاوز عليها ويرجع إليهم أموالهم التي عصى الله بها وأكلها من غير حل حتى يلقى الله عز وجل أملس ليس عليه تبعة ولا تبقى معه مسؤولية لأن التوبة لا تنفع إلا في محو حق الله تفضلاً منه سبحانه على عباده التائبين، وأما حقوق الناس فيحتاج محوها وزوال مسؤليتها إلى رضاهم وإرضائهم، وحينئذ لو طاف شيطان على أحد وأغواه وأوقعه في الخطيئة فسرق أموال الناس أو ترابى معهم أو أكل أموال اليتامى أو منع حقوق الله وحرم الفقراء من حقوقهم –الزكاة أوالخمس أو نحوهما من الحقوق التي جعلها الله لهم في أموال الأغنياء- أو طفف مكياله في معاملاته أو خان شريكه في تجارته أو جحد ديوناً ثابتة عليه أو غصب أموال مسلم من دون حق عليه أو ما شاكل ذلك من المحرمات والمعاصي المشتركة التي أتعب الفقهاء أنفسهم في بيانها واستنباط أحكامها وأساليب تداركها، فمن فعل ذلك يلزمه الندم والتأسف على ما صدر عنه ثم العزم على عدم العودة إلى معصية الله ثم إرجاع أموال الناس وحقوقهم وإرضائهم واستعفاءهم كي تكون التوبة صادقة ولا تبقى عليه تبعة أو مسؤولية لمخلوق، وهذا الأمر الثالث تشريع نابع من احترام الله سبحانه لحقوق الآدميين وحفظه لها وتحفظه عليها في عموم تشريعاته وفي أصول ديانته، وقد أكدته الروايات العديدة فقد جاء في الصحيح عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حقه لم يزل الله معرضاً عنه ماقتاً لأعماله التي يعملها من البر والخير لا يثبتها في حسناته حتى يرد المال الذي أخذه إلى صاحبه)) وقال أبو جعفر الباقر لشيخ اعترف بظلم بعض عباد الله وأراد التوبة في حال شيخوخته

وسأل: هل لي من توبة؟ فقال له: (لا، حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه) وفي الصحيح عن أبي جعفر(عليه السلام): ((الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله وظلم لا يغفره الله وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد)).

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها، أي اذا ضيع المسلم العاصي في زمان عصيانه وانحرافه فريضة من فرائض الله التي تقضى بعد خروج وقتها وزوال أمدها كالصلاة والصيام والحج يلزمه- لكي تكون توبته صادقة- أن يعمد إلى تداركها وقضاءها ليكون مؤدياً حقها بعد تضييعها في وقتها .

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان والطاعة حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسحت هو المال الخبيث الحرام والذي كسبه من غير حل وحصله من غير حق واكله بالباطل ثم نبت عليه لحمه، هذه النقطة تدعو المسلم العاصي -اذا أراد التوبة الصادقة العالية- أن يعمد إلى لحمه الذي نبت على السحت فيذيبه بالطاعات ويتعب جسده بالأعمال الصالحة من صلاة وصيام وذكر وركوع وسجود وبكاء وتضرع، فاذا أظمأ هواجره بالصوم وأحزن قلبه وعينه بالبكاء والنحيب على ما فرط في جنب ربه ومولاه وإذا اتعب جوارحه بالركوع والسجود ولسانه بالتوبة والاستغفار حتى ذاب ذاك اللحم النابت على الحرام والتصق بالعظم جلده وبان بجسمه ضعفه كان في أعلى درجات التوبة وأعلى مراتب الاستغفار وكشف ذلك عن صدق التائب في توبته كشفاً تاماً لا يقبل المناقشة والتشكيك واستوجب أعلى درجات الجنان وأرفع مراتب الإحسان وذلك لعدم وجوب هذه المرتبة من التوبة والاستغفار بعكس المراتب السابقة فيكون بلوغ التائب إليها وتنفيذه لها كاشفاً عن حسن سريرته وصدق نيته واخلاص قصده في التوبة والرجوع إلى الله والانابة إليه وقد روى الصدوق والسيوطي بعض الروايات التي تفسر التوبة بصوم ثلاثة أيام – الأربعاء والخميس والجمعة- وبصلاة واستغفار، وهي مصاديق التوبة العالية ومظاهر العودة إلى الله الكاملة .

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فمن أراد التوبة الصادقة والعودة الكاملة إلى الله أشواطاً وخطوات نحو الله بأن ندم ثم عزم على عدم العودة ثم أدى حقوق الناس وشرع في الوفاء بحق الفرائض التي ضيعها وغير ذلك يلزمه في فترة من الزمان مساوية لفترة العصيان أن يواظب على الطاعات ويستمر على الحسنات ليذوق جسمه تعب الطاعة وألم الحسنة كما ذاق سابقاً طعم السيئة وأنس المعصية، وبهذا الجهاد مع النفس الأمارة بالسوء ترتفع درجة التائب وتعلو منزلة المستغفر، قال الله (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)طه: 82، وقال سبحانه: (وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) الأعراف:153، وقال تعالى: (أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) المائدة:74، وقال (أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) التوبة:104، وقال: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إليه يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً) هود:52، وقال عز من قائل: (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) البقرة:222، وقال: (وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً)النساء: 110، وقال: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً {10} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً {11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً)نوح:10-12، هذه آيات الله وغيرها كثير في القرآن الحكيم وهي بشارات الله إلى عباده العاصين تدعوهم للمبادرة إلى التوبة وترغبهم في الإسراع إلى طلب المغفرة، وينبغي أن يعلم العاصي ((ان الله تبارك وتعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من وجدها ذلك الرجل براحلته حين وجدها)) كما جاء في الخبر الصحيح، وحينئذ ينبغي للعاصي أن يستفيد من دعوات الله وترغيبات أوليائه إلى التوبة وطلب المغفرة، ونختم حديثنا بالتضرع إلى الله والدعاء ((ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شئ قدير))التحريم:8، ((ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)) الحشر:10 .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {18} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

١ - هاتان الآية الثامنة عشرة والآية التاسعة عشرة من سورة الحشر وهي سورة مدنية جليلة ابتدأت بالحديث عن إخراج الذين كفروا من يهود بني النضير عن ديارهم واختتمت بآيات المحاسبة والمراقبة لله، وهاتان الآيتان الشريفتان تتكفلان دعوة المؤمنين إلى التفكر والنظر في أعمالهم وتحذران المتقين من نسيان الله سبحانه الذي هو من سمات الفاسقين، ولا يخفى عميق الصلة بين هذا المضمون ومضمون التوبة الذي تكفلته الآية السابقة، والغرض تذكير المؤمنين التائبين ضرورة التعود على محاسبة النفس بعد التوبة ولزوم الاعتياد على مراقبة العمل عقيب طلب المغفرة حتى تصدق التوبة وتقبل الأوبة .

٢ - ((يا أيها الذين آمنوا)): هذا خطاب إلى كل من آمن بالله ورسوله وأذعن بالعودة إلى الله التي تنكشف بها السرائر وتتطاير بها الكتب وتحاسب بها الأنفس على ما اقترفت في عالم الدنيا.

٣ - ((اتقوا الله)): هذا أمر ربوبي ونصح مولوي متكرر في آيات القرآن وسوره وفي روايات السنة وأخبارها وقد أريد به التذكير والانتفاع منه في السلوك والعمل بامتثال ما أمر الله به وفرضه واجتناب ما نهى عنه وحرمه وهو أساس الإيمان ووصية الرحمن وشعار الأولياء.

٤ - ((ولتنظر نفس ما قدمت لغد)):

ما قدمت: كناية عن الأعمال التي يعملها الإنسان في دنياه من خير أو شر، وهي وثيقة يقدمها لآخرته شاء أم أبى .

والمراد من (غد) يوم القيامة وقد جاءت اللفظة منكرة من دون تعريف لتبين عظمة ذلك اليوم وتدل على فخامته وهوله وانه لا يعلم واقعه ومجرياته، وقد عبر سبحانه عن يوم القيامة

بغد الذي هو اليوم التالي وذلك لبيان قربه ودنوه فان كل ما هو آت قريب أو لغرض التذكير بقصر عالم الدنيا مهما طال عمر الإنسان وانه بمنزلة يوم لابد أن يجيء غده وتقوم قيامته ويرد الحساب وتنكشف الكتب والأسرار .

٥ - ((واتقوا الله)): هذا الأمر الثاني بالتقوى في آية واحدة وهو تكرار وإعادة وفيها إفادة التأكيد والاهتمام : التأكيد على الأمر بتقوى الله ولزوم طاعته واجتناب معصيته، والاهتمام بشأنها وعظيم قدرها، ولا عجب فإنها الأساس في الإيمان والمنطلق إلى متابعة الرحمن وشكر المنان وقهر الشيطان والقرب من المهيمن الديان.

٦ - ((ان الله خبير بما تعلمون)): هذا تذكير بحقيقة الاحاطة الربوبية والخبرة الإلهية بأعمال الناس وتصرفاتهم، يراد منه الاستذكار والانتباه في مجالات العمل، وهذا منهج قرآني تربوي حيث أن الإنسان بطبعه اذا عرف ان عليه رقيباً يراقب حركاته وخبيراً يحيط بتصرفاته لاريب يتأثر سلوكه ويتغير تصرفه نحو الأصلح والأتقى والأرضى، وقد تكرر في آيات الله تذكير عباده بخبرته وإحاطته وعلمه وإطلاعه وهو أمر مقصود ولغرض جليل وحكمة عالية.

٧ - ((ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم)):

نسوا الله: أي غفلوا عنه ولم يذكروه حيث تركوا شكره وتعظيمه وإطاعته.

فأنساهم الله: أي جازاهم وعاقبهم فسلب منهم التوفيق لذكره وأوقعهم في نسيان أنفسهم فغفلوا عما يصلحها وذهلوا عما ينفعها فلم يقدموا لآخرتهم ما يوجب نجاحها وخلاصها.

٨ - ((وأولئك هم الفاسقون)): وهذا ذم مؤكد وازدراء مشدد للذين نسوا الله فهم فاسقون وخارجون عن طاعة الله .

٩ - بعد هذا البيان يصير معنى الآيتين واضحاً:

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بامتثال أوامره وأداء فرائضه واجتناب نواهيه ومحرماته وانظروا في أعمالكم التي تقدمونها لآخرتكم وتسجل عليكم لمعادكم وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا يوم القيامة وزنوا أنفسكم هل أنتم عملتم الصلاح أم عملتم السوء قبل أن توزنوا بميزان الله العادل يوم المعاد وتطاير الكتب وتكشف الأوراق والأعمال، والعاقل يبادر إلى إصلاح

العمل قبل ورود الأجل وفوات الأمل في الخلاص والنجاة وقد أوصى رسول الله (ﷺ) بعض المسلمين بقوله: ((إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان يك رشداً فأمضه، وإن يك غياً فانته عنه)) وهذا شأن العقلاء في أمورهم يفكرون وينظرون ويحسبون الخسارة من الربح فينبغي للعاقل المؤمن أن يحسب لآخرته كما يحسب لدنياه ويتدبر عاقبة أعماله ولا يمضي ولا يسير إلا في أمر خير ورشد، ولا رشد إلا في تقوى الله التي أمر بها ولا خير إلا في التوبة إلى الله واستئناف العمل الصالح ومراقبة النفس والنظر في أعمالها والله خبير بها ومطلع عليها، ثم في الآية اللاحقة حذر المؤمنين من نسيانه سبحانه ونهاهم عن عدم تذكره في أحوالهم وتصرفاتهم كي لا يكونوا كالذين نسوا الله فجازاهم الله بنسيان أنفسهم وسلب توفيقهم نحو النجاح والخلاص ((فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا)) الأعراف:.51

10- هذه الآية الشريفة أصل عظيم وأساس كبير في الحث على محاسبة النفس وفي الندب إلى المراقبة والمتابعة والنظر فيما عمله من خير ينجيه أو سوء يرديه يوم غد.

والمراد من المحاسبة والمراقبة أن يعين المؤمن لنفسه ساعة من ليل أو نهار يتفكر فيها ما عمله ويتذكر ما صنعه من خير أو شر كيما يتدارك ما ارتكبه من معصية أو سيئة بتوبة واستغفار وعزم الإنابة إلى الله، أو يستزيد ربه مما أتى به من الصالحات ويحمد الله سبحانه على توفيقه راجياً ربه دوام التوفيق واستمرار العون على الاستقامة.

واذا تذكر الإنسان هول القيامة وعظمة الحساب ودقة التسجيل علم الإنسان الفائدة في تشريع المحاسبة وعرف الحكمة في محبوبية المراقبة، ويكفيها حسناً أن تقوي وازع الخير في الانسان رغبة في الرضوان واقتراباً من الرحمن وأن تضعف دافع السوء حذراً من البعد والعصيان، وقد ذكرنا الله سبحانه في كثير من آيات كتابه بأهوال يوم القيامة، نتذكر قوله تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً)آل عمران: 30، (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)الكهف: 49، (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) الأنبياء:47، وغيرها كثير في آيات الله وسنة رسوله المصطفى تذكر بهول يوم القيامة وتؤكد حكمة تشريع المحاسبة .

11- وردت الروايات الكثيرة في حث المؤمنين على محاسبة أنفسهم ومراقبة أعمالهم من صغير أو كبير ومن قليل أو كثير، قال رسول الله (ﷺ): ((حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها وزنوها قبل أن توزنوا)) وجاء في وصية النبي (ﷺ) إلى أبي ذر – وينبغي أن تكتب هذه الوصية بماء الذهب-: ((يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تحاسب فانه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهز للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى على الله خافية، يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه؟ أمن حلال أو من حرام؟ يا أبا ذر من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار)) وجاء في الخبر الصحيح عن مولانا الكاظم (عليه السلام): ((ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فان عمل حسناً استزاد الله، وان عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه)) وقال مولانا الصادق (ع): (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فان للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقداره مقام ألف سنة)) ثم تلا قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)المعارج:4، وكأن غرضه –من تذكيرنا بمواقف القيامة الخمسين وأهوالها العظيمة عقيب أمرنا بمحاسبة أنفسنا- هو بيان ان هول المواقف في يوم القيامة ناشئ من المحاسبة الشديدة والمناقشة الدقيقة في أعمال الناس وتصرفاتهم وأن من يحاسب نفسه في عالم الدنيا قبل ان يعمل أو بعده تهون عليه المواقف وأن من تنظر نفسه فيما قدّمت لغدٍ واتقى الله لا يقع في الشدائد أو تخّف عليه.

12- جاء في (عيون أخبار الرضا) للشيخ الصدوق في حديث طويل عن الرضا(عليه السلام) وفيه يقول: (وانما يجازى من نسيه ونسى لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم كما قال الله تعالى: ((ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم)).

6- ((أولئك هم الفاسقون)) وقال عز وجل: ((فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا)) أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا، وجاء في الدر المنثور للعلامة

السيوطي عن صحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن جرير قال: كنت جالساً عند الرسول (ﷺ) فأتاه قوم عامتهم من مضر فلما رأى النبي (ﷺ) الذي بهم من الجهد والعرى والجوع تغير وجه رسول الله (ﷺ) ثم قام فدخل بيته ثم راح إلى المسجد فصلى الظهر ثم صعد منبره فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

((أما بعد فان الله أنزل في كتابه: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون تصدقوا قبل ان لا تصدقوا، تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة، تصدق امرؤ من ديناره، تصدق امرؤ من درهمه، تصدق امرؤ من بره، من شعيره، من تمره، لا يحقرن شئ من الصدقة ولو بشق التمرة)) فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه، فناولها رسول الله (ﷺ) وهو على منبره فعرف السرور في وجهه فقال: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل اجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً)) فقام الناس فتفرقوا، فمن ذي دينار و من ذي درهم، ومن ذي طعام ومن ذي، ومن ذي، فاجتمع فقسمه بينهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾

١ - هذه الآية الثانية والخمسون بعد المئة من سورة البقرة وهي سورة مدنية طويلة ومن أفضل سور القرآن لكثرة ما تضمنته من معارف إلهية وأحكام شرعية، وهذه الآية الشريفة من بين آياتها، وهي قصيرة في ألفاظها كبيرة في معناها جليلة في مضمونها، حيث تضمنت فائدتين: أمرت بذكر الله مع بيان جزاء ذكره سبحانه وأمرت بشكر الله مع الإبتعاد عن الكفر به والجحود لنعمته .

٢ - ((فاذكروني)): الذكر يعني حضور المعنى في النفس وهو ضد النسيان والغفلة .

((أذكركم)): هذا جواب الأمر بذكره سبحانه وجزاء له ولأجله جزم اللفظ.

((اشكروا لي)): الشكر يعني الاعتراف بالنعمة والاقرار بالخير .

((ولا تكفرون)): هذا نهي عن الكفر وإنكار النعمة وجحود الخير وإخفاء الفضل .
3- معنى ذكر الله هو استحضار الذات المقدسة في خزانة النفس واستذكار الله في باطن الذهن في جميع الأحوال والأوقات ومجموع التصرفات ليكون رادعاً عن الاقدام على ما حرم الله ومعيناً على الاتيان بما اوجب الله، وهذا مراد من فسر ذكر الله بطاعته سبحانه .
وقد جعلت الآية الشريفة جزاءً لمن امتثل هذا الأمر وتضمنت وعد الله سبحانه أن يقابل من ذكره ولم يغفل عنه سبحانه ان يذكر ذكراه ولا ينساه، وذكر الله لعبده هو إحاطته برأفته ورحمته ولطفه في جميع المواقف والعوالم .
وفي هذه الآية الجليلة تربية إلهية عملية على مقابلة الإحسان بالإحسان ومجازاة الخير بالخير، فان الله سبحانه غني عن الذكر والعبد هو المستفيد من الذكر، ومع ذلك وعد عباده الذاكرين له أن يقابلهم بالذكر ويجازيهم بالخير عوض ذكره سبحانه والحال ان من يذكر الله ويتوجه إليه ويستحضره في خزانة الذهن فينطلق إلى طاعته فيما أمر والى خشيته فيما حرم يكون هو المنتفع بذكره وإليه يعود الخير والإحسان والصلاح والنجاح، لكن حيث أن ذكره يكشف عن حسن سريرة العبد ويوجب رضا الرب إلتزم سبحانه لذلك بهذا الجزاء وهذه المقابلة، وعلينا أن نتأدب بهذا الخلق الإلهي الرفيع ونتربى على وفق العدل الربوبي اللطيف .
4- وقد كثرت الآيات الشريفة وتواترت الروايات الكريمة في الأمر بذكر الله وبيان فضله، وذكر الله يتحقق بصور ثلاثة جميعها محبوبة له سبحانه ومطلوبة إليه وإن اختلفت في مراتب فضلها، وهي:
الأولى:- الذكر اللساني كأن يحمده ويكبره ويسبحه ويهلله وما يشبه ذلك مما حفلت به الروايات الكثيرة وتعرضت كتب الأدعية والأذكار لأنواعه وآثاره من أخروية ودنيوية، وهذا نحو من الذكر ومرتبة منه، وأفتى الأعلام تبعاً للروايات باستحباب تحريك اللسان وترطيبه بذكر الله ثم:
المرتبة الثانية: الذكر الباطني وهو ذكر الله في القلب والفكر والعقل كأن يتفكر في دلائل العقائد الصحيحة والمعارف

الإلهية النافعة أو في دفع الشبهات المتجددة في كل عصر ومصر أو في مدارك الأحكام الإلهية والشرايع المحمدية أو يتفكر في الطريق الأمثل لاصلاح العباد وتقريبهم إلى الله وابعادهم عن الشيطان ثم:-

المرتبة الثالثة: الذكر الجوارحي وهو ذكر الله بالأعضاء والجوارح بمعنى التوجه بجوارحه نحو طاعة الرحمن وبعيداً عن معصية الجبار، فيتابع تصرفاته ويراقب حركاته فلا يخطو خطوة إلا اذا كان فيها رضوان الله وقربه، وهذا المعنى ونوع الذكر هو العمدة حتى ان كثيراً من المفسرين فسروا الذكر بالاطاعة فقالوا: معنى (اذكروني أذكركم) اذكروني بالطاعة أذكركم بالرحمة والثواب، إلا انه لا يختص الذكر بهذا المعنى كما أوضحنا.

5- يظهر من الروايات الشريفة الكثيرة ان ذكر الله وان كان يتحقق بالذكر اللساني والقولي، لكن الذكر الباطني والذكر الجوارحي هما المصداق الأفضل والذكر الأنفع، قال رسول الله (ﷺ): ((من أطاع الله فقد ذكر الله وان قلت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وان كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن)) وهذا الحديث الشريف متفق على روايته بين جميع الأعلام والمحدثين والمفسرين وهو يدل بوضوح على أن الذكر الأهم ذكر الله بأعضائه وجوارحه وبامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه فهي الطاعة والذكر النافع ولا تضر معه قلة الصيام والصلاة والتلاوة والتسبيح، كما يدل الحديث بجلاء على أن ذكر الله باللسان وكثرة التلاوة والتسبيح والصلاة والصيام لا ينفع ولا يكون الشخص بذلك ذاكراً لو كان عاصياً بجوارحه بل يعتبر ناسياً لله بعصيانه غافلاً عنه بارتكاب محرماته، ويكون ممن ((استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله)) المجادلة:19، وفي الدر المنثور عن النبي الأكرم (ﷺ) قال الله سبحانه: ((اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، ومن ذكرني وهو مطيع فحق علي أن أذكره بمغفرتي، ومن ذكرني وهو عاصٍ فحق عليّ أن أذكره بمقت)) ويتبين من هذا الحديث الشريف أن ذكر الله باللسان وهو عاصٍ بباقي الجوارح والأعضاء موجب لاستحقاق مقت الله وغضبه وعقابه، وقال رسول الله (ﷺ) مخاطباً أمير المؤمنين (عليه السلام): ((يا علي ثلاث لا تطيقها

هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله وإنصاف الناس من نفسه وذكر الله علي كل حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر، ولكن اذا ورد على ما يحرم الله عليه خاف الله تعالى عنده وتركه)) وقال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): ((أشد ما فرض الله عز وجل عليك: انصاف الناس من نفسك ومواساتك لأخيك وذكر الله في كل موطن،أما أني لا أقول: سبحان والحمد لله ولا اله إلا اله والله أكبر، وان كان هذا من ذاك- أي وان كان هذا من ذكر الله- ولكن ذكر الله في كل موطن اذا هجمت على طاعة أو معصية)) أي ذكر الله في كل موطن يدور الأمر بين أن تقتحم طاعة أو تهجم على معصية هو أن تختار طاعة الله وتبتعد عن معصية الله، وروي بطرق كثيرة قول الصادق (عليه السلام): ((أشد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك حتى لا ترضى لها منهم بشئ إلا رضيت لهم منها بمثله، ومواساتك للأخ في المال، وذكر الله على كل حال، ليس سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله اكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك شئ أمر الله به أخذت به وإذا ورد عليك شئ نهى عنه تركته)) وفي رواية الصدوق ((ولكن ذكر الله عندما احل له وعندما حرم عليه))، وقال (عليه السلام): ((من قال: لا اله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن يحجزه لا اله إلا الله عما حرم الله)).

هذه الروايات الكثيرة وغيرها صحيحة الإسناد وبعضها متفق على روايتها بين أهل الأخبار أو جبت أن يفتي أعاظم علماء الإسلام وأكابر مفكريه بأن ذكر الله باللسان ما لم ينضم إليه الذكر بالجوارح ومالم يقترن به الاعتقاد الصحيح والتقوى والورع عن محارم الله لا ينفع الذاكر ولا يفيد القاريء .

٦ - هذه الآية الشريفة أمرتنا أن نذكر الله سبحانه ووعدتنا بجزاء الذكر وهو أن يذكرنا الله كما ذكرناه، ثم أمرتنا أن نشكر الله سبحانه ونعترف له بنعمه علينا ((وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها))النحل: 16، ونهت عن الكفران بالله والكفران لنعمه والجحود لآلائه، وقد كان من دعاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عقيب صلواته قوله: ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)).

ومعنى شكر الله سبحانه هو الاعتراف للمنعم الواحد بنعمه والائه التي لا تحصى والإقرار للمحسن الماجد بإحسانه وأفضاله التي لا تستقصى.

ومعنى (لا تكفرون): لا تجحدوا نعم الله ولا تخفوها ولا تنكروها أو تستروا كثرتها .

ويتحقق شكر الله وترك الكفران بنعمه بصور ثلاثة أيضاً، جميعها محبوب لله وتمامها مطلوب له سبحانه، ولكن أفضلها آخرها كما يتبين من الأخبار، وهي:

الأول: الشكر باللسان وإظهار الثناء والحمد لله بالقول، ومن قال (الحمد لله) فقد أدى شكر كل نعم الله سبحانه كما جاء في الحديث عن السجاد عليه الصلاة والسلام.

الثاني: الشكر بالقلب بأن يرى تمام نعمه من الله فيعقد قلبه على شكر الله ويعترف في باطنه بنعم الله عليه وهي لا تعد ولا تحصى، فيكون هذا الشكر مصداقاً لشكر اللسان وبرهاناً لصدق المقال، قال سبحانه (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) إبراهيم: 7، وقال الصادق: ((من انعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدى شكرها)).

الثالث: الشكر بالأعضاء والجوارح بأن يصرف نعم الله عليه في طاعته ورضوانه وفي اجتناب محارمه ومبغوضاته، وهذا هو الشكر الحقيقي والكاشف الصادق عن الشكر وعدم الكفران، وهذا هو الذي دعت إليه آيات من القرآن كثيرة وروايات من السنة عديدة، قال الله تعالى: (مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ)النساء:147، (هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)النحل: 40، (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)الإنسان:3، (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ)الزمر: 66، قال أمير المؤمنين (ﷺ): ((شكر كل نعمة الورع عما حرم الله تعالى))وقال أبو عبد الله الصادق (ﷺ): ((شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين))وقد سئل الصادق: هل للشكر حد اذا فعله الرجل كان شاكراً؟ فأجاب: نعم، قيل: ما هو؟ قال: (يحمد الله على كل نعمه عليه في أهل ومال، وان كان له فيما أنعم عليه في ماله حق اداء) أي وان كان لله سبحانه حق فيما أنعم على عبده في ماله أداه، وبحمد الله على كل نعمة واداء حق الله عليه الذي فرضه في ماله الذي هو نعمة من الله يكون شاكراً حق الشكر، وفقنا الله لذكره حق ذكره وشكره انه سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

1- هاتان الآيتان المئة والآية السابقة عليها من سورة المؤمنين، وهي سورة مكية جليلة تضمنت صفات المؤمنين وتمييزهم عن الكافرين وتعرضت لتبشير المؤمنين بما أعده الله لهم من حسن الجزاء على حسن صنيعهم وجميل صفتهم في عالم التكليف كما تعرضت لانذار الظالمين والكافرين من سوء وعيد الله لهم على كفرهم بالله وظلمهم لأنفسهم وانحرافهم عن الحق، وهاتان الآيتان تذكرنا بالموت وما بعد الموت وما يتمناه الظالمون حين معاينتهم نذر الموت، وهي عظة للمؤمن وتذكرة للمسلم أن لا يغفل عن الموت والاستعداد له وقد روي عن رسول الله (ﷺ) بطرق متعددة عندما سئل: أي المؤمنين أكيس؟ قال صلوات الله عليه ((أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم له استعداداً)).

2- ((حتى اذا جاء أحدهم الموت..))

الظاهر من سياق الآية الشريفة ارتباطها بما سبقها من الآيات الحاكية لإنكار الظالمين المعاد إلى الله وقولهم: ان هذا إلا أساطير الأولين وإنكار الله سبحانه عليهم جحودهم وانكار وصفهم رب العباد بما يتنزه عنه سبحانه.. هؤلاء الظالمون المنكرون اذا استمروا في ظلمهم وانكارهم وجحودهم حتى تجيء لحظات الأجل ويشرف الموت عليهم عاينوا حقيقة ما انكروا وشاهدوا صدق ما وعدوا وحق ما انذروا، فيتحسرون حينئذ على قبح ما صنعوا ويندمون على سوء ما أنكروا ويتمنون الرجعة إلى الدنيا والعودة للعمل ويستغيثون الله ((رب ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت)) من مال وعيال وارتباطات وعلاقات، لكن القانون الالهي يرفض والقضاء الربوبي يردع ((كلا)) قضي القضاء وانتهى الاجل فلا عودة ولارجعة بعد اليوم انها كلمة هو قائلها والكلام سهل وقد مضى زمن العمل وجاء وقت الحساب ومن ورائهم برزخ وأمامهم عالم وحياة أخرى إلى يوم يبعثون والى ساعة يقومون ويرجعون إلى الله في عالم القيامة .

3- يظهر من قوله تعالى ((حتى اذا جاء أحدهم الموت قال: رب ارجعوني)) ان الإنسان إذا حل به الأجل وأشرف عليه الموت تنكشف له حقيقة لم يدركها من قبل ويتضح له أمر لم يحس به فيما سبق، ولذا يستغيث هؤلاء الظالمون ربهم يطلبون الرجعة ويتمنون العودة ويقعون في الحسرة على سوء صنعهم وفساد حالهم.

وهذه الحقيقة أكدتها بعض الآيات الشريفة وأوضحتها الأحاديث الكريمة حيث دلت على المعاينة والمكاشفة وإن إختلفت الروايات في بعض المضامين والتفاصيل، فلا إشكال في أن اللحظات الأخيرة من دنيا الإنسان يكشف الله له فيعاين بعض الملائكة ويرى إمارات الآخرة ويشاهد رسول الله (ﷺ) وعلياً وقد روى المسلمون قول علي للصحابي الجليل الحارث بن عبد الله الهمداني:-

يا حار همدان من يمت يرني من مؤمن أو منافق قبلاً

واخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله ان رسول الله (ﷺ) قال: ((إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شئ يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه، فعند ذلك يقول رب ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت)) ومن هذه الرواية الشريفة يتبين لنا ان المعاينة والمكاشفة حال الاحتضار لا تختص بالظالمين والكافرين بل تعم المؤمنين وهذا مما صرحت به عدة من الآيات الكريمة وكثرة من الروايات الشريفة، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ { 9} وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ { 10} وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)المنافقون: 9-11، وقد روى الترمذي: ان رجلاً من المسلمين سمع حبر الأمة ابن عباس (رض)يقول: (من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت) فقال الرجل: (يا ابن عباس إتق الله، إنما سأل الرجعة الكفار) فقال له ابن عباس: (سأتلو عليك قرآناً) وقرأ هذه الآيات الثلاثة من سورة المنافقين، فإنها تدل بوضوح على أن الذين آمنوا اذا أتى الموت أحدهم يرى شيئاً وينكشف له ما يدعوه إلى سؤال الرجعة وطلب العودة إلى

الدنيا والى رجاء تأخير الأجل ولو إلى أمد قريب ليتدارك تقصيره في عالم الدنيا عن بعض التكاليف الإلهية نظير الحج والزكاة ولكن لا يجاب المؤمن كما لا يرجع الظالم الكافر، ومن هنا أفاد جمع من أعلام المفسرين كالقرطبي والطبرسي (رض): ان في الآية دلالة على أن أحداً من الناس لا يموت ولا تخرج روحه من عالم الدنيا قبل أن يعرف منزلته عند الله: أهو من أوليائه أم من أعدائه؟ إذ لولا ذلك لما سأل الرجعة وما طلب العودة والتأخير في الأجل لعله يتدارك ويعمل صالحاً فيما ترك .

٣ - وقد دلت عدة من الآيات – مضافاً إلى قوله: ((رب ارجعوني لعلي أعمل صالحاً)) على ان المقصرين في أداء حقوق الله وفرائضه حال احتضارهم ومعاينتهم يسألون ربهم الرجعة ويطلبون تأخير قبض الروح ولات حين مناص قال تعالى حكاية عنهم: ((فارجعنا نعمل صالحاً)) سجدة: 12، ((رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين)) المنافقون:10، ((يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا))الانعام: 27، فيتمنى الشقي حال الاحتضار أن يرجع حتى يصدق بآيات ربه ويعترف بحقوقه وفرائضه ويعمل صالحاً فيما ترك من مالٍ بانفاقه في حج مفروض أو زكاة واجبة منع أهلها ومستحقيها، وقد روي بعدة طرق عن علي وأبنائه الكرام (من منع قيراطاً من زكاة خرج عن الإيمان وفارق الإسلام وانه يسأل الرجعة عند ظهور امارات الموت كيما يتصدق بما فرضه الله عليه في أمواله لكن لا يجاب ولا يرجع))، ثم يقرؤن (ع) الآية الشريفة، وهو تطبيق للآية على اظهر مصاديقها.

5- ((كلا)): جواب صارخ وردع واضح ونفي قاطع، لا عودة ولا رجعة إلى عالم الدنيا.

((انها كلمة)) سؤال الرجعة وطلب العودة كلمة (هو قائلها) ما أرخص قولها وأيسر نطقها عندما يعاين المرء ما يكشف له الحق، لكن لا تنفع الندامة ولا تجاب الدعوة ((ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه)) الانعام:28 .

6- ((ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)):-

البرزخ: هو الحاجز بين أمرين والفاصل بين شيئين، ويراد منه في الآية عالم القبر الذي يعيشه الإنسان في مرحلة متوسطة بين عالم الدنيا والتكليف وبين عالم الآخرة والحساب.

((ومن ورائهم)): مجاز يراد منه (امامهم) بعناية أن المستقبل من الزمان والآتي من الأيام يطلب الناس وهم يسيرون نحوه، فهو ورائهم هنا نظير قولنا (وراءك زواج) أي هو أمامك فاستعد له، وقولنا (وراءك موت) أي هو قدامك فاستعد له، ويراد من الآية: وأمامهم برزخ إلى يوم يبعثون فاستعدوا له، وهذه الجملة الشريفة أثبتت حقيقة غيبية دامغة وحجة قرآنية قاهرة هي حقيقة عالم البرزخ وهو العالم الحاجز بين عالم الدنيا الذي ينتهي بالموت وبين عالم الآخرة الذي يبتدأ يوم يبعثون من قبورهم إلى ساحة العرض الأكبر، وقد دلت على هذه الحقيقة عدة من الآيات وكثرة من الروايات، قال الله جل وعلا: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ)البقرة: 28، وهذه الآية واضحة الدلالة على ثبوت عالم البرزخ حيث يسأل سبحانه الكافرين سؤال تقرير وتوبيخ، لا سؤال تعرف واستعلام، كيف تكفرون بالله وقد كنتم أمواتاً قبل يومكم هذا فأحياكم هذه الحياة الدنيا بعد أن لم تكونوا أحياء ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون؟ هذا الترتيب والتكرار في الإماتة والاحياء ثم الرجعة إلى الله لا يستقيم إلا مع اثبات عالم متوسط بين عالم الدنيا الذي فيه إحياء عقيب الموت والعدم وبين عالم الآخرة الذي فيه إحياء وبعث ورجوع يسبقه إحياء في البرزخ والقبر، ومن هذا التقريب تتضح دلالة آية أخرى على ثبوت عالم البرزخ وهو قوله تعالى حاكياً قول الظالمين والكافرين يوم البعث والنشور (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)المؤمن: 11، ولولا ثبوت الحياة في عالم البرزخ والقبر لم تتحقق الإماتة الثانية التي صرحت بها الآية الكريمة التي صورت لنا حيرة الظالمين واضطراب الكافرين الذين أنكروا في عالم الدنيا البعث والنشور والمعاد إلى الله، ثم جاء يوم النشور وقامت القيامة وقد رأوا إماتتهم بعد الحياة الدنيا ثم إماتتهم بعد الحياة البرزخية وتيقنوا صدق المعاد وحق الحساب فاعترفوا بذنوبهم ولات حين مناص، ولا سبيل للخروج والخلاص في ذاك العالم .

7- وقد دلت الروايات الكثيرة على أن الروح تلتقي بجسدها بعد أن يقبر أو تقترب منه، واجمع المسلمون قاطبة على سؤال ملكين للميت بعد دخول القبر يسألانه عن دينه وعن عقائده وعن أعماله في عالم الدنيا، كما اجمع العلماء والمتكلمون على ضغطة القبر وعذابه وثوابه .

قال عمر بن يزيد (رض) لمولانا الصادق (عليه السلام): ان الذنوب كثيرة فقال الصادق: ((أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع أو وصي النبي، ولكني والله أتخوف عليكم في البرزخ)) قلت: وما البرزخ؟ فقال: ((القبر منذ الموت إلى يوم القيامة)).

وروى الزهري (رض) ان علي بن الحسين (ع) قال: ((أشد ساعات ابن آدم ثلاث ساعات: الساعة التي يقوم فيها ملك الموت والساعة التي يقوم فيها من قبره والساعة التي يقوم فيها بين يدي الله فأما إلى الجنة وأما إلى النار..)) ثم تلا قوله تعالى ((ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)) وقال: ((هو القبر وان لهم فيه معيشة ضنكاً، والله ان القبر لروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)).

وسأل أحد المؤمنين أبا عبد الله الصادق(عليه السلام): أيفلت من ضغطة القبر أحد؟ فأجاب (نعوذ بالله منها، ما أقل من يفلت من ضغطة القبر).

وفي عدة من الروايات الشريفة أن الميت اذا أقبره ذووه جاءه ملكان وسألاه عن دينه وعن عقيدته وأجريا معه تحقيقاً وافياً في أعماله وتصرفاته في عالم الدنيا فان كانت أجوبته خيراً وصدق فيها ناداهما مناد من السماء (صدق عبدي) افرشوا له في قبره من الجنة، وافتحوا له في قبره باباً إلى الجنة وألبسوه من ثياب الجنة حتى يأتينا، وما عندنا خير له، ثم يقال له: نم نومة العروس، ويفسح له في قبره ويفتح له باب إلى الجنة وهو قول الله سبحانه (يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)ابراهيم: 27، واما اذا كانت عقائده باطلة أو أعماله سيئة منحرفة عن جادة الشرع الأقدس في عالم الدنيا فتح الملكان بأمر الله جل وعلا في قبره باباً إلى النار وألبسوه من ثياب النار وسلطوا عليه في قبره كذا وكذا تنيناً –أي حية

كبيرة- نعوذ بالله من سخط الله ونسأله التوفيق للقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم
(وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ {22} فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

1- هاتان الآيتان الثانية والثالثة بعد العشرين من سورة الذاريات، وهي سورة مكية تدعو الناس إلى توحيد الله جل وعلا وتذكرهم بالمعاد إليه يوم القيامة وتخوف الجاحدين من النار والعذاب الأليم وتبشر المحسنين بالجنة والثواب الكريم، وهاتان الآيتان شعبة من شعب التوحيد السليم واليقين القويم بالواحد العظيم يقصد منهما تربية العباد على الاطمئنان بالرازق الكريم والايقان بوعد البارئ العظيم .

2- ((وفي السماء رزقكم)): السماء اسم لما علا وارتفع، ويعبر به عن كل أمر عالٍ مرتفع .

الرزق: هو اسم للعطاء والحظ والنصيب الذي ينتفع به الإنسان في حياته ومعاشه من غذاء أو كساء أو فراش أو عقار أو زوجة أو أولاد أو نحو ذلك .

3- ((وما توعدون)): عطف على الجملة السابقة ((وفي السماء رزقكم)) أي ما توعدون به في السماء، والظاهر تعلق الوعود وارتباطها بما سبق من الآيات (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)الذاريات: 13-16، فما توعدون به من الجنة والنار والثواب والعقاب موجود في السماء وفي العلا، ويمكن أن يكون المراد: ما توعدون به في هذا الكتاب العزيز والشرع الشريف هو حق ثابت وموجود قائم في السماء وفي المحل الأعلى، فيكون المعنى أوسع ويشمل في ضمنه الوعد بالجنة والثواب وبالنار والعقاب .

4- ((فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون)):-

هذا من العظيم وهو قسم عظيم بذات العظيم جلت عظمته وصدقت آياته، أقسم سبحانه بأن ما ذكره سلفاً ((وفي السماء رزقكم وما توعدون)) حق ثابت وأمر واقع لاريب فيه ولا شبهة تعتريه نظير ما تنطقونه وشبيه ما تتكلمونه، فكما لا ترتابون في نطقكم اطمأنوا ولا ترتابوا في ثبوت رزقكم في المحل الأعلى، وكما أنتم متيقنون لا تشكون في تكلمكم تيقنوا ولا تشكوا في صدق ما توعدون وفي تحقق الثواب العظيم لمن يستحقه والعقاب الأليم لمن يستحقه .

5- ذهب كثير من المفسرين إلى تفسير الرزق الكائن في السماء بالمطر النازل منها على الأرض، قال الله سبحانه: ((وما انزل الله من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها)) الجاثية: 5، وقد روي ذلك أيضاً عن رسول الله (ﷺ) ولكنه تفسير بالمصداق الواضح فانه السبب العظيم في حياة الأرض وعمرانها وانمائها، ويمكن تعميم الرزق الكائن في السماء والمبعوث الينا من المحل الأعلى للمطر وغيره مما يوجده الله ويبعثه الينا في الأرض مما يكون مقدمة لانتفاع الناس وخيرهم ورزقهم واستفادتهم كإشراق الشمس وبزوغ القمر وحركتهما الموجبة لحصول الليل والنهار وتوارد الظلام والضياء وتحقق الصيف والشتاء والخريف والربيع وما شاكل ذلك من أسباب الحياة والعمارة والانماء للأرض .

6- هاتان الآيتان أصل عظيم من أصول القرآن الهادفة إلى تقوية اليقين برازقية الله سبحانه وبصدق وعده الكريم واذا تيقن الإنسان بأن ما وعد الله في كتابه المجيد من الجنة والنار والثواب والعقاب حق واقع لا محالة حصل له من الهدوء والسكون والصلاح في السيرة والسلوك ما لا يعلمه إلا الله ومن ذاق طعم اليقين، وهكذا إذا اطمأن الإنسان في باطنه وقلبه بأن الله رازقه وان رزقه مقسوم في المحل الأعلى ومكتوب في سجل محفوظ وكتاب مسطور حصل له من الاستقرار والركون النفسي ما لا يعلمه إلا الله ومن ذاق طعم الاطمئنان واليقين والإيمان القاطع، روى الأصبغ بن نباتة: ان أمير المؤمنين (عليه السلام) قال لأصحابه: ((اعلموا يقيناً ان الله تعالى لم يجعل للعبد –وان عظمت حيلته واشتد طلبه وقويت مكائده- أكثر مما سمى له في الذكر الحكيم، فالعارف بهذا العاقل له أعظم الناس راحة

في منفعته والتارك له أعظم الناس شغلاً في مضرته)) وهذا أمر عظيم وآثاره النافعة محسوسة بالوجدان لمن كان له عقل وألقى السمع وهو شهيد وبصير، يكفي من تيقن صدق الوعد أن لا يخاف ظلماً ولا فوتاً وأن يحسن عملاً ولا يسيء صنعاً، ويكفي من أطمأن قلبه برزقه أن لا يخاف عيلة ولا يخشى فقراً غير ما قدره الله له ولا يرى مانعاً لما قسمه الله له من الرزق ولا يعتقد جالباً لرزقه سوى الله فيكون قانعاً برزقه موحداً لرازقه شاكراً لأنعمه وهو أعظم الناس راحة لاسيما لو عرف ان رسول الله (ﷺ) يقول: ((لو أن أحدكم فر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت)).

7- هذه الآية تسند الرزق إلى السماء وهي كناية عن الرازق الواحد الكريم وهناك عشرات الآيات تسند إلى الله الرزق ((الله يرزق من يشاء بغير حساب))البقرة:212، ((هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض)) فاطر: 3، ((الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)) الرعد:26، ((وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)) هود: 6، ((ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين))الذاريات:58، وغيرها كثير وكثير، وهي باجمعها وبكثرتها تريد تطمين الناس وتحصيل اليقين في قلوبهم إلى أن رزقهم وعطائهم ونصيبهم مما ينتفعون به ويرتزقون منه مقسوم لهم عند رازقهم محتوم عليهم عند بارئهم كتبته لهم ملائكة كرام في لوح محفوظ وسجل محبوك وكتاب مسبوك، فالله هو الرازق دون سواه فلتطمئن النفوس إلى رازقها ولتسكن إلى مقسم معيشتها ولتحذر من أن تشملها دعوة رسول الله (ﷺ): ((قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدقوه))، ولا تنظر إلى غير الله ولا تؤمل سواه (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) الزخرف:32 .

8- وقد دلت الآيات الكثيرة والروايات العديدة على أن أرزاق العباد مقسومة مكتوبة في السماء، بل يظهر من بعضها ان الله قد فرض على ذاته المقدسة رزق عباده ومخلوقاته، قال سبحانه (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) هود: 6، وهذه الآية

صريحة في أن رزق كل من دب على الأرض -انساناً أم حيواناً- واجب على الله احساناً منه سبحانه وتفضلاً وتلطفاً وهو ثابت في كتاب مبين ولوح محفوظ، ويظهر من بعض الروايات الشريفة ان لله فضولاً من رزقه وزيادة من خيره على الرزق المقسوم للعباد، وهذا الزائد من الرزق لا يتأتى للعباد إلا بالسؤال والدعاء والله يحب سؤال عبده المؤمن لأن يزيد من رزقه على ما قسمه وقدره له، قال رسول الله (ﷺ): ((إن الرزق لينزل من السماء إلى الأرض على عدد قطر المطر إلى كل نفس بما قدر لها، ولكن لله فضول فاسألوا الله من فضله))، وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): ((ان الله قسم الأرزاق بين عباده وأفضل فضلاً كبيراً لم يقسمه بين أحد، قال الله(واسألوا اللَّهُ من فضله)النساء:32، وجاء في حديث ابن مسعود (رض) قال: قال رسول الله (ﷺ): ((سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل)) وفي الدر المنثور للسيوطي روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: ((سلوا الله من فضله فان الله يحب ان يسأل وان من أفضل العبادة انتظار الفرج)) وروى المشايخ الثلاثة في الكافي والفقيه والتهذيب عن مولانا الصادق (عليه السلام) قوله: ((ان الله جل وعز جعل أرزاق المؤمنين من حيث لم يحتسبوا، وذلك ان العبد إذا لم يعرف وجه رزقه كثر دعاؤه)) .

9- واذا كان الرزق مقسوماً بين العباد كما نصت عليه آيات الله الكريمة وصرحت به كلمات أوليائه وأحبائه قد يقول قائل: اجلس في بيتي واعتزل في صومعتي ويأتيني رزقي الذي قسمه الله لي، بل بالفعل قاله جمع من المسلمين الأوائل عندما نزل قوله تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)الطلاق:2، 3، فاغلقوا على بيوتهم الأبواب وتركوا التكسب والارتزاق وأقبلوا على العبادات وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فأرسل إليهم وقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: يا رسول الله تكفل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، فقال لهم رسول الله (ﷺ): ((انه من فعل ذلك لم يستجب له –أي دعاؤه وعبادته- عليكم بالطلب)) أي فرض عليكم طلب الرزق والتعرض لتحصيله، وقال علي (عليه السلام): ((اطلبوا الرزق فانه مضمون لطالبه)) يعني ضمان الله لرزق العباد وتكفله له سبحانه مخصوص بطالب رزقه ومن سعى إليه،

وقد ثبت في الشريعة المقدسة المنع القاطع عن الاتكال على قسمة الله لرزق عباده والحث الأكيد على طلب الرزق وعلى التعرض له والسعي طلباً لتحصيله واشترط عليهم أن يكون كسبهم للربح والفائدة من الطرق الحلال دون الحرام فقد جاءت الآيات العديدة والروايات الكثيرة تطلب من العباد السعي في الأرض والتجارة عن تراضٍ ومن حلال تحصيلاً للرزق المقسوم والنفع المضمون في الكتاب المبين قال الله سبحانه (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِليه النُّشُورُ)الملك:15، بل جعل رسول الله (ﷺ) طلب الرزق إذا كان من الحلال من أفضل أنواع العبادة وأجزائها، فقال: ((العبادة سبعون جزء أفضلها طلب الحلال)) وقد صح عند جميع المحدثين خطبة رسول الله (ﷺ) في حجة الوداع وانه قال فيها: (أيها الناس ما من شئ يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه، ألا وان الروح الأمين نفث في روعي انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا الطلب ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فان الله قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى الله وصبر أتاه الله برزقه من حله، ومن هتك حجاب الستر وعجل فأخذه من غير حله قُصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة)) وفي رواية: ((ليس من نفس إلا وقد فرض الله لها رزقاً حلالاً.. فان هي تناولت شيئاً من الحرام قاصها من الحلال الذي فرض لها)) والمقاصة تعني الانقاص.

10- قسمت الروايات الرزق إلى نوعين: رزق تطلبه ورزق يطلبك، روي عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في (نهج البلاغة) وفي غيره في وصية له إلى ولده محمد بن الحنفية: ((الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك، وكفاك كل يوم ما هو فيه فان تكن السنة من عمرك فان الله عز وجل سيأتيك في كل غد بجديد ما قسم لك، وان لم تكن السنة في عمرك فما تصنع بهم وغمّ ما ليس لك، واعلم انه لن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن يحتجب عنك ما قدر لك، فكم رأيت من طالب متعب نفسه مقتر عليه رزقه ومقتصد في الطلب قد ساعدته المقادير، وكلٌّ مقرون به الفناء)) وروى الشيخ الصدوق في

الصحيح عن رسول الله (ﷺ) قال: ((ان الروح الأمين جبرئيل أخبرني عن ربي انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب، واعلموا ان الرزق رزقان فرزق تطلبونه، ورزق يطلبكم، فاطلبوا أرزاقكم من حلال فانكم ان طلبتموها من وجوهها أكلتموها حلالاً، وان طلبتموها من غير وجوهها أكلتموها حراماً، وهي أرزاقكم لابد لكم من أكلها)) وهذا التقسيم نحو من التربية الاخلاقية على اليقين بالرازق الواحد وزيادة في الطمأنينة والاعتماد على القاسم الماجد وتنبيه لطيف للالتفات إلى الطاعة والتقوى والورع عن وجوه الرزق المحرمة، فان الرزق بعض تطلبه وتبحث عنه وتفتش عليه في وجه الكسب، وبعض من الرزق هو يطلبك فان لم تصل إليه ببحثك ولم تأته بسعيك فهو يأتيك ويبلغك ويصل اليك، فان استبطأ عليك الرزق وتأخر عنك رغم مشاق السعي عنه فلا تقدم على الوجوه المحرمة من التكسبات والانتفاعات لأن حظك من الرزق يأتيك من دون نقصان ولاتخرج روح بشر حتى يستكمل رزقه، فان بقيت له شربة ماء في مشرق الأرض وهو في مغربها لنقله الله إلى مغربها ليشرب رزقه فيأخذ ملك الموت روحه، وان بقيت له كسرة خبز في مغرب الأرض وهو في مشرقها لنقله الله إلى مشرقها ليأكل لقمته فيأخذ ملك الموت روحه، وان جرأ على الوجوه المحرمة وتناول شيئاً من حرام قاصه الله من الرزق الحلال الذي قسمه له وانقص من نصيبه الذي قدره له، وإن كان له عقل وفكر وايمان سأل الله من فضل رزقه زيادة على نصيبه المقسوم وحظه المقدور بدلاً من أن يجرأ عِلِى حِرام الرِزقِ وسِحِتِ الكِسِبِ وخِبِيثِ المالِ، قِال سبحانه (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)الطلاق:2، 3، وهذه الآية صريحة في أن من يتق الله سبحانه في سلوكه ويتورع عن محارمه في مسيرته يجعل الله له مخرجاً من كروب الدنيا وشدائد الآخرة ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يتوقع ومن حيث لا يطلب، روى المفيد والسيوطي قول رسول الله (ﷺ): ((من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب)) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فان موسى بن عمران خرج يقتبس ناراً لأهله فكلمه الله ورجع نبياً، وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان، وخرجت سحرة فرعون يطلبون العز لفرعون فرجعوا مؤمنين)) رواه الصدوق باسناد صحيح عن أبي عبد الله الصادق عن آبائه عن علي (عليه السلام) .

11- يستفاد من بعض الروايات ان الإنسان مهما كان قوياً في بدنه أو جاداً في سعيه أو مجتهداً في تجارته أو عظيماً في حيلته أو شديداً في مكائده لا ينال الرزق أكثر مما قسمه الله وقدر له فينبغي للمسلم أن يطمأن إلى رزقه بعد ان يبذل نفسه ويعرض بدنه للعمل والسعي والتكسب (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)الزمر:53، أي إنّ في بسط الرزق لمن يشاء من عباده وتقتيره لمن يشاء من عباده آية من آيات حكمته لقوم يؤمنون بالله ويتفكرون في حكمة الله، وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): ((ان الله عز وجل وسّع في أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا إن الدنيا ليس ينال ما فيها بعمل ولا حيلة)) وقال (عليه السلام): ((كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول: اعلموا علماً يقيناً ان الله عز وجل لم يجعل للعبد وإن اشتدّ جهده وعظمت حيلته وكثرت مكايده أن يسبق ما سمي له في الذكر الحكيم، أيها الناس انه لن يزداد امرؤ نقيراً بحذقه –أي بمهارته، والنقير كناية عن أقصى القلة- ولن ينقص امرؤ نقيراً لحمقه)) وحينئذ يتلخص لدينا ان نصيب الإنسان من رزق الله ومن قسمته ليس ناشئاً من اجتهاده في طلبه ومن سعيه في كسبه وحسب كما يظن ضعفاء الايمان ورديئي العقل، بل هو مرتبط بسعي الإنسان وطلبه كما هو مربوط بارادة الله ومشيئته وقسمته (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) العنكبوت:17، (اللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)النور:38، (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)الشورى: 19،نعم من يتق الله ويتورع عن محارمه ويسأل الله من فضل رزقه زيادة خيره أجاب الله دعاءه وأعطاه من فضول رزقه الذي وفره لعباده زيادة عما قسمه وقدره كما نطقت به الروايات السابقة.

روى الشيخ الصدوق في (الخصال) باسناد صحيح عن أبي عبد الله الصادق (ع) عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين حديث تعليم أصحابه في مجلس واحد اربعمائة حديثاً وخصلة مما يصلح المسلم في دينه ودنياه، وقد جاء فيه من هذه الخصال قوله (ع): ((اذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه الى السماء ولينصب في الدعاء)) فقال ابن سبأ من حضار المجلس: يا أمير المؤمنين أليس الله في كل مكان؟ قال: بلى، قال: فلم يرفع العبد يديه الى السماء؟ قال: أما تقرأ: وفي السماء رزقكم وما توعدون، فمن أين يطلب الرزق إلا من موضعه، وموضع الرزق وما وعد الله عز وجل السماء.

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾

1- هذه الآية الثالثة من سورة الطلاق وهي سورة قرآنية قصيرة نزلت في المدينة المنورة وقد حفلت بآيات أحكام النساء من جهة الطلاق والانفصال عن الأزواج وما يتبعه من الآثار وقد تضمنت في خلالها التذكير بتقوى الله سبحانه ووعده ووعيده وبعض أخلاقه.

2- ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)):-

التوكل هو الاعتماد على شيء والركون إليه والاستسلام له، وحينئذ التوكل على الله يعني الاعتماد عليه والالتجاء إليه وتسليم الأمر له والاكتفاء به ناصراً في شدائده ومعيناً في احتياجاته وضامناً لأموره ومدبراً لمطلوباته، وبعبارة أخرى: التوكل على الله يعني الانقطاع إليه دون المخلوقين في جميع الأمور المرغوب فيها للإنسان (وكفى بالله وكيلا)الأحزاب:3 .

((فهو حسبه)): أي فهو كافيه وضامنه ومتكفله في جميع أموره التي يستعينه بها ويتوكل عليه فيها .

3- ((ان الله بالغ امره)):- البلوغ هو الوصول والإدراك للأمر المرغوب فيه .

أي إن الله يصل إلى أمره ويبلغ مراده ويدرك مطلوبه، واذا التجأ العبد إليه وتوكل عليه وطلب مراده منه وشاء الله له ذاك الأمر لعرفانه بصلاحه له وكماله فيه فلا يفوته شيء أراده ولا يعجزه أمر شاء بلوغه لعبده لأنه السبب الأعلى الذي تنتهي إليه الأسباب والإرادة العظمى التي تقف عندها الإرادات .

وهذه الجملة تريد تأكيد التوكل على الله وتثبيت العزم على الانقطاع إلى الله حيث تبين ان العبد إذا توكل على ربه طلباً لعونه وفوض إليه مهامه واحتياجاته ورأى سبحانه المصلحة في تقديرها على طبق ما يتمناه تتغير الارادات وتضعف الأسباب الأخرى تجاه مراده سبحانه وصوب قضائه جل وعلا لأن الله بالغ أمره لا تغلبه إرادة ولا تضعفه قدرة ((والله يحكم لا معقب لحكمه))الرعد: 4، وحينئذ تسقط الارادات الأخرى وتفشل

الأسباب المخالفة (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)يوسف:67 .

4- ((قد جعل الله لكل شئ قدراً)):- القدر هو المقدار والتقدير والمقياس.

أي جعل الله سبحانه لكل شيء صنعه وخلقه قدراً معيناً ومقياساً ثابتاً ومقداراً محدوداً، وهذه سنة تكوينية عظمى من سنن العظيم الجليل القادر الحكيم ((وكل شئ عنده بمقدار)) الرعد:8، ((إنا كل شئ خلقناه بقدر))القمر: 49، ((وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله بقدر معلوم))الحجر: 21، ((خلق كل شئ فقدره تقديراً)) الفرقان: 2، ((وكان أمر الله قدراً مقدوراً)) الاحزاب: 38، هذه حكمة الله إمتزجت بقدرته فشاءت هذه السنة وأرادت هذه الحالة .

هذه الجملة كسابقتها تريد تثبيت صلاح التوكل على الله دون المخلوقات وتهدف إلى التذكر بقانون الكون الربوبي وسنة الخلق الالهي المنبثق عن مصالح العباد ومنافع المخلوقات لاستغنائه سبحانه وحاجة الخلق، فجعل لكل شيء يريده ويقدره قدراً محدوداً ومقياساً ثابتاً تابعاً لمصلحة العبد وموافقاً لكمال الخلق، واذا تذكر العبد قانون الله في التكوين وتقديره في الأمور وتحديده في الأشياء طبق مقياس ثابت ووفق مصلحة ونفع عائد إلى الخلق يقوى عزمه وتوكله وتفويض أموره إليه ويشتد اعتقاده بحسن التوكل على الله الذي جعل لكل شئ قدراً وامداً وحداً محدوداً بالمصلحة ومقيداً بالمنفعة وكمال الخلق .

5- محصل معنى الآية: ان الله وعد عباده المتوكلين عليه أن يكون حسبهم وكافيهم ويضمن مراداتهم وفق قدر محدود بالمصلحة وطبق مقياس محدد بالمنفعة فاذا اقتضت مصلحة العبد وكمال الخلق ان يفعل كذا من مرادات العبد أو يدفع كذا من مخوفات الخلق فعل به وسدده وأتاه ما يرجو ويتمنى أو دفع عنه ومنعه وعصمه مما يخاف ويحذر فان الله بالغ أمره لا يفوته شيء أراده لمصلحة خلقه وكل شئ عنده بمقدار ومقياس، فهذه الآية تحث على التوكل بطرف خفي ودلالة لازمة لا مطابقة، فمن توجه إلى وعد الله المذكور في هذه الآية والتفت إلى قدرة الله على بلوغ مراداته وانتبه إلى حكمة الله في

تقديراته طبعاً يختار التوكل على الله ويعرض عن الاعتماد على ما سواه من المخلوقات، بل يقوى استغاثته بالله ودعاؤه له وتضرعه إليه ويتوكل عليه رجاء أن يكفيه مهماته ويكفل مراداته ويضمن احتياجاته، قال رسول الله (ﷺ) لأبي ذر (رض): ((لو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم)) بعد أن تلا هذه الآية ورددها مكرراً، وهذا حديث شريف اتفق المسلمون على روايته وقبوله،وفقنا الله سبحانه للأخذ بمضمونه والهدي بإرشاده .

6- إستفاضت الآيات الكريمة بالحث على التوكل على الله والأمر به والدعوة إليه بمختلف التعبيرات وتعدد الصياغات وجعلته من صفات المؤمنين وأخلاق المتقين وخصال الصالحين، وهي عشرات الآيات المبثوثة في السور الشريفات، ولا تكاد تقرأ سورة إلا وذكرتك مرة أو أكثر بالتوكل، وهكذا استفاضت الروايات الشريفة بالدعوة إليه والترغيب نحوه،قال رسول الله (ﷺ): ((من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها)) وقال (ﷺ): ((من أحب ان يكون أقوى الناس فليتوكل على الله))، وقال (ﷺ): ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) وفي معاني الأخبار للصدوق فسر النبي (ﷺ) التوكل ببيان جبرئيل (ع) عن الجليل جل وعلا: ((التوكل هو العلم بأن المخلوق لايضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق، فاذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا المتوكل)) وروي عن مولانا جعفر الصادق بسند صحيح: أوحى الله عز وجل إلى داود على نبينا وآله وعليه السلام: ((ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه وأسخت –أي خسفت- الأرض من تحته ولم أبال بأي واد هلك)) وروي عن مولانا الإمام موسى الكاظم بسند صحيح انه عندما سئل عن قول الله عز وجل ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)) قال: ((التوكل على الله درجات: منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم انه لا

يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم ان الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها)) .

7- التوكل على الله سبحانه شعبة من شعب الإيمان الكامل وجنبة من جوانب التوحيد الشامل، إذ انه يعني الاعتقاد القاطع والالتزام الكامل بأن الفاعل المتصرف في الأمور كلها هو الله سبحانه لا تغلبه إرادة ولا تمنع ارادته قدرة وان علمه سبحانه بالأمور فوق كل علم وأن ارادته للأشياء وما صلح منها لعباده تفوق كل ارادة وان قدرته على الأفعال تعلو كل قدرة، هذا الاعتقاد القلبي هو التوكل وهو توحيد الله سبحانه في الأفعال وحذف الشريك عنه سبحانه في أمور الدنيا بأجمعها، فهو سبحانه ربها وموجدها وهو المعطي وهو المانع ومنه وعنه تحدث الحوادث وتوجد الموجودات (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)المزمل: 9، (ألاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً)الاسراء:2، (وَإليه يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) هود:123، (وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)المائدة: 23، (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)يوسف:67، وهكذا دلت الروايات السالفة على أن التوكل شعبة من التوحيد واليقين الكامل بالله جل وعلا، ويظهر ذلك من التأمل والتفكر والتدبر فيها .

8- هذه الآية الشريفة تكفلت بيان جزاء التوكل على الله سبحانه ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)) وهو جزاء دنيوي عظيم ينضم إلى جزاء الله الكبير في عالم الثواب والآخرة، وأي جزاء أعظم من أن يكون الله سبحانه حسبه وكافيه وعونه وناصره ووكيله وعاصمه (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) آل عمران:173-174، وقد حكت هذه الآية الشريفة مصداق الجزاء الموعود وذلك حيث أراد بعض الكافرين والمنافقين إدخال الخوف والرعب في قلوب المسلمين بإعلامهم ان أعدائهم قد جمعوا لهم وأعدوا القوة والمكنة للقضاء على الإسلام والمسلمين، حينذاك قال المسلمون: حسبنا الله ونعم الوكيل فجازاهم الله بقبول الوكالة وإلتزام الكفالة وإعطاء النصرة (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ

اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) ال عمران:174 .

9- ان التوكل على الله لا يقتضي التكاسل عن العمل والتقاعس عن السعي والجلوس في البيت إلقاءً للأمور على حالها، لأن التوكل المحبوب في الشريعة يعني عقد القلب على تفويض الأمور إلى الله والاعتماد عليه بعد مراعاة الأسباب الطبيعية العادية وعدم اعتبارها السبب الأعلى في التدبير والحكم والقضاء والكون، كيف لا؟ وقد أمر الله سبحانه بها فقال سبحانه (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ)الملك:15، (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)الانفال:60، (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ)هود: 81، (يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً) يوسف:5، (خذوا حذركم)النساء: 71، (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) النساء: 102، (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) الجمعة:10، (يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ)يوسف: 67، وقال الله سبحانه لنبيه موسى (ع): (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ) الدخان:23، وغيرها كثير من آيات الله سبحانه تدعو إلى مراعاة الأسباب الطبيعية والحذر منها والاعتناء بها والتنبه لها في عين الوقت الذي تدعو إلى التوكل على الله والركون إلى حكمه وقضائه والاستعانة بحوله وقوته، وهكذا السنة المطهرة يكفينا أن نتذكر حديث الاعرابي الذي جاء رسول الله (ﷺ) وترك ناقته خارج المسجد من دون أن يقيدها أو يعقلها متوكلاً على الله في أن يحفظها له ويحرسها من الأذى والضياع فلما علم رسول الله (ﷺ) بخبره قال له: (أعقلها وتوكل) وفي رواية (قيدها وتوكل) فإنها أوضح شاهد على أن التوكل المحبوب يلتقي مع مراعاة الأسباب المتعارفة ولا يتنافى معها، وروى صحيحاً أعلام المحدثين قول رسول الله (ﷺ): ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) وهو يدل على أن التوكل على الله حق التوكل يتناسب مع السعي والعمل حيث مثّل بالطيور التي تخرج صباحاً من بيوتها سعياً على رزقها وهي خماص البطون وفارغة من الطعام والرزق ثم ترجع ليلاً إلى بيوتها وهي ممتلئة البطون.. اذن التوكل مع

السعي يوجبان البلوغ إلى ما يتمناه الإنسان من الخير والكمال والحسن والصلاح، وان لم يبلغ مراده ومنيته مع توكله على الله وسعيه فليطمئن إلى أن صلاحه فيما قدره الله وآتاه .

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

1- هذه الآية الأربعون وتاليتها من سورة النازعات وهي سورة مكية شريفة، قصيرة الآي جليلة المعنى، عنيت ككثير من السور المكية- باثبات اصول الدين وتركيز أسس العقيدة، ومن أصولها تذكرة الخلق بخالقهم وقدرته وعودتهم إليه يوم القيامة لمحاسبته (فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

2- ((وأما من خاف مقام ربه)):-

الخوف: هو الذعر والفزع وهي حالة الألم والرعب الحاصلة في النفس الباطنة من امارة تقتضي توقع مكروه يرد عليه في المستقبل المنظور قريباً أم بعيداً .

((مقام ربه)): هو مقام الله سبحانه، وفي هذه الكلمة احتمالان:-

الأول: مقام مصدر ميمي بمعنى قيام، وحينئذ يكون معنى قيام ربه عليه الذي يخافه المؤمن هو احاطة ربه بعبده ومراقبته له وحفظه لأحواله واطلاعه على أعماله، وهذا القيام يشبه في المعنى قوله سبحانه: (أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد:33.

الثاني: مقام اسم مكان بمعنى الموضع الذي يقوم فيه جسم من الأجسام ويحل فيه شئ من الأشياء، وحينئذ فيكون معنى مقام ربه الذي يخافه المؤمن هو موقف ربه سبحانه من عبده يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهو مقام معنوي مهاب -لا مكان جسدي محسوس.

اذن يصير معنى الجملة الشريفة ((وأما من خاف مقام ربه)) وأما من حذر مقام ربه عليه وهيمنته واطلاعه عليه، ومن الطبيعي ان هذا الخوف والحذر ينعكس على سلوكه فتصلح سيرته وسريرته مع بارئه فلا يقدم على معصية من معاصيه ولا يجرأ على شئ من محارمه جل وعلا، وهذه فائدة الخوف من الله الواحد، ولأجله صار أمراً محبوباً ومرغوباً .

3- ((ونهى النفس عن الهوى)):-

النهي: هو الزجر والردع والمنع عن شئ .

الهوى: هو الميل نحو شيء والإرادة له، وهوى النفس: رغبتها وارادتها وما تدعو إليه النفس من رغبة، إذن يصير معنى الجملة الشريفة ((ونهى النفس عن الهوى)) واما من نهى النفس الأمارة بالسوء وزجرها عن مشتهياتها ورغباتها التي تدعو إليها فضبطها وروضها على الامتناع على مشتهياتها التي لا يرضى بها الله سبحانه وأباح لها مشتهياتها التي سمح بها الله سبحانه، أي نهى النفس عن متابعة هواها في كل ما تحب وترغب وتريد من المحرمات.

4- ((فان الجنة هي المأوى)):-

المأوى: هو المنزل والمستقر الذي يستقر فيه ويصير إليه .

إذن يصير معنى الآيتين حينئذ: إن من خاف قيمومة ربه عليه وإحاطته به وبتصرفاته وأحواله أو من حذر مقام ربه وجلال

مبغوضية اتباع هوى النفس

الناس لرب العالمين ونهى نفسه عن هواها ورغبتها في معصية سيدها ومولاها فان مأواها إلى الجنة ومستقره فيها،قال مولانا الصادق (عليه السلام): ((من علم ان الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمله من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال –أي يمنعه عن الحرام من الأفعال- فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)).

5- هذه الآية أصل عظيم من أصول القرآن الكريم في تثبيت مخافة الله في نفوس المؤمنين وتركيز خشيته في قلوب المسلمين، وقد استفاض القرآن بآياتها والسنة برواياتها، قال سبحانه (وَاللَّهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ)الاحزاب:37، (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) الرحمن: 46، (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)الملك:12، (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ

فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)ال عمران: 175، (فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) المائدة: 44، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)الانفال: 2، (وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ)ال عمران:28، (جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)البينة:8، (قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)الانعام:15، وغيرها كثير في آيات الله .

وقال رسول الله (ﷺ) مخاطباً علي بن أبي طالب (عليه السلام): ((يا علي: ثلاث منجيات: خوف الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة العدل في الرضا والسخط)) وقال (ﷺ): ((رأس الحكمة مخافة الله)) وقال (ﷺ) ((من خاف الله أخاف الله منه كل شئ ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء)) وفي صحيفة الإمام السجاد (عليه السلام): ((سبحانك عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك)) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): ((من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا)) أي من خاف الله انعكس خوفه على سلوكه فأعرضت نفسه عن الدنيا وبهارجها وما حرمه الله منها، وقال لبعض أصحابه (يا اسحاق خف الله كأنك تراه وان كنت لا تراه فانه يراك، وان كنت تعلم انه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك) وقال (عليه السلام) حاكياً لبعض ما حفظ من خطب النبي (ﷺ) ((ان المؤمن يعمل بين مخافتين بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه؟ وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه؟ فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنيا لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر وفي الحياة قبل الممات)) .

وخلاصة القول: ان الخوف من الله سبحانه فضيلة عظيمة وسعادة كبيرة في الدارين يكفيها فضلاً أن يتقمصها رسول الله (ﷺ) ويتزين بها بأقوى حالاتها حتى قال (ﷺ): ((أنا أخوفكم من الله)) وقال مخاطباً أصحابه وأتباعه ((أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً)) وهذه الفضيلة في مقابل الأمن من مكر الله وعقابه قال سبحانه (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)الأعراف:99، وحينئذ على العاقل الراغب في صلاح داريه –الدنيا والآخرة- أن يخاف الله سبحانه ولا يأمن مكره ولا

يطمئن إلى شيء سوى ربه الواحد وعمله الصالح الموجب لقربه ورضوانه .

6- الآية الكريمة اصل جليل في ذمّ إتباع الهوى وبغض الانقياد إليه وقد استفاض الكتاب بآيات الذم والسنة بروايات التحذير من متابعة هوى النفس ومشتهياتها مما حرم الله ومنع، قال سبحانه (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)القصص: 50، (فلا تتبعوا الهوى) النساء: 135، (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)الجاثية: 23، (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ)النجم:23، (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) الروم:29.

وقال رسول الله (ﷺ) يقول الله تعالى: ((وعزتي وجلالي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتت –أي فرقت- عليه امره ولبست –أي خلطت وأفسدت- عليه دنياه وشغلت قلبه بها ولم آته منها إلا ما قدرت له، وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا إستحفظته ملائكتي وكفلت السماوات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر وأتته الدنيا وهي راغمة)) روي هذا الحديث الشريف بطرق متعددة وبعضها صحيح الاسناد، وقال علي (عليه السلام) في(نهج البلاغة) ضمن خطبة له: ((أيها الناس ان أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: إتباع الهوى وطول الأمل: فأما إتباع الهوى فيصد عن الحق –أي يحجب عن الحق ويمنع من القرب إلى الرب جل وعلا- وأما طول الأمل فينسي الآخرة)) وقال أبو جعفر (عليه السلام): ((الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار)) وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): ((لا تدع النفس وهواها –أي لا تتركها وهواها- فان هواها في رداها –أي هلاكها- وترك النفس وما تهوى داؤها –أي مرض لها- وكف النفس عما تهوى دواؤها)) وقال (عليه السلام): ((إحذروا أهوائكم كما تحذرون أعدائكم فليس شئ أعدى للرجال –أي أكثر عداوة لهم- من إتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم)) أي ما تجنيه ألسنتهم من السوء والقول الحرام أو الضار، وفي ضوء هذه البيانات الشرعية إذا دار الأمر بين أن يتابع المرء هواه ويعطي نفسه لذتها وشهوتها من الحرام المبغوض لله وبين أن يتابع هوى ربه وارادة مولاه وسيده فالعاقل الذي يبغى الجنة مأوى

ومستقراً يختار هوى ربه ويرجحه على هوى نفسه (فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

1- هذه الآية الثالثة بعد الخمسين من سورة الزمر، وهي سورة مكية جليلة عنيت بتركيز أصول الدين وأسس العقيدة ودفع الشبهات الواردة من المشركين والمنحرفين عن طريق الله، وهذه الآية الشريفة وقعت ضمن آياتها يقصد منها قلع اليأس من قلوب عباد الله واستبداله برجاء رحمة الله وغفرانه وعفوه .

2- ((قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم)):-

يخاطب الله حبيبه المصطفى ورسوله المجتبى (ﷺ) ويأمره أن يخاطب عباده الذين أسرفوا على أنفسهم ويقول لهم: لا تقنطوا من رحمة الله .

والإسراف هو في أصل معناه اللغوي يعني تجاوز الحد، وغالباً ما يستعمل لفظ الإسراف في تجاوز الحد المتعارف في صرف المال وانفاقه، لكنه هنا قد استعمل الإسراف في تجاوز الحد، لا في صرف المال بل في اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي بقرينة قوله (على أنفسهم) التي تتضمن معنى الحمل الثقيل الذي يعلو النفس ويرهقها، وهذا اقرب ما يكون متحققاً في الفعل الجرمي الجنائي الذي له حمل ثقيل وجزاء شديد، وهو ينطبق على الشرك بالله والمعاصي الكبيرة والصغيرة، فيكون الإسراف على النفس يعني التعدي عليها باقتراف الشرك وتجاوز الحد في ارتكاب الفسق والعصيان .

3- ((لا تقنطوا من رحمة الله))

القنوط في أصل معناه اللغوي هو اليأس، ورحمة الله سبحانه هو عطفه واحسانه وبقرينة الجمل اللاحقة ((ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم)) يتبين ان رحمة الله يراد منها هنا غفرانه ذنوب عباده في عالم الآخرة ((انه هو الغفور الرحيم)) وحينئذ يصير مقصود الآية الشريفة تطمين عباد الله بسعة رحمة الله وعموم مغفرته وعفوه لجميع الذنوب حتى

الشرك إذا صدرت التوبة النصوح والاستغفار الصدوق فلا موجب للقنوط من رحمة الله واليأس من عفو الله، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ورحمته وسعت كل شيء انه هو الغفور الرحيم .

٤ - هذه الآية الشريفة بحسب معناها الانف توضيحه تلتقي مع الآيات الكثيرة المتقدمة في بحث التوبة وقد علقت غفران الله وعفوه على التوبة النصوح والاستغفار الصدوق أي لا تتنافى هذه الآية توقف رحمة الله على التوبة عقيب الإسراف على النفس والتعدي عليها وتحميلها الجرم الكبير والمعاصي العظيمة، فلا داعي للقنوط ولا موجب لليأس فقد سبقت رحمة الله غضبه وشملت رحمة الله خلقه وعمت كافة عباده بلا تخصيص ولا تمييز وانما جميع الخلق سواء عند الخالق: من تاب تاب الله عليه، ان الله يغفر الذنوب جميعاً، انه هو الغفور الرحيم .

٥ - جاءت الروايات الكثيرة في مورد نزول الآية الشريفة مع اختلاف في بعض المضامين والأسماء ، ونحن نلخص صورة واضحة مفيدة من مجموع الروايات التي حكاها المحدثون لنا: بعث رسول الله (ﷺ) إلى جمع من عباد الله من أهل مكة –زاد الله في شرفها- ممن أشرك بالله جل وعلا وفسق عن أمر ربه بارتكاب المآثم والفواحش الكبرى كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر، أرسل إليهم من يدعوهم إلى الاسلام والتوحيد والدخول في دين الله ورحمته وصراطه المستقيم فظهر من بعضهم الرغبة في ذلك لكن مع اليأس والقنوط من رحمة الله وأجابوا الرسول: كيف تدعونا إلى الاسلام والتوحيد، وأنت تزعم من أشرك ودعا مع الله الهاً آخر وقتل النفس التي حرم الله وزنى (يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً) الفرقان: 68-69، ونحن قد فعلنا جميع هذه الأمور؟ فأجابهم رسول الله (ﷺ) بالآية التالية لما استشهدوا بها: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً)الفرقان:70، ثم لما وصل الجواب إليهم قالوا:- -وهذا من شديد يأسهم وقنوطهم- نخاف أن لا نعمل صالحاً أو لا نقدر على التوبة والعمل الصالح، فبعث إليهم رسول الله (ﷺ) بقوله سبحانه (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء)النساء: 48، ولما وصل إليهم المبعوث بالجواب ترددوا –أيضاً من يأسهم- وقالوا: نخاف أن لا ندخل في

المشيئة أي قوله تعالى ((لمن يشاء)) فبعث إليهم رسول الله بقوله سبحانه (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ولما بلغهم الجواب جاؤا فاسلموا وهذا الأثر لهذه الآية، فان الآية الشريفة بشارة عظيمة وطمأنينة وسيعة في حق المسرفين على أنفسهم فحق لها أن تؤثر في هؤلاء المشركين وتسد عليهم سبيل الشيطان وتعذيراته وتنقلهم إلى دين الله الرحيب، وحق لرسول الله (ﷺ) أن يقول ((ما احب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)).

ويظهر من بعض الأخبار الصحيحة ان سعة رحمة الله وذم القنوط واليأس قانون الهي عامّ جارٍ في الأمم السابقة حيث روى في (أصول الكافي) باب الذنوب باسناد صحيح من الصادق (عليه السلام): ((ان الله عز وجل بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك: ان رحمتي سبقت غضبي فلا تقنطوا من رحمتي فانه لا يتعاظم عندي ذنب أغفره)) فليبشر عباد الله بسعة رحمة الله ولا يقنطوا من رحمة الله وليعودوا تائبين محسنين ومغفورين صالحين .

6- هذه الآية الشريفة اصل عظيم من أصول الرجاء بالله والأمل بسعة رحمته وعميم مغفرته وجزيل عفوه حتى نقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (إنها أرجى آية في كتاب الله وما في القرآن أوسع منها)، وهناك العديد من آيات الله في الدلالة على سعة رحمته ووفور مغفرته، قال سبحانه (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ) الرعد: 6، (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ) الحجر: 56، (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) الحجر:49، (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ)البقرة: 218، وآيات الوعد بالمغفرة ووصفه سبحانه بغفران الذنوب كثيرة جداً مبثوثة في سور القرآن وآياته .

واستفاضت السنة المطهرة بل تواترت بروايات الرجاء والأمل بالله العظيم جل وعلا، حتى أقسم رسول الله (ﷺ) بذات الله قال: ((والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها)) وقال: ((ان الله سبحانه ليغفرن يوم

القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد حتى ان إبليس يتطاول لها رجاء أن تصيبه)) وقال: ((والذي نفسي بيده لو اخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون فيغفر لهم)) وقال علي (عليه السلام): ((ان الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولم يرخص لهم في معاصيه ولم يؤمنهم عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة منه إلى غيره انه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها)) وقال –كما في نهج البلاغة- ((عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار)) وقال لرجل أخرجه الخوف من كثرة ذنوبه ومعاصيه إلى القنوط واليأس عن رحمة الله ((يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك)) وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال الله تبارك وتعالى: (لا يتّكل –أي لا يعتمد- العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي فانهم لو اجتهدوا واتعبوا أنفسهم وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي –أي حقها وحقيقتها- فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا، فان رحمتي عند ذلك تدركهم –أي عندما يثقون برحمته ويرجون فضله ويطمئنون إلى إحسانه تدركهم رحمة الله-، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي فاني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت) وقال أبو جعفر (عليه السلام) أيضاً:- وجدنا في كتاب علي (عليه السلام) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال وهو على منبره: ((والذي لا اله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف –أي الانزجار والامتناع- عن اغتياب المؤمنين، والذي لا اله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والذي لا اله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد احسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه)) وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): ((حسن الظن بالله أن لا ترجوا إلا الله ولا

تخاف إلا ذنبك)) وهذا الحديث الشريف يشرح حسن الظن بالله الممدوح في أي القرآن والسنة كثيراً ويفسره الرجاء والخوف معاً فيدل حينئذ على أن رجاء رحمة الله لا يعني الاجتراء على الذنوب والاقامة على المعاصي ولا يقتضي التقصير في العمل الصالح واستصغار بعض الذنوب والمعاصي، بل حسن الظن بالله ورجاء رحمته وجوده يجتمع مع الخوف من الذنب والفزع من المعصية .

7- ومن هذا البيان ينفتح باب عظيم في الأخلاق المحمدية هو اجتماع الخوف والرجاء في قلب المؤمن لينعكس على سلوكه فيعمل لله ويتصرف في ضوء خيفته ورجائه، قال رسول الله (ﷺ) عند نزول قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) الرعد: 6، (لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ لأحد عيش، ولولا عقابه ووعيده وعذابه لإتكل كل أحد) وقال (ﷺ) عند قوله تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {49} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ) الحجر: 49، 50، ((لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه)) وقال (ﷺ): ((لو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار)) وقال علي (ع): ((خف الله خوفاً ترى انك ان أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاءً كأنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك)) وقال محمد الباقر (عليه السلام): ((ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا)) وجاء في وصية لقمان لأبنه: ((خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين خفت أن يعذبك الله، وإرج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين رجوت أن يرحمك الله ويغفر لك)) وقيل لمولانا جعفر الصادق (عليه السلام): ان قوماً يعملون بالمعاصي وهم يزعمون انهم يرجون الله ولا يزالون على ذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: (هؤلاء قوم يترجحون في الأماني – أي يتمايلون في الأماني الخادعة الكذابة- كذبوا ليسوا براجين: من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه)) وقال ((لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو)) وقال: ((ارج الله رجاء لا

يجرؤك على معصيته، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته))
ومن هذه الأحاديث الشريفة ينكشف أن نورَي الخيفة والرجاء في القلب لا بد أن ينعكسا في العمل وسلوك المؤمن في جميع حركاته وتصرفاته كيما يهنأ عيشه ولا يتكل على شيء وكيما يكون عاملاً لما يخاف منه ويرجوه، ومن رجا الله طلب رضوانه ومن خاف الله حذر من عذابه، وحينئذ لا يكون الخوف من دون الحذر العملي مجدياً ولا يكون الرجاء من دون العمل الخالص نافعاً، والدنيا مزرعة الاخرة: فكما ان الزارع الراجي رحمة ربه ينثر البذر في الأرض ويسوق إليها الماء في الوقت المناسب بعد حرثها وتنقيتها من الادغال والأحجار والموانع الضارة ثم يراعيها ويديم سقيها وتسميدها وعزقها منتظراً للحاصل الكبير والنتاج الوفير كذلك المؤمن الراجي رحمة ربه في الآخرة لا بد أن يظهر رجاؤه في عمله وينعكس أمله في سيرته، وكما ان المزارع اذا غفل أو تغافل أو أهمل في العمل لتحصيل النتاج ولم يكن مثل المزارع السابق في الجهد والتعب والسعي لا يتوقع الخير والحاصل والنتاج كذلك المؤمن الراجي من دون عمل وجهد أو الذي صرف وقته في اللهو لا ينبغي أن يتوقع خير الآخرة ورحمة الله، جاء في (نهج البلاغة) في خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) متعرضاً لمن يدعي انه يرجو الله كذباً ومن دون عمل، فقال: (يدعي بزعمه انه يرجو الله، كذب والله العظيم، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله؟ وكل من رجا عرف رجاؤه في عمله إلا رجاء الله فانه مدخول –أي معيب مغشوش حيث لا يترتب عليه العمل الصالح- وكل خوف محقق إلا خوف الله فانه معلول –أي غير خالص وغير صحيح حيث يكون الخائف مقصراً في أوامر الله ونواهيه- يرجو الله في الكبير ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد ما لا يعطي الرب، فما بال الله جل ثناؤه يقصر به عما يصنع لعباده؟ أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً؟ أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً؟ وكذلك ان هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه مالا يعطي ربه فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً –أي مجرد وعد مع ضمار وتسويف وتأجيل- كذلك من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على الله – أي إختارها ورجحها عليه سبحانه- فانقطع إليها وصار عبداً لها) .

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

1- هذه الآية الثالثة والخمسون بعد المأة من سورة البقرة وهي من عظام السور وطوالها، نزلت في المدينة المنورة وقاربت اياتها الثلاث مائة آية وحفلت بالقصص والمواعظ والأحكام والآداب والعقائد مالم تحوه أي سورة أخرى ولذا تبارى أصحاب رسول الله (ﷺ) وأحباؤه الأخيار إلى حفظها وتعلمها وفقه آياتها واعتنى بها التابعون باحسان وعلم وعرفان والعاملون بالقرآن في كافة العصور والأزمان، وهذه الآية الشريفة من خيار آياتها وقصار جملاتها وعظام آدابها .

2- ((يا أيها الذين آمنوا)): هذا الخطاب الجميل من الرب الجليل متكرر في القرآن يقرب من مئة موضع، وقد سبق أن ذكرنا انه خطاب إلى كل من آمن بالله ورسوله ونداء إلى كل من أذعن بالمعاد والحساب، وروينا عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه ما بدأ الخطاب القرآني بمثل هذا النداء إلا بعد أن أسلم أبناء قبيلتي الأوس والخزرج حيث انطبق العنوان على أبناء القبيلتين، وهو خطاب عام شامل لكل من يتصف بهذا الوصف وينطبق عليه هذا النعت .

3- ((استعينوا بالصبر والصلاة)) :-

الاستعانة هي طلب العون على أمر مهم ومقصد عظيم.

الصبر: هو حبس النفس وامساكها على ما تكره، وهو معنى يضاد الجزع عند ورود المكروه ومدلول يقابل الحزن عند نزول المصاب.

الصلاة: هي العبادة المعروفة لدى كل مسلم وهي من أعظم الطاعات والقربات إلى الله بعد معرفته سبحانه، وهي مجمع الكمالات وملتقى الخيرات وحاوية الصبر والذكر والطهر وكل خير.

4- ((ان الله مع الصابرين)):- (مع) أداة تفيد المصاحبة والمعية والاجتماع وحاصل معنى الآية: الله سبحانه يوصي عباده الذين آمنوا أن يطلبوا العون على مقاصدهم وأمورهم وحوائجهم من الصبر والصلاة، وقد قدم سبحانه الصبر ليكشف لنا عظمة مقامه وجلالة فضله، مع ان الصلاة تفضل على جميع الأعمال الصالحة من دون ريب أو شبهة عند مسلم، وليس هذا إلا لأن الصلاة تحتوي غالب العناصر الخيرة والخصال الجيدة ومنها الصبر، فالصبر والصلاة وسيلتان مجعولتان للعبيد لغرض التكامل والارتقاء في هذا العالم وفي هذه الحياة (ان الله مع الصابرين) حال الصلاة وفي جميع الأحوال، وهذه المعية المخصوصة بين الرب وبين العبد الصابر تعني: ان رحمة الله ومعونته تصاحب الصابر ولا تفارقه، وتنصر المؤمن ولا تتركه وحده عند الشدائد، وتعينه ولا تدعه فريداً عند المصاعب، وهذه بشرى كريمة وهو وعد جميل من رب كريم يزيد المؤمن ثباتاً على الصبر عند الشدة ويشد المتقي رغبة اليه عند الصعوبة .

5- هذه الآية الشريفة وعشرات الآيات معها تدعو عباد الله المؤمنين إلى استمداد العون والقوة في شؤون حياتهم كافة من الصبر والصلاة، وهما ركنان مهمان وعمادان قويمان في الشريعة المطهرة ولذا كان رسول الله (ﷺ) وكرام اهل بيته وخيار أصحابه وأتباعه إذا نزلت بهم شدة أو مصيبة أو أمر مهم لجأوا إلى الصبر وفزعوا إلى الصلاة والصيام، وجائت النصائح المتعددة عنهم بسلوك طريق الصبر والصلاة عند حلول نكبة في جسد أو مصيبة في ولد أو مكروه في مال أو بلاء في عرض، روي عن مولانا الصادق (عليه السلام) انه قال: ((ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو الله فيهما، أما سمعت الله يقول: (واستعينوا بالصبر والصلاة) وقد أصيب حبر الأمة عبد الله بن عباس (رض) بنكبة في بعض أعزائه وهو على سفر فاسترجع عندها وتنحى عن الطريق وصلى ركعتين ثم قام إلى راحلته يكمل سيره وسفره وهو يقرأ قوله سبحانه (واستعينوا بالصبر والصلاة)) .

وفي عدة من الروايات تفسير لفظ الصبر بالصوم، ولا ريب في أن الصوم هو المصداق الأوضح والفرد الأكمل من أفراد الصبر ومصاديقه إذ هو يضعف الشهوات البدنية ويقوي التوجهات

الروحية ويزيد العبد قرباً إلى ربه وانقطاعاً إلى ملكوته ورغبة في آخرته ولذا صح تفسيره به كما يصح تفسيره بغيره من مصاديقه .

6- نصت الآيات الشريفة على أن الصبر نعت من نعوت الأنبياء وصفة من صفات المرسلين قال سبحانه لحبيبه المصطفى لما أوذي: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً) المزمل: 10، (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ) النحل: 137، (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الاحقاف:35، (لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) الأنعام:34، (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) ابراهيم:12، (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ)الأنبياء:85، وقال علي (عليه السلام) (الصبر من أخلاق الأنبياء) .

وقد استفاضت الآيات الكريمة ببيان فضيلة الصبر، منها قوله سبحانه (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {155} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ { 156} أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) البقرة: 155-157، (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) النحل: 96، (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) المؤمنون: 111، (أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) القصص: 54، (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) الزمر:10 .

وتواترت الاخبار بمدح الصبر وبيان عظيم فضله وجليل قدره، ففي الحديث الشريف ((الصبر رأس الإيمان، الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان)) وقد سمع أبو سعيد الخدري (رض) رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: ((قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء: فمن كن فيه فهو العاقل، ومن لم يكن فيه فلا عقل له: حسن المعرفة الله وحسن الطاعة لله وحسن الصبر لله)) وقال (صلى الله عليه وآله): ((الصبر كنز من كنوز الجنة)) وقال مولانا زين العابدين (عليه السلام): ((الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له)) وقال مولانا أبو جعفر الباقر (عليه السلام): ((الجنة محفوفة بالمكاره والصبر فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها أو شهوتها دخل النار)) وقال مولانا أبو عبد

الله الصادق (عليه السلام): (من إبتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل اجر ألف شهيد) ويظهر من بعض الروايات: أن الصبر علامة الإيمان فقد سأل رسول الله بعض أصاحبه: (ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): ما علامة أيمانكم؟ قالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): مؤمنون ورب الكعبة، حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) وقال(صلى الله عليه وآله وسلم): (إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتباه وان رضي اصطفاه).

7- يستفاد من الروايات الشريفة ان الصبر على أقسام ثلاثة: صبر على البلاء والنكبة في جسد أو مال أو ولد أو نحو ذلك من أمور الدنيا وعلائقها وهو صبر حسن جميل، وأحسن منه الصبر على طاعة الله وامتثال أوامره وأداء فرائضه وهو صبر حسن جميل، وأحسن منه الصبر عن معصية الله ومجاهدة النفس عن الوقوع فيما يغضب الله ويوجب سخطه، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة وصبر على المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش) وقال علي (عليه السلام): (الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عليك).

8- واذا أصيب المسلم بنكبة في جسد أو مال أو ولد أو أمر آخر ولم يرد الصبر ولا رغب في الرضى بقضاء الله وفوت على نفسه ما أعد الله من الثواب العظيم والجزاء الكريم على الصبر والسلوان فليحذر من الاعتراض على قضاء الله وليجتنب الانكار على تقدير الله فانه معصية كبيرة توجب سخط الله وعليه وتدعو غضب الله نحوه، وقال مولانا أبو جعفر الباقر (عليه السلام) (ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء واحبط الله أجره) ولا نفع له في اعتراضه ولا فائدة في استنكاره فان قضاء الله ماض وتقديره كائن لا راد لحكمه ولا دافع لأمره، سبحانه وتعالى حين يقول

((أنا الله لا اله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي)) وحين يقول (قدّرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضي فله الرضا مني حين يلقاني ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني)) ومن يقدر على سخط الله حين يلقاه ويرجع اليه؟ وأي عاقل متفكر يقبل الاقدام على ما يوجب غضب الله حين يعود اليه ويلقاه؟ ان المؤمن العاقل المتفكر هو الذي يختار الصبر على قضاء الله وبلاءه ولا يعترض على تقدير الله وحكمه، وقد اوحى الله سبحانه إلى نبيه داود (عليه السلام) ((عبدي تريد وأريد، وانما يكون ما أريد، فان أسلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وان لم تسلم لما أريد اتبعتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد)) وقال زين العابدين (عليه السلام) للثقة الجليل أبو حمزة الثمالي: ((الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه –فيما أحب أو كره- لم يقض الله عز وجل له- فيما أحب أو كره- إلا ما هو خير له)) وقال الصادق (عليه السلام): ((قال الله تعالى لنبيه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم): عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له،فليرض بقضائي وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي اكتبه يا محمد من الصديقين عندي)) وقال (عليه السلام) أيضاً: ((ان في كتاب علي (عليه السلام): ان أشد الناس بلاء: النبيون ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل، وانما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة فمن صح دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه ذلك ان الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر، ومن سخف دينه وضعف عمله قل بلاؤه، وان البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض)) وينبغي أن يعلم ان الحزن عند المصيبة والبكاء عند النكبة لا ينافي الصبر ولا يعارض الرضا بقضاء الله، كيف؟ وقد حزن قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على بعض أبنائه وبناته عند موتهم وقال في تأبين ابنه ابراهيم كلمته المعروفة: ((حزناً عليك يا ابراهيم وإنا لصابرون،يحزن القلب وتدمع العين، ولا نقول ما يسخط الرب)) .

9- قال سبحانه في سورة الزمر: ((انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)) وهي صريحة الدلالة على أن الصابرين يستحقون جزاءهم ويأخذون أجرهم في الآخرة من دون حساب ولا كتاب ولا متابعة ولا سؤال، وهكذا صرحت بهذا المعنى عدة

من الروايات والأخبار: روى أبو حمزة الثمالي في الصحيح عن الباقر عن آبائه (ع): قال رسول الله (ﷺ): ((إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ عن الله يقول: أين أهل الصبر فيقوم عنق –أي جماعة- من الناس فتستقبلهم زمرة من الملائكة فيقولون لهم: ما كان صبركم هذا الذي صبرتم؟ فيقولون: صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معصية الله، قال: فينادي منادٍ من عند الله: صدق عبادي خلوا سبيلهم ليدخلوا الجنة بغير حساب)) وروى العياشي عن الصادق (عليه السلام): قال رسول الله (ﷺ): ((إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولا ينشر لهم ديوان)) ثم تلا هذه الآية من سورة الزمر، وقال رسول الله (ﷺ): ((إذا أراد الله بعبد خيراً وأراد أن يصافيه صبّ عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجاً –أي تابع عليه البلاء وواصله من دون انقطاع- فاذا دعا قالت الملائكة (ع): صوت معروف، قال جبريل (عليه السلام): يا رب عبدك فلان إقض حاجته، فيقول الله تعالى: دعه إني أحب أن أسمع صوته، فاذا قال: يا رب، قال الله تعالى، لبيك عبدي وسعديك، وعزتي لا تدعوني بشيء إلا أستجيب لك ولا تسألني شيئاً إلا أعطيتك: إما أن أعجل لك ما سألت، وأما أن أدخر لك عندي أفضل منه، وأما أن ادفع عنك من البلاء أعظم منه)) ثم قال رسول الله (ﷺ): ((وتنصب الموازين يوم القيامة فيأتون بأهل الصلاة فيعرفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون اجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب حتى يتمنى اهل العافية انهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل، وذلك قوله تعالى ((انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)).

ويستفاد من هذه الروايات وغيرها عموم قوله تعالى (الصابرون) لمن صبر على بلاءه أو صبر على طاعته أو صبر على معصيته أو جمع أنحاء الصبر حباً بالله ورغبة في قربه ورضوانه ورجاء لمغفرته واحسانه وعفوه عن خطيئاته، هذه بينات واضحات من كلام رب العباد وأوليائه الكرام وهي لا تقبل التردد والنقاش، انها بلسم لجراح الصابرين وضماد لإصابة المنكوبين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

1- هذه الآية الثامنة بعد العشرين من سورة المجادلة وهي آية طويلة من سورة مدنية قصيرة تضمنت كثيراً من الأخلاق الفاضلة والآداب المتكاملة وتعرضت لبعض أحكام الله في عباده وهذه الآية خاتمتها .

2- ((يوادون)) أي يحبون ويوالون .

((من حاد الله ورسوله)): أي عاداهما وخالفهما وعاندهما وصار في الجانب الآخر عن الله وعند الحد المتطرف من رسول الله بسبب مخالفته أوامر الله ومعاندته طاعة رسول الله.

((كتب في قلوبهم الإيمان)) أي أثبته وأقره وركزه في قلوبهم بحيث لا تزيله الحوادث ولا تغيره علقة الأقارب، وفي بعض الروايات عن أهل بيت محمد (ﷺ) تفسير الإيمان بالملاك العظيم الشأن الجليل القدر يختاره الله ويأمره أن يؤيد المؤمن الصادق ويقوي إرادته ويدعم قراره ((وأيدهم بروح منه)) وأكرمهم بملاك منه بصاحبهم لكي يقر ويثبت بنحو أقوى، قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) لأحد أصحابه الأجلاء: ((ما من مؤمن إلا ولقلبه أذنان في جوفه: أذن ينفث فيه الوسواس الخناس، وأذن ينفث فيه الملك، فيؤيد الله المؤمن بالملك، وذلك قوله تعالى (وأيدهم بروح منه) وروى الثقة الجليل أبو خديجة: دخلت على أبي الحسن الكاظم (عليه السلام) فقال لي: ((ان الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه

ويتقي، وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سروراً عند احسانه وتسيخ في الثرى –أي تغوص في التراب- عند اسائته، فتعاهدوا –عباد الله- نعمه باصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً وتربحوا نفيساً ثميناً، رحم الله امرءً همّ بخير فعمله أوهمّ بشرّ فارتدع عنه)) .

3- توضيح معنى الآية:- بعد أن تعرضت الآيات السابقة إلى موالاة بعض المنافقين في مجتمع المدينة إلى اليهود ومحبتهم لهم –وهم أعداء الله ورسوله- وتوعدتهم بالعذاب المهين وجعلت الذين يحادون الله ويعادون رسوله من أذل خلق الله، تعرضت لوصف المؤمنين بالله واليوم الآخر الصادقين في ايمانهم قلباً وقالباً باطناً وظاهراً، وان هؤلاء لا تجد فيهم قوماً يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبنائهم أو أزواجهم أو أقاربهم، فلا تجتمع صفة الإيمان الحق الصادق مع صفة الموادة لأعداء الله ورسوله، ثم وصفت الآية الشريفة من لم تجتمع الصفتان في قلبه وسلوكه بأنهم المؤمنون حقاً وصدقاً وأنهم ممن كتب الله الايمان في قلوبهم وأثبته في جوارحهم وشرح له صدورهم بحيث لا تتزعزع ولا يتزحزح عنها، وانه جل وعلا أيدهم بروح منه وقواهم بملاك منه هو معهم وفي صحبتهم يسددهم ويحيي قلوبهم ويعمر صدورهم بالتقوى والإيمان والحجة والبرهان كي لا تتزعزع قلوبهم ولا تزل عن جادة الرحمن وصراط الإيمان، ثم وعد سبحانه هؤلاء المؤمنين الذين لم تجتمع في قلوبهم صفة الإيمان وموادة المخالفين للرحمن ولم تظهر في مناحي سلوكهم آثار الموادة لأعداء الإيمان وعدهم (جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) وانهم قد(رضي الله عنهم) حينما عاشوا في عالم الدنيا مفارقين من عادى الله ورسوله مجانبين من حادّ الله ورسوله ملتزمين طاعة الله مبتعدين عن معصية الله (ورضوا عنه) في عالم الدنيا حيث سلموا قضاء الله ولم ينكروا عليه وقبلوا تقدير الله فيهم ولم يكرهوه، ورضوا عنه في عالم الآخرة حيث جازاهم على حسن صنيعهم بهذا الجزاء العظيم الدائم، ثم أكرمهم الله وشرّفهم بوسام جميل (أولئك حزب الله) وجمعه وصحبه وأحباؤه (ألا إن حزب الله هم المفلحون) وهم الناجحون في موادتهم ومحبتهم وهم الرابحون في دنياهم وآخرتهم .

4- هذه الآية الشريفة تفيد أصلاً كبيراً في المحبة والمودة والعلقة والموالاة حيث انها تنفي وجود المحبة عند المؤمنين بالله واليوم الآخر اتجاه أعداء الله ورسوله حتى لو كانوا أقرب الناس اليها نسباً أو سبباً ((ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم)) أو ماشاكل ذلك من أسباب المودة والمحبة فكأن بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين محبة أعداء الله ورسوله منافاة وممانعة ومضادة ومباينة فلا يجتمعان ولا يلتقيان، وهذا التعبير منه سبحانه كناية عن الحظر والتحريم الشديد بحد صار وكأن امتثاله وتطبيقه أمراً عملياً سائداً بين المؤمنين بالله واليوم الآخر بحيث لا يوجد قوم منهم يوالون ويحبون من حاد الله ورسوله، وهذه مبالغة في المنع عن موادة أعداء الله وتأكيد في الزجر عن مخالطتهم ومجالستهم ومعاشرتهم وما شاكلها مما ينبعث عن المحبة والموالاة والموادة، وهذا عهد ربوبي لعبيده المؤمنين أن يتجنبوا أعداء الله ورسوله وأن يتحرزوا عن الاقتراب منهم بنحو من أنحاء الموادة، وقد ورد في بعض الروايات حكاية تصلب بعض صحابة رسول الله (ﷺ) في مجانبة أعداء الله ورسوله من أقربائهم لمّا حادوا الله وعادوا رسوله .

5- هذه الآية الشريفة –وفي كتاب الله الكريم غيرها- تزجر المؤمنين بالله واليوم الآخر عن موادة الكافرين ومحبة المنافقين وموالاة الظالمين المبتعدين عن شريعة الله ورسوله، ولأجلها أفتى فقهاء الاسلام قاطبة بحرمة التودد والتحبب إلى الكفار والمنافقين والظالمين، وفي (الدر المنثور) للسيوطي رواية نزول هذه الآية فيمن يخالط السلطان الظالم، وهو تطبيق على مصداق وهو لا يوجب الاختصاص بل الآية على عمومها وسعة مدلولها واطلاق لفظها (من حاد الله ورسوله) كما فهم الفقهاء على ما يظهر من فتاواهم فلا فرق في عموم العنوان وانطباقه بين الكافر والمنافق والظالم والفاسق عن أمر الله المؤثر لطاعة ابليس عدو الله، أخرج الحاكم والترمذي والطبراني قول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي المبارك (وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعادي أعدائي) وقال عيسى (عليه السلام) لأصحابه: (تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاء الله بسخطهم) وقال

أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (لا ينبغي للمرء المسلم أن يواخي الفاجر فانه يزين له فعله ويحب أن يكون مثله ولا يعينه على أمر دنياه ولا أمر معاده، ومدخله اليه ومخرجه من عنده شين عليه).

6- يفهم من هذه الآية الشريفة سوء صحيفة من حاد الله ورسوله بحيث استحق من الله تشريع وجوب إعراض عباده المؤمنين عنهم ولزوم مقاطعتهم وحرمة موادتهم وموالاتهم ومحبتهم (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أي عاندوها وخالفوا أمرهما وخرجوا عن طاعتهما (مَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الحشر:4، (أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)التوبة:63، (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)المجادلة: 5، أي أصابهم الاذلال والاخزاء والاهلاك، (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ) المجادلة:20 .

7- هذه الآية الشريفة أصل في حسن الرضا بتشريع الله وقضائه وفي محبوبية التسليم لأمر الله في تشريعاته وفي قضائه حيث وصفت المؤمنين بالله واليوم الآخر بأنهم (رضي الله عنهم ورضوا عنه) ورضا المؤمنين عن الله سبحانه في عالم الآخرة حين يجازيهم بالنعيم المقيم وأما في عالم الدنيا فيتحقق بموافقة تشريعاته وقبول تقديراته وتسليم قضائه في قلبه وقالبه في باطنه وظاهره في قوله وفي فعله، روي أن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) لقي الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري في أخريات أيامه وقد ظهر عليه عجز الشيخوخة وغلبه ضعف القوى فقال له: يا جابر كيف تجد حالك؟ فأجاب جابر: أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى، والمرض أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة، فقال له الإمام الباقر: ((أما نحن أهل البيت فما يرد علينا من الله من فقر أو غنى ومرض أو صحة وحياة أو موت فهو أحب الينا)) فقام جابر وقبله بين عينيه وقال: صدق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال لي: (يا جابر ستدرك واحداً من أولادي اسمه إسمي يبقر العلم بقراً).

وينبغي أن المراد من الرضى: التسليم للأمر الربوبي والصنع الالهي فيه، ولا ينافي ذلك أن يريد العبد غيره ويرغب في سواه أو يسعى اليه أو يدعو الله سبحانه أن يغير عنه

قضاءه ويبدل عليه تقديره، بل قد يغير الدعاء القضاء ويبدل الرجاء الحال وقد أمرنا بالدعاء (ادعوني استجب لكم) المؤمن: 60، واذا لم يتغير عنه القضاء بعد الدعاء والرجاء فليطمئن المؤمن إلى أن ما اختاره الله من التقدير هو الأصلح بحاله وان ما تخيله صلاحاً كان في الحقيقة هو الأسوأ والأضر بحاله إذ لو كان له صلاحاً لما اختار الرب الرؤوف له غيره ولما قضى عليه الحكيم الرحيم سواه، وليقل عندئذ وفي كل وقت ((وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد)) المؤمن:44 .

8- قد يستفاد من هذه الآية ان الموادة والمحبة لا يستحقها إلا من أحب الله ورسوله وتابع الله ورسوله ولم يحاددهما ولم يشاقهما ولم يخالفهما، وهذا المعنى قد استفاضت به الروايات وأكدت عليه الأخبار، قال رسول الله (ﷺ): ((ود المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الأيمان، ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله)) وقال رسول الله (ﷺ) يوماً لأصحابه: أي عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الصلاة وقال بعضهم الزكاة وقال بعضهم الصيام وقال بعضهم الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد، وقال رسول الله (ﷺ): (لكل ما قلتم فضل وليس به –أي وليس ما قلتم بأوثق عرى الإيمان- ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وتولي أولياء الله والتبري من أعداء الله).

والحب في الله يعني أن تحب المؤمن التقي لقربه من الله وصلاحه ومواظبته على الطاعة واجتناب المعصية، وينبغي أن يزداد الحب لمن كان قربه من الله أوكد وإجتنابه عن المعاصي أوثق، والبغض في الله يعني أن تبغض العاصي لربه والمنحرف عن جادة شرعه لعصيانه ومخالفته ربه، وينبغي ان يزداد البغض وتقوى الكراهية كلما كان بعده عن الله أكثر وارتكابه المعاصي أكبر بل يعاديه ويتبرأ منه ومن عمله السوء كما سبق جاء في الصحيح: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال (عليه السلام): وهل الإيمان إلا الحب والبغض، ثم تلا هذه الآية (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) الحجرات:7، وقال (عليه السلام): ((ان المتحابين في الله يوم

القيامة على منابر من نور قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كل شئ حتى يعرفوا به فيقال: هؤلاء المتحابون في الله)) وقال زين العابدين (عليه السلام) لأبي حمزة الثمالي: ((إذا جمع الله –عز وجل- الأولين والآخرين قام منادٍ فنادى يسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله؟ فيقوم عنق من الناس –أي جماعة منهم- فيقال لهم إذهبوا إلى الجنة بغير حساب، قال: فتلقاه الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، قال: فيقولون: فأي ضرب (حزب) من الناس أنتم؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله، قال: فيقولون أي شئ كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله، قال: فيقولون: نعم أجر العاملين))، وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): ((إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك فان كان يحب اهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وان كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب)) .

9- من شعب الأصل الولائي الذي نقحته هذه الآية قوله سبحانه (قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً) النساء:140، حيث نهت وزجرت المؤمنين كافة عن القعود مع الكافرين بايات الله المستهزئين بها حال استهزائهم وخوضهم في حديث الكفر بدين الله والاستخفاف بآياته، وهذه الآية النازلة في المدينة المشرفة تكشف عن نزول آية سابقة شرعت حكمها وجاءت هذه تعقيباً وتأكيداً، وهي قوله سبحانه في سورة الانعام: 68، وهي نازلة في مكة المكرمة ((وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)) وهذه الآية خطاب لمن نزل القرآن على صدره (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو رسول الهدى محمد ولكنه في الحقيقة موجه إلى كافة أفراد الأمة عن طريق مخاطبة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا امر متكرر في القرآن المجيد ومن باب ((إياك أعني واسمعي يا جارة)) وتؤكده الآية المتأخرة في النزول (وقد نزل عليكم في الكتاب) وليس في القرآن آية نازلة في هذا الشأن غير آية سورة الأنعام، وقد روي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان

يقعد إلى المشركين برغبة منهم ورغبة منه (ﷺ) في أن يعظهم ويدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم آيات الله لعلهم يهتدون ويرشدون لكنهم كانوا يقابلونه بالكفر والاستهزاء بآيات الله والاستخفاف بدينه فأمره الله سبحانه في أن ينبذهم ويعرض عنهم تعبيراً عن انكاره عليهم ورفضه لطريقتهم، وهذه سنة قرآنية وطريقة محمدية في الاعراض عن الكافرين والابتعاد والهجر للمستهزئين بآيات الله إنكاراً عليهم وإشعاراً لهم بسوء ما هم عليه من الكفر والجحود والاستخفاف بآيات الله، ولأجلها نبذ الصحابة الأخيار منهم المشركين والكافرين ولم يقعدوا معهم في مجلس ولم يدخلوا معهم في حلقة نبذاً وهجراً وإنكاراً، لكن بعض المنافقين في مجتمع المدينة المشرفة لم يأبه بهذا التشريع ولم يعتن بهذه السنة فكانوا يجلسون إلى بعض أحبار اليهود –وهم كثر في المدينة وما حولها- ويذكر هؤلاء بعض آيات الله ويسخرون بها ويستهزؤون منها بغضاً وحقداً على الإسلام ورسوله الكريم (ﷺ) فنزلت الآية الثانية تؤكد التشريع وتحذر أهل النفاق من دخول حلقات الاستهزاء والاشتراك في حديث الكفر والاستخفاف، وقد اعتمد الفقهاء هاتين الآيتين وأفتوا بحرمة الجلوس في مجلس الكفر ووجوب القيام عن مواضع العصيان نظير مائدة الخمر ومجلس القمار وبيت الدعارة ومجالس اللهو والغناء ومقاعد الإثم والعصيان، وفي الروايات الشريفة تأكيد لذلك قال رسول الله (ﷺ): (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يسب فيه إمام أو يغتاب فيه مسلم، ان الله يقول: واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم) وقد جاء في وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى ابنه محمد بن الحنفيه ((ففرض الله على السمع أن لا تصغي به إلى المعاصي)) ثم قرأ الآية الشريفة وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): ((ينبغي للمؤمن أن لا يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره)) وقال: ((ان الله تبارك وتعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، وفرض على السمع ان يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله وان يعرض عمّا لا يحل له مما نهى الله عز وجل عنه والاصغاء إلى ما أسخط الله عز وجل، فقال في ذلك: وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا

معهم حتى يخوضوا في حديث غيره)) وقال أبو الحسن علي بن موسى بن جعفر الصادق (ﷺ) مجيباً من سأله عن هذه الآية: إذا سمعت الرجل يجحد الحق ويكذب به ويقع في أهله – أي ذم أهل الحق- فقم من عنده ولا تقاعده)) وقال علي بن الحسين (ﷺ) لأبي حمزة الثمالي: ((اياكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم وتباعدوا من ساحتهم)) .

ومن هؤلاء: أهل البدع والاهواء تحرم مجالستهم وتجب منابذتهم وقد قال رسول الله –كما رواه الحاكم- ((من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الاسلام)) وقال علي –كما رواه الصدوق- ((من مشى إلى صاحب بدعة فوقره فقد مشى في هدم الاسلام)).

واذا ثبت وجوب تجنب أهل العصيان والاستخفاف يثبت لزوم تجنب المبتدعين بطريق أولى، وذهب بعض الفقهاء (رض) إلى أن الراضي بفعل أهل العصيان هو مثلهم في المعصية ومشاركهم في العقوبة استفادة من قوله تعالى ((انكم إذا مثلهم)) أي إنكم أيها المنافقون إذا قعدتم مع من يكفر بآيات الله ويجحدها ويهزأ بها إذاً مثلهم في السوء والعصيان واستحقاق العقاب ((ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)) وفي الروايات العديدة دلالة على أن الراضي بفعل قوم يكون مشاركاً معهم في المعصية والعقوبة الأخروية، روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: ((من رضي بفعل فقد لزمه)) وروي عن أمير المؤمنين (ﷺ): ((الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى الداخل في الباطل إثمان: إثم الراضي وإثم الدخول)) ومنه يتبين ان الراضي بفعل سوء يصيبه إثم الرضا وإن لم يصبه إثم الدخول لعدم شروعه في الفعل وعدم صدور نفس الحرام عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

1- هذه الآية الرابعة بعد المائة من آيات سورة آل عمران المنتظمة في آيات الأحكام والأخلاق والاجتماع، وقد قصدت السورة الشريفة بيانها بل تكرر فيها التعرض لمضمونها .

2- ((ولتكن منكم أمة)) هذا أمر الزامي وطلب وجوبي.

((منكم)): يمكن أن يراد منها التبعيض –كما فهم أكثر المفسرين- فيكون المعنى: وليكن بعضكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمكن أن يراد منها التبيين –كما فهم بعض المفسرين- فيكون المعنى: كونوا أمة يدعون إلى الخير.

((أمة)) لفظة مشتقة من (أمّ) بمعنى (قصد) ويراد منها الجماعة الواحدة والطائفة المتحدة التي تقصد من الغير وهي تقصد الغير في الأغراض والمقاصد .

3- ((يدعون إلى الخير)):- الدعاء والدعوة إلى شيء هو الترغيب بشئ والندب اليه والحث عليه.

((الخير)): هو كل عمل فيه صلاح الانسان أو صلاح المجتمع من دون أن يقرنه فساد.

4- ((يأمرون بالمعرون وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))

المعروف: كل فعل حسن وصنع جميل أحبه الشرع المقدس وحث عليه.

المنكر: كل فعل سوء وصنع قبيح أنكره الشرع المقدس وأبغضه.

الفلاح: هو الفوز والنجاح .

5- هذه الآية الشريفة تأمر عباد الله أن يكون منهم أمة وجماعة تتكفل دعوة الناس إلى الخير وتتصدى للأمر المعروف والنهي عن المنكر، ثم وصفت أفراد الأمة الملتزمين بذلك بأنهم ((هم المفلحون)) وهم الفائزون إلى الدرجات العالية والمنازل الراقية عند الله سبحانه.

والدعوة إلى الخير هي دعوة الناس إلى كل ما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم من حيث دينهم ودنياهم، والظاهر ان الخير الذي ندب الله سبحانه للدعوة اليه هو الإسلام أي أصوله من وجود الله وتوحيده وكمال صفاته وجلال نعوته وتصديق نبوة الأنبياء –صلوات الله عليهم- وخاصة نبوة سيدنا ومولانا محمد بن

عبد الله (ﷺ) والاذعان بالعودة إلى الله وقيام الساعة، فان هذا هو الخير وبه صلاح الانسان وصلاح المجتمع باعتباره منطلقاً لصلاح السلوك وحسن السيرة، وهذا المعنى للخير هو ظاهر الآية بمقتضى التفصيل بين ((يدعون إلى الخير)) وبين ((يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) وكأن الأول لبناء أساس الصلاح عند الفرد في المجتمع المسلم والثاني لتكميل بناء الصلاح عند أفراد الأمة ضمن المجتمع المسلم، وهذا المعنى الظاهر من الآية يلئتم مع ما أخرجه ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: قرأ رسول الله (ﷺ) ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير)) ثم قال ((الخير اتباع القرآن وسنتي)) والدعوة إلى الخير –التي طلبتها الآية الشريفة- تختلف أسلوباً وزماناً ومكاناً وأشخاصاً، وخير ما يكشف الطريقة الصحيحة لها: قول ربنا سبحانه (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) النحل:125 .

6- هذه الآية الشريفة شرعت دستوراً لاصلاح المجتمع وتكميل أفراده، هي وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي وظيفة سامية ومهمة عالية أنيطت ابتداءً بالأنبياء والأولياء في الأمم السابقة، قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): ((ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين)) ثم أوكلتها إلى أفراد المكلفين في هذه الأمة وفي الأمم السابقة روى الحسن (عليه السلام) عن رسول الله (ﷺ): ((من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله تعالى وخليفة رسوله وخليفة كتابه)) بل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر خليفة الأنبياء والمرسلين أيضاً كما كان أفراد الشرايع السابقة خلفاءهم في هذه المهمة قال سبحانه (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف:159، وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) آل عمران: 21، والقسط هو العدل والمعروف، وقد وردت روايات متعددة في تفسيرها بأنّ جماعة من مؤمني بني اسرائيل أنكرت على كفار بني إسرائيل حين قتلوا جماعة من أنبياءهم بغير حق وأمرتهم بالقسط والعدل والمعروف فقتلوهم ورفضوا إنكارهم وأمرهم، وقال سبحانه: (ليسوا سواءً) أي ليس أهل الكتاب متساوين

في الفسق والانحراف والكفر بل (مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) آل عمران: 114-115، وهي واضحة الدلالة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الهية واجبة في شرايعهم كما هي دليل على أن دين الله في أصول تشريعاته واحد وانّ شرعه في أسس قوانينه متحد .

7- الظاهر كون (منكم) هنا تبعيضية فانه الغالب في مثل هذه الاستعمالات وهو مقتضى فهم أئمة أهل البيت (ع) حسب الروايات الواردة عنهم فقد سئل أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهو واجب على الأمة جميعاً، فأجاب بالنفي فقيل له: ولم؟ قال: ((إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لايهتدي سبيلاً إلى أي من أي يقول من الحق إلى الباطل، والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل ولتكن منكم امة.. فهذا خاص غير عام كما قال الله عز وجل ((ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون)) ولم يقل: على امة موسى ولا على كل قومه وهم يومئذ أمم مختلفة.... وسيأتي شروط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومع عدم اجتماعها لا يجب ولا يعم الوجوب غير جامع الشرائط فلذا قال (عليه السلام): (خاص غير عام) بعد أن أشار إلى وجوبهما على جامع الشرائط وحسب، حيث قال: ((على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر)) وقد اشتهر بين الفقهاء (رض) ان وجوبهما من نوع الكفائي إذا قام به من تكون به الكفاية والغنى انتفى الوجوب وسقط عن باقي المكلفين بمعنى أن الوجوب لا يتوجه إلى كل فرد فرد بل إلى جامع الشرائط واذا قام من به الكفاية سقط عن غيره ممن به الكفاية، والتفصيل في كتب الفقه الشريف .

8- استفاضت الآيات الشريفة وتواترت الأحاديث الكريمة بالحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالتحذير من مغبة تركهما وسوء عاقبة التقصير فيهما، قال سبحانه (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ) آل عمران: 110، (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) الحج:41، وكان رسول الله (ﷺ) يقول: ((إذا أمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله)) وخطب أمير المؤمنين (ﷺ) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أما بعد فانه إنما هلك من كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون والاحبار عن ذلك، وانهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والاحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف وإنهوا عن المنكر وإعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً)) وروي عن النبي الأكرم (ﷺ): ((لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فاذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء)) وقال أبو الحسن علي بن موسى الرضا (ﷺ): ((لتأمرّن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)) وقال أبو جعفر (ﷺ): (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر) وقال النبي الأكرم (ﷺ): ((والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنّه فلا يستجاب لكم)) وسئل عن خير الناس فقال (ﷺ): ((آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم)) وقال أمير المؤمنين علي (ﷺ): ((أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن غضب لله غضب الله له)).

9- ذكر الفقهاء (رض) لوجوب الأمر بالمعروف ولزوم النهي عن المنكر شروطاً:-

الأول- المعرفة بأن يعرف الآمر بالمعروف حتى يأمر به وأن يعرف الناهي المنكر حتى ينهى عنه، إذ لو لم يعرفهما فقد يقع في الغلط ويأمر بما ليس معروفاً ولا خيراً وينهى عما ليس منكراً ولا محرماً.

الثاني- احتمال التأثير بأن يحتمل الناهي تأثر المنهي عن المنكر وإستجابته باجتناب المنكر وتركه وأن يحتمل الأمر تأثر

المأمور وإستجابته باتيان المعروف وفعله، وحينئذ مع العلم (100%) أو مع الاطمئنان (95%) بأن الشخص لا يكترث ولا يعتني بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر لا يجب الأمر ولا يلزم النهي، ويكفيه الانكار القلبي، وفيه قال الصادق (عليه السلام): (حسب المؤمن عزاً إذا رأى منكراً أن يعلم الله عز وجل من قلبه انكاره) .

الثالث- أن يكون تارك المعروف أو فاعل المنكر عازماً على الاستمرار في ترك المعروف أو مصراً على فعل المنكر.

الرابع- أن لا يخاف الآمر أو الناهي ضرراً ولا يحتمل مفسدة ومضرة بروحه المحترمة أو عرضه الشريف أو ماله العظيم، فاذا خاف على نفسه الهلاك أو على عرضه السوء أو على ماله العظيم التلف -ولو بنحو 20% درجة الاحتمال فما فوق- سقط وجوب الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، والتفصيل في كتب الفقه الشريف .

10- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراتب متعددة:-

المرتبة الاولى:- الأمر بالقلب والنهي بالقلب بمعنى أن يحب في قلبه فعل المعروف الذي لا يرى في الخارج انه يعمل به وأن يبغض في باطنه فعل المنكر الذي لا يجد في الخارج انه مهجور متروك، ثم يظهر هذا الحب القلبي وذاك البغض الباطني على صفحات وجهه وجوارحه بأن يعرض عن تارك المعروف وفاعل المنكر وأن يهجره في الكلام والمعاملة أو العلاقة فيقطب وجهه ويعبس بوجهه ويترك التحية والكلام والصحبة ونحو ذلك بحيث يشعره بسوء صنعه وقبيح عمله وتركه المعروف أو فعله المنكر.

المرتبة الثانية:- الأمر بالمعروف في اللسان والنهي عن المنكر بالقول بمعنى أن يبين لفاعل المنكر والقبيح أو تارك المعروف والواجب: انه ترك معروفاً أو فعل منكراً وينصحه ويتوعده بما أعد الله له من العذاب الأليم والعقاب العظيم والخزي الوخيم، ثم يذكر له ما أعد الله لصاحب الورع والتقى وفاعل الخير والمعروف وتارك الحرام والمنكر من السرور والنعيم ومن الخير والثواب العظيم، ويتدرج في الوعظ اللساني –مع احتمال التأثير- ويلاحظ حال فاعل المنكر ووضع تارك المعروف ويراقب

الأسلوب الأمثل والطريق الانفع في التوصل إلى التغيير نحو الأصلح ويقدر درجة التغليظ أو التخفيف حسب الفعل والفاعل والظروف بنحو حكيم معقول لغرض الوصول إلى التبديل نحو فعل المعروف بدل تركه ونحو ترك المنكر بديلاً عن فعله، والله الموفق في الابتداء والانتهاء.

المرتبة الثالثة:- الانكار باليد بضرب وعصر ونحوهما إذا أوجب الردع عن المعصية وأثمر القرب من الطاعة من دون جرح أو اتلاف عضو، والتفصيل في كتب الفقه الشريف.

قال رسول الله (ﷺ): ((من رأى منكم منكراً فلينكره بيده إن إستطاع، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله من قلبه انه لذلك كاره)) وروى ابن جرير الطبري في تاريخه عن ابن أبي ليلى الفقيه قال: إني سمعت علياً (عليه السلام) يقول يوم لقينا أهل الشام: ((أيها المؤمنون انه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى اليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبريء، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين)) وقال علي (عليه السلام) أيضاً: ((أمرنا رسول الله (ﷺ) ان نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة)) أي منقبضة عبوسة، وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): ((فانكروا بقلوبكم والفظوا بألسنتكم وصكوا بها جباههم ولا تخافوا في الله لومة لائم، فان اتعظوا والى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم)) .

وينبغي الالتفات إلى لزوم التدرج في المراتب بل في المرتبة الواحدة مع اجتماع الشرائط المعتبرة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاذا اجتمعت أنكر بقلبه ثم أظهره على صفحات وجهه وفلتات لسانه وتدرج من الخفيف إلى الشديد ثم إلى الأشد حسب المقامات والأحوال، فان لم ينفع انتقل إلى الوعظ باللسان والنصح بالكلام وتدرج في المراتب والدرجات والأطوار .

11- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الأنبياء ومنهج الصالحين ومنهاج المتقين أوكله الله إلى جميع العباد وأوجبه على جميع المكلفين عند اجتماع الشروط واتجاه كافة

البشر إذا احتمل تأثرهم واستجابتهم، لكن يتاكد هذا الواجب اتجاه الأهل وتقوى هذه الوظيفة اتجاه العيال إذا رأى منهم التهاون في واجباتهم نظير الصلاة والصيام والطهارة ونحوها أو لاحظ منهم التسامح في الاقدام على بعض المحرمات كالغيبة والنميمة والعدوان على الناس وما شاكلها من المحرمات لاسيما المتداولة كثيراً عند الناس، قال الله جل وعلا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم:6، وقد جلس رجل من المسلمين يبكي عند نزول هذه الآية وهو يقول: انا عجزت عن نفسي فكلفت أهلي، فعلم به رسول الله (ﷺ) وقال له: ((حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك من المعروف وتنهاهم عما تنهى به نفسك من المنكر، فان أطاعوك كنت وقيتهم، وان عصوك كنت قد قضيت ما عليك من الواجب)).

12- جعل الله الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الداعين إلى الخير ((هم المفلحون)) أي الفائزون في درجات العلى ومنازل القربى والحاصلون على النعيم المقيم والجزاء الكريم، وينبغي أن يكونوا مؤتمرين بالمعروف ممتثلين له قبل أمرهم به وأن يكونوا منتهين عن المنكر مجتنبين عنه قبل نهيهم عنه حذراً من أن يشملهم خطاب الله وعتابه (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) البقرة:44، أو يعمهم نداء الجبار وتوبيخه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)الصف:2-3، أو يصيبهم لعنة رسول الله ودعاؤه ((لعن الله الآمرين المعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به)) ونختم بالمسك –وهو قول أمير المؤمنين في نهج بلاغته- ((من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم)) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

1- هذه الآية الثالثة بعد الستين من سورة المائدة وهي من السور المدنية الطوال ومن آخر السور النازلة على رسول الله (ﷺ) وقد عنيت بالتأكيد على حفظ المواثيق والتشريعات وبالتنديد بمن تهاون وتعدى وتجاوز الميثاق، وهذه الآية الشريفة منها، فانها ناظرة إلى بعض أهل الكتاب والى تهاونهم في الأمر المعروف والنهي عن المنكر.

2- (لولا) أداة تحضيض وحث على فعل مدخولها –إذا كان فعلاً مضارعاً- .

((الربانيون)):- جمع رباني منسوب إلى الرب بمعنى العالم به والمواظب على طاعته نظير (الإلهيون) جمع (إلهي) منسوب إلى الله بمعنى العارف به والمواظب على طاعته، أو يعني (الرباني) المربي على معرفة الله وطاعته وكأنه يقتدي بالرب جل وعلا، روى ابن عباس (رض) عن رسول الله (ﷺ) قوله: ((ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حر ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه)) ثم تلا قوله تعالى ((ولكن كونوا ربانيين)) آل عمران:79، وقد اشتهر توصيف أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بالرباني لقوله: ((أنا رباني هذه الأمة)).

((الأحبار)) جمع حبر بفتح الحاء وهو العالم الخبير الذي يحبر العلم أي يبينه ويزينه ويحسنه وهو محبّر في صدره، وقد اشتهر توصيف عبد الله بن عباس (رض) بحبر الأمة لأنه خبيرها بالمعارف القرآنية .

اذن الربانيون والأحبار يراد منهما العلماء بالله العارفون به المنقطعون اليه علماً ومعرفة وعملاً، ويكاد يكونان متقاربين في المعنى والاستعمال أو مترادفين وإن إشتهر استعمال (الأحبار) في علماء اليهود.

((عن قولهم الأثم)): أي عما قالوه من الاثم وخلاف الحق كالكذب والشرك ونحوهما مما تكلموا به من الباطل .

((وأكلهم السحت)): السحت في أصل وضعه اللغوي يعني الهلاك قال تعالى ((فيسحتكم بعذاب)) طه: 61، أي يهلككم بعذاب، ويقال للحالق (اسحت) بمعنى استأصل، ويقال للمال الخبيث الحرام (سحت) لأنه يسحت الطاعات ويستأصلها، وفي الغالب يستعمل السحت كناية عن أكل المال الحرام وتناوله بلا استحقاق وهو في الآية كذلك.

((لبئس ما كانوا يصنعون)) بئس: كلمة ذم وسوء.

الصنع: هو العمل الجيد والفعل المتقن وهو أخص من العمل، لتضمنه الجودة والاتقان.

إذن معنى الآية الشريفة: هلا ينهى العلماء والأحبار اولئك المسارعين إلى الإثم والعدوان والمبادرين إلى المنكر واكل السحت والى قول الإثم والزور، ثم ذم سبحانه ما كان يصنع اولئك الربانيون والأحبار الذين ينتسبون كذباً إلى الله والى الدين وهم راضون على منكرات قومهم وهم مداهنون على معاصي أتباعهم وتركهم فرائض الله وهم مجاملون في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3- هذه الآية الشريفة وقعت عقيب ذم اليهود الذين يسارعون في الإثم والعدوان واكل السحت ونحوها من العمل السيء والفعل الدون، قال سبحانه (وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)المائدة:62، ثم جاءت الآية اللاحقة ((لولا ينهاهم..)) تذم علمائهم وأحبارهم على مداهنتهم على العصيان وتهاونهم في النهي عن المنكرات وتسامحهم معهم بقبول سوء الأفعال

وعدم زجرهم عن الأثم والعدوان واكل السحت مع انهم علماء بالله وبقبح افعال قومهم ومطلعون على دين الله وسوء أعمال أمتهم فاستحقوا الذم الشديد والتقبيح الأكيد على تهاونهم ومجاملتهم في النهي عن المنكر وعلى سكوتهم عن العصيان والعدوان وأكل السحت وترك الفرائض والواجبات .

4- هذه الآية الشريفة تفيد أصلاً عظيماً من أصول الأخلاق القرآنية فانها تدل على أن تارك النهي عن المنكر آثم وفاعل للمنكر نظير مرتكب المنكر الذي لم يزجره وشبيه فاعل الحرام الذي لم يردعه، حيث ذمّ التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: (لبئس ما كانوا يصنعون)) وهو مثل ذم التاركين للمعروف الفاعلين للمنكر في الآية السابقة على هذه الآية حيث قال ((لبئس ما كانوا يعملون)) قال حبر الأمة ابن عباس: ((ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية))، إن هذه الآية الشريفة عبرة ودرس تربوي لكل من يعلم الحق ويعرف المعروف ويفقه المنكر- لاسيما العالم الرباني والحبر الصمداني أن لا يتهاون في الزجر عن المنكرات التي يراها ويطلع عليها وأن لا يهادن ولايجامل أهل السوء في المنع عن الآثام التي يرتكبونها وأن لا يقصر في اداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انها موعظة وذكرى واعتبار من علماء أحبار في بعض الأمم السابقة قد قصروا في الهداية والارشاد وداهنوا على المنكر والحرام رغبة منهم في حطام دنيا زائلة وحفاظاً على جاه وأموال يسيرة، ففوتوا على أنفسهم نعمة باقية وجنة عالية ومثوبة دائمة، اخرج ابن ماجة عن جرير: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل المعاصي هم أعز منه وأمنع –أي هم أشد مناعة منهم واكثر قوة- من أن يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب)) وقال (ﷺ): ((ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده)) وخطب أمير المؤمنين (عليه السلام) بالناس فقال: (اعتبروا –ايها الناس- بما وعظ الله به أوليائه من سوء ثنائه على الاحبار إذ يقول: ((لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الإثم)) وقال ((لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل لبئس ما كانوا يفعلون)) المائدة: 78-79، وانما عاب الله عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة المنكر والفساد فلا

ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون، والله يقول: (فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) المائدة: 44، وقال: (اَلْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)التوبة:71، فبدأ الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أدّيت وأقيمت استقامت الفرائض كلها هيّنها وصعبها، وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الاسلام مع رد المظالم ومخالفة الظالم وقسمة الفيئ والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها)) وروى جابر عن الباقر (صلوات الله عليه) قال: قال علي (عليه السلام): ((أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه أني مهلك من قومك مائة ألف: أربعين ألف من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال النبي (عليه السلام): هؤلاء الأشرار –يعني هؤلاء الأشرار استحقوا الهلاك لشرورهم- فما بال الأخيار؟ فقال جل وعلا: (داهنوا أهل المعاصي فلم يغضبوا لغضبي) وقد سئل أبو عبد الله الصادق عن قوله تعالى (كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)المائدة: 89، فأجاب (عليه السلام): ((أما انهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وانسوا بهم)).

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

1- هذه الآية الأولى بعد الثلاثين من سورة آل عمران وهي سورة مدنية باجماع المفسرين وهي من طوال السور وعظائمها وفضائلها .

2- الحب: هو الحالة القلبية الخاصة المعروفة والتي يعيشها كل انسان بل كل موجود في هذا الكون الرحيب، وهي أوضح من الشمس وأجلى من يوم أمس لا تحتاج إلى تعريف أو توضيح .

المتابعة: السير في الأثر والموافقة في الأمر .

((يحببكم)): جواب الأمر المولوي باتباع رسول الله (ﷺ)، ولهذا جزم بالسكون .

3- هذه الآية الشريفة خطاب من الرب الجليل لرسوله (ﷺ): قل يا محمد مخاطباً أمتك من وجد وحضر ومن لم يحضر ومن سيوجد: ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور لعباده رحيم بأحبائه، وهذا شأنه سبحانه غفران الذنوب ورحمة العبيد وحب المتابعين، وقد جاء في أسباب النزول أن قوماً من نصارى نجران قالوا: إنا نعظم المسيح(ع) حباً لله، أو أن قوماً من أصحاب محمد (ﷺ) قالوا: إنا نحب الله، فنزلت الآية الشريفة لتبين ان الحب القلبي مالم يقرنه التبعية في العمل لا ينفع واذا قرنته المتابعة واقتفاء أثر الرسول (ﷺ) في العمل وموافقته في التصرف الحسن أثمر محبة الله لكم وغفرانه لذنوبكم وعفوه عن خطيئاتكم وهذا هو النافع .

وهذه الآية الشريفة جعلت متابعة النبي الأكرم (ﷺ) هي العلامة الفارقة بين صدق دعوى المحبة وكذبها وهي الطريقة الكاشفة عن ثبوت الدعوى وزيفها، وتبقى آية كريمة لجميع الازمان والأعصار وعلامة واضحة ومعلماً جلياً على صدق الادعاء: (إنا نحب الله).

4- لاريب في أن حب الله –في ذاته- أمر محبوب في الشريعة المقدسة ولذات وصف الله المؤمنين بأنهم أشد حباً لله قياساً بمن يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم، فقال سبحانه (وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ) البقرة: 165، وتوعد الله المرتدين عن دينه فقال عز اسمه وعلا جلاله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ

مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) المائدة:54،والظاهر من هذه الآيات ان وجود العلقة الخاصة في القلب إتجاه الرب أمر محبوب مستحسن، وظاهر الآية المبحوثة كونه ناقصاً وكماله بالمتابعة لرسول الله (ﷺ) والإتباع لأوامره ونواهيه والإقتفاء لسنته وسيرته، وقد وعد الله سبحانه في هذه الآية الكريمة بجزائين وكرامتين على حب الله ومتابعة رسوله: أولاهما اكرام الله له بحبه سبحانه له، وثانيهما غفرانه سبحانه لذنوبه السابقة.

قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (ومن سرّه أن يعلم ان الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا، ألم يسمع قول الله عز وجل: قل: ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله لا يطيع عبد أبداً إلا ادخل الله عليه في طاعته إتباعنا، ولا والله لا يتبعنا عبد أبداً إلا أحبه الله، لا والله لايدع أحد إتباعنا أبداً إلا أبغضنا، لا والله لايبغضنا أحد أبداً إلا عصى الله، ومن مات عاصياً لله أخزاه الله وأكبه على وجهه في النار والحمد لله رب العالمين)).

أوحى الله سبحانه إلى كليمه موسى بن عمران (عليه السلام): ((يا ابن عمران: كذب من زعم انه يحبني، فاذا جنه الليل –أي أقبل ظلامه وستره- نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، ها أنا ذا ياابن عمران مطلع على أحبائي: إذا جنهم الليل حولت أبصارهم إليّ من قلوبهم ومثلت عقوبتي بين اعينهم يخاطبوني عن مشاهدة ويكلموني عن حضور، يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع في ظلم الليل فانك تجدني قريباً)).

جاء في الحديث القدسي الشريف: ((لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به)).

هذه الشواهد –وغيرها كثير- هي دلائل بينة على ان حب الله إذا إقترن بالعمل الصالح وبالنوافل والمستحبات اثمر حب الله لعبده ومعونته له وقربه منه وتسديده له، ففي الحديث القدسي: ((عبدي: أطعني تكن مثلي تقول للشيء: كن فيكون)) وكشف عن صدق حب العبد لربه والله يحب الصادقين، وقال أصدق الصادقين (ﷺ): ((إذا أحب الله عبداً من أمتي قذف

في قلوب أوليائه (أو اصفيائه) وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه، فذلك المحب حقاً طوبى له ثم طوبى له، وله عند الله شفاعة يوم القيامة)).

بسم الله الرحمن الرحيم
(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

1- هذه الآية الأولى بعد التسعين والمائة من آيات سورة آل عمران المدنية بالاتفاق، وقد وقعت ضمن الآيات العشرة الأخيرة من السورة الشريفة وهي عشر آيات جليلات تتعرض لبيان حال الأبرار من المؤمنين وأوصاف الأخيار من المسلمين وما يؤول اليه حالهم يوم الجزاء عند رب العالمين .

2- هذه الآية الشريفة تثبت أوصافاً ثلاثة للمؤمنين فانها بمثابة النعت للآية السابقة عليها ((ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)) فأولوا الألباب المتفكرة وذوو العقول المدركة هم الذين يذكرون الله في جميع الأحوال والهيئات وهم الذين يتفكرون في خلق الله السماوات والأرضين ثم هم الذين يتوصلون بعد طول التفكر وعميق التدبر الى ادراك حقيقة عظمى في هذا الوجود وهي أن الله لم يخلق هذا الكون عبثاً وباطلاً، بل خلقه لحكمة وغاية.

3- ((الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)):-

ذكر الله –كما سبق توضيحه- استحضار الذات المقدسة في القلب واستذكارها في اللب ثم ينطلق الى الأعضاء والجوارح فيتحقق بهيئات مختلفة وأشكال متعددة: بصلاة أو صيام أو قراءة قرآن أو دعاء أو ذكر أو بسجود لله أو بتفكر في خلقه وما شاكل ذلك، وقد قسمنا الذكر –فيما مضى- الى الذكر اللساني وأقوى منه الذكر القلبي الباطني وأقوى منه الذكر الجوارحي .

((قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)) هذه الأحوال الثلاثة لا يخلو منها حال انسان غالباً والمؤمن يذكر الله في جميع الأحوال لا يفتر ذكره ولا يغفل فكره حال قيامه وحال قعوده وحال اضطجاعه على طرفه واستلقائه على جانبه و ينقطع عنه الذكر ولا يتوقف عنده الفكر فتراهم يصلون مع استحضار القلب لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقامة الصلاة مع حضور القلب، بل تجدهم يعملون مع استذكار الرب لا يعصونه ولا يقربون من مخالفته، وينامون مع الذكر ويقومون مع الفكر ويقعدون مع التصور.. جميع حركاتهم وسكناتهم مصحوبة بحضور القلب واستحضار الذات المقدسة جلت وعلت، ولما كان هذا الذكر يكمل ويستقيم بالتفكر في خلق الله عقبه سبحانه بقوله:-

4- ((ويتفكرون في خلق السماوات والأرض))

أي يتأملون بأذهانهم وعقولهم خلق السماوات وما فيها من بديع الصنع وخلق الأرضين وما عليها من عجيب الخلق، ليهتدوا الى كمال علمه سبحانه وتمام حكمته ودقيق صنعه وعلو قدرته ونفاذ مشيئته، وهذا منهج تربوي ربوبي في المعرفة الالهية الصحيحة وهي طريقة الانتقال من المخلوق الى الخالق الذي لا يحيط بذاته فكر ولا يدرك حقيقته بصر ولا يقوى على معرفة كنهه بشر إلا من اختصه الله بالعلم اللدني والمعرفة الأحدية .

الباطل: هو العاطل والزائل الخالي من الحكمة والعبث الفاقد للغاية والهدف.

هذه الجملة الشريفة نتيجة حتمية مترتبة على الذكر والتفكر في خلق الله، وهو الهام عقلي يثمره التدبر في صنع الله واقرار قلبي يعطيه التأمل في مخلوق الله لما عليه من النظام العجيب الكامل والترتيب الأنيق السامق وما فيه من الترابط البليغ الكاشف عن القدرة التامة والحكمة البالغة والاحاطة الواسعة والعلم الكامل، انه اعتراف من ذاكر الله المتفكر في خلقه واقرار ملازم للتفكر بأنه سبحانه ما خلق الخلق عبثاً من دون حكمة وما صنع الكون عاطلاً من غير هدف وما أحدث الوجود بلا غاية ((أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً)) المؤمنون:115، انه اذعان بأنه سبحانه أوجد لحكمة عظيمة

وغاية جليلة –هي معرفة الله وطاعته- ((وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون)) الذاريات:56، وقد خرج سيد الشهداء الحسين بن علي (ﻉ) على أصحابه فقال: (ان الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فاذا عرفوه عبدوه، فاذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه) وفي الحديث القدسي: ((كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق)) أي لكي يعرفوه بالفكر الذي وهبه لهم حتى يعبدوه عن معرفة .

6- (سبحانك فقنا عذاب النار):-

التسبيح: هو التنزيه والتقديس، مع اضافته الى الله يعني تنزيهه سبحانه عما لا يليق به من صفات النقص، وقد سئل رسول الله (ﷺ) عن معنى ((سبحان الله)) فأجاب: ((هو تنزيه الله عن السوء)) .

((فقنا)) الفاء للتفريع والانتقال من أصل وأساس الى فرع وبناء، فانهم بعد ما بهرتهم عجائب الخلق واستهوتهم لطائف الصنع إلتفتوا الى تقصيرهم إتجاه القادر العظيم والعالم الحكيم في شكره وذكره وطاعته فطلبوا منه وقايتهم من عذابه وحمايتهم من عقابه بعد أن نزه لسانهم ساحة قدسه وحمد مقالهم لطيف ذاته، وهذه نتيجة طبيعية مترتبة فان التفكر في خلق الله ومصنوعاته يثمر تنزيه الله وتقديسه ثم يشعر بتقصير العبد أمام ربه وبارئه ويدعوه الى البر والعمل الصالح شكراً له على نعمائه ووفاءً له على أفضاله، وقد كان أمير المؤمنين (ﻉ) يقول: ((نبه بالتفكر قلبك وجافِ –أي باعد- عن الليل جنبك وإتق الله ربك)) ويقول: ((ان التفكر يدعو الى البر والعمل به)).

7- ذهب جمع من المفسرين الى تفسير قوله سبحانه ((يذكرون الله..)) بالصلاة وتفسير ((قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)) بأحوال المصلي حسب القدرة والعجز، فمن كان قادراً صحيحاً قائماً يذكر الله ويصلي قياماً، ومن كان له عذر يصلي جالساً ويذكر الله قعوداً، ومن عجز عن ذلك يصلي مضطجعاً على طرفه ويذكر الله مستلقياً على جنبه، وان هذه الآية دليل على وجوب مداومة المؤمن على الصلاة فلا يتركها بحال ولا يضيعها في وقت من الاوقات، بل يصلي ويذكر اله حتى عندالمرض والعجز وعند أشد الحالات وأسوأ الحالات كالغرق والحرق والخوف والمرض وأمثال ذلك، وقد ذكر الفقهاء (رض)

تفصيل هذه الأحوال والأحكام في فقه الصلاة ليس هنا محل ذكرها، لكنه نقول: لا موجب لتخصيص الآية ((يذكرون الله)) بالصلاة وان كانت هي أحد مصاديقه وأظهر أفراده وأصدق أشكاله وأرقى أنحاءه بل يبقى ((يذكرون الله)) على اطلاقه وسعة مدلوله وشمول مصاديقه، والمؤمنون أولوا الألباب وأرباب العقول متصفون بذكر الله في جميع أحوالهم ((قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)) بل الصلاة هي ذكر الله وذكر الله هوالصلاة وكما قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): ((لا يزال المؤمن في صلاة ماكان في ذكر الله قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، ان الله يقول: ((الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)).

8- يستفاد من الوصف الثاني لأولي الألباب ((ويتفكرون في خلق السماوات والأرض)) فائدتين:-

الأولى:- ان التفكر صفة جليلة وخصلة حميدة من صفات ذوي الألباب .

الثانية: ان التفكر المحبوب والمستحسن هو التفكر في الخلق لا في الخالق.

وقد استفاضت الآيات الكريمة والروايات الشريفة في الدعوة الى التفكر وفي توجيه الفكر الى الخلق والصنع دون الخالق الصانع لأنه لا تصل الأفكار الى كنه ذاته ولا تدرك العقول حقيقة صنعه ((ولا يحيطون به علماً)) طه: 110، فاختار سبحانه لهم أفضل الطرق الى معرفته وهي التفكر في عجائب خلق السماوات وبدائع صنع الأرض وما فيهما وما عليهما من الاتقان والابداع مما يبهر العقول ويحير الأفكار لينتقل المتفكر الى الاقرار بعلمه المحيط وحكمته البالغة وقدرته الواسعة وسطوته الشاملة وارادته النافذة (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) الروم:8، (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ)آل عمران:19، (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ)الأعراف:185، (كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)البقرة:266، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الردع:3، (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)عنكبوت:44، (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)الاسراء: 99، (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يونس:24، وأنت ترى هذه الآيات –وغيرها كثير- تدعو الى التفكر والتدبر والتأمل والنظر في الخلق دون الخالق وفي الصنع دون الصانع في آيات قدرته وفي دلالات حكمته وفي بديعات صنعه .

وتعددت الأخبار والأحاديث الداعية الى التفكر بل جعلته عبادة وأرقى عبادة قال رسول الله (ﷺ): ((لا عبادة كالتفكر)) وقال (ﷺ): ((تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة)) وقال أبو الحسن الرضا (عليه السلام): ((انما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل)) وروي عن رسول الله (ﷺ) قوله: ((بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر في النحوم والى السماء فقال لها: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر لله اليه فغفر له)) وقد دعت الأخبار صريحاً الى التفكر في أمر الله وفي خلقه ونهت صريحاً عن التفكر في ذات الله، روى ابن عباس عن رسول الله (ﷺ) قوله: ((تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله)) وخرج (ﷺ) يوماً على أصحابه وهم يتفكرون فقال لهم: ((تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق)) ((التفكير حياة قلب البصير)) وقال (ﷺ): ((لا تفكروا في الله ولكن تفكروا فيما خلق)) ومن هذه الروايات يعرف ان مراد صادق آل محمد (ع) من قوله: (أفضل العبادة ادمان التفكر –أي ادامته- في الله وفي قدرته) هو التفكر في أمر الله عن طريق التفكر في خلق الله ليعرف به الله، لا أن مراده التفكر في الذات المقدسة لأنه تفكر يوجب الحيرة والدهشة واضطراب الفكر، كيف لا يوجب ذلك؟ وجده (ﷺ) يقول: (تفكروا في آلاء الله –أي نعمة ومخلوقاته- ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره).

١٠ - قال العلامة الطبرسي في (مجمع البيان في تفسير القرآن): قد اشتهرت الرواية عن النبي (ﷺ) انه قال لما نزلت هذه الآيات العشرة: (ويل لمن لاكها بين فكيه –أي أدارها في فمه وأجراها على لسانه- ولم يتأمل ما فيها) وهذه الكلمة منه (ﷺ) تشهد بعظيم قدر الآيات العشرة الخاتمة لسورة آل عمران وهذه الآية احداها، وقد عرفنا صدق مقالته (ﷺ) –وهو الصادق الأمين- حين رأيتم هذه الفقرات وقرأتم هذه الصفحات وهي بعض ما أمكن فهمه واستخراجه من معاني هذه الآية التي هي احدى تلكم العشرة التي توعد (ﷺ) بالويل والجحيم والسوء لن قرأها من دون تدبر ما فيها وتأمل معناها، ولعله لعظيم قدر هذه الآيات وجليل منزلتها إستن فيها رسول الله (ﷺ) سنة وأجرى عليها سيرة واظب عليها ثم واظب عليها

أطايب أهل بيته وأبرار أصحابه وأخيار أتباعه، فقد روي بطرق متعددة: ان رسول لله (ﷺ)كان ينام الى نصف الليل أو أقل ثم يستيقظ فيؤتى بطهور يتوضأ به وسواك يستاك به، ثم يقلب بصره في السماء متفكراً وتالياً ومرتلاً لهذه الآيات العشرة ثم يشتغل بنافلة الليل وهي احدى عشرة ركعة ثم لما يقترب الفجر وينفجر الضوء يخرج الى المسجد الشريف ليصلي بالمسلمين فريضة الفجر .

بسم الله الرحمن الرحيم
(الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

١ – هذه الاية الرابعة بعد الثلاثين والمأة من سورة ال عمران الجليلة قدرها الكثيرة معناها الجزيلة فضلها ، وهي آية تتكفل بيان خصال المتقين على صغرها وتعطي صفات المؤمنين على ايجازها ، جمعت أربع خصال هي من أمهات أخلاق الرحمن وعظيمات آداب الايمان ، وجاءت عقيب قوله سبحانه ((وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)) .

٢ – **((الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء))** :-

الانفاق : هو الصرف والاعطاء ، وغالباً مايكون في المال فيقال : أنفق ماله أي صرفه وأذهبه عن نفسه وأعطاه لغيره .

السراء : حال الرخاء والنعمة وهي مقابل حال الضراء – التي هي الحالة الضارة – .

هذه الصفة الاولى من صفات المتقين : انهم ينفقون ما عندهم وحسبما تيسر لهم من قليل أو كثير في حالتي الرخاء والضراء وفي حالتي النعمة والشدة وفي حالتي اليسر والعسر لايقف امامهم عسر الزمان أو ضر الحال أو سوء العيش تنفيذاً لرغبة الله وتطبيقاً لقول رسوله (ص) : ((اتقوا الله ولو بشق تمرة))..وقد حذف الله سبحانه متعلق الانفاق حيث قال : ((الذين ينفقون ...)) ولم يقل مثلاً : (الذين ينفقون اموالهم ...) وذلك ليدل على عمومه شموله لانفاق المال وغيره من علم او جاه أو نحوهما ، فالمتقي العالم هو الذي ينفق علمه على المحتاجين لعلمه في حالتي الرخاء والضر وهو الذي يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية المسترشدين وتبصير الضالين لا يمنعه

ضيق حال او عسر زمان كالمتقي المتمول الذي ينفق امواله في حالتي اليسر والعسر وكالمتقي الوجيه الذي يبذل جاهه ويصرف اعتباره وتقديره لمن يحتاج جاهه لقضاء حاجة أو نحوها- ان هذه الجملة الشريفة تذكر المتقين بما يرغبه الله منهم من ان ينفقوا ما يجدون ويبذلوا مايقدرون ((لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ)) الطلاق : 70 .

3- ((وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)) :-

الكظم : في اصل وضعه اللغوي – شد رأس القربة عند امتلائها بالماء وسد فمها حتى لا يخرج ماؤها ، وهنا استعير الكظم لصبر الانسان وامساكه سورة غضبه وحدة غيظه عن الخروج من الباطن والانتقام ممن أغاضه .

الغيظ : الغضب الشديد والحزن الأليم .

هذه الصفة الثانية من صفات المتقين : إنهم يحبسون غيظهم في داخلهم ويتجرعون كأس الألم في باطنهم ويمسكون أنفسهم عن إظهار غضبهم بالانتقام ممن أغضبهم- صبراً وإحتساباً عند الله .

4- ((وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)) :-

العاف : اسم فاعل من عفى يعفو فهو عافٍ ، والعفو هو التجاوز والصفح عن إساءة الغير وعدم المؤاخذة على سوء فعل الغير ، وبين الكظم والعفو فرق وإختلاف يأتي قريباً بيانه .

5- ((وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)) :-

المحسن : هو اسم فاعل من أحسن يحسن إحساناً وهو الاتيان بالعمل الحسن وعلى الوجه اللائق المستحسن شرعاً أو عقلاً ، ومن مصاديقه الإحسان إلى من يستحق والأنعام إلى من هو أهل للتفضل عليه ، وله مصاديق أخرى ويجمعها (فعل الحسن) وقد فسر الإحسان في الحديث الشريف بأن ((تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك)) وهذا تعبير شامل للإحسان الكامل وهو عبارة عن (فعل الحسن) .

هذه الخصال الأربعة الجميلة لو تحلى بها أفراد مجتمع الإيمان وتزين بها أبناء دين الإسلام لكانوا ملاكاً مقدسين بصورة بشر

يمشي على الأرض ، بل لو تحلى بها بعض الأفراد كانوا ملائكة وسط بشر وخيراً طارداً لشر ونوراً بين ظلمات ... روى المحدثون قاطبة أن زين العابدين علي بن الحسين بن علي (عليهم السلام) كانت له جارية وفي يوم أراد أن يتهيأ للصلاة فجعلت تسكب عليه الماء ليتوضأ ويتطهر فسقط الابريق من يدها على وجهه فشجه وادماه فرفع رأسه ينظر اليها فقالت له : ان الله يقول ((وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)) قال (ع) : قد كظمت غيظي، ثم قالت: (والعافين عن الناس) قال (ع): قد عفوت عفا الله عنك ، ثم قالت : ((وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)) قال : إذهبي فأنت حرة لوجه الله .

6- هذه الآية الشريفة تضمنت اصلاً جليلاً من أصول الاخلاق الفاضلة هو حسن الحلم وجمال كظم الغيظ .. والحلم – بكسر الحاء – هو ثبات العقل وأناة الروح وطمأنينة النفس عن التحرك نحو ما يدعو اليه الغضب والحدة والحمق ، وهو مضاد الغضب وهو مانعه من الحدوث والتحقق والوجود .. وكظم الغيظ هو التحلم والتأني والتثبت أي تكلف الحلم وتأني الروح وتثبيت النفس عن الانتقام بعد فوران الدم وهيجان الروح نحو الانتقام فهو يمنع تأثير الغضب بعد حدوثه في النفس ويضعف مفعوله بعد حصوله في الداخل ويخفف حدته وقوة ثورته بعد هيجانه في الباطن .

وقد وردت الروايات الكثيرة في حسن الحلم حتى جعلته من (سنن المرسلين) ومن كان واجداً له فهو واجد لسنة من سنن المرسلين وصفة من صفات النبيين ، وقد كان علي بن الحسين (ع) يقول : ((إنه ليعْجِبُني الرجل أن يُدْركه حلُمه عند غَضبَه)) وابنه الباقر يقول : (ع) ((إن الله يحب الحيي الحَليم)) ، والروايات في حسن الحلم كثيرة نختمها بالمسك وهو الحديث الصحيح الذي رواه أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: قال رسول الله (ص) في حديث : ((إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ يسمع آخرهم كما يسمع أولهم ويقول : أين أهل الفضل ؟ فيقوم عنق من الناس - أي جماعة منهم – فيستقبلهم الملائكة فيقولون : ما فضلكم هذا الذي نوديتم به ؟ فيجيبون : كنا يجهل علينا في الدنيا فنحلم ويساء الينا فنعفو ، فينادي منادٍ من الله تعالى : صدق عبادي اخلوا سبيلهم

ليدخلوا الجنة بغير حساب)) كما وردت الروايات الكثيرة في مدح التحلم وفضل كظم الغيظ وحسن إمساك النفس عن الانجرار وراء الغضب كصحيح ابي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين زين العابدين (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ((من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان : جرعة غيظ تردها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر)) .

وقال (ص) : ((ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها إبتغاء وجه الله تعالى)) وعن ابن عباس : قال رسول الله (ص) : ((ما من جرعة احب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظم عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً)) ، وهاتان الروايتان تشيران إلى جهة مهمة في حسن كظم الغيظ واستحقاق الثواب عليه . وهي قصد التقرب إلى الله بكظم الغيظ بحيث يكون كظمه لله وابتغاء وجهه ، وقد كان علي بن الحسين (ع) يقول : ((ما أحب أنّ لي بذل نفسي حمر النعم – أي لاأرغب في ان تكون لي حمر الانعام وجيداتها في مقابل ذل نفسي – وما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها)) وقال ابو جعفر الباقر (ع) : ((من كظم غيظاً وهو يقدر على امضائه حشا الله قلبه - أي ملأه – أمناً وإيماناً يوم القيامة)) وقال ابو عبدالله الصادق (ع) : ((نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها فان عظيم الأجر لمن عظيم البلاء وما أحب الله قوماً إلا إبتلاهم))، وهذه الرواية الشريفة تشير إلى عظمة أجر كظم الغيظ وان عظيم الاجر ناشيء من عظيم بلاء الكظم وشديد ألم إمساك النفس عندما تفور الدماء غيظاً وحنقاً وتريد الخروج بنحو الانتقام والثأر فتعاني النفس شديداً في كظمها ومنعها وحبسها وهذا هو الجهاد الاكبر الذي رغب اليه رسول الله (ص) من أمته ، والروايات في مدح كظم الغيظ كثيرة نختمها بمسك : روى الربيع بن عبد الرحمن لنا فقال : (كان والله موسى بن جعفر عليه السلام من المتوسمين : يعلم من يقف عليه ، ويجحد الانام بعده إمامته وكان يكظم الغيظ عليهم ولايبدي لهم ما يعرفه فسمي الكاظم لذلك).

7- هذه الاية الشريفة تضمنت أصلاً اخر من أصول الاخلاق الكريمة هو العفو والصفح والتجاوز عن المسيئ والتجافي عن الذنب ، وللعفو عند المقدرة منزلة عظيمة عند الشارع المقدس

وللصفح الجميل مرتبة عالية عند المشرع الاقدس لا ينالها إلا ذو حظ ذو عظيم قد آتاه الله نفساً كبيرة وقلباً عظيماً وروحا قديرة على ملك زمام الامر وضبط النفس عن المقابلة بالمثل والمكافأة بالسوء او المجازاة بالأسوأ ... ان مرتبة العفو اعلى من مرتبة كظم الغيظ ومنزلته ارقى من منزلته اذ ربما يكظم احد غيظه ويمسك حنق نفسه مع تحفظه في باطنه على حقده ومع احتفاظه في داخله على ضغينته وربما يحبس نفسه عن الانتقام والثأر ابتغاء وجه الله تعالى مع رغبته في الانتقام لولا المانع الالهي الروحاني ، والحال ان العفو والصفح كرم نفس وجود باطن وتعفف عن التجاوز والمقابلة بالسوء والذنب من دون بقاء حقد في الداخل وهو تجافٍ عن الاساءة وتجاوز عن الاهانة من دون بقاء ضغينة او رغبة في الثأر والانتقام ولذا كانت منزلة العفو أرقى ومثوبته إذا أريد به وجه الله أعلى ، قال الله سبحانه ((وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)) النور : 22 ، ((فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)) الحجر : 85 ، ((فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)) المائدة 13 ، ((وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) التغابن : 14 ، ((وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)) البقرة : 237 ، ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)) الاعراف : 199 ، ومن هذه الايات يفهم ان جزاء العفو والصفح هو غفران الذنوب مضافاً إلى ما أعده الله للعافي عن الناس المسيئين اليه من الثواب العظيم والجزاء الكريم ، والروايات في فضل العفو ومدحه وتحبيبه إلى قلوب المؤمنين عديدة كثيرة منها قول رسول الله (ص) : ((من سره انّ يشرّف له البنيان - أي يعلى له – وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعطِ من حرمه ويصل من قطعه)) وقال (ص) يوماً لأصحابه في خطبته : ((ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والاخرة ؟ العفو عمن ظلمك وتصل من قطعك والاحسان إلى من اساء اليك وإعطاء من حرمك)) . وفي صحيح أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (ع) قال : ((اذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الاولين والاخرين في صعيد واحد ثم ينادي مناد ، اين اهل الفضل ؟ قال : ((فيقوم عنق من الناس - أي جماعة منهم – فتلقاهم الملائكة فيقولون : وما كان فضلكم ؟ فيقولون : كنا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمن ظلمنا ، فيقال

لهم : صدقتم ادخلوا الجنة)) وقد أتي رسول الله (ص) باليهودية التي سمت الشاة وأطعمته (ص) فعفا عنها وأصفح كما جاء في الرواية عن ابي جعفر الباقر (ع) ، وفي عدة من الروايات تفسير قوله تعالى ((فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)) الحجر : 85 بقوله ((العفو من غير عتاب)) وقال امير المؤمنين (ع) - كما في نهج البلاغة – ((اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه)) وروي عن علي بن موسى الرضا عن أبائه عن رسول الله (ص) قوله : ((عليكم بمكارم الأخلاق فإن ربي بعثني بها ، وان من مكارم الاخلاق ان يعفو الرجل عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه وان يعود من لا يعوده)) وغيرها كثير .

8- هذه الاية الشريفة تضمنت أصلاً كبيراً من اصول الاخلاق الالهية الكريمة هو الانفاق والبذل ، ولاريب في حسن الانفاق والبذل لما يجده الانسان من مال او علم او جاه أو سلطان يبذله لمن يحتاج اليه وينتفع منه ويكمل به ، وقد اعتبرت الشريعة الاسلامية المقدسة بذل كل خير صدقة واحساناً يؤجر عليه الباذل ويثاب عليه الفاعل حيث قال رسول الله (صلوات الله عليه واله) في الرواية المشهورة المتفق على روايتها بين المسلمين ((كل معروف صدقة)) .

ويحسن بنا ان نتكلم يسيراً ونلقي الضوء قليلاً على فضل بذل العلم وجميل انفاق المال لعظم اهميتهما في نظر الشرع الأقدس وفي سبيل صلاح أمة محمد (ص) .

وقد إستفاضت الأخبار أو تواترت في فضل بذل العلم ومدح انفاقه ، وقد إشتهرت الرواية عن رسول الله (ص) انه قال في حجة الوداع عندما خطب بالمسلمين في مسجد الخيف : ((نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها من لم يسمعها ..)) وكان فيما اوصى به رسول الله (ص) علياً : ((ياعلي : ثلاث من حقائق الإيمان : الانفاق من الاقتار وإنصاف الناس من نفسك وبذل العلم للمتعلم)) وقال (ص) : ((أن معلم الخير يستغفر له دواب الارض وحيتان البحر وكل ذي روح في الهواء وجميع اهل السماء والارض ، وان العالم والمتعلم في الاجر سواء يأتيان يوم القيامة كفرسي رهان يزدحمان)) وقال أبو جعفر الباقر (ع) : ((من علم باب هدى كان له اجر من عمل به

ولا ينقص اولئك من اجورهم ، ومن علم باب ضلال كان له وزر من عمل به ولاينقص أولئك من اوزارهم)) وقال (ع) : ((زكاة العلم ان تعلمه عباد الله)).وقال ابو عبدالله الصادق (ع) : ((قرأت في كتاب علي عليه السلام : ان الله لم يأخذ على الجهال عهداً بطلب العلم حتى اخذ على العلماء عهداً ببذل العلم للجهال لأن العلم كان قبل الجهل)) فمن احب تزكية علمه وتطهيره ومن احب الوفاء بعهد الله كان عليه ان يبذل العلم لفاقديه كيما يتنوروا ويتبصروا ويهتدوا طريق الخير والصلاح وكي لا يتخبطوا في متاهات الضلالة والعمى ، وقد جاء في بعض الاخبار السؤال عن قوله تعالى ((مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)) المائدة : 32 ، فأجاب أبو عبدالله الصادق (ع) : ((من أخرجها من ضلال إلى هدى فقد أحياها ، ومن اخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها)) وهذا تطبيق أو تاويل للاية يكشف عن مدى فضل بذل العلم النافع الذي يقرب إلى الهدى والخير ، ((وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) فصلت: 33 ، ((وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)) الانبياء:73 ..ونختم بذكر نصيحة عيسى بن مريم (عليه الصلاة والسلام) لبني اسرائيل : ((يابني إسرائيل : لاتحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)) .

وأما فضل انفاق المال فقد تعددت به الايات القرانية والأحاديث المحمدية وكثرت به كتابات المصلحين الاجتماعيين لكثرة أهميته في صلاح المجتمعات البشرية واستقامتها بل ورقيها وصمودها امام عوابس الدهور ومصائب العصور ويكفينا ادراك المشرع الاقدس لعظيم أمره وجليل خطره الذي نستكشفه من كثرة بياناته وتكرر تأكيداته الداعية إلى الزكاة والصدقة والانفاق بمختلف الاطوار والاحوال وفي الاسباب الخاصة الموجبة لها والمذكور تفصيلها في كتب الأحاديث والفقه الشريف ، وقد إقترن الأمر بالزكاة بالأمر بالصلاة في عدة من آيات القران المجيد فكشف ذلك عن كون الزكاة - بمفهومها العام الشامل – من عماد الدين وركن الشرع المبين بل ثمة عشرات الايات الشريفة ومئات الروايات الكريمة تحث على الزكاة والانفاق والبذل وتذم

مانعي الزكاة ومخفي الصدقات وتاركي الانفاق حتى صرحت بعض الروايات بأن الزكاة من الدعائم والأسس التي بني عليها الإسلام واقيم عليها دين الرحمن ، وصار وجوب الفرائض المالية - بمختلف اسمائها ومواردها – من الامور الدينية الواضحة ومن الواجبات الالهية البديهية التي لاتحتاج إلى استشهاد واستدلال ، لكن - تبركاً وتيمناً – نختار بعض الروايات التي تلقي الضوء على اصل تشريع الزكاة بما لها من المعنى الوسيع وتلقي النور في أصل حكمتها .. قال ابو عبدالله الصادق (ع) : لما نزلت اية الزكاة ((خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ)) التوبة: 103 ، في شهر رمضان ، فأمر رسول الله (ص) مناديه ، فنادى في الناس : ((ان الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة ، ففرض الله عليكم في الذهب والفضة والابل والبقر والغنم وفي الحنطة والشعير والتمر والزبيب ، نادى فيهم بذلك في شهر رمضان وعفى لهم عما سوى ذلك ، ثم لم يتعرض (ص) لشيء من اموالهم حتى حال عليهم الحول من قابل فصاموا وصلوا ، فأمر مناديه فنادى في المسلمين : أيها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلاتكم)) ثم وجه (ص) عمال الصدقة وعمال الطسوق ، وهم العمال الذين بعثهم (ص) لجباية الزكاة والصدقة وتحصيل الخراج والطسوق – أي مايفرض على الارض الزراعية حسب شروط وخصوصيات مذكورة في الفقه - وقال (ع) : ((ان الله عز وجل فرض للفقراء في مال الاغنياء مايسعهم - أي مايكفيهم – ولو علم ان ذلك لا يسعهم لزادهم ، انهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل ، ولكن أوتوا من منع من منعهم حقهم لا مما فرض الله لهم ، ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير)) وهي تصرح بأن النسب المئوية للفرائض المالية والصدقات بمقدار كفاية الفقراء واحتياجهم وانما جاءت معاناتهم العوز والفقر من منع تاركي الحقوق الشرعية المالية ومن سلبهم حق الفقراء لا من تشريع الله سبحانه ... وقال (ع) : ((ان الله عز وجل فرض للفقراء في اموال الاغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها وهي الزكاة ، بها حقنوا دمائهم وبها سموا مسلمين)) وروى انس ابن مالك عن النبي الاكرم (ص) : ((السخاء شجرة في الجنة ، اغصانها في

الدنيا من تعلق بغصن من اغصانها قادته إلى الجنة ، والبخل شجرة في النار اغصانها في الدنيا فمن تعلق بغصن من اغصانها قادته إلى النار)) وروى ابو جعفرالباقر (ع) عن جده (ص) : ((ليس البخيل من أدى الزكاة المفروضة من ماله واعطى النائبة - أي الحاجة الحادثة – في قومه ، انما البخيل حق البخيل من لم يؤد الزكاة المفروضة من ماله ولم يعط النائبة في قومه وهو يبذر فيما سوى ذلك)) وقد فسرت بعض روايات اهل بيته (صلعم) الجود والسخاء بأداء ما إفترض الله سبحانه على عبده في ماله وإيصاله إلى اهله ومستحقيه ، أي ليس الجود من فرش الموائد العظيمة للأغنياء وبذر أمواله في غير الزكاة والحقوق المالية المفروضة على العباد ... سئل ابو عبدالله الصادق (ع) في الصحيح عن قول الله سبحانه ((وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) آل عمران: 180 ، فأجاب (ع) : ((ما من احد يمنع من زكاة ماله شيئاً الا جعل الله عز وجل ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب وهو قول الله : سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، يعني ما بخلوا به من الزكاة)) وقال (ع) : ((ما من ذي مال - ذهب أو فضة – يمنع زكاة ماله إلا حسبه الله عز وجل يوم القيامة بقاعٍ قرقرٍ وسلط عليه شجاعاً - هو ضرب من الحيات الذكور – اقرع يريده وهو يحيد عنه - أي يهرب منه – فاذا راى انه لا مخلص له منه أمكنه من يده فقضمها - أي اكل يده باطراف اسنانه – ثم يصير طوقاً في عنقه وذلك قول الله عز وجل ((سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، ((وما من ذي مال - إبل أو غنم أو بقر – يمنع زكاة ماله الا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر يطأه كل ذات ظلف بظلفها وينهشه كل ذات ناب بنابها ، وما من ذي مال – نخل أو كرم أو زرع – يمنع زكاتها إلا طوقه الله ريعة ارضه – أي مرتفعها – إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة)) وقد روي عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام)عن ابائه (عليهم السلام) : ((لما نزلت اية : ((وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) توبة: 34 ، قال رسول الله - صلى الله عليه واله وسلم – ((كل مال يؤدى زكاته فليس بكنز وان

كان تحت سبع أرضين ، وكل مالٍ لا يؤدى زكاته فهو كنز وان كان فوق الارض))، وهذه الرواية واضحة الدلالة على ان الكنز المذموم والمستوجب للعذاب الاليم هو كناية عن منع الزكاة وعدم ادائها وهو عدم الانفاق في سبيل الله وفي مرضاته ، والمراد من الزكاة والانفاق والصدقة معناها العام الشامل لكل ما افترض الله على عباده في اموالهم ولجميع ماأوجبه الله على خلقه في املاكهم وقد اراد الله سبحانه بتشريعه سد عوز المعتازين ورفع حاجة المحتاجين وازالة ضرورة المضطرين ، وحينئذ يعم ويشمل زكاة الذهب والفضة والأنعام والغلات وزكاة فطر الصائمين ليلة عيدهم وخمس الارباح والتجارات وفدية المعذورين عن الصيام وانواع الكفارات المالية والنذور وشبه ذلك ، ويشهد لعموم المعنى : التأمل والتفكر الدقيق في الايات والروايات، ويؤكده الجمع بين النصوص الشريفة والقرائن المبثوثة فيها ليس هنا محل ذكرها واستعراضها ، قال النووي في شرحه على صحيح مسلم : (باب بيان ان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) واستشهد بقوله (ص) المشهور روايته بين المسلمين قاطبة ((كل معروف صدقة)) وفي روايات اهل البيت (ع) الشواهد الكثيرة ، ومن احب وكان من ذوي البضاعة العلمية رجع إلى كتب الحديث والفقه واستطلع الشواهد والقرائن والله الموفق .

بسم الله الرحمن الرحمن

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي

يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**)**

1- هذه الاية الرابعة بعد الستين والمأتين من سورة البقرة النازلة في المدينة المشرفة وهي من افاضل السور الطوال واعظمها ، وقد اعتنى المسلمون الاوائل بحفظها وتعلمها وتفقه احكامها ومعرفة حكمة قصصها ، وهذا منهم تبع وامتداد لإعتناء رسول الله (صلوات الله عليه واله) واهتمامه بالسورة الكريمة وقد سماها (سنام القران) حين قال (ص) : ((لكل شيء سنام- أي شيء كبير وعال – وسنام القران سورة البقرة))**..** وهذه الاية الشريفة تقع وسط آيات عديدة تحث على الانفاق المالي في سبيل الله وابتغاء مرضاته وتتعرض لبعض أحكامه وادابه ، وهذه الاية المتوسطة بينها تتعرض لحكمين من احكام الانفاق في سبيل الله والتصدق قربة إلى الله تعالى سوف يتضحان في ضوء فقرات البحث لاحقاً .

2- ((لاَ تُبْطِلُواْ)) : أي لا تجعلوها باطلة أي ذاهبة هدراً وزائلة ضياعاً وخسراناً وعاطلة لا تنفع ولا تفيد .

((صَدَقَاتِكُم)) جمع صدقة ، وهي كل انفاق مالي يقصد به مرضاة الله وينوى به وجه الله ، وهو عنوان عام ومدلول واسع يشمل كل موارد الانفاق والاعطاء والبذل التي شرعها الله لسد عوز المعتازين وقضاء حاجة المحتاجين كما سبق توضيحه قريباً ، بل يظهر من روايات عديدة عموم الصدقة وشمولها لكل خير يبذله الانسان وان لم يكن مالاً كعلم يبذله لمن ينتفع به وعون يقدمه لمن يحتاج اليه ودلالة يوجهها لأعمى ونصيحة يعطيها لغافل عنها وما شاكل ذلك ، ففي الرواية المشهورة عن رسول الله (ص) : ((كل معروف صدقة)) وعنه (ص) : ((افضل الصدقة ان يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم)) وعن الامام محمد الباقر (ع) : ((زكاة العلم ان تعلمه عباد الله)) ، وبالفعل هذه المقولة حكيمة وصادقة حسب التجربة الوجدانية الملموسة لكل من رزق علماً وفهماً واراد تزكيته وتنميته إذ ان تعليمه لعباد الله المنتفعين به ترسيخ له في النفس وتمكين له في الصدر وتثبيت له في العقل وهو يوجب النماء والسعة .

3- ((بِالْمَنِّ)) : المن هو القطع ، ومنه قوله سبحانه ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)) فصلت: 8 ، أي غير مقطوع ولا منقطع ، ويراد من المن هنا ان يذكر المتصدق قولاً ويتحدث بكلام عقيب تصدقه ينغص المعروف ويبطل البر ويحبط الاجر ويقطع الثواب كأن يعتبر المنفق صدقته نعمة على الغير وفضلاً له عليه فيقول له مثلاً : أنا الذي انعشتك واحسنت اليك أو انا الذي صنعت لك المعروف واخرجتك من ألم العوز والسوء يوم كذا ، أو يفتخر عليه بما شاكل هذه الجمل الموجبة لإذلال الفقير وتذكيره بشعور النقص الذي يحسه المحتاج في ذاته .
((والأذى)) :- هو السوء والضرر الواصل إلى المنفق عليه ، وهو الحزن والغم الغليظ الوارد على نفس المتصدق عليه من مقالة يحدثها المنفق أو فعلة يوجدها المتصدق فتؤلم نفس المنعم عليه وتحزن قلب المنفق عليه بأن يواجهه به أو يتحدث به امام الغير فيبلغه ويؤلم قلبه .
4- ((كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ)) :-
رئاء : أصله من الرؤية كالذي يتصدق وينفق ماله لرؤية غيره من الناس مباهاة بما أنفق وافتخاراً بما تصدق لايريد بصدقته رؤية الله لها فقط ولايقصد بانفاقه سبيل الله ورضوانه وحسب بل يشرك رؤية الناس مع رؤية الله ، والرياء والرئاء والمراءاة كلها بمعنى واحد ومدلول فارد .
5- ((فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً))
صفوان : حجر املس .
وابل : المطر العظيم والذي له قطر كثير ووقع شديد على ما يصيب .
الصلد : الاملس الاجرد الذي لايصلح للإنبات والزرع والاثمار .
6- هذه الاية الشريفة خطاب عام للمنفقين ونصح شامل للمتصدقين ان لايبطلوا نفقاتهم ولا يذهبوا بها هدراً فاقدة للثواب خالية من الاجر في الاخرة والعقبى بواسطة المن والاذى اللاحقين لصدقته وبره إذ أنهما يفسدان الصدقة وبيطلان الاجر ويمنعان قبول العمل ((إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)) المائدة: 27 ، وهذا منه سبحانه تخفيف عن كاهل المحتاجين وبؤس المعوزين وفاقة المفتقرين اذ انهم بسؤالهم ومدّ يدهم للاخذ من الغني يشعرون بانكسار القلب وضعف النفس فاذا

تعقبه اضرار وايذاء أو لحقه المن الذي ينغص عليهم المعروف ازداد القلب - لامحالة – إنكساراً وإشتد الشعور النفسي ضعفاً ولذا شاء الله بتشريع الانفاق والتصدق رفع الحاجة مع الاكرام ورفع الضرورة مع الاحترام ودفع السوء والاذى ون دون حيف أو نقص أو اذلال ومن اجل ذلك ثنى الله سبحانه - بعد تشريع الانفاق – بتشريع حرمة المن والاذى وتوعد بابطال الاجر والثواب ووعد بأحسن الاجر واقوى الامن لمن لم يتبع صدقته المن والاذى فقال عزّ قوله ((الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)) البقرة: 262 ... ثم ضرب سبحانه لنا مثلاً لمن تصدق واتبعها بما يبطلها من المن أو الاذى فشبهه بمن انفق ماله رئاء الناس واعطى صدقته من دون ابتغاء وجه الله ومن غير تقرب نحوه ولا قصد مرضاته سبحانه ، وجهة التشابه بينهما : بطلان الاجر وضياع الثواب وذهابه هدراً لا فائدة فيه وان كان الانفاق رئاءً والتصدق طلباً للجاه والسمعة عند الناس باطلاً من اصله وفاسداً من اوله ، مع الانفاق المتبوع بالايذاء والعطاء الملحوق بالمن والتنغيص يقع في الابتداء صحيحاً له اجر وثواب لكن بعد لحوقه بالمن أو الاذى يفسد الاجر ويبطل العمل ويحبط الثواب ويضيع هدراً ، ومقتضى هذا التمثيل والتشبيه ان يكون بطلان الاجر بالانفاق رئاء الناس أجلى وأقوى وضوحاً واشد ظهوراً ولذا صح تشبيه من ينفق ثم يتبع انفاقه بالمن والاذى بمن ينفق رياء وسمعة وكأنه سبحانه يقول لنا بهذه الاية الشريفة : لاتبطلوا صدقاتكم بالمن أو الاذى نظير ابطال صدقة من ينفق رئاء الناس ، وكأن المنفق رياء لايؤمن بالله واليوم الاخر ايماناً صادقاً حقيقياً إذ لو كان يؤمن بالله حقاً ويصدق باليوم الاخر حقيقة لأخلص عمله لله وصفّى نيته عند التصدق لوجه الله ولم يشرك معه سواه ... ثم ضرب سبحانه لنا مثلاً ثانياً لمن يتصدق ويتبع صدقته بالمن أو الاذى ومن ينفق ماله رئاء الناس ، وشبه كل واحد منهما ((كمثل صفوان)) أي حجر املس عليه تراب فأصابه وابل من المطر عظيم من القطر فأذهب التراب النافع المثمر وتركه حجراً صلداً وجسماً مجرداً ظاهر الملاس لايصلح لنبات أو غرس أو إثمار ولاينفعه ماء المطر حينئذ بل قد اضره حين ازال التراب عنه ، وهكذا من تصدق

وأتبع صدقته بالمن اوألحقها بالاذى حيث يبطل اجره ويضيع ثوابه كما يذهب المطر العظيم بالتراب القائم على الحجر فيبقى حجراً املس لاينفع للانبات والاثمار ، وهكذا من تصدق وانفق ماله رياء وسمعة يبطل اجره ولاينفع عمله وانفاقه ولايمكن استدراكه وتلافيه ... وجهة التشابه والتشارك بين الممثل به والممثل له قد أفاده سبحانه بقوله ((لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ)) وهي إنتقاء القدرة على الانتفاع بالمتبقي والاستفادة من الباقي ، وكما الحجر الاملس الاجرد عن التراب لاينفع لعدم صلاحيته للانبات والاثمار أو الزرع والغرس كذلك الصدقة التي يلحقها المن أو الاذى والصدقة المقرونة بالرياء وطلب السمعة يضيع فيها الاجر العظيم المضاعف ويذهب سدى فلا ينتفع المنفق من صدقته ولايثبت له اجر على ما كسب ولايقدر على الاستفادة من شيئ مما صنع وذلك لذهاب ماله في الدنيا بالانفاق ولانقطاع اجره في الاخرة بالرياء أو المن أو الاذى ... هذا التمثيلان و التشبيهان يقصد منهما تاكيد تحذير المنفقين من رذيلة المن وخطيئة الاذى وجريمة الرياء ويراد منهما تثبيت مبغوضيتها في نفوس الذين امنوا بالله واليوم الاخر وتنبيههم إلى ان الانفاق المصحوب باحدها عمل فاسد باطل لا خير فيه ولا قرب إلى الله به وان حسبه الناس عملاً صالحاً أو اعتقده العامل مقرباً إلى الله جل وعلا .

((وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)) بانعمه والجاحدين لأفضاله عليهم حين لايكافؤن أنعم الهو بالشكر له وحين لايقابلون افضال الله بالذكر والطاعة له وحين يطغون على عباد الله الفقراء المعوزين بالمن والاذى أو على بارئهم ومنعمهم بطلب السمعة عند غيره أو مراءاة الناس ... وفي هذه الجملة الشريفة اشعار واعلام بان الرذائل الثلاثة - الرياء في الانفاق والمن به والاذى معه – هي من صفات الكافرين فمن يتصف بها يكون بمنزلة الكافر وان كان في قلبه مؤمناً وفي قالبه خيراً ، وهذا منه سبحانه تعبير جميل وفي غاية التحذير ونهاية التنفير عن هذه الرذائل .

7- هذه الاية الشريفة - كما سبق ذكره – وقعت ضمن آيات تحث على البذل والانفاق وتبعد عن البخل والامساك وتدعو إلى التصدق ابتغاء مرضاة الله سبحانه وطلباً للقرب منه ، وهي

ترشد المؤمنين إلى ان لايقرنوا صدقاتهم بالمن أو الاذى أو يفسدوها باراءة الناس أوطلب السمعة عندهم فهي تعنى ببيان أمرين وسيقت لتشريع حكمين من احكام الزكاة والصدقة - بمعناها الوسيع الشامل - .

الاول :- المن التابع للتصدق أو الاذى اللاحق للانفاق يوجب بطلان الصدقة وعدم قبول الله بها وعدم ترتب الاجر الكبير والثواب المضاعف الكثير ، فان هذه الاية دلت على انه يشترط في استقرار الثواب للمتصدق ودوام الاجر للمنفق: أن لايعقب الصدقة منّ على المتصدق عليه وان لايلحقه اذى من المنفق المتصدق إذ أن الصدقة بمجرد ان يدفعها إلى المحتاج يستحق الدافع المعطي على ربه الاجر الكبير والثواب الكثير ((مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) البقرة: 261 ، لكن بشرط ان لايتبع صدقته مناً ولاأذىً ((الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)) صدق الله العلي العظيم : البقرة: 262 ، والمن : هو ان يقول المتصدق قولاً فيه تنغيص للمتصدق عليه أو فيه طلب المكافأة والشكر والخدمة والتبعية أو فيه الاذلال بان يقول له : ألم أعطك ؟ الم أنقذك من ألم الفقر وشدة المسكنة .

والاذى :- هو التطاول والتفاخر على من تصدق عليه بلحاظ ما أسدى اليه من المعروف والصدقة كأن يقول له : (إبتليت بك واراحني الله منك) ، أو يقول لغيره : (إلى متى يبقى فلان فقيراً وقد ابتلاني الله به ؟ ألايجد غيري ؟ ألايستحيي من المسكنة ؟) ونحو ذلك مما فيه تعيير له بفقره أو توبيخ له على مراجعته أو هتك ستره .

الحكم الثاني :- الصدقة التي يترتب عليها الاجر الجزيل والثواب الجميل والقبول والرضى من الجليل هي الصدقة الخالصة لوجه الله تعالى بحيث لا يقرنها مراءاة الناس أو طلب السمعة لديهم ، قال سبحانه عقيب هذه الاية : ((وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) البقرة: 256 ، وهذه الاية تدعو إلى فضيلة الاخلاص في انفاق الاموال كما تحذر سابقتها من رذيلة الرياء في الانفاق ، فالمحبوب من الانفاق الذي وعد الله عليه الاجر المضاعف الوفير هو التصدق ابتغاء مرضاة الله وطلباً لقربه ورضوانه ومثله كمثل جنة - أي بستان كثير الشجر – اصابها وابل من المطر فأتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل - أي رذاذ من المطر وخفيف من القطر – ومع ذلك تراه نافعاً ومثمراً تؤتي الجنة اكلها وتعطي ثمرها لان العمل صحيح فيثمر ، بخلاف العمل الفاسد والمصحوب بالامر المبطل كالرياء المصاحب للانفاق فانه اعصار يحرق العمل ويجعله هباءاً منثوراً تذروه الرياح . وعلى المرء المؤمن بالله ورسوله واليوم الاخر ان يتوجه وينتبه إلى اخلاص انفاقه لله ولا يبتغي بصدقاته سوى مرضاة الله تأسياً بالنفر الطهر الذين قالوا ((إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً)) الانسان: 9 ، وامتثالاً لأمر الله ((وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء)) البينة: 5 ، وإتصافاً بوصف المتقين أو نعت الاتقى الذي يعطي ماله يتزكى ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى بما يلقى من ربه الاوفى ((وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى)) الليل: 17 – 21 .

8- هذه الاية الشريفة المانعة عن المنّ بالصدقة والزكاة والانفاق تؤكد خطاب الله لحبيبه المصطفى (ص) : ((وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ)) المدثر: 5 ، فانه يمنعه عن المن عند الاعطاء وعن إستكثار الأنعام على مافسرها حبر الامة ابن عباس وجماعة حين قالوا : الاية تمنع عن اعطاء عطية يلتمس بها افضل منها واكثر ، وهو خطاب لجميع المكلفين بواسطة خطاب نبيهم وأميرهم وسيدهم والقائم امام الله مقامهم ، ولذا قال ابو جعفر الباقر (ع) في تفسير الاية : ((لاتعط العطية تلتمس اكثر منها)) وقال ابو عبدالله الصادق (ع) : ((لاتستكثر ما عملت من خير لله)) ، وحينئذ تكون الآيتان متعاضدتين في المنع عن المن والتمنن في العطاء والصدقة والانفاق ، ويعضدهما عدة من الروايات الشريفة الذامة للمن في العطاء قال رسول الله (صلى

الله عليه واله) : ((ان الله كره لي ست خصال وكرهت للاوصياء من ولدي واتباعهم من بعدي : العبث في الصلاة والرفث - أي الجماع – في الصوم والمن بعد الصدقة واتيان المساجد جنباً والتطلع في الدور والضحك بين القبور)) روي بطرق متعددة واسانيد متكررة وفي جميعها كراهة الله لخصلة المن بعد الصدقة ، والكراهة تعني المبغوضية وهي اعم من الحرام والمكروه بحسب اصطلاح الفقهاء المتاخر عن رسول الله (ص) وبحسب القرينة، فالمراد من الكراهة هنا الحرمة بل الشديدة ، وقال (ص) : ((ومن اصطنع إلى اخيه معروفاً فامتن به احبط الله عمله وثبت وزره ولم يشكر له سعيه)) – أي ما انفقه واصطنعه – ثم قال (ص) : ((يقول الله عز وجل حرمت الجنة على المنان – أي الذي يمن على من اصطنع اليه معروفاً – والبخيل والقتات وهو النمام ، ألا ومن تصدق بصدقة فله بوزن كل درهم مثل جبل احد من نعيم الجنة ، ومن مشى بصدقة إلى محتاج كان له كأجر صاحبها من غير ان ينقص من اجره شيئ)) وجاء في بعض خطبه (ص) نظير هذا الحديث الشريف ، وقال جعفر بن محمد الصادق (ع) : ((لا يدخل الجنة العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان بالفعال الخير اذا عمل)) وفي رواية جعل الثالث ((المنان بمن اعطى)) وهما بمعنى واحد ، كما جعله (ص) احد الثلاثة الذين لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر اليهم – أي برحمته – ولايزكيهم ولهم عذاب اليم – كذا جاء في عدة من الروايات - ، وقال ابو عبدالله الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : ((من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو من عليه فقد ابطل الله صدقته)) .

9- قال سبحانه قبل هذه الاية ((قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)) البقرة: 263 ، وهي تعطي علاجاً عملياً ناجحاً وسلوكاً عقلانياً نافعاً هو بديل الصدقة التي يتبعها المن أو الاذى وهو خير منها وافضل ، والمن يدخل في الاذى باعتباره من افراده الخاصة ، فالانفاق الذي يتبعه المن والتصدق الذي يلحقه الاذى شر لاخير فيه وهو موجب للعذاب والعقاب ولا ثواب معه ولاينتفع المتصدق منه ولايقدر ان يستفيد منه لا في الدنيا لفوات ماله بالاعطاء ولافي الاخرى لبطلان

ثوابه واجره ، والعاقل الحكيم لا يختار هذا الطريق الذي لا نفع فيه ولا خير به بل يتركه حذراً من المضرة والعقوبة ويختار الافضل الواجد للخير والفضل والثواب العظيم اعني الانفاق الذي لايعقبه المن والاذى ، أو يختار ((قول معروف ومغفرة)) ويراد من القول المعروف ان يرد السائل ولايعطي المحتاج الطالب ويعتذر بعذر مقبول وقول غير مرفوض ووجه طلق غير عبوس ودعاء مثل (رزقك الله) بحيث لا يؤذي البائس الفقير ويستر عليه سؤاله واستعطائه ولايهتك سره واحتياجه ولايفضح حالته وابتئاسه ولايزيد عسره وشقائه ..

ويراد من المغفرة ان يستر عليه ويتجاوز عن إلحاحه في السؤال ولايفضح حاله بقول منكر وحديث معنف ، وان اراد الافضل من ((قول معروف ومغفرة)) فليتصدق لوجه الله مع الستر والكتمان وينفق في سبيل الله وابتغاء مرضاته وليعلم ان الله سبحانه يأخذ صدقته قبل ان ياخذها عبده المحتاج وليطمئن إلى ان الله جل وعلا يقبل عطيته قبل ان يقبضها مخلوقه المفتاق ، وقد قال رسول الله (ص) : ((ماتقع صدقة المؤمن في يد السائل حتى تقع في يد الله)) ثم تلا قوله سبحانه ((أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ)) التوبة: 104 ، وقال رسول الله (ص) : ((والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة طيبة من كسب طيب – ولايقبل الله الا طيباً ولايصعد إلى السماء الاطيب – فيضعها في حق الاكانت كانما يضعها في يد الرحمن ، فيربيها له كما يربي احدكم فلوه – أي مهره المفطوم من امه – أو فصيله – أي ولد ناقته – حتى ان اللقمة أو الثمرة لتاتي يوم القيامة مثل الجبل العظيم ، وتصديق ذلك في كتاب الله العظيم ((أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ)) ، ولذا كان علي بن الحسين زين العابدين (ع) اذا اعطى السائل قبل يد السائل ، فقيل له : لم تفعل ذلك ؟ قال ((لانها تقع في يد الله قبل يد العبد)) وقال حفيده الصادق (ع) : ((مامن شيئ وكل به ملك إلا الصدقة فانها تقع في يد الله تعالى)) وقال : ((الله يقول ما من شئ إلا وقد وكلت به من يقبضه غيري الاالصدقة فاني أتلقفها بيدي تلقفاً حتى ان الرجل يتصدق بالتمرة أو بشق تمرة فاربيها له

كما يربي الرجل فلوه وفصيله ، فياتي يوم القيامة وهو مثل احد – الجبل المعروف –واعظم من احد)).

ويبنغي للمنفق العاقل والمتصدق الفاهم ان يتذكر قول رسول الله (ص) : ((الكلمة الطيبة صدقة وإن من المعروف ان تلقى اخاك بوجه طلق)) ويضع بين عينيه ما كان امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) يقوله : ((ومن علم ان ما صنع إنما صنع إلى نفسه لم يستبطئ الناس في شكرهم ولم يستزدهم في مودتهم ، فلا تلتمس من غيرك شكر ما اتيت إلى نفسك ووقيت به عرضك ، واعلم ان الطالب اليه حاجة لم يكرم وجهه عن وجهك فاكرم وجهك عن رده)) يشير بهذه التذكرة إلى قول الله سبحانه : ((إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ)) الاسراء: 7 ، وقوله سبحانه : ((وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)) البقرة: 272 ، فمن صنع خيراً وعمل معروفاً فإنما يعمل لنفسه ويحسن لذاته ويمهد لاخرته ، ومن علم ذلك والتفت اليه وصدّق به لم يتوقع حينئذ من الناس ان يشكروه ولايستبطئ منهم الشكر لو حرموه منه بعد ان صنع المعروف واسداه اليهم ، ومن اطمأن إلى ان اعمال الخير يعود نفعها اليه وصنائع المعروف يرجع كسبها اليه لم يطلب من الناس ان تزيد مودته عندهم وتكثر محبته في نفوسهم بل كانت بغيته كسب محبة الله وامنيته تحصيل مرضاة الله بالانفاق بغية مرضاة الله من دون رياء ولاطلب سمعة أو مودة أو شكر من احد ومن دون من أو اذى .

10- هذه الاية الشريفة ارشدتنا إلى لزوم خلاص الانفاق من الرياء وضرورة وقوع الصدقات على وجه القربة والاخلاص لله سبحانه عارية عن لصوق المن والاذى ، وقد تعقبتها آية تؤكد ذلك للمؤمنين العقلاء رغبة منه سبحانه في التزامهم بذلك في صدقاتهم وتحفظهم على اجر انفاقهم وثواب تصدقهم بترك المن والاذى والرياء قال سبحانه : ((أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)) البقرة: 266 وهي

إمتداد للايات المتقدمة عليها وتخاطب المؤمنين المتصدقين : ايحب احدكم ان تكون له جنة مثمرة تجري من تحتها الانهار وتعطي جميع الثمرات والخيرات حتى اذا اصابه الكبر والعجز والشيخوخة وضعفت قواه وعجز عن السعي والعمل وله ذرية ضعفاء وهو في حاجة ماسة إلى هذه الجنة وخيراتها حينئذ ، أيرضى ان يصيب جنته اعصار وزوبعة وريح شديدة مصحوبة بنار محرقة لجنته وبستانه ومتلفة لخيراتها وثمارها ؟! طبعاً كل عاقل يجيب بالنفي وعدم الرضاء، كذلك ينبغي ان يكون حال المنفق يتحذر من إلحاق صدقته بالمن أو اتباعها بالاذى أو اقرانها بالرياء كي لا يكون في صدقته اعصار فيه نار يحرقها حتى اذا قامت القيامة ونشرت الكتب واستعد للحساب بين يدي الله وهو في حاجة ماسة إلى فعال خيره وصنائع معروفة وجدها قائمة غير محترقة بنار الرياء أو دمار المن والايذاء ولاسبيل حينذاك إلى التلافي واستعادة التالف واستصلاح المحترق الباطل وتصحيح الفاسد الذاهب هباءً منثوراً ((كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)) ولعلكم تحذرون ، ولعلكم تنتهون ، ولعلكم تتقون.

11- جاء في الايات اللاحقة قوله سبحانه ((إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ)) البقرة: 271 ، وهي تعطي أدباً من اداب الانفاق والتصدق فانها تبين أن إبداء الصدقات واظهار المبرات امر محبوب مستحسن اذا لم يكن بقصد مراءاة الناس ((فنعما هي)) أي نعم ما هي ونعم شيء هي، كما تبين أن إخفاء الصدقات وكتمان العطيات وعدم اظهارها امام الناس عند ايتائها إلى الفقير وحال ايصالها إلى البائس المسكين هو افضل وانفع واكثر خيراً وثواباً ، قال رسول الله (ص) : ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله : امام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل معلق قلبه بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امراة ذات منصب وجمال فقال : اني اخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)) وروت ام سلمة (رض) قال رسول الله (ص) : ((صنائع المعروف تقي مصارع السوء ،

والصدقة خفيا تطفئ غضب الرب)) وقد كان علي بن الحسين زين العابدين يخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصرر من الدنانير والدراهم وربما حمل على ظهره الطعام اوالحطب حتى يأتي باباً باباً فيقرع ثم يناول من يخرج اليه وكان يغطي وجهه اذا ناول فقيراً لئلا يعرفه فلما توفي فقدوا ذلك الخير فتحققوا وعلموا انه كان من علي بن الحسين .

والصدقات في الاية تعم الواجبة والمستحبة وبجميع انواعها يفضل اخفاؤها ويستحسن كتمانها ، لكن جمهور المفسرين والفقهاء فصلوا بين الصدقات الواجبة فيفضل اظهارها واعلان اخراجها واعطائها وبين الصدقات المستحبة المندوبة شرعاً فيستحب اخفاؤها ويفضل كتمانها ، واستندوا في ذلك التفصيل إلى عدة روايات .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

١ - هذه الآية التاسعة بعد العشرين من سورة النساء وهي من السور المدنية الطوال المتضمنة لتشريع كثير من الأحكام الإلهية التي ينتظم بها معاش العباد ومعادهم .

٢ - ((يا أيها الذين آمنوا)):

هذا خطاب جميل ونداء جليل شرف رب العباد به أحبائه المؤمنين به والمصدقين لرسوله والمذعنين بجميع ما جاء به حبيبه المصطفى (ﷺ)، وهذا لا يعني اختصاص المخاطب به بالمؤمنين لأنه قانون عام وقاعدة شاملة لجميع أفراد الأمة ومن يعيش معهم ويتعامل ويتبادل بينهم، وإنما خص سبحانه الخطاب بهم حباً لهم وتشريفاً لهم بمخاطبتهم ولجدارتهم بتطبيق قوانين الشرع وتنفيذ قواعد التشريع .

3- ((لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)):-

الأكل لفظ واضح المعنى متداول الاستعمال وهو التقام الغذاء وازدراد الطعام وابتلاع المأكول، وحيث لا يراد منه هذا المعنى الحقيقي جزماً فلابد وأن يكون كناية عن معنى آخر، وهو معنى قد تكرر إرادته في آيات الكتاب العزيز وأخبار السنة المطهرة بل وفي كلمات فصحاء العرب، وهو أخذ الشيء والتصرف فيه والاستيلاء عليه والتملك له، وإنما جعل الأكل كناية عن هذا المعنى بلحاظ انه من أعظم الغايات وأهم المنافع التي يرجوها الإنسان من أول خلقه الى آخر عمره ويتوخاها البشر من سائر تصرفاته وأعماله ولأن به يقوم صلبه ويقوى عوده ويشتد جهده الذي يستعين به على بقائه وتحقيق رغباته، ثم يتحول ومن هذا الغرض إلى باقي الأغراض ومن هذا الهدف إلى عموم الأهداف.

والمال أيضاً لفظ واضح المعنى وهو ما تميل إليه النفس وتتعلق به رغبتها من الملك وكأنه مشتق من الميل فصار مالاً واشتهر استعماله فيه.

(بينكم): ظرف مكان متعلق بقوله سبحانه (تأكلوا) أو حال من قوله سبحانه (أموالكم)، والبين هو الفصل المتوسط بين شيئين أو أزيد.

(بالباطل) الباء للسببية أو للمقابلة، والباطل يعني الزائل الذاهب هدراً والضائع العاطل من غير فائدة وهو مقابل الحق الذي هو الأمر المتحقق والثابت المتعين في الخارج بنحو من الأنحاء، ومقتضى دخول باء السببية على الباطل أن يصير المراد من قوله تعالى (بالباطل) السبب الباطل الزائل الذي لا فائدة فيه، وهو على نحوين:-

الأول: ما يعتبر سبباً باطلاً في عرف العقلاء المتعاوضين في السوق التجارية بأن يكون نظير بذل المال بازاء حشرة أرضية صغيرة لا فائدة فيها ولا منفعة مهمة لها بحيث لا يقصد العقلاء بذل أموالهم بازاءها وعوضاً عنها .

الثاني: ما يعتبر سبباً باطلاً في عرف الشرع الأقدس كالربا والسرقة والغصب والقمار وأجور الملاهي والغناء وثمن الخمر والخنزير ونحو ذلك مما فصله الفقهاء في مبحث المكاسب المحرمة .

4- ((إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم)):-

إلا أداة استثناء وإخراج.

التجارة – مصدر للفعل: تجر يتجر، وللفعل اتجر يتجر، ويراد منها المبادلات المالية والتصرفات المعاوضية في الأموال والأعيان بقصد الاسترباح وجلب النفع، وقد قرئت (تجارة) بالرفع والنصب: أما الرفع فهو بإعرابها فاعلاً للفعل (تكون) التامة، وأما النصب فهو بإعرابها خبراً للفعل الناقص (تكون) بتقدير: إلا أن تكون تصرفاتكم في أموالكم تجارة واقعة عن تراضٍ منكم فلا نهي عنها ولا منع فيها .

((تراض)): تفاعل من الرضاء يقال: (تراضى المتبايعان) أي تراضى وارتضى كل واحد منهما بالبيع والشراء، والرضى بشئ عوضاً هو اختيار القلب له وطيب النفس به .

5- ((ولا تقتلوا أنفسكم)):-

ظاهر الجملة الشريفة النهي عن قتل النفس والزجر عن نحر الروح فهي تفيد تحريم الانتحار حين الغضب والانفعال أو عند الإحساس الشديد بالملل والضجر، لكن بقرينة الجملة المعطوف عليها هذه الجملة ((لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)) والتي هي نظير قوله تعالى ((لا تلمزوا أنفسكم))الحجرات: 11، وقوله تعالى ((فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم))

النور: 61، حيث تعتبر هذه الآيات وغيرها: مجموع المؤمنين كنفس واحدة وروح متحدة لها مال يجب عليهم أن لا يأكلوه من طريق الباطل، ولها نفس يحرم عليهم أن يزهقوها وينحروها بالباطل من دون حق مشروع، كما يحرم عليهم أن يلمزوها ويعيبوها كما يستحب لهم أن يسلموا عليها ويحيوها إذا دخلوا بيتاً من البيوت المشار إليها في صدر آية النور المتقدمة، فهذه الآيات تؤكد ما رامه المشرع الأقدس في قرآنه المجيد وفي سنة حبيبه المطهر حين جعل (ﷺ) المؤمنين كالجسد الواحد فقال (ﷺ): ((المؤمنون كالنفس الواحدة)) وقال (ﷺ): ((مثل المسلمين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمى والسهر)) وهي تشدد على وحدة مجتمع الإيمان وتوحد نفوس أفراده وأموال أشخاصه وأعراض أبنائه فنفسي هي نفس أخي في الله ونفسه نفسي ومالي هو مال أخي في الله وماله مالي وعرضي هو عرض أخي في الهخ وعرضه عرضي إلا ما حرم الله ومنع عنه..

وحينئذ هذه الجملة الشريفة ((ولا تقتلوا أنفسكم)) بقرينة الجملة المعطوفة عليها وبقرينة نظائرها من الآيات والروايات تدل على المنع عن قتل نفسه وعن قتل غيره من إخوانه المؤمنين بالله وبرسوله، ويكون معنى الجملة حينئذ: لا يقتل أحدكم نفسه ولا يقتل غيره، أو لا تقتلوا أنفسكم ولا يقتل بعضكم بعضاً، وبعبارة أوضح: لا تلقوا بأنفسكم في خطر القتل لنفس من نفوس الأمة ولا تقعوا في ضرر الزهوق لروح من أرواح الأمة من دون فرق بين الانتحار وبين قتل الغير وبين التسبب لذلك بشرب دواء أو بفعل ما يؤدي إلى الهلاك وزهاق الروح .

6- ((ان الله كان بكم رحيماً)):-

الرحيم اسم من أسماء الله الحسنى ووصف من أوصافه العظمى وهو مشتق من الرحمة، انه وصف انفعالي قلبي ورقة وعطف روحي وسجية لازمة لذاته سبحانه لا تنفك عنه ولا تنقطع منه، وصف سبحانه ذاته المقدسة بها في غير واحدة من آياته (ان الله بالناس لرؤوف رحيم)البقرة: 143، (والله غفور رحيم)آل عمران: 31، وهذه الجملة الشريفة من تلكم الآيات المذكرة بوصف الرحيم .

7- هذه الآية الشريفة بإطلاقها وسعة مدلولها تؤسس اثنين من قوانين السماء العليا ومن قواعد النظام الاجتماعي الكبرى هما لزوم التخفظ على الأنفس والأرواح ولزوم التحفظ على الأملاك والأموال باستثناء ما استثناه الله وأحله وارتضاه، فهذه الآية أصل عظيم في دستور الله سبحانه وركن قويم في تشريع الله جل وعلا حيث تعرضت لأصلين من أصول التشريعات والقوانين التي ينتظم بهما اجتماع الناس ومعاشهم ومعادهم، والجملة الخاتمة لهذه الآية ((ان الله كان بكم رحيماً)) أشبه بالتعليل لهذين القانونين النظاميين والتشريعين الاجتماعيين وكأنه سبحانه يريد أن يذكرنا بأن تشريعاته نابعة من رحمته بعباده وان قوانينه منبثقة عن عطفه عليهم وشفقته بهم كي يصلوا إلى ما يصلحهم ويبعدوا عما يفسدهم ويضرهم وانه ما نهانا عن قتل الأنفس إلا لعطفه ورحمته بنا وما نهانا عن أكل الأموال بالباطل إلا لشفقته ورأفته علينا.

8- أضاف سبحانه وتعالى المال إلى جميع الأمة فقال (أموالكم) وقيده بوصف (بينكم) وكلامه أبلغ الكلام ومعانيه أبدع المعاني، وهذا التعبير منه سبحانه لبيان قانون سماوي ربوبي وتركيزه في نفوس المؤمنين المخاطبين بهذه الآية، ألا وهو أن الأموال المتداولة بين أفراد الأمة هي لله سبحانه قد وهبها للأمة وقسمها بين أفرادها بأسباب متعارفة عندهم وطرق متداولة بينهم (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)البقرة: 29، فصارت (أموالكم) وأصبحت (أملاككم) بلحاظ أسباب تحصيلها وطرق كسبها، لكن تبقى الأموال لله ولمصلحة الأمة وكأن مال كل فرد منها هو مال الأمة بأجمعها، وهذه الاختصاصات المتعارفة حيث يقال: هذا مال زيد وذاك مال بكر إنما تصح بعد إمضاء الله لها وقبوله بها، وإلا فهي باجمعها لها وقد وهبها لمصلحة جميع عباده، وحينئذ لا يسمح لأحدٍ الاختصاص التام بجميع ما قسم الله له ولا يحل لأحدٍ الإحتكار الكامل لجميع ما أنعم الله عليه، بل لابد من مواساة الأغنياء للفقراء المحتاجين ببعض ما وهبهم الله، ولابد من معونة الواجدين للفاقدين

البائسين ببعض ما أعطاهم الله، كما لابد لكل أحد من احترام اختصاص غيره من أفراد الأمة بما وهبه الله إذ لو استباح أحد أكل مال غيره بالباطل –أي من دون حق- عرّض مال نفسه للاستباحة وجرئ غيره على أكل ماله بالباطل إذا استطاع عليه.

9- يستفاد من ذات الإضافة – أعني إضافة الأموال إلى الناس ((أموالكم)) إمضاء الملكية الفردية وهي التي استقر عليها بناء المجتمعات البشرية وعلا عليها كيانها واستدام بها وجودها ومنذ بدء الخليقة حيث كان البشر يحوز ما ينتفع به ويستفيد منه فيأخذ منه حاجته ثم يقايض ما يزيد عنده بسلعة وعوض ينتفع به ولا يجده بحوزته، ثم تطورت الملكية الفردية وتعددت أسبابها وتكثرت طرقها إلى أن انتهت بهذه السعة المشهودة في يومنا الحاضر، هذه الإضافة ((أموالكم)) تصحيح للملكية الفردية واحترام لكيانها وبمختلف أشكالها إلا ما حرم الله، وهذه الإضافة بل الشق الأول من الآية ((لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)) تؤسس الأصل الأولي والقانون العام لاحترام الأموال وإليه يرجع الفقهاء ولا يخرجون عنه في فتياً إلا بنص واضح أو دليل قاطع، ولهم حديث مفصل حولها في علم الفقه الشريف.

10- هذه الآية الشريفة –بلحاظ شقها الأول- تشير إلى وجود أسباب صحيحة للتملك وأكل المال والاستيلاء عليه – وهي التجارة عن تراض- والى وجود أسباب باطلة للتملك وأكل المال والاستيلاء عليه –وهو الأكل بالباطل– وتريد الفصل بينهما في الحكم والتمييز بينهما في المعاملة وكأنها تقول: (أيها المؤمنون لا يأكل بعضكم مال بعض بالسبب الباطل ولا يتملك أحدكم مال آخر بالسبب الفاسد ولا يستولي شخص على مال غيره بالطريق الحرام المبغوض نظير أكل المال بالقمار أو بالربا أو بالغصب والسرقة أو بتطفيف المكيال أو بنحو ذلك مما ذكره الفقهاء (رض) في علم الفقه الشريف.. لكن ليأكل بعضكم مال بعض بسبب التجارة عن تراض وليتملك أحدكم مال الآخر بطريق المعاملات الصحيحة والمعاوضات المشروعة والمبادلات المحللة وليستولِ شخص على مال صاحبه بطريق معقول يرضاه العقلاء

ويقبله الشرع ويمضيه، نظير أكل المال بالبيع والشراء والمضاربة والإجارة والشركة وأمثال ذلك مما سطر الفقهاء خصوصياته وأحكامه وقيوده في كتبهم الفقهية الشريفة) .

والخلاصة: هذه الآية تنهى عن المعاملات الباطلة والمعاوضات الفاسدة لأنها تفسد المجتمعات وتضر أفراده، ثم تستثني الآية التجارة مع التراضي من الطرفين لأنها تصلح المجتمعات وينتفع منها الأفراد ويستقيم بها الاجتماع، وليس في الآية تعيين أنواع الأسباب الباطلة لأنها بصدد بيان أصل القانون، وما يزيد عليه من تعيين الأنواع وتحديد القيود والشروط وظيفة الآيات الكريمة والروايات الشريفة المسوقة لبيانها وتوضيحها .

11- يظهر من الآية الشريفة بقرينة الاستثناء الوارد فيها: حصر الأسباب الصحيحة والطرق المشروعة من طرق الاستيلاء على المال بسبب التجارة عن تراض، فكل تصرف مالي رابح وتجارة معاوضية مربحة ومبادلة مثمرة لا تقع على رضى الطرفين ولا تنشأ من طيب نفسهما تخرج عن الاستثناء المحلل المشروع وتدخل في المستثنى منه المحرم المبغوض –أعني أكل المال بالباطل- وهكذا يظهر من بعض الروايات الشريفة مثل ما قاله (ﷺ)في حجة الوداع يوم النحر: ((هذا يوم الحج الأكبر، ألا وان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة هذا البلد في هذا الشهر في هذا اليوم)) ثم قال: ((أيها الناس: إنما المؤمنون اخوة ولا يحل لمؤمن مال أخيه إلا عن طيبة نفس منه)) وقال (ﷺ): (لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفس منه) وكل تصرف مالي رابح يصدق عليه التجارة والمعاوضة والمبادلة ويقع عن رضا الطرفين وينشأ عن طيب نفس المتعاوضين يدخل في الاستثناء الحلال المشروع ويخرج عن المستثنى منه المحرم المبغوض، إلا ما قام الدليل الخاص على خلاف ذلك فيؤخذ به تعبداً واذعاناً، ومن هنا ذكر الفقهاء (رض) أصل صحة المعاملات والتجارات المقرونة بالتراضي وأصل لزوم العقود ووجوب الوفاء بها إلا أن يقوم دليل على الخلاف، وتفصيل ذلك في علم الفقه الشريف .

12- جاءت الروايات الشريفة بتفسير ((أكل المال بالباطل)) بأنه (القمار) وهي روايات متعددة وهذا نحو من التفسير

المصداقي الشائع في الروايات، كما ورد تفسيره في بعضها بالربا والظلم واليمين الكاذبة التي يقتطع بها الأموال، وهذا أيضاً من باب الجري العملي والتطبيق الخارجي على مصاديق المعنى العام والمفهوم الكلي الواسع العريض فان النهي القرآني متوجه إلى جميع الأسباب الباطلة للانتفاعات والاستثمارات المالية وان المنع الربوبي متوجه إلى جميع الطرق المبغوضة المحرمة في الشريعة من دون اختصاص بالقمار ونحوه، بل يعم كل ما قام الدليل الشرعي على كونه باطلاً ومحرماً ومبغوضاً لله سواء في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة، وتفصيل القول فيها وفي تعدادها وأحكامها موكول إلى علم الفقه الشريف في أبواب المعاملات وأحكامها .

13- هذه الآية الشريفة بلحاظ صدرها ((لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)) تدعو إلى اجتناب المكاسب المحرمة وتنادي بالابتعاد عن المعاملات الباطلة كما هو مفاد أختها الواردة في سورة البقرة: 188 ((ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)) وهذا المعنى مستفيض الذكر في الايات العزيزة مشهور الخبر في السنة الشريفة مجمع عليه في فتاوى الفقهاء متسالم عليه بين المسلمين، لا يقبل الإشكال والنقاش بعد هاتين الآيتين وقوله سبحانه ذماً لبعض الفاسقين عن أمره الخارجين عن طوعه ((سماعون للكذب أكالون للسحت)) المائدة:42، وقوله تعالى (وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)المائدة: 62، 63، وقول رسول الله (ﷺ) في حديثه الشريف المتفق بين المسلمين روايته عنه (ﷺ): (إن أخوف ما أخاف على أمتي هذه المكاسب الحرام والشهوة الخفية والرياء) ومراده (ﷺ) من الشهوة الخفية المعاصي الموافقة للشهوة والتي تخفى وتضمر وتغطى ولا تظهر أمام الناس لكي لا ينفضح صاحبها ولا يؤنب ولا يعاتب ولا ينهى عن منكرها، وقول الصادق (عليه السلام) بعد أن سئل عن قول الله عز وجل: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) الفرقان: 23، فقال (انه كانت أعمالهم لأشد بياضاً من القباطي –وهي الثياب الرقيقة البيض الناصعة-

فيقول الله عز وجل لها: كوني هباءً، وذلك انهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه)) أي إذا ظهر لهم المال الحرام وجاء بيدهم أخذوه وتملكوه ولم يتورعوا عنه، وقوله (ﷺ): ((كسب الحرام يبين في الذرية)) أي يظهر أكل الحرام في الأبناء ويبين أثر الكسب الحرام في الأولاد وقوله (ﷺ): ((ليس بولي لي من أكل مال مؤمن حراماً)) وقول أبي محمد الحسن بن علي العسكري (ﷺ): ((لا خير في شئ أصله حرام ولا يحل استعماله)) .

14- هذه الآية الشريفة تدعو إلى اختيار المكاسب المحللة والتجارات الرضائية والطرق الصحيحة للاستيلاء على المال والتملك له والانتفاع منه، وقد اختصرها سبحانه بجملة ((تجارة عن تراض)) وهي الباب المفتوحة للناس لاستثمار أموالهم وإنماء أملاكهم وهي باب وسيعة تعم جميع الطرق الرابحة والمبادلات النافعة إذا لم تكن فيها مظلمة لأحد أو مضرة أو محذور شرعي ومنع ربوبي، وهذا المعنى قد حثت عليه الآيات وحرضت عليه الأخبار والروايات قال الله سبحانه (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)الحجر: 19، 20، وقال تعالى(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) الأعراف: 10، وقال تعالى(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِليه النُّشُورُ)الملك:15، وقد ضرب الأنبياء كافة -وفي مقدمتهم خاتمهم وسيدهم- المثل الأرقى في اختيار التجارة والزراعة والرعي والعمل كسباً للربح والعيش الحلال الطاهر، وتبعهم أولياءهم وأنصارهم ومحبو طريقتهم فجروا على اختيار أنبيائهم ((أئمة يهدون)) إلى الخير بأمر الله.. قال رسول الله (ﷺ): ((من بات كالاً –من الكل وهو العي والتعب- من طلب الحلال بات مغفوراً له)) وقال(ﷺ): ((العبادة سبعون جزء وأفضلها جزء طلب الحلال)) وقال (ﷺ) لبعض أصحابه (إعلم إن عون الله مع صالحي التجار) وقال (ﷺ): ((إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم

يعسروا)) وقد وعد (ﷺ) أن يكون التاجر الصدوق الأمين المؤدي لحق الله والناس في ظل عرش الرحمن يوم القيامة، وتوعد (ﷺ) غير الأتقياء بشر المصير وسوء العاقبة حتى قال (ﷺ): (ان التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق) وقد أوضحت الرواية السابقة بر التجار وتقواهم بأن يصدقوا حديثهم ويفوا وعدهم ويحفظوا أمانات الناس ويتركوا ذم حوائج الناس ومدح حوائجهم ولا يماطلوا حقوق الناس ويسامحوا في تعاملاتهم ومصالحهم، وحينئذ يكون حبيب الله ويكون عمله من أفضل أنواع العبادة ويبيت مغفور الذنب ويكون معه عون الله بل كالمجاهد في سبيل الله (من طلب هذا الرزق من حله ليعود به على نفسه وعياله كان كالمجاهد في سبيل الله) و(لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر) وقد طلب منه (ﷺ) بعض أصحابه أن يدعوا الله له ليكون مستجاب الدعوة فقال النبي (ﷺ) له: (أطب طعمتك تستجب دعوتك) صدق رسول الله (ﷺ) ومن تبعه بإحسان إلى يوم الجزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

1- هذه الآية الأولى بعد الثلاثين والمائة من سورة طه (ص) الشريفة وهي سورة مكية شريفة نزلت بقصص الأمم السابقة وأحوال الأنبياء الماضية تذكر بهلاك الفاسدين المكذبين بآيات الله سبحانه المعاندين لرسله وأنبيائه وتنذر بالحساب والكتاب وتصور أهوال يوم القيامة وسوء عاقبة المكذبين وشدة عذاب المعاندين كما هي تبشر المؤمنين المتقين الصالحين بحسن الثواب وعظيم الجزاء: ((وذلك جزاء من تزكى)) طه:76 .

وقد جاء في القرآن العزيز آية كريمة هي نظير هذه الآية وقريب منها ((لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين)) وهي الآية الثامنة بعد الثمانين من سورة الحجر المكية الشريفة التي حفلت بالتعرض لحكاية آلام النبي الأكرم (ﷺ) من قومه الكافرين بدعوته وسوء معاملتهم معه وعظيم استهزائهم به وشدة ملاحقتهم واعابتهم

له فحاولت آياتها تطييب قلبه الشريف وتضميد جروح باطنه المقدس وتثبيت نفسه القدسية بالصبر على عظيم البلاء، وبالتبع تطييب قلوب أتباعه وتضميد جروح أصحابه الذين أبلوا معه بلاءً حسناً وصبروا معه صبراً جميلاً فأوصلهم توفيق الله إلى مقامٍ عالٍ وجزاء كبير وثواب جزيل مع النبيين والصديقين .

2- هذه الآية تتضمن خطاب رسول الله (ﷺ) ومخاطبته بذاته الشريفة، لكنه ككثير من خطابات القرآن ونداءاته يلاحظ فيها مقامه وسفارته عن الله جل جلاله إلى البشر كافة وإلى الخلق عامة فلا يختص مضمون الخطاب بذاته المقدسة، بل يعم الجميع ويشمل عموم الأمة، وهذا النحو من الخطاب الخاص لفظاً العام معنى هو أمر شائع متداول في المخاطبات العقلائية والمحاورات العرفية والنداءات المحاورية حيث يخص بالخطاب سيد القوم وعظيمهم ووجههم ويراد منه عموم أفراد ذاك الجمع وجميع أشخاص تلكم الجماعة .

3- ((ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا)): مد العين هو طموح البصر إلى شيء رغبة فيه وميلاً نحوه وتمنياً لتحصيله وإعجاباً به واستحساناً له، وهذا التعبير منه سبحانه ((لا تمدن عينيك)) كناية عن منع التعلق القلبي بزهرة الحياة الدنيا وعن زجره عن حبها وعن الرغبة فيها والإقبال عليها حذراً من الاشتغال بها عما ينفع لآخرته وعقباه .

المتعة: الفائدة واللذة والمنفعة .

أزواجاً: جمع زوج، وله معان ويراد منه هنا حسب الظاهر: أصنافاً وأنواعاً وأنماطاً، وفي القرآن نظير هذا المعنى المستعمل فيه لفظ الأزواج كثير، قال سبحانه (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) ق:7، (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)لقمان: 10 (أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) الشعراء: 7، (وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)الحج:5، (فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)الرحمن: 52، (وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)الرعد: 3، (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)يس:36، (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) الرعد: 6، وهناك استعمالات غيرها لا نريد تكثير الأمثلة والشواهد من كتاب الله وكلام رسوله والعرب الأوائل البلغاء.

(زهرة الحياة الدنيا): زينتها وبهجتها ونظارتها ولذائذها من المال والبنين والقصور والملابس الرقيقة والمطاعم الشهية والأرائك الفخمة وغيرها مما يعجب الناظر ويروق الباصر ويؤنس الرائي.
4- (لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى):-
الفتنة: هي الامتحان والاختبار والابتلاء.
الرزق: هو العطاء الذي فيه خير ورحمة، وفيه إشعار بخلوه من البلاء والنقمة، وهو هنا كذلك فان رزق الله وعطائه في الدنيا كله خير ورحمة بالعباد وصلاح للمرزوق، وفي الآخرة كله عدل وجزاء وفق الكسب والعمل في عالم التكليف بل هو لطف وإحسان وهو خير وامتنان على كل حال وهو أدوم وأبقى لأنه عدل دائم لا ينقطع ولطف مستمر لا يقف .
5- ((ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين)):-
الحزن: هو تألم النفس من شيء وتوجع القلب من أمر .
خفض الجناح: يراد منه هنا الكناية عن اللين والتواضع والرفق والمداراة، وأصل هذا الاستعمال القرآني وأساسه هو أن الحيوان الطائر إذا أراد ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحيه له ثم قبضهما عليه وخفضهما له رعاية به ومداراة له وتربية له، وإذا أراد النزول إلى الأرض أو الهبوط إلى الماء خفض جناحه وكسره بخلاف ما إذا أراد الصعود فانه يرفع جناحيه ويعليهما، وحينئذ يكون المعنى واضحاً: ان جناحا الإنسان جانباه ويداه، وخفض جناحه للمؤمنين كناية عن المعاملة المتواضعة مع المؤمنين والسلوك اللين الرفيق بالصادقين.
6ـ هاتان الآيتان المتشابهتان تدعوان النبي الأكرم (ﷺ) وبالتبع تدعوان أمته وأتباعه إلي القناعة بما قسم الله وإلى الاكتفاء بما رزق الله من سعة أو ضيق في عالم الدنيا وتمنعان عن مد العين وإطالة النظر إلى زخارف الحياة الدنيا وتزجران عن طموح البصر نحو بهجة الحياة السفلى تمنياً لزينتها التي أنعمها الله تعالى على أصنافٍ ممن أشرك بالله وأنماط ممن لم يؤمن برسول الله (ﷺ) ولم يصدق بالحق، فان ما عند هؤلاء زهرة فانية ومتعة غير دائمة ونعمة غير باقية وما عند الله خير وأبقى، وهؤلاء الأصناف المذكورون بالإشارة هم تحت الاختبار والفتنة وفي ظرف الامتحان

الإلهي والابتلاء الربوبي يفتنهم بالنعيم والبهجة واللذة والبهرجة في عالم الدنيا ليرى هل يؤدون حق النعيم بإخراج ما فرض الله وبذل ما اوجب الله؟ أم يبقون تحت الكفر والجحود والإنكار لحق المنعم الواحد والمتفضل الماجد؟ ثم خاطب رسوله المجيد ونبيه الحميد (ﷺ) أن لا يحزن عليهم إن لو يؤمنوا ويصدقوا وان لا يتحسر عليهم إذا لم يرجعوا عن كفرهم ويؤوبوا إلى رشدهم وان لا يتألم عليهم إذا لم يتقوا الله وإذا اشتروا الكفر بالإيمان فإنهم (لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إنما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ)آل عمران: 177-178، وفي المقابل أمر سبحانه بخفض جناحه للمؤمنين ((واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين))الشعراء: 215، ودعاه إلى أن يلين جانبه لمن تابعه من المؤمنين وأن يرفق بمن شايعه من المتقين وأن يصبر مع ضعفاء المسلمين على شظف العيش وظلف الحياة (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الكهف:28 .

7- هاتان الآيتان الشريفتان تحذران الأمة المرحومة من الاستناد إلى الحياة الدنيا ومن زيادة تعلق القلب ببهجتها ومن شغوف النفس بلذائذها وبهارجها، كما أنهما تنبهان الغافل عن الاعتماد على الدنيا وما فيها وعن الاغترار بإقبالها لو كانت مقبلة، وتوقظان النائم على بهارجها وزينتها لو كانت عليه واردة ليستفيق من نومه ويصحو من اغمائته ويحذر منها ومن ألاعيبها وتقلباتها وخدعها .

والآيات الشريفة بهذا المعنى كثيرة جداً واضحة بينة لا تبقي عذراً لمعتذر ولا مجالاً لمشكك ولا تذر محلاً لمناقش، قال سبحانه: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)البقرة: 212، (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)ال عمران:14، (وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ

مَتَاعُ الْغُرُورِ)آل عمران: 185، (قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى) النساء: 77، (وَغَرَّتْهِمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)الانعام:130، (الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)الأعراف:51، (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)هود: 15، 16، (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ)إبراهيم: 3، (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {79} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)القصص:79-80، وبالفعل الذين أتاهم الله العلم والإيمان يعتقدون ان ثواب الله ولقاء لله ورضوان الله هو خير من الدنيا وما فيها فان أتاهم الله الدنيا مع الأيمان والعلم والحكمة شكروا الله وأدوا حق الله، وان فقدوا الدنيا صبروا على تقدير الله وأدوا فرائضه وسننه، وعلى كلا التقديرين لم يغتروا بالدنيا وبهارجها ولم يحزنوا على فقدها.

وقد صدع النبي الأكرم (ﷺ) بتحذير أمته من الركون إلى الدنيا والاعتماد الشديد عليها والاغترار بإقبالها أو الحزن لإدبارها –فان ما عند الله خير وأبقى منها- وقد أعطاهم الدروس العملية الناصعة في ذلك يعرف شواهده كل مسلم قاريء للتاريخ ويلقيها كل خطيب فاهم للتاريخ لا نريد هنا أكثر من استذكار بعض دروسه القولية يكفينا أن نتذكر مقولته الحكيمة المشهورة (حب الدنيا رأس كل خطيئة) وقولته الأخرى (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما أريد به وجه الله) وقوله (ﷺ): (مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثلها كمثل الراكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها –أي في يوم حار فنام للاستراحة تحت الشجرة- ثم راح وتركها) وجاء في كتاب علي (عليه السلام) المحفوظ عند ولده الأطياب: (إنما مثل الدنيا كمثل الحية: ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل) وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (مثل الدنيا

كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله) وقال (عليه السلام): (من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا –داءها ودواءها- وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام) هذه قطرة من بحر الأحاديث الشريفة في تحذير الأمة من الدنيا وأحابيلها، ولو أريد استقصاء ما حذر به النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وإخوانه السابقين من الأنبياء الماضين وإحصاء المأثور من أهل بيته الأطياب وأصحابه الأخيار وتابعيه بإحسان لاحتجنا إلى مئات الصفحات يكفينا هذا القدر اليسير جداً من الآيات والروايات، والمؤمن العاقل الحكيم تكفيه الإشارة والتذكرة.

ويهمني تذكرة أخرى هو أن ليس المراد من الزهد في الدنيا تركها أو الابتعاد عنها بل الزهد كله بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)الحديد: 23 كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة ثم عقب ذلك بقوله (عليه السلام): (ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه) وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام)، (ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عز وجل) وقد أجاب من سأله عن الزهد في الدنيا بقوله: (ويحك حرامها فتنكبه) أي ابتعد عن حرام الدنيا تكن زاهداً فيها .

8- هذه الآية الشريفة –ولها نظائر- أصل عظيم في أدب القناعة والاكتفاء بما قسم الله لعبده من الرزق الوسيع أو الضيق والاستغناء عما في أيدي الناس من المتاع والزينة.. إنها تدعو الأمة إلى أن لا يطمحوا ببصرهم ولا يطيلوا بنظرهم ولا تمتد أعينهم إلى زخارف الحياة السفلى وزهرة الحياة الدنيا.. إنها تسلي المؤمنين الذين ضاقت عليهم الدنيا أو لم تتسع عليهم أو اتسعت ومع ذلك تطمح عينه إلى المزيد، إنها تذكرهم بأن ما أنعم الله على عبده من الأيمان وما كسبه من العمل الصالح في الدنيا وان ما سيتفضل به الرحمن في الآخرة من الجنة والرضوان هو أعظم مما أوتي به بعض الناس من النعم الزائلة والزهرة الفانية، وقد استفاضت السنة المطهرة في محبوبية القناعة وخلق الاستغناء عما في أيدي الناس، قال أبو

جعفر الباقر (عليه السلام) (إياك أن تطمح ببصرك إلى من هو فوقك) فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) توبة: 55، وقال: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) فان دخلك من ذلك شئ فاذكر عيش رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فانما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده، وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: ((ابن آدم: إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فان أيسر ما فيها يكفيك، وان كنت إنما تريد ما لا يكفيك فان كل ما فيها لا يكفيك)) وقال: ((من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس)) وقال علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام): ((رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في أيدي الناس)).

وفي المقابل تصدت الآيات الشريفة –وبعضها مضى- والروايات الكثيرة لذم الحرص على الدنيا وتقبيح الطمع فيها والتكالب على تحصيلها، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم)) وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): (مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً) وقال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): ((في مناجاة موسى عليه السلام: يا موسى ان الدنيا دار عقوبة، عاقبت فيها آدم عند خطيئته وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان فيها لي، يا موسى: ان عبادي الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم، وما من أحد عظمها فقرت عيناه فيها ولم يحقرها أحد إلا انتفع بها) وفي الصحيح عن الصادق (عليه السلام): (من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم الله له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله الغنى في قلبه وجمع له أمره) وعنه (عليه السلام): (من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرته عند فراقها) و(من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال) ونختم بالمسك بذكر إحدى الكلمات القصيرة والحكم الكبار لزين الموحدين وأمير المؤمنين (عليه السلام): (استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى

من شئت تكن أميره) فان الجملة الأولى هي الغاية من هذا البحث وهي الهدف الأكبر .

9- روى الأئمة عن الرسول الأعظم قوله: (من أعطاه الله القرآن فرأى –أي اعتقد وظن- أن رجلاً أعطي أفضل مما أعطي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً)، وهذا درس أخلاقي تربوي محمدي لمن تعلم القرآن وفقه أحكامه وعرف معانيه –ولو بمقدار- حيث يكون الله سبحانه قد أعطاه خير الدنيا والآخرة وأفضل ما يوجد فيها فإذا قاس نفسه ببعض أهل الدنيا ممن أعطاه الله بعض زخارفها واعتقد انه أعطي أفضل مما أعطي هو: أي اعتقد ان عطاء الدنيا فضل من عطاء الله القران له فقد أخطأ كثيراً حيث صغر قدر القرآن العظيم وعظم قدر الدنيا الذي هو في المرتبة السفلى.

وهذا الحديث منه (ﷺ) تربية لجميع المسلمين لأنه يفترض في كل مسلم أن يكون من أهل القرآن بعد الحث الكثير على تعلمه وتفقهه وفهم معانيه، وقد تقدم في أول الكتاب البحث عن ذلك.

10- روي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): ((لما نزلت هذه الآية استوى رسول الله (ﷺ) جالساً ثم قال: (من لم يتعزَّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن اتبع بصره ما في أيدي الناس طال همه ولم يشف غيظه، ومن لم يعرف أن لله عليه نعمة لا في مطعم ولا في مشرب قصر أجله –قصر علمه- ودنا عذابه، ومن أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على الله ساخطاً)) وروي عنه (ﷺ) أروع الشواهد العملية وأطيب الأمثلة التطبيقية للزهد في الدنيا بمعناه الصحيح تنفيذاً لأوامر الكتاب الكريم، ولهذه الشواهد العملية والسيرة العملية على الزهد في الدنيا كان قدوة لأتباعه المسلمين حتى روي عنه (ﷺ) أنه مرّ بقطار من ابل لبني المصطلق وقد تشحمت وسمنت فتقنع بثوبه ثم مضى قارئاً قوله تعالى: ((ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم)) ولأجل تلكم السيرة الطاهرة والسنة النقية الزاكية إستنّ بها الأئمة الطاهرون والصحابة المتقون والأتباع المحسنون فابتعدوا –عملاً لا قولاً وحسب- عن زهرة الحياة الدنيا وغضوا أبصارهم عن زخارف الحياة السفلى وحكيت

عن بعضهم الأمثلة الناصعة في تقوى الله والاحتياط في الدين والزهد عن زخارف الحياة الدنيا.

11- هذه الآية الشريفة تحكي لنا سنة إلهية قائمة وحكمة ربوبية جارية في المجتمعات البشرية هي سنة الافتتان وحكمة الاختبار ((لنفتنهم فيه)) (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) الكهف:7، (وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)ال عمران:154، (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) الملك:2 .

هذه سنة الله في خلقه وهذه حكمته في عبيده، هي أن يختبرهم ليعلم المحسن من المسيء ولينكشف المؤمن الصابر من المنحرف والكافر، ولكي تتم الحجة على المسيء والعنصر الفاسد ويكمل الأجر والثواب للمحسن الصالح فيما يناله الإنسان الصالح في الآخرة من نعيم مقيم والإنسان الطالح من عذاب أليم هو جني عمله وثمرة صنعه في الدنيا، وهذه السنة الحكيمة لا تختص بالمؤمنين والمسلمين بل تعم الكافرين والجاحدين بنص الآية الشريفة (ما متعنا به أزواجاً منه زهرة الحياة لنفتنهم فيه) لكن (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إنما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إنما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) ال عمران: 178، إذن ما عليه بعض الكفرين بالله وبأنعمه من نعيم الدنيا وزينتها وبهارجها هو إملاء من الله واختبار وهو إمهال منه سبحانه وافتنان وارخاء للعنان وتمحيص للعباد لينكشف صلاحه ورجوعه عن كفره إلى الهدف أو بقاؤه على فساده وجحوده وكفره وتماديه في الغي والضلال وازدياده من الإثم والعقاب .

12- هذه الآية ((واخفض جناحك للمؤمنين)) أصل عظيم في خلق المداراة وأدب التواضع مع المؤمنين وفي الرفق بهم وحسن صحبتهم واحتمال إذاهم كي يقربوا من الإيمان الصادق ولا ينفروا عن الحق والإسلام، وقد قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (قد أمر الله أعز خلقه وسيد بريته محمداً بالتواضع فقال: (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) الشعراء: 215، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)(أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني باداء الفرائض) وقال (ص): (مداراة الناس نصف الأيمان والرفق به

نصف العيش) وفي الصحيح عنه (ﷺ): (ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى لله عز وجل أرفقهما بصاحبه) وفي الصحيح عن الصادق (عليه السلام): (أفطر رسول الله (ﷺ) عشية خميس في مسجد قبا فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خول الأنصاري بعس مخيض بعسل –أي قدح لبن مخموض بعسل- فلما وضعه على فيه نحاه –أي أبعده عن فمه- ثم قال: شرابان يكتفى بأحدهما من صاحبه لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله فان من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذّر حرمه الله، ومن أكثر ذكر الموت احبه الله) وقد سبق منا بعض الحديث عن فضيلة التواضع .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)

1- هذه الآية الثانية بعد العاشرة من سورة الأعراف، وهي سورة مكية تضمنت كثيراً من المعارف الإلهية المرتبطة بأصل الخليقة ومبدأها وختمها ومنتهاها كما استعرضت بعض قصص الأنبياء والمرسلين وبعض أحكام شرع الإسلام والمسلمين، وهذه الآية الشريفة وقعت في وسط الآيات المصورة لبدء خلق الإنسان وتصوير نشأته وما جرى عليه بعد تكريمه بالجنة وما قضي عليه بعد ارتكاب الخطيئة .

2- هذه الآية قطعة مقتطعة من تصوير شقاق إبليس وفسقه عن أمر ربه بالسجود، وقد تكرر هذا التصوير في آيات القرآن المجيد، وهذه القطعة تضمنت لوحتين:-

الأولى: سؤال الله سبحانه من إبليس عن سر امتناعه عن السجود، وهو سؤال تأنيبي واستفهام توبيخي أي يراد منه التوبيخ على سوء فعله و التعنيف على عدم طاعة الأمر بالسجود، وهي مخالفة لله سبحانه، منبثقة عن عدة خصال نفسية مبغوضة له سبحانه ومنبعثة عن عدة صفات باطنية مذمومة له .

الثانية: جواب الشيطان وهو يحكي تفضيل ذاته الخبيثة على ذات آدم وانه خير منه لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين والنار أكثر خيراً وأزيد نفعاً من الطين فهو أفضل .

3- يظهر من مجموع القصة بجميع تصويراتها وكافة جوانبها: عظمة شأن السجود حيث ان إبليس لما خالف أمر الله به استوجب الطرد من ساحة رحمته والإبعاد عن فناء جوده فأخرج من الجنة التي كانت مركز إقامته ومجلس تعليمه الملائكة الكرام وأسقط إلى الأرض ذليلاً صاغراً منظراً إلى يوم الدين .

والسجود هو الخضوع والتذلل لله تعظيماً له وإكباراً، وقد وردت الروايات الكثيرة المانعة عن السجود لغير الله، وما هو إلا لأنه أعلى مظاهر الخضوع وأجلى كواشف التذلل الذي لا يناسب ولا يلائم غير الله سبحانه الذي هو غاية الكمال ونهاية الجلال وقصوى الجمال، ولم يكن سجود الملائكة لآدم بل سجودهم لله سبحانه وامتثالاً لأمره تعالى وكان آدم قبلة لسجودهم تشريفاً من الله لآدم وتكريماً له بما هو مخلوق لله كريم عليه سبحانه نظير سجود المسلمين للكعبة حالاً وبيت المقدس في صدر الشريعة، وهكذا سجود يعقوب وولده ليوسف قد كان سجوداً لله (فلما دخلوا على يوسف وخروا له سجداً..) يوسف 99-100، أي خروا –لاتجاه يوسف وهو في قبالهم- سجّداً لله شكراً على ما أنعم عليهم باجتماع شملهم وسلامة يوسفهم، وإلا يستحيل سجود يعقوب من بينهم- وهو نبي كريم- لغير الله إذن آدم ويوسف وبيت المقدس والكعبة المشرفة قبلة للساجد وقبالة للمأمور بالسجود، والسجود لله وحده .

4- وردت الروايات الكثيرة الناطقة باستحباب السجود لله سبحانه ولو مفرداً عن الصلاة سجود شكر لله على ما أنعم، وأفضل ما أنعم أن هدانا إلى الإيمان ووفقنا للطاعة والانقياد فضلاً عما سوى ذلك من نعم الدنيا وخيراتها كل حسب رزقه وكل حسب تقديره سبحانه، وقد كان النبي الأكرم وأهل بيته وبعض عباد الله الصالحين مضرب المثل وقدوة العمل في السجود بل السجود الطويل منه والدائم وقد كان موسى الكاظم طيلة سنين عديدة يسجد بعد فريضة الصبح وتعقيباتها حتى تزول الشمس وتجب الصلاة المفروضة، وقد حفلت كتب

الحديث والفقه بالروايات والفتاوى حتى أغنتنا عن زيادة التعرض والاستعراض لها ونختار مقولتين: أولاهما مقولة علي (عليه السلام): ((أطيلوا السجود فما من عمل أشد على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً لأنه أمر بالسجود فعصى وهذا أمر بالسجود فأطاع ونجا)) وفي بعضها ((ونادى إبليس: يا ويل أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت)) وثانيتهما سؤال الصادق (عليه السلام) عن سر اتخاذ إبراهيم خليلاً وجوابه (عليه السلام): ((لكثرة سجوده على الأرض)) .

5- لما سأل الجليل إبليس عن سر امتناعه عن السجود بعد أن أمره به كان يلزمه أن يجيب بكونه أفضل بأن يقول: (لأفضليتي على آدم..) ولكنه عدل على هذا الجواب إلى (أنا خير منه) وذلك منه –لعنه الله- اظهار للأنا المذمومة وكشف عن سوء النفس المبغوضة وفضح لعدة صفات قبيحة فيه: ومجموعة خصال مذمومة فيه هي الكبر والفخر والعصبية والحسد .

والكبر هو التعالي على الغير لوجود صفة كمال فيه نظير تعالي إبليس وكبره عن السجود لله باتجاه مخلوق مثله معتقداً كونه أفضل منه لأنه مخلوق من عنصر النار الذي هو أفضل من عنصر الطين الآدمي وهذا استعلاء منه واستكبار على آدم بل هو استعلاء على الله بسبب مخالفة أمره بالسجود، وقد سبق منا حديث مفصل عن رذيلة الاستكبار والاستعلاء في أول الكتاب قدمناه لأهميته وشدة خطورته .

6- والفخر والتفاخر هو المباهاة والتباهي على الغير والتطاول بذكر المناقب والفضائل والنعوت والاحساب ونحو ذلك، وقد وبخت الآية الشريفة إبليس على تفاخره بأصل خلقته حين قال: (خلقتني من نار وخلقته من طين) ودلت الروايات العديدة على ذمه وقدحه فقد أتى رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له: ((يا رسول الله: أنا فلان بن فلان بن فلان.. حتى عدّ تسعة فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (أما انك عاشرهم في النار) وصعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المنبر يوم فتح مكة فقال: (أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا أنكم من آدم عليه السلام وآدم من طين، ألا أن خير عباد الله عبد اتقاه) وقال الإمام زين العابدين لأبي حمزة الثمالي: (عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم هو غداً جيفة) يعني ينبغي للمتكبر والمفتخر على غيره أن ينظر إلى ضحالة مبدأه في هذا العالم

وإلى ذلالة خاتمته فيه ليعرف قدره ولا يتجاوز على غيره بكبر الاستعلاء أو فخر ومباهاة، وقد جاء رجل إلى أبي جعفر الباقر (عليه السلام) فقال له: أنا عقبة بن بشير الأسدي وأنا في الحسب الضخم من قومي فقال له: (ما تمن علي بحسبك، ان الله رفع بالإيمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً، فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله) وقال أبو عبد الله الصادق(عليه السلام): (ان الملائكة كان يحسبون ان إبليس منهم وكان في علم الله انه ليس منهم فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين) أي أخرج الصفات السوء من نفسه فعلمت الملائكة انه ليس منهم .

7- والعصبية هي الحمية والغيرة والسعي لحماية القوم وللدفاع عن العشيرة والانتصار لهم سواء كانوا محقين أم مبطلين وسواء كانوا ظالمين أم مظلومين، وغالباً تستعمل في العصبية الباطلة المذمومة والحمية الظالمة المشؤومة، وقد فسرها زين العابدين (عليه السلام) للعالم المعروف بالزهري عندما سأله عن العصبية، فقال (عليه السلام): ((العصبية التي يأثم صاحبها عليها: أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم)) وقال جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):((من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه)) ويظهر من بعض هذه الروايات ان محبة العشيرة ومودة القبيلة ليس من العصبية المذمومة في الشرع الأقدس وان التعصب المذموم هو الحمية والنصرة لأبناء عشيرته أو بلدته أو محلته أو معارفه بالباطل والظلم وبلا حق.

8- والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير وتمني انتقالها إليه، وهو من ذمائم الأخلاق ورذائل النفوس، وما وقع اللعين إبليس في الطرد واللعن إلا من حسده لآدم (عليه السلام) حين خلقه الله وشرفه وكرمه بأمر الملائكة وإبليس بالسجود له، وهذا الأثر الكبير –الطرد واللعن- إنما ورد على إبليس من هذه الرذيلة النفسية الخبيثة ومنه يعلم شدة حقارتها وسوء عاقبة صاحبها وقد قيل –ونعم ما قيل- أول ذنب عصي الها به في السماء هو

حسد إبليس لآدم، وأول ذنب عصي الله به في الأرض هو حسد قابيل لهابيل .
وقد حسد اليهود نبينا محمد (ﷺ) على تشريف الله إياه بالنبوة والقرآن فنزلت في القرآن آية فيهم تذمهم (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ) النساء:54، كما نزلت آية أخرى تذم بعض أهل الكتاب عندما تمنوا ارتداد جمع المؤمنين وجماعة المسلمين حسداً لما أتاهم الله من نعمة الدين القويم فقال سبحانه: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ..)البقرة: 109، والروايات الشريفة في ذم الحسد كثيرة جداً وفي مقدمتها الرواية المشهورة (الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب) وفي رواية أخرى عنه (ص): ((الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)) وفي رواية عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): (آفة الدين الحسد والعجب والفخر) وقال (عليه السلام) (اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً) .
ثم ان هناك فرقاً معنوياً بين الحسد وبين الغبطة، ولأجله قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (ان المؤمن يغبط ولا يحسد والمنافق يحسد ولا يغبط) فان الحسد –كما ذكرنا- هو تمني زوال النعمة عن المحسود وانتقالها إلى الحاسد، والغبطة هو تمني حدوث النعمة لديه وحصولها عنده من دون تمني زوالها عن صاحبها.
ويظهر من بعض الأخبار ان المذموم المحرم ليس هو ذات الحسد بمعنى التمني القلبي الباطني بل هو إظهاره من الباطن إلى الخارج بالأفعال والأقوال والحركات، ففي خبر حمزة بن حمران: (ثلاثة لم ينج منها نبي فمن دونه: الوسوسة في التفكر في الخلق والطيرة والحسد، إلا أن المؤمن لا يستعمل حسده) وهذا الخبر يدل على أن الحسد طارئ على النفس لا محالة، لكن المؤمن لا يستعمله ولا يظهر أثره إلى الخارج ببعض جوارحه، وقال رسول الله (ﷺ): (رفع عن أمتي الحسد ما لم يظهر بلسان أويد..) ومن هنا ذهب بعض الفقهاء إلى ان الحسد ما دام صفة في الباطن ليس بحرام ولا يأثم صاحبه حتى تظهر آثاره على جوارحه من لسان أو يد أو نحوهما، وفي بعض الروايات الشريفة: (ثلاث في المؤمن له منهن مخرج، ومخرجه من الحسد أن لا يبغي) أي يخرج من إثم الحسد القائم في

نفسه لو لم يقصد صاحب النعمة بسوء ولم يظهر إلى الخارج آثار حسده نحوه، وفي رواية أخرى: (ثلاثة لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن) قيل: فما نصنع؟ قال: (إذا تطيّرت فامضِ وإذا حسدت فاتبغ وإذا ظننت فلا تحقق) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

1- هذه الآية الخامسة بعد السبعين فوق المائتين من سورة البقرة النازلة في المدينة المنورة، وهي من أعاظم سور القرآن وأشملها لأحكام الله وقوانين شرعه، وقد وقعت هذه الآية الشريفة وسط آيات عديدة تكفلت بيان أحكام الإنفاق والربا والدين أي القرض، وهي احدى تلكم الآيات المتكفلة لتحذير الأمة وإبعاد أفرادها عن التعاملات الربوية المتداولة في الجاهلية بين اليهود والمشركين ونظائرهم، وتتضمن تصوير المرابين بأبشع صورة وترفض شبهتهم بأشد رفض وتفتح باب التوبة لمن جهل الحرمة إذا بلغه الزجر ووصله الوعظ.

وقد تعددت آيات الربا في القرآن الكريم والكتاب الحكيم لشدة الاهتمام بشأنه ولسوء عاقبته وفساد آثاره على الأفراد

وعلى المجتمع في جميع جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية، وهذه الآية إحدى تلكم الآيات، روى ثقة الإسلام في (الكافي) بسند صحيح عن سماعة انه قال لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام): أني رأيت الله تعالى قد ذكر الربا في غير آية وكرره فقال (عليه السلام): (أو تدري لم ذلك؟) قلت لا، قال(لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف) ويعني بالمعروف: القرضة الحسنة الخالصة لوجه الله والخالية من الربح الحرام .

2- ((الذين يأكلون الربا)):-

الأكل: لفظ معروف المعنى متداول الاستعمال وهو إلتقام الطعام وإزدراده، والمقصود منه هنا معنى كنائي جميل هو مطلق التصرف وعموم التسلط على شيء وسائر وجوه الانتفاع به، ولا يراد منه خصوص الأكل والابتلاع، وإنما خصص التعبير به لأجل كونه احدى الغايات العظمى من تنمية الأموال واستزادتها واستكثارها، وهي غاية عمومية يقصدها جميع البشر وهو هدف يبتغيه المجموع ويتوخاه الجمهور، وهو بخلاف باقي الغايات والأهداف فانها تختلف من شخص إلى آخر حسب أغراضهم ووفق احتياجاتهم الموجودة عند كل واحد منهم .

والربا في اللغة العربية يعني الزيادة على الإطلاق أي كل زيادة هي ربا، لكن الشرع الأقدس اصطلح عليه معنى مخصوصاً نوضحه عن قريب ان شاء الله تعالى.

3- ((لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس))، يحتمل في هذا الوصف القرآني للمرابين معنيين لم توضح الآية المقصود الجدي منهما حيث لم تذكر متعلق الفعل (يقوم) فتكون الآية مجملة وقابلة للتفسير بكل واحد من المعنيين وهما:-

الأول: لا يقومون من قبورهم عند بعثهم منها للحساب وعند نشرهم عنها للمعاد إلا مثل المجنون المخبول والمصروع في عالم الدنيا عندما تنتابه الحالة الخاصة ويقوم متخبطاً من مسه خبط عشواء لا يهتدى سبيلاً ولا ينتظم تصرفاً ولا تستوي له حركة، وهذا المعنى المحتمل قد التزم به جمهور المفسرين لهذه الآية معتقدين ان المرابي يقوم من قبره عندما تقوم القيامة شبيهاً بالمصروع في عالم الدنيا يقوم ويسقط أو يقوم ويتخبط وكأنها علامة جعلها الله للمرابي في عالم الآخرة

ليتميزه أهل المحشر بها فيعرفونه انه من أكلة الربا في الدنيا بهذه العلامة المختلفة عن حال باقي العصاة والمجرمين: إذا بعثوا من قبورهم خرجوا مسرعين إلي المحشر (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)المعارج 43-44، وقيل ان الله سبحانه يربي الأموال المحرمة التي اكلها في عالم الدنيا ويبعثه يوم القيامة قد انتفخت بطنه كالحبلى كلما قام تعثر وسقط وكلما حاول الإسراع لم يقدر عليه لثقل بطنه وانتفاخها، وروي عن الصادق (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أسري إلى السماء رأى أقواماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر على القيام من عظم بطنه فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): من هؤلاء يا جبرائيل؟ فأجابه (عليه السلام) هؤلاء (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس).

الثاني: لا يقوم المرابون في حياتهم الدنيا وفي معيشتهم الاجتماعية قياماً صحيحاً ولا يستوون استواءً متوازناً، ومعنى القيام حينئذ هو النهوض المتعارف في التعاملات والقيام المعهود في الاتجارات لأجل المعاش نظير قوله سبحانه ((ليقوم الناس بالقسط))الحديد:25، أي بالعدل، فالمرابي في تعاملاته واتجاراته الربوية نظير المصروع وشبيه المخبول في عدم الاستواء في حركاته وفي عدم الانتظام في أفعاله وفي عدم الجري على وفق الفطرة الإلهية المودعة عند البشر والداعية إلى التعاوض المتعارف عند العقلاء بطريق البيع والتجارة وبواسطة استحصال احتياجاته ممن هي عنده مقابل عوض من المال يتراضيان عليه ويتفقان به وهذا ما يسمى بالبيع، لكن المرابي يخرج بتعاملاته عن موافقة الفطرة حين يأخذ ضعف ما يعطي من دون مقابل كمن يشتري أو يبيع كيلو من الحنطة بكيلوين أو طناً من الرز بطنين أو يقرض ديناراً ويأخذ دينارين، انه تعاوض ترفضه الفطرة النزيهة وهو يهدم أسس المعيشة ويخبط اقتصاد الأمة خبط عشواء، والمرابي في معاوضاته ومداييناته حيث إستعبده المال وصرعه الربح الحرام وسار على خلاف الفطرة الإلهية القويمة وجرى بعكس المصلحة الاجتماعية العامة هو يتخبط نظير خبط المصروع وتختل حركاته وسكناته ورغباته واندفاعاته اختلال المخبول الممسوس وهذا التخبط

والاختلال عندهم نظير ما يلاحظ بوضوح في زماننا في حركات المولعين بأعمال (البورصة) وفي تصرفات المغرمين بألعاب المقامرة .

4- ((وذلك بأنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا))، وهذا من آثار تخبطهم الفكري واختلالهم الذهني أن لا يفرقوا بين البيع وبين الربا وأن يطرحوا شبهة (إنما البيع مثل الربا) وأن يتعجبوا من افتراق البيع عن الربا في الحكم منكرين على التشريع اختلاف حكمهما مع أن البيع والربا في تصورهم المتخبط واحد وفي تفكيرهم المختل متحد وكأن لسان حالهم وترجمان تفكيرهم يقول: كما يجوز في شريعتكم بيع ما يسوى درهماً بدرهمين مثلاً ينبغي أن يحكم شرعكم بجواز بيع كيلو من الحنطة يسوى درهماً بكيلوين من الحنطة يسويان درهمين حالاً أو مؤجلاً وينبغي أن تحكم شريعتكم بجواز مبادلة مثقال من الذهب أو الفضة بمثقالين من الذهب أو الفضة حالاً أو مؤجلاً، وهكذا.

وبالغوا في تخبطهم الفكري واختلالهم البياني حتى خالفوا النظم الكلامي الصحيح في التشبيه والترتيب البلاغي العربي في التمثيل وقالوا: (إنما البيع مثل الربا) مع أن صحيح البيان وقويم التعبير أن يعكس المثال ويقال: إنما الربا –الذي حرمه الإسلام- مثل البيع –الذي أحله القرآن- حتى يصح منهم التعجب والانكار على شريعة الرحمن وقانون الفطرة، وهذه مبالغة وزيادة في الخبط الفكري وعدم الاهتداء إلى الصحيح حيث عبروا عن بالغ اعتقادهم في حل الربا بهذه المقولة حين جعلوا حل الربا أصلاً وقانوناً مرتكزاً وقاعدة كبيرة مستقرة فقاسوا عليه البيع وشبهوه به وقالوا: (إنما البيع مثل الربا) قال ابن عباس (رض) : (كان الرجل منهم إذا حل دينه على غريمه فطالبه به، قال المطلوب منه له: زدني في الأجل وأزيدك في المال فيتراضيان عليه ويعملان به، فإذا قيل لهم: هذا ربا، قالوا: هما سواء، يعنون بذلك ان الزيادة في الثمن حال البيع والزيادة فيه بسبب الأجل عند محل الدين سواء، فذمهم الله به وألحق الوعيد بهم وخطأهم في ذلك بقوله سبحانه.

5- (وأحل الله البيع وحرم الربا):-

هذا قانون الله ونظام شرعه وتصديق العقل وهو انكار للشبهة المطروحة، ودفع للمشكلة الموهومة ورد على

التسوية المزعومة بين البيع والربا وهو تأكيد لقانون الفطرة النزيهة .

أحل الله البيع لأنه على وفق الفطرة المستقيمة في استثمار الأموال وحفظها وتنميتها .

وحرم الله الربا لأنه على خلاف الفطرة القويمة في الإجحاف والظلم والابتزاز لأموال العباد وبحسب التحليل الذهني الدقيق يمكن أن يفهم من هذه الجملة المستنكرة لشبهتهم معنى فارقاً ومميزاً بين الربا المحكوم بحرمته وبين البيع المحكوم بحليته بعد بطلان القياس المزعوم (انما البيع مثل الربا) وهو إن من باع ما يسوى درهماً بدرهمين فقد جعل العين المبيعة مقابل الدرهمين وبادل السلعة المشتراة بعوض الدرهمين وحصل التراضي بينه وبين صاحبه الذي تعامل معه على هذه المعاوضة مع العلم والتوجه إلى القيمة السوقية المتداولة والعوض الواقعي المتعارف فصارت المعاوضة بين هذه السلعة وبين هذين الدرهمين، فلا ابتزاز وقتئذ ولا اجحاف ولا ظلم، لكن لو باع الدرهم بالدرهمين فقد أكل أحد الدرهمين عوض درهمه واكل الدرهم الآخر من دون مقابل ومن دون عوض ومن دون كسب ومن دون بدل وهذا ظلم وابتزاز وإجحاف بأخيه المسلم المحتاج، وهكذا حال باقي الأمثلة .

أخرج مسلم عن أبي سعيد قوله: أتي رسول الله (ﷺ) بتمر فقال: ما هذا من تمرنا، فقال رجل: يا رسول الله بعنا تمرنا صاعين بصاع من هذا التمر، فقال رسول الله (ﷺ): (ذلك الربا، ردوه ثم بيعوه تمرنا –أي بثمن مخصوص وعوض معين- ثم اشتروا لنا من هذا) هذا هو الحل الناجح المشروع في تعاملات المجتمع المسلم الطاهر وهو أن لا يستبدلوا التمر الجيد بتمر ردئ مضاعف أو نحو ذلك، ومن هنا أمر (ﷺ) أن يردوا التمر الجيد الذي استحصلوه بمعاملة ربوية فاسدة ثم ينشؤوا بيعين يبيعون التمر الراجع إليهم بثمن ويشتروا بذاك الثمن تمراً جيداً، لأن الأول استبدال ربوي محرم والثاني استبدال بطريق البيع الحلال.

6- (فمن جاء موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

جاء موعظة: أي بلغه الوعظ الربوبي ووصله الإرشاد الإلهي أي علم به بعد الجهل واطلع عليه بعد أن لم يكن مطلعاً وعارفاً بمراد ربه وزجر شرعه .

فانتهى: أي فاتعظ وانزجر عما زجره الله وابتعد عما نهاه الله وتاب إلى ربه مما حرمه ومنعه .

فله ما سلف: أي ما مضى هو له أي لا يؤاخذه الله ويعفو عنه.

وأمره إلى الله: أي شأنه موكول إلى مشيئة الله وإرادته سبحانه يحكم فيه بمقتضى عدله فان شاء قبل توبته وان شاء لم يقبلها، لكن مقتضى رحمته وجوده ولطفه أن يقبل التوبة ويعفو عن السيئة إذا وجد سبحانه الرغبة الصادقة والعزيمة المؤكدة من عبده على الاتعاظ والانتهاء والانزجار والابتعاد عما حرمه ومنعه .

ومن عاد: أي من رجع إلى حالته السابقة وطريقته المتقدمة في التعامل الربوي أو في غيره من المحرمات بعد الإطلاع على التحرم والانتباه إلى المنع استحق العذاب الدائم والعقاب الخالد في النار وبئس المصير .

والظاهر أن هذه الجملة الشريفة تتضمن قانوناً جزائياً عاماً وتشريعاً الهياً شاملاً فلا يختص بالربا الذي حرمته الجمل السابقة ونددت بمستحليه وتوعدت آكليه، بل هو مورد خاص ومصداق مخصوص تحدثت عنه الآية ثم أعطت هذا القانون الجزائي الشامل المنطبق على هذا المورد الخاص وعلى غيره من المحرمات الإلهية إذا جهله العبد وبلغته موعظة الرب وزجر الشرع فانزجر واتعظ أو عاد وارتكب، فمن جاءته الموعظة الإلهية واتعظ عفي عنه، ومن عاد واقترف الحرام وأصرّ إستحق النار المحرقة والعقوبة الخالدة الدائمة .

7- هذه الآية الشريفة قانون الهي عظيم لتنظيم الاقتصاد الحلال في مجتمع الإيمان ومجمع الإسلام، إنها تحلل البيع وتحرم الربا وتندّد بآكلي الربا وتعدهم بالعقاب الخالد والعذاب الدائم .

والبيع هو عقد مشروع بين طرفين أحدهما بائع والآخر مشتري يتضمن مبادلة مال بمال ومعاوضة سلعة يريدها بثمن يبذله في مقابلها، وهو طريق عقلائي للاسترباح وتنمية الأموال

قد احل الله سلوكه بهذا العموم القرآني، ومن القريب جداً كونه تعبيراً مشيراً إلى المعاوضات المحللة والمتاجرات المشروعة في الإسلام .

والربا هو عقد مبغوض ومعاملة محرمة بين طرفين أحدهما مرابي وهو الذي يبغي زيادة أمواله بغير ما أحله الله والطرف الآخر مترابي وهو الذي يحتاج المال ويقبل المراباة.

والظاهر ان تحرم الربا موجود في الشرايع السماوية السابقة -وخاصة الشريعة الموسوية والديانة اليهودية التي يتداول أتباعها الربا أكثر من غيرهم ظلماً وعصياناً- وقد حكى القرآن المجيد تحريمه في شريعة إليهود في سورة النساء: 160 (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) وحكى استحلالهم أكل أموال العرب بالباطل في سورة آل عمران: 75 (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل) وقد كانوا يزعمون أن التحريم مختص بأكل أموال إخوتهم الاسرائيلين فليس عليهم سبيل ومؤاخذة في أموال الأميين –أي أهل مكة أم القرى- .

8- يظهر من سياق الآية الكريمة ونسق مفرداتها وقالب ألفاظها انه قد سبقها تنزيل قرآني بتحريم الربا وتحليل البيع فتعقبه انكار المرابين وتعجب الجاهلين واشتباه الجاحدين (إنما البيع مثل الربا) فجاء بعده تأكيد التحليل وتوكيد التحريم (وأحل الله البيع وحرم الربا).

ومن القريب جداً أن يكون قوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ)النساء: 29، هو التنزيل السابق والبيان المتقدم لحل التجارة وحلية البيع وهل التجارة عن تراضي الطرفين إلا البيع ونحوه وقد تحدثنا مفصلاً عن هذه الآية في فصل مستقل .

وليس من البعيد أن يكون قوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)آل عمران: 130، هو التنزيل السابق والبيان المتقدم على آية تحريم الربا وهي كسابقتها تخاطب الذين آمنوا لتبين أن مضمونها هو من مقتضى الإيمان ولوازم الإتقاء، وهذه نكتة بيانية تدعم القول بكون الآيتين مبدأ التحليل والتحريم ومولد التشريع لتمكين الحلال والحرام في قلوب الذين آمنوا وعقول الذين أسلموا، وحينئذ تكون هذه الآية من سورة آل عمران تعبر

عن المرحلة الأولى لتشريع حرمة الربا التي حصلت بالتدريج كأكثر الأحكام الإلهية العظمى نظير تحريم الخمرة .

ثم في المرحلة الثانية عقيب تحفيز العقول وتهيئة النفوس لتلقي المنع عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة جاءت مرحلة التنديد بآكلي الربا والتأنيب لهم والتوعد عليهم فنزلت هذه الآية الطويلة من سورة البقرة للتحذير والوعيد وتصوير سوء العاقبة ولكي يستقر التحريم ويثبت التشريع ويطهر المجتمع من التعاملات الربوية، وهكذا شأن التشريع الإلهي القويم تنزل آياته بتدرج وتثبت تشريعاته بمراحل: تبدأ بالمنع ثم تثني بالوعيد ثم تثلث بإعلان الحرب على المخالفين والخارجين عن التشريع (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)البقرة:278-279 .

وليس من البعيد أن تكون الشريعة المقدسة وهي في مهدها الأول –مكة المكرمة- وفي أوائل عصر الرسالة وبدايات عهد الدعوة قد مهدت لتحريم الربا حيث جاء في سورة الروم وهي من السور النازلة في مكة المكرمة قوله سبحانه (وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)الروم: 39، وهو تمهيد واضح لتشريع حرمة الربا ببيان مبغوضيته وعدم تحقق هدفه عند الله فان هدف المرابين من معاملاتهم الربوية هو تربية أموالهم وتنميتها وزيادتها وهذا الهدف لا يتحقق عند الله فلا ينمو المال عند الله ولا يربو ولا يزيد بخلاف الزكاة فانه مال يتضاعف ويربو عند الله، وهذه خطوة مباركة عظمى نحو تكامل المجتمع المسلم وصلاح أفراده وتوزان حالته الاقتصادية والاجتماعية وذلك بابعاده عن الربا وتقريبه من الزكاة الكافلة لحوائج الفقراء والمساكين، وهذان أساسان كبيران في قلع جذور الفساد الاقتصادي واستبداله ببناء الاقتصاد المتوازن .

9- دعمت السنة المحمدية المطهرة الآيات القرآنية العديدة في بيان حرمة الربا وفي تحذير العباد من سوء صنعه وفساد آثاره في روايات كثيرة جداً تفوق حد الإحصاء نختار بعضاً منها:-

جاء في وصية رسول الله (ﷺ) مخاطباً بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (يا علي الربا سبعون جزءاً أيسرها

مثل أن ينكح الرجل امه في بيت الله الحرام يا علي درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله) وقال (ﷺ): (شر المكاسب كسب الربا).

وقال علي (عليه السلام): (لعن رسول الله - ﷺ- الربا وآكله وبايعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه) وقال (عليه السلام) أيضاً: (آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه في الوزر سواء).

هذه النماذج –وهي قليل من كثير- تكشف عن عظيم مفسدة الربا وشديد حرمته وقوة مبغوضيته حتى ان معطي الربا –موكله- وآخذه –أي من يأكله وهو المرابي- سواء في الإثم والعقاب بل كاتبه وشاهداه متساوون في الوزر مع فاعل الربا –أكلاً أو اعطاءً-، ولا نريد الإطالة بعد هذا التهويل القرآني والسني ولكن نرغب في استعراض بعض الروايات المعللة أي المبينة لعلة التحريم وحكمة التشريع، جاء في الخبر الصحيح عن مولانا الصادق (عليه السلام) قوله: (إنما حرم الله عز وجل الربا لكي لا يمتنع الناس من اصطناع المعروف) ومراده من المعروف هو القرض الحسن ومداينة المحتاج ودين المضطر بما يحتاج إليه، ومعنى الحديث المعلل هو أن تحريم الربا لأجل ان يتقارض الناس ويتداينوا من دون زيادة ربوية فيكون التحريم دعوة مصلحة ونداء إصلاح إلى التقارض واصطناع المعروف الذي هو من مكارم الأخلاق في الإسلام .

وسأل العالم الجليل هشام بن الحكم الإمام الصادق (عليه السلام) عن علة تحريم الربا فأجابه: (انه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه، فحرم الله الربا ليفر الناس –أي ليهربوا- من الحرام إلى الحلال وإلى التجارات من البيع والشراء فيتصل ذلك بينهم في القرض)) أي يتواصل ذلك الفرار من الحرام إلى الحلال بين الناس في القرض فيتقارضون ولا يترابون .

وسأل بعض الرواة الإمام الرضا (عليه السلام) فأجابه: (وعلة تحريم الربا لما فيه من فساد الأموال لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً فبيع الربا وشراؤه وكس–أي نقص- على المشتري وعلى البائع، فحرم الله عز وجل على العباد الربا لعلة فساد الأموال ... وعلة تحريم الربا بالنسيئة لعلة ذهاب المعروف –أي زوال القرضة الحسنة

وانتفائها في مجتمع الإيمان- وتلف الأموال ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض والقرض صنائع المعروف ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال)).

10- الربا المحرم نوعان: (الربا المعاوضي)+ (الربا القرضي) أو (ربا النسيئة).

والربا المعاوضي هو بيع أحد العوضين المتماثلين بالمماثل مع زيادة، نظير بيع كيلو من الحنطة بكيلو ونصف من الحنطة أو بيع كيلو من الحنطة نقداً أي في الحال بكيلو واحد من الحنطة لكن نسيئة ومؤجلة إلى شهر، ففي المثال الأول بيع شيء كالحنطة بمثله مع زيادة في العين والمقدار، وفي المثال الثاني بيع شيء بمثله مع زيادة في الأجل وتأخير التسليم مع تساوي المقدار، قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (كل شئ يكال أو يوزن فلا يصلح مثلين بمثل إذا كان من جنس واحد) وقال (عليه السلام): (إذا اختلف الشيئان فلا بأس به مثلين بمثل يداً بيد) وقال (عليه السلام): (الفضة بالفضة مثلاً بمثل والذهب بالذهب مثلاً بمثل،، ليس فيه زيادة ولا نقصان، الزايد والمستزيد في النار) ويفهم من هذه الأخبار الشريفة وغيرها أن المعاملة الربوية تتحقق في مبادلة الجنس بمثله ومن نوعه إذا كان مما يكال أو يوزن مع زيادة عينية أو في الأجل كما سبق المثال، وحينئذ إذا اختلف جنس المبيع والثمن كالذهب بالنحاس لم تكن المعاملة ربوية إذا كان يداً بيد أي نقداً مقبوضاً في الحال لا تأجيل في أحد العوضين، وهكذا إذا كان جنس المبيع والثمن ليس مما يتعارف كيله أو وزنه كالبيض المتعارف بيعه بالعدد في العراق لم يكن بأس في البيع مع زيادة أحد العوضين وان كان تركه أفضل .

الربا القرضي: أو (ربا النسيئة) وهو الذي كان متعارفاً في الجاهلية عند اليهود والمشركين من ذوي الأموال والذهب والفضة حيث نقل في بعض التواريخ والتفاسير انه كان بعض هؤلاء من ذوي الثراء يبيع سلعته إلى أجل محدد أو يسلف المحتاج إلى أمد محدود ويجعل له زيادة ربوية وربحاً وفائدة على رأس المال الذي أقرضه اياه أو ثمن سلعته التي باعها له ثم يأخذ منه في رأس كل شهر قدراً معيناً يتفقان عليه أو يأخذ منه في مجموع الأجل قدراً معيناً من الربح والفائدة، ثم إذا حل الأجل وانقضى الأمد وطالبه بالدين ولا مال عنده وتعذر عليه أو

صعب عليه وفاؤه وأداء دينه طلب من صاحبه الدائن أن يزيده في الأجل ويؤخره في الأمد مقابل زيادة في الحق وإضافة في الدين وهذا هو أكل الربا أضعافاً مضاعفة التي نهت آية سورة آل عمران 130 عنه (لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وكأنه حالة متداولة وطريقة متعارفة بين المفسدين في الأرض وفي أموال الأمة فنهت الآية عن هذه الحالة المستقرة، بل يظهر من بعضهم أنها حالة مستقرة بالفعل آنذاك، روى البيهقي في سننه عن زيد بن أسلم انه كان الربا في الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الحق إلى أجل فإذا حل الحق أو الأجل قال: أتقضي أم تربي؟ فان قضاه أخذ وإلا زاده في حقه وزاده الاخر في الأجل، ومختصر القول: الربا القرضي هو الزيادة المشروطة في عقد القرض وقد قال رسول الله (ﷺ): (كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا) سواء اشترط زيادة في مقدار أو وصف أو صنعة كما لو أقرضه ديناراً وشرط عليه أن يعطيه عند حلول الأجل دينارين فهذا المثال يتضمن زيادة في المقدار، أو شرط عليه أن يعطيه عند حلول الأجل ديناراً مع خياطة قماشه ثوباً، وهذا المثال يتضمن زيادة صنعة على مال القرض، أو أقرضه كيلو من الحنطة الرديئة وشرط عليه أن يعطيه كيلو من الحنطة الجيدة وهذا مثال لقرض ربوي يتضمن زيادة صفة الجودة، وعلى كل حال كل قرض اشترط فيه ما يحلب نفعاً أو يجر زيادة فهو ربا وهو حرام .

11- فتحت هذه الآية الشريفة باب التوبة من الربا ووعدت التائب بخير (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله) ثم جاءت آية لاحقة تذكرهم بإيمانهم وما يتطلبه الإيمان –لو صدق مدعيه- فطلبت من المؤمنين أن يبرهنوا عملياً على إيمانهم ويكشفوا واقعاً من الربا ويبرزوا دليلاً وموثقاً فعلياً على رجوعهم من المراباة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) البقرة: 278، أي إن أردتم أن تثبتوا صدق إيمانكم وتوبتكم فاتركوا ما بقي لكم من الربا في ذمم الناس واقتصروا على أخذ أصول أموالكم فقط (ان لم تفعلوا) ذلك أي لم تتركوا ما بقي من الربا في ذمم الناس (فأذنوا بحرب من الله ورسوله)أي إذا طالبتم بالزيادة الربوية الباقية في ذمم الناس وأخذتموها بعد هذه الموعظة الواصلة

والبيانات الواضحة كان هذا اصراراً منكم على المخالفة والعصيان فتيقنوا حينئذ بحرب من الله ورسوله واطمئنوا وقتئذ إلى عداء الله لكم وبغض رسوله، وبخلافه لو تبتم وأظهرتم شهادة صدق على توبتكم فأيقنوا بحب الله ورسوله واطمئنوا إلى ثواب الله وصحبة رسوله في الآخرة (وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم) في الدنيا (لا تظلمون) المديونين عند أخذ رأس المال من دون الزيادة الربوية (ولا تظلمون) بنقصان أموالكم التي اقرضتموها وقد ربحتم الدنيا والآخرة .

12- يظهر من الآية الشريفة (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى له ما سلف وأمره إلى الله) كما يظهر من بعض الروايات الشريفة الواردة في تفسيرها: أن من عمل بالربا فترة من الزمن جاهلاً بحرمته ومبغوضيته بنحو لم يكن مطلعاً أصلاً ثم جاءته موعظة من ربه وهداية من بارئه وبلغه بيان الحرمة واطلع على فظاعة المعصية فانتهى وانزجر وابتعد وترك ما بقي من الربا والزيادة في ذمم الناس واقتصر على أخذ رأس المال وأصل الدين كان له ما سلف من الربا المأخوذ جهلاً وهو حلال عليه، وهذه توسعة من رب العباد في تشريعه وسماحة من مشرع الأحكام في قانونه، جاء في الخبر الصحيح ان رجلاً من أهل خراسان دخل على أبي جعفر الباقر (عليه السلام) وأخبره انه قد عمل بالربا مدة من عمره حتى كثر منه ماله وقد سأل بعض الفقهاء فقالوا له: ليس يقبل منك شيء إلا أن ترده إلى أصحابه، وقد وقع هذا الرجل في حيرة من أمره فأخرجه من حيرته باقر أهل البيت (ع)ونقله إلى الطمأنينة وقال له: (مخرجك من كتاب الله: فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله)، والموعظة: التوبة وفي رواية أخرى تشبهها في المضمون وتزيد عليها انه جهل بتحريم الربا ثم عرفه فما مضى فحلال وما بقي فليستحفظ، وفي رواية ثالثة قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (أما ما مضى فله وليتركه فيما يستقبل) وفي رابعة نقل (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قد وضع ما مضى من الربا وحرم عليهم ما بقي من الربا فمن جهل وسع له جهله حتى يعرفه فإذا عرف تحريمه حرم عليه ووجب عليه فيه العقوبة .

وقد أفتى جمع من الفقهاء (رض) بحل المال الربوي المأخوذ حال الجهل بحرمته أخذاً بظهور الآية الشريفة واعتماداً على

هذه الروايات وغيرها (فانه له حلال طيب فليأكله) لكن بشرط أن تظهر منه التوبة الصادقة في مستقبل أيامه وأن يترك التعاملات الربوية المحرمة ويجتنب في الزمان اللاحق عن أخذ ما بقي من الربا في ذمم المديونين في معاملات ربوية ماضية .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) المطففين: 1-2 .

1- هذه الآيات الثلاثة الأولى من سورة التطفيف أو المطففين، وقد اختلفوا في محل نزولها على أقوال، قيل: نزلت في مكة المكرمة، وقيل: في المدينة المشرفة، وقيل: بينهما عند الهجرة تمهيداً لإصلاح كيل المسلمين ووزنهم ومقدمة لتحسين معاملاتهم وتجاراتهم، ويمكن تكرار نزولها في هذه الأماكن اهتماماً بالهدف الأسمى واعتناءً بالغرض الأقصى المزبور، روي عن الإمام الباقر وابن عباس أن هذه الآيات نزلت على نبي الله (ﷺ)حين قدم المدينة المنورة وقد كان أهلها من أخبث الناس كيلاً وأسوئهم وزناً بحيث كانوا اذا اشتروا استوفوا بكيل راجح وإذا باعوا بخسوا المكيال وانقصوا الميزان، حتى اشتهر في المدينة تاجر معروف بأبي جهينة كان له صاعان

مكيالان يشتري بأحدهما لرجحانه ويبيع بالآخر لنقصانه، وقد كان لنزول هذه الآيات وقع في نفوس أهل المدينة واثر على معاملاتهم وتجاراتهم ومكاييلهم .

2-((ويل للمطففين)) ويل: كلمة شر ودعاء بالهلاك والضر يدعى بها –في الغالب- على المشركين والكافرين المكذبين لآيات الله (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) مريم: 37، ويدعى بها أحياناً على غير هؤلاء إذا كانوا ممن يستحق الهلاك والسوء والعقاب (ويل لكل همزة لمزة) الهمزة: 1، وروي عن رسول الله (ﷺ) ان (ويل) واد بين جبلين كائن في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعر الوادي .

المطففين: جمع المطفف وهو اسم فاعل من طفف يطفف تطفيفاً والتطفيف هو البخس والنقص في الكيل أو الوزن على وجه الخيانة، والمطفف هو فاعل الخيانة في الكيل أو الوزن لأنه ينقص في ميزانه عن الحق التام ولا يوفي المكيال بالتمام .

3- (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) إكتالوا: أخذوا من غيرهم بالكيل .

يستوفون: أي يأخذون حقهم وافياً مستوفى ولا يرضون لأنفسهم إلا المقدار التام أو الزائد عليه .

كالوهم أو وزنوهم: أي كالوا للناس أو وزنوهم أي لمصلحتهم واعطاء حقهم .

يخسرون: ينقصون، يقال: أخسر الميزان أي أنقصه ولم يعطه تاماً.

4-ابتدأت السورة الشريفة بآيات الذم للتطفيف والوعيد للمطففين بالعذاب الشديد والعقاب الأكيد يوم يقوم الناس لرب العالمين، وقد أثبتت الويل للمطففين ثم أوضحت حقيقتهم وأبانت عن صفتهم الذميمة ونعوتهم الرذيلة وهي أنهم إذا اشتروا من الناس استوفوا حقهم منهم وأخذوا كيلاً وافياً وقبضوا وزناً راجحاً لكن إذا باعوا وأرادوا أن يكيلوا أو يوزنوا حق الناس عليهم أخسروا الكيل وانقصوا الوزن أي أعطوا ناقصاً غير واف للحق كما كان يصنع أبو جهينة في (يثرب) قبل هجرة رسول الله (ﷺ) من مكة إليها، وشبيهه في كل عصر وزمان موجود إذا أرادوا شراء الحبوب أو الثمار من أصحاب المزارع والبساتين إكتالوا حبوبهم وثمارهم أو وزنوها بنحوٍ وافٍ أو راجح،

واذا ارادوا بيع الحبوب أو الثمار كالوا بكيل ناقص ووزنوا بميزان خاسر، وقد رأيت تاجراً عنده ميزان ضخم يشتري وزنة الحبوب ويجعل في كفة ميزانه مقابل كيس الحبوب مئة كيلو وكيلو معتذراً بنقص الحبوب في الكيس بفعل الكيس -وعاء الحبوب- وفي الحين نفسه يبيع وزنة الحبوب ويجعل في كفة ميزانه تسعة وتسعين كيلو غراماً وما أدري عذره عند الله جل وعلا وقد مات غير مأسوف عليه.

يستفاد من هذه الآية ان التطفيف في المكيال والميزان جريمة عظيمة وان التنقيص عن الحق التمام معصية كبيرة يستحق عليها العقاب والعذاب في عالم الآخرة والحساب، وقد أكدت هذا المعنى عدة من الآيات الشريفة والروايات الكريمة ودلت على حرمة التطفيف ووجوب الوفاء بحق الغير -سواء حال الأخذ أو حال الإعطاء وحال البيع أو حال الشراء- وأمرت بالعدل والقسط في الميزان ومنعت عن البخس والظلم في المكيال قال سبحانه (وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) الأنعام: 152، (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) الإسراء: 35، (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)الرحمن: 7—9، (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) الحديد:25، وورد في مجموعة من الروايات المتعرضة لتعداد المعاصي الكبيرة ذكر التطفيف في الميزان والبخس في المكيال ضمن المعاصي الكبيرة التي يستحق عليها العذاب الشديد والعقاب الأكيد، وجاء في الأثر عن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) قال: (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين) أي حرموا من ثمار الأرض وأخذوا بسنين المجاعة ونقص الغذاء، وروي عنه (ﷺ): (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر) وقال (ﷺ): (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة

المؤنة وجور السلطان) وقال علي أمير المؤمنين (عليه السلام): (التاجر فاجر والفاجر في النار إلا من أخذ الحق وأعطى الحق) وقد كان -صلوات الله عليه- في أيام خلافته يتمشى ويتفقد أسواق الكوفة ومعه الدرة على عاتقه ويقف عند رأس السوق منادياً (يا معشر التجار اتقوا الله) فإذا سمعوا صوته ألقوا ما بأيديهم وأرعوا إليه بقلوبهم وسمعوا بآذانهم فيقول لهم حينئذ (تزينوا بالحلم وتناهوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافوا عن الظلم وانصفوا المظلومين ولا تقربوا الربا وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) ثم إذا انتهى من تفقد جميع أسواق الكوفة رجع إلى مسجدها العامر وقعد فيه للناس يقضي حوائجهم ويفتيهم.

6- جاء في بعض الآيات الكريمة الإخبار عن بعض الأمم السابقة والشرايع الماضية باتحاد تشريعها مع تشريعنا في وجوب الوفاء والتمام وحرمة النقص والبخس في الكيل والوزن، قال عز من قائل: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) الأعراف: 85، وقال سبحانه (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)هود: 84-85، وفي سورة الشعراء حكى سبحانه ثالثاً قول شعيب: (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ {181} وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) الشعراء: 181-183 .

وكان هؤلاء الجمع قد شاع عندهم التطفيف في المكيال والميزان فأرسل الله إليهم أخاهم شعيباً لينذرهم عذاب يوم محيط على نقص الكيل وبخس الميزان وليزجرهم عن الإفساد في الأرض وبخس الناس حقوقهم، ويظهر من بعض الروايات المفسرة لهذه الآيات ان الله سبحانه بمقتضى حكمته قد أهلك قوم مدين بسبب نقص المكيال والميزان، وفي بعض الروايات

الأخرى أشار الإمام الصادق (عليه السلام) إلى هذه الأمة عندما خاطب أمة جده المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً: (ان فيكم خصلتين هلك بهما من قبلكم من الأمم) فقالوا له: ما هما يا ابن رسول الله؟ قال: (المكيال والميزان)، ومن هذا كله يعلم عظمة المعصية المزبورة حتى اقتضت الحكمة الإلهية إهلاك قوم وإعدام أمة من الوجود لأجلها .

7- هذا الاهتمام الشديد بأمر المكيال والميزان يكشف عن عظيم خطرهما في التعاملات وشديد وقعهما في اقتصاد الأمة وصلاح أموال أبنائها، ولذا سلك الشرع الأقدس بكتابه وسنته مختلف السبل لتثبيته وتمكينه في مجتمع الإسلام ولغرض تهويله وتعظيم أمره في حوزة الإيمان فترى القرآن الكريم تارة يأمر بالعدل والقسط في الميزان ويدعو إلى الوزن بالقسطاس المستقيم والميزان المستوي تارة أخرى، وينهى عن الطغيان في الميزان والنقصان في المكيال ثالثة، ويتوعد رابعة المطففين بالويل والثبور والهلاك والسوء، ثم يذكر المطففين بالآخرة وحسابها وعظيم أهوالها فيقول عز من قائل: (ألا يظن أولئك إنهم مبعوثون) ولم يقل: ألم يتيقن بل اكتفى سبحانه من المطففين بالظن الذي هو دون اليقين بمرقاة فمن ظن بأنه مبعوث ليوم عظيم ابتعد عن التطفيف واجتنب الإنقاص في الوزن والخيانة في الكيل .

8- هذا الاهتمام الشديد بالعدل والقسط في الكيل والوزن قد يشعر وينبه –ولو بنحو الإشارة- على حرمة البخس والنقص في العدد أو المسح أو الذرع فيما يتعامل به عداً أو مسحاً أو ذرعاً، فان من باع معدوداً وانقص عدده عند الوفاء والتسليم لم يعدل ولم يقسط بل بخس الناس أشياءهم ونقص حقوقهم وعاث في الأرض فساداً، ومن باع مذروعاً وبخس في الذرع ونقص في المساحة عند الوفاء والتسليم لم يعدل ولم ينصف صاحب الحق وقد بخس حقه، ومن خاف الله وحذر من عذابه وعقابه يوم يقوم الناس لرب العالمين لابد له من أن يبتعد عن بخس الحقوق ونقص الاستحقاق ولابد له من أن يتقي الله حق تقاته في تعاملاته كي لا تسود صحيفة أعماله عند ربه وكي لا يسوء حسابه مع بارئه يوم يقوم الناس لرب العالمين ويوم تنشر الكتب والصحائف ويؤخذ بالأيدي والأعناق .

بسم الله الرحمن الرحيم
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ
وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

1- هذه الآية الشريفة هي الآية الثامنة من سورة المائدة، وهي من السور الطوال المدنية المتضمنة لعدد كبير من بيانات الأحكام الشرعية والمواعظ الإلهية والقصص الحكيمة والإرشادات الهادفة إلى تقريب بني آدم إلى الطاعات وإبعادهم عن المخالفات، وهي آخر سورة طويلة نزلت في المدينة الشريفة، وهذه الآية الشريفة من تلكم الآيات العديدة المشتملة على بيان فروع الأحكام، وقد روي في سبب نزولها ان الرسول الأكرم (ﷺ) حاول الاستعانة بيهود خيبر لجمع دية قبيلتين وقد وعدوه المساهمة فيها لكنهم أبطنوا الخيانة وهموا بالغدر ودبروا له الاغتيال، فأعلمه الله سبحانه بنية الغدر وإخفاء الخيانة في نفوسهم فخرج منهم وحقد عليهم كما حقد أتباعه المسلمون وأصحابه المتقون عليهم فنزلت هذه الآية الشريفة تأمر المسلمين وتدعو المؤمنين للقيام في أعمالهم لله وللشهادة بالعدل في اجتماعهم وأن لا يحملهم الحقد والبغض لليهود الغادرين على ترك العدل والصدق في الشهادة وترشدهم نحو العدل والصدق وانه أقرب إلى تقوى الله والله خبير بما تعملون وما يعملون .

2-(قوامين) جمع (قوام) وهي صيغة مبالغة وصفة مشبهة باسم الفاعل (قائم) يراد منه المبالغة في القيام لله بأتم قيام والتوكيد على التزام العمل للحق بأكمل التزام من دون تأثر بالأهواء والميول امتثالاً لأمره ووفاء لعهده واداءً لحقه سبحانه، ويفهم من (قوامين) وهي صيغة مبالغة وبناء كثرة: الدوام والاستمرار فلا يكفي القيام لله في سلوكه وتصرفه مرة أو مرتين أو ثلاث مرات بل لابد من المواظبة والمداومة والتكرار حتى يصير عادة ثابتة وسنة جارية دائمة لجميع حركاته وتصرفاته ليصدق على الفرد (قوّام) لله سبحانه .

(شهداء): جمع (شهيد) وهو خبر ثان وصيغة مبالغة وصفة مشبهة باسم الفاعل (شاهد) يراد منه المبالغة في الشهادة

بالحق والتركيز على بسط العدل والصدق في الشهادة والقضاء وفصل الخصومة بحيث تصير صفة راسخة وحالة ثابتة في القاضي والشاهد ليصدق عليه: (شهيد بالحق) و(قاض بالعدل) بعيداً عن الأغراض الدنيوية والمصالح المادية والمنافع الرخيصة والأهواء النفسية المهلكة والميول الشيطانية المردية .

(بالقسط): أي بالعدل والاستقامة .

(ولا يجرمنكم): أي لا يحملنكم ولا يدخلكم في الجرم والذنب والإثم، وهي لفظة مشتقة من (جرم، يجرم، جرماً) بمعنى: أثم وذنب.

(شنئان قومٍ): أي بغض قوم وكراهية جماعة، و(شنئان)مصدر مشتق من (شنأ) أي أبغض وكره .

(على أن لا تعدلوا): على ترك العدل والقسط والحق.

(خبير): صيغة مبالغة وصفة مشبهة باسم الفاعل (خابر) تعني العالم بالشيء العارف له بدقة وإحاطة وإتقان .

٣ - هذه الآية الشريفة تخاطب المؤمنين -وهم أحباب الله والمنتفعون من أوامره وإرشاداته- وتأمرهم بأن يكونوا قائمين لله بأتم قيام واكمله ومواظبين على الوفاء بالعهد الذي قطعوه له سبحانه في عالم الذر وأن يكونوا شهداء بالحق والعدل والقسط يتحرونه ولايعدلون عنه ومن دون إنحراف منه وأن لا يحملهم بغض قوم وكراهية جماعة من البشر على أن يجوروا وينحرفوا ويتركوا العدل والقسط فيعتدوا عليهم ظلماً ويتشفوا منهم سوءً وينتقموا لثأرهم وضغائنهم وأحقادهم فيشهدوا في حقوقهم بالكذب والباطل، ثم أكدت الأمر بالعدل والاستقامة وأطلقت الأمر به في جميع الأمور لأن العدل هو أقرب إلى تقوى الله ومرضاته، ثم امرت بالتقوى وأخبرت –وهو خبر تنبيه وتحذير- بأن الله خبير بأعمال الناس بأتم خبرة وعالم بها ومحيط بخصوصياتها بأشد علم وأكمل إحاطة لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن إحاطته واقعة .

٤ - هذه الآية الشريفة تشبه –تقريباً- الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة من آيات سورة النساء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى

أن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) وهما مشتركان في بيان أمور:-

الأول: أمر المؤمنين بأن يكونوا قائمين لله بالقسط والعدل وأن يكونوا شهداء لله بالحق والصدق .

الثاني: زجر المؤمنين عن إتباع الهوى ومنعهم من العدول عن الحق والشهادة بالصدق ولو كانت على الأنفس والأقربين والأحبة والأهل .

الثالث: التحذير باحاطة الله وخبرته سبحانه بأعمال الناس الظاهرة والباطنة (يعلم السر وأخفى)طه: 7، فلا ينفع الإخفاء والكتمان مع الله الخبير والعالم المحيط .

وتختلف الآيتان في أن آية سورة المائدة ينصب اهتمامها بصدد بيان المنع عن ترك العدل والصدق في الشهادة وبيان الزجر عن اجتناب الواقع لأجل البغض النفسي والشنئان القلبي وحب الانتقام والحيف عن المكروه المبغوض من البشر (ولا يجر منكم شنئان قومٍ على أن لا تعدلوا) بينما آية سورة النساء تهتم بصدد بيان النهي عن اتباع الأهواء والميول النفسية في الشهادة (شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) وتعنى بأمر الإقرار والاعتراف بالحق الثابت على النفس أو الأقربين (فلا تتبعوا الهوى) وموافقة رغبة القريب أو الصديق فتجوروا وتظلموا حقاً للغير ثابتاً، وبعبارة مختصرة: الآية الأولى تنهى عن الحيف وترك العدل مع من يبغض ولا يحب في مقام الشهادة والحقوق، والآية الثانية تنهى عن الميل إلى النفس أو الأقرباء أو الأحبة في الشهادة والحقوق، وتجتمع الآيتان في الدعوة إلى الشهادة بالحق ولله خالصة .

5- هاتان الآيتان الشريفتان –ككثير من آيات الله وكلماته- تعدان من الوسائل التربوية الاجتماعية العالية، وقد مارسها القرآن الحكيم والسنة المطهرة مع الأمة المحمدية المرحومة لإعداد أفرادها إعداداً صالحاً ولتهيئة عناصرها أمينة صادقة وتكوينها شاعرة بالمسؤولية مؤدية للحقوق إلى أربابها تأدية ناجحة لينعم مجتمع الإيمان بالعدل والقسط والأمان بعيداً عن الحيف والاعتداء والانتقام والمنافع والأهواء وتحفظ فيه الحقوق والأمانات ويشيع فيه العدل والتزام الحق والإنصاف، روى المحدثون بطرق عديدة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) عن آبائه (ع)

عن جده رسول الله (ﷺ) انه قال (من كتم شهادة أو شهد بها ليهدر بها دم امرئ مسلم أو ليزوي –أي لكي يصرف وينحي ويحرف- بها مال امرئ مسلم أتى يوم القيامة ولوجهه ظلمة مد البصر وفي وجهه كدوح –أي أثار خدوش بارزة- تعرفه الخلائق باسمه ونسبه، ومن شهد شهادة حق ليحيي بها حق امرئ مسلم أتى يوم القيامة ولوجهه نور مد البصر تعرفه الخلائق باسمه ونسبه، ثم عقب أبو جعفر الباقر (عليه السلام)قول جده (ﷺ): (ألا ترى ان الله عز وجل يقول (وأقيموا الشهادة لله) طلاق: 2، وقد استفاضت الروايات الشريفة الناطقة بالوعيد على شاهد الزور ومن منع حقاً أو كذب في شهادته ظلماً يكفي أن نتذكر واحدة (من شهد شهادة زور على أحد من الناس علق بلسانه مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

1- هذه الآية الثلاثون من سورة النور وهي من السور المدنية الشريفة وقد عنيت ببيان جملة من الأحكام الشرعية المهمة في مجال الصلاح والإصلاح، كما تضمنت بيان بعض العقائد الحقة وعدة من المعارف الإلهية النافعة برجاء إصلاح الفرد والمجتمع وبأمل التذكير والتنبيه وبداعي الإيقاظ من السبات والغفلة وكما قال سبحانه في مبدأ السورة (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) ومن هنا ورد الحث على قراءتها وتلاوتها حتى روى الحاكم النيسابوري وغيره عن رسول الله (ﷺ) قوله (علموهن –يعني النساء- المغزل وسورة النور) وتعليم المغزل –وهو عمل يتحقق في البيت بستر وشرف وكان العمل الشريف في عصره (ﷺ)-

كناية عن شغل النساء بعمل شريف بعيداً عن الفتنة والريبة والمفسدة قريباً من المحافظة على شرفها وعفتها غير مستلزم للتهتك والتبذل، كما أن تعليم سورة النور يقصد منه تعليمهن تشريعات الله سبحانه المفيدة لحصانة النساء من السوء والفساد وعفافهن عن التبذل والامتهان، وقد روي عن صادق آل محمد (عليه السلام) قوله: (حصنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور وحصنوا بها نساءكم) والمقصود تلاوتها مع تدبر وتفكر وإصغاء لتعليماتها، وبالفعل: إن قراءة السورة بتمعن يفيد حصانة الفرد والمجتمع من أسباب التدهور والفساد الخلقي ودوافع التبذل والانحراف الاخلاقي، وهذه الآية الشريفة من تلكم الآيات تعنى بوقاية الأفراد من مفسدة الأخلاق وفساد الاجتماع بسد مبدأ الفساد أو بغلق مبدأ بعض أنواع الفساد حين شرع سبحانه بهذه الآية بتحريم النظر إلى المرأة ووجوب تسترهن وتحجبهن .

2- (قل للمؤمنين): خطاب من الرب الجليل إلى عبيده وأحبابه المؤمنين بواسطة سفيره وحبيبه الأمين (قل) يا محمد مخاطباً (للمؤمنين).

(يغضوا من أبصارهم): أمر بالغض من الأبصار والغض هو الخفض والكسر (اغضض من صوتك) لقمان: 19، أي اخفض صوتك والغض من الأبصار يعني خفض الأبصار وكسرها بأن تدانى الجفون أو تطبق بعضها على بعض أو يصرف النظر عن المنظور والمقصود بالنظر والبصر، وحاصل معنى هذه الجملة هو صرف البصر وحرف النظر بشكل من الأشكال لإبعاد العين –التي هي المنفذ إلى القلب- عن التوجه إلى ما حرم الله وعن التمعن والاسترسال في النظر إلى ما أبغض الله نظر عباده إليه .

(ويحفظوا فروجهم): الحفظ: هو الصيانة والحراسة والتعاهد لشيء حذراً عليه من الهوي والسقوط .

والفروج: جمع فرج وهو الفتحة والفوهة والشق والخلل بين شيئين ويكنى به عن العضوين المخصوصين والسوأتين المعهودتين عند البشر والذين يستقبح كشفهما كما يستهجن من تسميتها بلفظ صريح .

(أزكى): أي أطهر وأنظف وأنقى .

(خبير) صفة مشبهة باسم الفاعل وهي صيغة مبالغة وبناء كثرة ومشتقة من (خبر يخبر خبرة) وتعني العلم بشيء مع الدقة وتفيد الإطلاع مع المعرفة على الحقيقة، و(خبير) من أسماء الله الحسنى لأنه عالم بالدقة ومطلع على الحقيقة وعارف بواقع الأشياء ما خفي منها وما ظهر من الأحداث والصنائع والأقوال لا تفوته شاردة ولا تخفى عليه واردة.

3- هذه الآية الشريفة خطاب جميل من رب جليل نحو رسول خليل ليبلغ عباده المؤمنين وأفراد الإسلام المنتفعين من خطابات الشرع المبين وتبليغات الرسول الأمين، وقد تضمن هذا الخطاب أمراً بغض البصر عما حرم الله وتوجيهاً بحفظ الفرج عما لم يحله الله، وقد توجه هذا الخطاب إلى الذين آمنوا كعادة جارية وحكمة غالبة، وبالتبع يشمل المؤمنات ويعم المسلمات والكافرات لو أردن الاتباع، لكنه سبحانه تأكيداً للأمر والتوجيه واهتماماً بهما جاء بأمر لاحق وخطاب آخر ملاصق خص به المؤمنات وخاطب به المسلمات (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) .

4- هذه الآية الشريفة أصل عظيم في تشريع حرمة النظر إلى المرأة الأجنبية –والمراد من الأجنبية ما سوى الزوجة والقريبات من النساء التي يحرم العقد عليهن كالأم والخالة والعمة، ويدخل ضمن الأجنبية: أخت الزوجة وزوجة الأخ وبنتا العم والعمة وبنتا الخال والخالة ونحوهن ممن يجوز عقد النكاح عليهن بعد ارتفاع المانع لو كان ثمة مانع- سئل الرضا (عليه السلام) عن النظر إلى شعر أخت امرأته فأجاب بالمنع والتحريم وإستغرب السائل وقال معترضاً: أخت امرأته والغريبة سواء؟ قال (عليه السلام): نعم أي هما متساويتان في تشريع الله لحرمة النظر ولزوم الحجاب، وكما يحرم على الرجال توجيه أبصارهم إلى النساء وملأ أعينهم من الفاتنات كذلك يحرم عليهن توجيه أبصارهن الى الرجال الأجانب وملأ أعينهن منهم وقد أمرن بالاحتجاب والتستر وقد نقل في التاريخ انه كان عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إثنان من زوجاته إحداهما أم سلمة (رض) –وهي التي روت الحادثة- فاستأذن ابن أم مكتوم (رض) عليه فأمر (ص) زوجتيه بالتستر أو الاحتجاب فقلن له: أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (أفعمياوان أنتما، ألستما تبصرانه) وفي رواية قال لهن (ان لم

يركما فانكما تريانه) وهذا التشريع غاية في التحوط عل صلاح المجتمع المسلم وهو منتهى درجات الوقاية والتحذر على حفظ المجتمع المسلم من السقوط في هاوية الرذيلة، وذلك بسد باب الفاحشة من مبدأه ومنع دبيب الفساد إلى المجتمع من بداياته وغلق فتحة الرذيلة من أوله (ذلك أزكى لهم) واطهر لمجتمعهم وأحوط لواقعهم وكيانهم (والوقاية خير من العلاج) بل انفع من ألف علاج ودواء، وينجلي ذلك بأدنى تصور فان النظر مفتاح القلب وتأثراته والنظرة مبدأ الفتنة وأول الرذيلة وذريعة المفسدة وبداية اندفاع الفساد إلى أفراد المجتمع وقد قيل: (النظر بريد الزنا ورائد الفجور) لأن البصر أكبر الأبواب النافذة إلى القلب وأعمر الحواس المؤثرة في النفس، وقد قال الشاعر المعروف (أحمد شوقي):-

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقد استفاضت الروايات الشريفة أو تواترت عن النبي الأكرم وأهل بيته في الحث على هذا التوجيه لتنضم إلى آي القرآن ودستور الرحمن، لغرض حفظ المجتمع المسلم عن أن تدب إليه الرذيلة وبهدف صيانة المجتمع المؤمن ووقاية أفراده من أن تندفع إليهم المفسدة وهي وسيلة تربوية وأسلوب من أساليب التعليم الحكيمة لحسم مادة الفساد من جذورها وقلع شجرة الرذيلة من أصولها وذلك حين نطق الكتاب العزيز بتبليغه الفصيح وصرحت السنة المطهرة ببياناتها البليغة فحرمت النظر وأوجبت غض البصر بل جعلت نظر العين زناً منها أو حفظ العين من الزنا حيث كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا على كل عضو فالعينان تزنيان وزناهما النظر وهكذا باقي الأعضاء لها حظ من الزنا كما ورد في بعض كلمات رسول الله (ﷺ) ومن تلكم التبليغات: نهينا عن اتباع النظرة إلى النظرة، وقد ورد في بعض الروايات العفو والسماح من النظرة العفوية الاتفاقية غير العامدة وجعلت النظرة التابعة المستمرة من النظرة الوازرة الاثمة المحرمة (لكم أول نظرة إلى المرأة، فلا تتبعوها نظرة أخرى واحذروا الفتنة) وهذه الرواية العلوية من بين روايات كثيرة وارشادات عديدة تمنع من إتباع النظر ومواصلة الأبصار بل تأمر بغض الإبصار وصرف الأنظار عن المرأة إذا وقع النظر عليها حذراً من الفتنة ووقاية من الرذيلة، والكلمات الطاهرة كثيرة

والإرشادات الناصحة عديدة نكتفي بهذا القدر وفيه الغنى والكفاية لمن ألقى السمع والطاعة وأحب الله والهداية .

٥ - هذه الآية الشريفة أصل عظيم في تشريع التستر والحجاب وترك التهتك والابتذال (ويحفظوا فروجهم) (ويحفظن فروجهن) وحفظ الفرج صيانته وتسليمه من الفساد والرذيلة إلا ما أحل الله بين الزوجين أو مقداراً عفيفاً مخصوصاً من نظر القريبين الذين بينهما حرمة ومحرمية، وحفظ الفرج معنى عام ومدلول تام يشمل كلما يكون فساداً ورذيلة ترتبط بالفرجين أو تؤدي إلى هتكهما وتنتهي إلى فضيحتهما، وقد ورد في عدة من الروايات عن رسول الله (ﷺ) وحفيده الصادق (عليه السلام): (ان كل آية في القرآن يذكر فيها حفظ الرجل فهو من الزنا إلا هذه الآية في سورة النور فإنها من النظر) وهذه الرواية تؤكد العموم وتثبت الشمول وتفيد لزوم حفظ الفرج حفظاً تاماً حتى من النظر ولا يتحقق الحفظ التام والصون العام إلا بستر الفرج بلباس ساتر عن البصر وحجاب مانع عن النظر وبنحو يتحرز فيه من التهيج والتأثير وبشكل يتحذر فيه من انكشاف العورة وفضح السوأة، وقد ذكر في الفقه الشريف والروايات الشريفة ان المرأة كلها عورة فيجب عليها ستر جميع أعضائها عن النظر بلبس حاجب وزي محتشم ويحرم عليها ابداء جسدها لغير الزوج والمحارم، وقد استثني الوجه والكفان وأجيز كشفهما من دون مهيج وبلا محرك لشهوة ناظر أو لذة باصر حذراً من الفتنة وخوفاً من الوقوع في المفسدة وتحوطاً عن السقوط في الهاوية، وهكذا يجب على الرجل ستر سوأته أو ما بين السرة إلى الركبة بثوب حاشم وزي ملائم بعيداً عن الفتنة وحذراً من السوء والمفسدة، وحرمت الشريعة المقدسة كشف ما يوجب الوقوع في الفتنة أو يجر إلى الرذيلة كما حرمت النظر إلى الوجه الفاتن والعضو الساحر إذا خيف الانزلاق إلى المفسدة أو الانتهاء إلى الشقاء والفضيحة، وينبغي أن يعلم ان تشريعات الله سبحانه تهدف التحوط من دبيب الفساد إلى الجماعة وتوقية المجتمع من شيوع الرذيلة وانتشار المفسدة في أفراد الأمة والوقاية خير من العلاج وأنفع من كل دواء (ذلك أزكى لهم) وأطهر وأنقى وأحوط وهو أعف وأشرف وأبعد عن الذنوب والآثام وأقرب إلى القبول والرضوان وأفرغ للقلب والبال عند ذوي الألباب من النساء

والرجال، ولذا استفاضت الروايات الشريفة في التأكيد على اللباس المحتشم واختيار الثوبِ الساترِ الملائم بعيداً عن التبذل والتهتك والتكشف المريب (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) الاعراف: 26 .

٦ - (ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون) هذه الجملة الشريفة تشير إلى حكمة التشريع وتشعر بسر الوجوب والحرمة وان وجوب الستر وحفظ الفرج وحرمة النظر ولزوم غض البصر يراد منه تزكية المؤمنين وتطهير مجتمعهم وتوقية نفوسهم من السقوط والرذيلة، كما تحث هذه الجملة على الرقابة الذاتية الأكيدة والمتابعة القلبية الشديدة مع النفس الأمارة بالسوء وهي لسان تحذير ووعيد وبيان انذار وتهديد (ان الله خبير بما يصنعون) من موافقة التشريع أو مخالفته، ان الله عالم بالحقيقة وبالدقة وعارف بالواقع والخفية بما يعملون ويفعلون، وثمة ملائكة شاهدون وكرام كاتبون ومسجلون ومصورون (عن اليمين وعن الشمال قعيد)ق: 17، (ما يلفظ من قول) أو يعمل من عمل (إلا لديه رقيب عتيد) ق: 18، (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ق: 21، سائق يسوقها إلى الله وشهيد يشهد على أعمالها وأفعالها وسلوكها كأن يشهد بغض طرفه وحفظ فرجه وأعضائه فيستحق الكرامة والمثوبة والفضيلة والجنة أو يشهد بملأ بصره وهتك فرجه وأعضائه واستهتاره فيستحق الخسران والعذاب والمهانة والنار، وقد وردت الروايات الشريفة بهذا المضمون ناطقة فقد سئل رسول الله (ﷺ) عن النظرة المفاجئة الواقعة على المرأة الغريبة فأوجب صرف النظر وكف البصر متعمداً متقصداً لينال الجنة باستحقاق ويجد حلاوة الإيمان في القلب والجنان،قال (ﷺ): ((ما من مسلم ينظر إلى امرأة أول رمقة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه)) وقال (ﷺ): (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه إيماناً يجد حلاوته في قلبه) وقد تكفل (ﷺ) بالجنة لمن غض بصره وحفظ فرجه في عدة أخرى من الروايات، وفي بعضها: (كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين غضت عن محارم الله –أي لم تنظر إلى ما حرم الله النظر إليه فغضت طرفها ومنعت بصرها عما لا

يحل- وعين باتت ساهرة في سبيل الله وعين بكت من خشية الله)) وقال (ﷺ): (اشتد غضب الله على امرأة ذات بعل ملأت عينها من غير زوجها أو غير ذي محرم منها، فإنها ان فعلت ذلك احبط الله عز وجل كل عمل عملته، فان أوطأت فراشه غيره كان حقاً على الله أن يحرقها بالنار بعد أن يعذبها في قبرها) وقال (ﷺ): (من ملأ عينيه من حرام ملأ الله عينيه يوم القيامة من النار ألا أن يتوب ويرجع، ومن صافح امرأة تحرم عليه فقد باء بسخط من الله عز وجل وجاء يوم القيامة مغلولاً ثم يؤمر به إلى النار، ومن التزم امرأة حراماً قرن في سلسلة من نار مع شيطان فيقذفان في النار، ومن فاكه امرأة –أي لاطفها وهي حرام عليه أجنبية عنه- حبسه الله بكل كلمة في الدنيا ألف عام) وقال جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): (من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء أو غض بصره –أي خفضه إلى الأرض- لم يرتد إليه بصره حتى يزوجه الله من الحور العين) وقال (عليه السلام): (النظرة بعد النظرة تزرع في القلب الشهوة وكفى به لصاحبها فتنة) وقد دخل عليه يوماً بعض أصحابه –وهو ممن مارس تعليم القرآن لبعض النساء فمازح مرة إحداهن بشيء- فعاتبه الإمام ونهاه عن العودة إلى المزاح والمفاكهة مع الأجنبية إذا خشي الفتنة، والروايات كثيرة جداً نكتفي بهذا القدر وفيه الغنى لمن أحب الهدى وتابع المصطفى (ﷺ) .

٧ - جاء في آية لاحقة وجملة ملاصقة: مخاطبة النساء بخطاب مخصوص ومناداة الإناث بنداء مختص (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)النور:31، وهي تأكيد على لزوم التحجب والتستر فقد نهت عن ابداء المرأة زينتها وأعضائها الفاتنة إلا ما ظهر منها – وفسرت في بعض الروايات بالوجه والكفين- ثم أرشدت إلى الأسلوب الأمثل في إخفاء مواقع الزينة الفاتنة- وهي التي تتسامح النساء غالباً في سترها فيظهر منهن الصدر والرقبة والشعر- فقال سبحانه (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر –بضم الخاء والميم جمع خمار وهو ثوب ساتر لهذه المواضع ورباط حاجب لهذه المواقع من جسد المرأة بنحو يغطى الرأس وينزل على الرقبة وفتحة الصدر، والجيوب جمع جيب وهو

فتحة الصدر والرقبة التي تنكشف بين جانبي قميص المرأة،وللنساء المسلمات قدوة صالحة من المهاجرات الأوائل ولهن أسوة حسنة بهن حيث كن يسفرن عن بعض شعورهن وصدورهن فنزلت هذه الآية الشريفة على صدر رسول الله (ﷺ) وحكاها لأصحابه فانقلبوا إلى أهلهم معلمين مؤدبين ومخبرين بما نزل به الروح الأمين (ع) على الحبيب الأديب (ﷺ) فسارعن إلى الإذعان والتصديق فأخذن يتلفعن بمروطهن –المروط جمع مرط وهو كساء غير مخيط يشبه الرباط المتداول عند النساء المعاصرات- فلا يعرفن في الظلام ولا تتميز أعضاؤهن الفاتنة في الضياء وفي الحديث كان رسول الله (ﷺ) يغلس بالفجر –والتغليس هو الخروج أول الصبح قبل انتشار الضوء التام- فتنصرف النساء متلفعات بمروطهن فما يعرفن من الغلس- أي من ظلام أول الصبح لا تعرف المرأة من هي.

٨ - وجاء في ختام الآية: (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) والضرب بالأرجل كناية عن المشي والتحرك المخصوص الذي تتعمد فيه المرأة إظهار زينتها الخفية وإبراز بهجتها وفتنتها المخفية وهي من أفانين النساء المبتذلات وتفتنات السافلات المتهتكات، وهذه الجملة الشريفة تنهى عن مثل هذه التصرفات والخدع الشيطانية التي تقصد بعض النساء منها الإعلام بالزينة والبهجة التي تتحلى بها وتتزين منها كالذهب الفاتن أو العضو الخادع أو الثوب الجميل الساحر أو الحذاء البراق اللامع، والمحرم في هذه الجملة هو الإعلام والإخبار بقصد إلفات نظر الغافل وإحياء قلب الشاب النابض بالحركة نحو الفساد والرذيلة أو الوقوع في الفتنة والوله والحيرة أو الوقوع في شرك الحب والعشق وقد يؤدي إلى الإقدام على الفاحشة والسيئة فكان هذا التشريع منه سبحانه –وهو ضد الخدعة الشيطانية- احتياطاً على عباده ووقاية لهم وحماية لأعراضهم من الفساد والرذيلة وهو يسدها من بداياتها ويغلقها من مباديها، وقد نقل في تاريخ الجاهلية ان المرأة كانت تلبس الخلخال في رجليها أو الخرز المصوتة فإذا دخل عليها غريب أو خرجت من بيتها ضربت الأرض برجليها لتسمع قعقعة خلخاليها أو نحو ذلك من الحركات لغرض ميل النفوس الرذيلة نحوها وافتنان القلوب المريضة بزينتها وجمالها، وقد يفعل بعض

الشباب بنعله أو يصوت بحذائه نظير تلك الحركات بهدف تحريك النفوس الضعيفة من شابات عصره، فجاءت هذه الجملة الشريفة تنهى عن مثل هذه التبرجات السافلة والإيحاءات التافهة الرذيلة لما فيها من احتمال الانتهاء إلى تعرض الرجال بالنساء أو تعرض النساء بالرجال وقد تبلغ درجة الفاحشة فيفسد المجتمع وتسيب أخلاقه ويضيع شرف أبنائه وعفة بناته، وقد ختمت الآية جملها بالدعوة إلى التوبة ومن جميع المؤمنين والمؤمنات بأمل الفلاح وبغية النجاح وبرجاء الصلاح والله المسدد والموفق للاقلاع عن هذه الخطايا والآثام والمعين إلى التزام الستر والحجاب وكف البصر عن النظر الحرام .

٩ - صدرت من الشرع الشريف تشريعات عديدة واحتياطات كثيرة وتأكيدات كبيرة تخص سلامة مجتمع الإيمان وأمن أفراده من التسيب الخلقي والتهتك الأخلاقي والانحراف نحو الدناءة والرذيلة، وعمدة هذه التشريعات وأسها وأساسها هو فرض الستر والحجاب على الذكور والإناث وفريضة كف البصر وغض الطرف، فمنهما المنطلق نحو الفضيلة ومن التقصير فيهما المنطلق نحو الرذيلة، وهما أنجع السبل التربوية نحو الحماية والأمان من أخطار الرذيلة والاستهتار لأنهما سد لباب الفساد من أصله وغلق لباب الرذيلة من مبدأها .

ولم يقتصر التشريع المقدس على هذين الفرضين بل صدرت تشريعات أخرى يقصد ببعضها الوقاية وببعضها العلاج، وقد تكفل الفقه الشريف ببيانها في مواضع عديدة وأبواب من الفقه كثيرة، وقد أحببت الإشارة والتذكرة ببعض ألوان التشريع الوقائي لتنضم إلى ما أعطته الآية الكريمة من فرضي الوقاية وتشريعي السلامة، بغية اكتمال الصورة الشرعية من طرف الوقاية، وتبقى ألوان التشريع العلاجي وظيفة بحتة لبحوث الفقه الشريف، وينبغي لنا التعرض والإشارة إلى التشريعات الوقائية الأخرى وهي :-

الأول:تحريم اللمس أو المصافحة أو غمز الثدي أو غيره من الأعضاء الفاتنة، وقد ورد التحذير الأكيد والتوعيد الشديد على ذلك حتى اعتبرته الشريعة المقدسة زناً مصغراً للعضو اللامس (وزنا اليدين المس، وزنا الفم القبلة) وسبق نقل الوعيد بسخط الله عز وجل وغل المصافح أي شد يديه والأمر به إلى

النار، وفي بعض الأخبار الصحيحة عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): (لا يحل للرجل أن يصافح المرأة إلا امرأة يحرم عليه ان يتزوجها: أخت أو بنت أو عمة أو خالة أو بنت أخت أو نحوها، وأما المرأة التي يحل له أن يتزوجها فلا يصافحها إلا من وراء الثوب ولا يغمز كفها).

الثاني: تحريم الممازحة المريبة والملاطفة الفاتنة والمفاكهة الطامعة بين الرجل والمرأة (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً) الأحزاب:32، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من فاكه امرأة حبسه الله بكل كلمة كلمها في الدنيا ألف عام) فينبغي في المرأة المسلمة الحفاظ على شرفها وعفتها فتتصرف التصرف الحسن وتقول القول المعروف وتبتعد عن الترقيق المثير للشهوة والمحيي للفتنة بل عن كل ما يوجب الفتنة ويؤدي إلى الريبة حذراً من أن ينتهي إلى الرذيلة .

الثالث: تحريم الخلوة والاختلاء بين الرجل والمرأة في موضع ليس بينهما ثالث يؤمن به من طرو الانزلاق إلى الفساد، فقد ورد في بعض الروايات حضور الشيطان ثالثاً لهما ليثير الفتنة ويحيي الشهوة ويؤدي إلى المفسدة أو يوقع بهما في الرذيلة، وأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيعة النساء له عهداً عليهن أن لا يقعدن مع الرجال ولا يجتمعن معهم في موضع خلاء –أي خالٍ من شخص ثالث يؤمن بوجوده من حلول المفسدة ويمنع ثوران الشهوة بينهما- وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبيت في موضع يسمع نفس امرأة ليست له بمحرم).

الرابع: تحريم القبلة من أحدهما إلى آخر مع احتمال الشهوة والفتنة وان كان مع الصبي او الصبية المقاربة للبلوغ ونضج الإدراك الجنسي والإحساس الشهوي احتياطاً وتحذراً، وذلك لأنه إذا قرب الصبي من مرحلة البلوغ الشرعي وهو العام التاسع من عمر الأنثى والعام الخامس عشر من عمر الذكر تنضج عنده الشهوة أو تتهيج ولذا ندبت الشريعة وإستحبت ترك حمل الصبية وملاعبتها وتقبيلها من غير المحرم –كالأب والأخ- إذا أتى عليها ست سنين دخلت في السابعة وندبت المرأة واستحبت لها أن تحتجب وتستتر من الصبي إذا تعدى العاشرة من عمره ونضج عنده الإحساس الجنسي وبدأ عنده الشعور

باللذة والشهوة كما يستحب للمرأة البالغة أيضاً ترك مباشرة مثل هذا الصبي واجتناب ملامسته والتزامه حذراً من الفتنة وتوقياً من الانجراف إلى ما يثير عنده الشهوة .

الخامس: تحريم التدافع بين النساء والرجال في الأماكن المختلطة والمواضع المزدحمة والمواقع الضيقة، وقد وردت عدة من الروايات تعاتب المؤمنين الذين يتركون نساءهم في مثل هذه المواقع المزدحمة والمواضع المختلطة وسط الزحام والتدافع داعية لهم بالحياء من ربهم والاستحياء من بارئهم ومانعة عن تدافع الذكور والإناث في الطرقات الضيقة والأسواق المزدحمة واختيار طريق آخر بعيداً عن الزحام، وقد حكي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) حين ورد الكوفة بلغه نبأ التدافع في المواقع المزدحمة فصعد خطيباً: (نبئت ان نسائكم يدافعن الرجال في الطريق أما تستحون؟! أولا تغارون، نساؤكم يخرجن إلى الأسواق ويزاحمن العلوج)) .

السادس: أوجبت الشريعة المقدسة على الذكور والإناث –صغاراً أو شباباً أو كباراً- ان يمتنعوا عن دخول غرفة منام المتزوجين المقيمين معهم أو المجتمعين عندهم من أبنائهم وبناتهم أو آبائهم أو أمهاتهم أو ما شاكل، إلا بعد طرق الباب واستئذان من كان داخل غرفة المنام والاستراحة وصدور الإذن منه للطارق وان كان اباً أو جداً وكان في الغرفة ابناً أو بنتاً يحتمل أن يكون قد ألقى ثيابه واختلى مع قرينه وزوجه، بل أمرت الشريعة أولياء الأمور تعليم صغارهم وتأديب أتباعهم على هذا الأدب الرفيع والخلق المنيع في ساعات الخلوة والانفراد بالأزواج والاستراحة في غرف المنام وما يشبهها من مواضع الالتقاء والاختلاء، قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)النور: 58، ثم قال سبحانه: (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)النور: 59، وقد ضرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مثال الأدب المتواضع حين خرج ومعه جابر بن عبد الله الأنصاري يريد فاطمة (ع) فلما انتهيا إلى باب دارها وضع يده الشريفة فطرقها مسلماً على بنته مستأذناً بالدخول

عليها ومعه صاحبه الجليل (رض) فاستأذنته ريثما تلبس قناعها وتربط خمارها وتلبس فضل ملحفتها على رأسها ثم أذنت بدخول أبيها ورسول ربها وسيد الكائنات ومعه صاحبه، هكذا الأدب الرفيع، قال مولانا الصادق (عليه السلام): (ويستأذن الرجل على إبنته وأخته اذا كانتا متزوجتين) وقال (ومن بلغ الحلم فلا يلج – أي يدخل- على أمه ولا على أخته ولا على خالته ولا على سوى ذلك إلا بإذن، ولا تأذنوا حتى يسلموا والسلام طاعة لله عز وجل) .

السابع: أمر الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بتفريق الأولياء بين صبيانهم ذكوراً وأناثاً في مضاجعهم ومحلات نومهم فلا يسمحون لهم بالمبيت في فراش واحد أو تحت لحاف متحد إذا بلغ الصبيان سن العاشرة وندب إلى التفريق عند بلوغ السن السادسة، وحرم (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر الرجل إلى الذكر المماثل إذا كان بتلذذ وشهوة حذراً من الافتتان بجماله وتوقياً من الانتهاء إلى جريمة أو رذيلة كما حرم نظر المرأة إلى المرأة المماثلة بتلذذ وشهوة حذراً من التوسع وتوقياً من الانتهاء إلى جريمة أو رذيلة .

وفي الدين الحنيف ثمة تشريعات وقائية عديدة وتشريعات علاجية نترك طرحها لبحوث الفقه الشريف ونقتصر على تلكم التذكرة ببعض جوانب التشريع الوقائي الهادف إلى عفاف الأمة وشرف أفرادها وسلامة مجتمعها من أنحاء الفساد وحبائل الشيطان ليكون المؤمن عزيزاً في دنياه مكرماً في أخراه عفيفاً في حياته نزيهاً في آخرته ومنزهاً في كل الأحوال عن الرذيلة والفساد.

ويحلو لي –في ختام الآية- أن أدون حديثاً شريفاً رواه مسعدة بن صدقة الربعي عن جعفر بن محمد عن أبيه (ع) حيث قيل له: ما بال المؤمن أعز شيء قال: (لأن عز القرآن في قلبه ومحض الإيمان في صدره وهو عبد مطيع لله، ولرسوله مصدق) ثم قيل له: فما بال المؤمن قد يكون أشح شئ؟ قال: (لأنه يكسب الرزق من حله، ومطلب الحلال عزيز، فلا يحب أن يفارقه شيئه لما يعلم من عز مطلبه، وان هو سخت نفسه لم يضعه إلا في موضعه)ثم قيل له: فما بال المؤمن قد يكون أنكح شيء؟ قال: (لحفظه فرجه عن فروج لا تحل له، ولكيلا تميل به شهوته هكذا ولاهكذا، فاذا ظفر بالحلال اكتفى به واستغنى به عن غيره).

10- من هذه التشريعات ومن غيرها يستفاد شدة حرص الشارع المقدس على تنظيم الحياة الاجتماعية الشريفة وصيانتها عفيفة عن المفاسد والرذائل حين سد بتشريعاته جميع المنافذ المؤدية إلى فساد الأخلاق وتدهور السلوك في مجتمع الإيمان وقد فتح باب الزواج على مصراعيه لتلبية نداء الشهوة وسماع خطاب اللذة، ولو أن استقام الناس على هذه الطريقة لوجدوا مجتمعاً شريفاً ومجمعاً نزيهاً ينعم بالأمن ويطيب بالمحبة ويسمو بالشرف (وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً)الجن: 16.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)

1- هذه الآية الشريفة هي الآية التاسعة عشر بعد المائتين من آيات سورة البقرة، وهي من أطول السور المفصلة ومن أول السور النازلة بعد الهجرة الشريفة وفي رحاب المدينة المنورة وقد تضمنت القصص الهادفة الحكيمة والأحكام الشرعية الشريفة، وهذه الآية الشريفة منها وهي تتولى إبعاد مجتمع التوحيد والإسلام عن خصلتين من أرذل الخصال المهلكة وأفسد العادات الجاهلية المستأصلة لوجود البشر وكيانه العظيم الذي يمتاز عن باقي الوجودات وسائر الكيانات المخلوقة بعقله وفكره واتزانه .

2- (والخمر) مصدر مشتق في أصل وضعه من (خمر الشيء) اذا ستره وغطاه، تقول: (خمرت المرأة رأسها) أي غطته وسترته، فأصل معناه هو الستر والتغطية، وانما سميت الخمرة خمراً من أجل تأثيرها في العقل لأنها بعد شربها ودخولها في الجوف تؤثر في العقل فتستره وتغطي عليه فلا يكاد يدرك صالحه من فاسده ولا تدعه يميز بين الخير والشر وبين الحسن والقبيح، والخمر مشروب قديم ومائع عتيق يؤثر السكر في الإنسان وقد كان يتداوله بعض الناس في كل عصر وزمان ويصنع من أغلب الفواكه وبعض الحبوب وقد اعتنى بصنعه بعض أفراد الناس بل تفننوا بصنعه في الأزمنة الأخيرة وتأنقوا في انتاجه وتعبئته حتى صار يكلف تحصيله الأثمان الباهظة

وخاصة الأنواع الجيدة منه، أعاذنا الله منه وسلم المسلمين بل كافة البشر من سوءه .

(الميسر) مصدر ميمي مشتق في أصل وضعه من (يسر ييسر يسراً وميسراً) قيل: هو بمعنى (سهل) فهو مأخوذ من السهولة،وقد سمي القمار ميسراً لسهولة تحصيل مال الغير بواسطة لعب القمار وفعل الميسر من دون جهد كبير أو كسب أو عمل أو مشقة، والميسر هو القمار، والمقامرة هي المغالبة في اللعب بآلات معروفة في كل عصر إذ هي عملية قديمة سابقة في وجودها على عصر الإسلام، وقد كانت العرب في الجاهلية تقامر كثيراً بالقداح وهي السهام المعبر عنها في بعض آي القرآن بالأزلام، ويسمى اللاعب بالياسر والمقامر فكانوا يشترون الجزور –الجمل- فينحرونه ويقطعونه ويقسمون أعضاءه ولحمه إلى ثمانية وعشرين جزء وكانت لهم عشرة قداح (سهام): الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى ثم المنيح والسنيح والوغد، ويجعلون لكل قدح من القداح السبعة الأولى حصة ونصيباً صاعداً فللقدح الأول (الفذ) جزء وقطعة من لحم الجزور وللثاني (التوأم) قطعتان منه وهكذا حتى القدح السابع (المعلى) وهو أكثرها نصيباً حيث يجعلون له نصيباً عالياً من لحم الجزور وهو سبعة أجزاء منه، ثم لا نصيب للقداح الثلاثة الأخيرة، ثم يضعون هذه القداح والسهام العشرة في (ربابة) -وهي خريطة من قماش توضع فيه سهام الميسر – ويتصدى أحدهم لجلجلتها وتحريكها في داخل الربابة ثم يدخل يده ليخرج منها سهماً وقدحاً من العشرة باسم رجل من عشرة يشتركون في لعبة الميسر فاذا خرج له قدح رابح من القداح السبعة أخذ نصيبه المرسوم من قطع الجزور، واذا خرج له قدح خاسر من القداح الثلاثة الأخيرة لم يأخذ شيئاً وانما يغرم ثمن الجزور مع من يخرج له القدحان الخاسران الاخران، ثم يتبرع الرابحون بقطع لحم الجزور التي كسبوها في ميسرهم ليطعمها الفقراء ويمتنع الياسرون من أكلها، وكانت لعبة الميسر عند بعض الأمم مسماة باسم آخر وشكل مختلف كالشطرنج والنرد وهو المسمى في عصرنا بالطاولة، وتتجدد لها في كل عصر أنواع وبأسماء مختلفة وكيفيات متغايرة وقد اضمحل في عصرنا بعض الأنواع المذكورة في التاريخ وبرزت أنواع أكثر ونهدت

كيفيات أكبر حتى كثرت أنواعها وتعددت أسماؤها مثل الدومنة والورق بأنواعه واليانصيب بأشكاله.

(اثم كبير) هذه هي القراءة المشهورة وروي عن بعض قراء الكوفة قرائتها (إثم كثير) والمعنى في أصله متقارب بين القرائتين، والإثم هو كل ما فيه ضرر وتبعة ومفسدة من قول أو عمل، والمفسدة قد تكون في البدن وقد تكون في العقل والروح وقد تكون في العرض والشرف وقد تكون في الأموال والأعيان فيكون الإثم معنى مقارباً لمعنى الذنب في ايراث الشقاء والحرمان وافساد السعادة والإيمان .

(ومنافع للناس): المنافع جمع المنفعة وهي ما يقابل المضرة والإثم، وهو ما يتوصل به إلى الخير والفائدة والانتفاع .

3- هذه الآية الشريفة أثبتت أموراً ثلاثة في الخمر والميسر: وجود الإثم والضرر والمفسدة فيهما، ووجود الخير والنفع والفائدة فيهما، وكون الإثم والضرر الموجود في الخمر والميسر أكبر وأكثر من النفع والخير الموجود فيهما .

أما شرب الخمر فاثمه وأضراره ومفاسده كثيرة جداً، أولها وأعظمها ازالة عقل الإنسان وإفساده وهو أشرف أعضائه وأكرم أجزائه حتى اذا ثمل الشارب وسكر خرج عن طور الإنسانية وصار –بسبب تعطيله لقواه العقلية وخروجه عن انتظامه في حركاته البدنية- أشبه بالبهيمة وأتعس وأقرب من المجانين بل أرجس، وقد قيل لبعض عقلاء العرب وسادتهم في الجاهلية ممن امتنع عن شرب الخمر: ألا تشرب الخمرة فانها تزيد من حرارتك، فأجاب: (ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي، ولا أرضى أن اصبح سيد قوم وأمسي سفيههم)، ومن هذه المفسدة العقلية تنبعث مجموعة كبيرة من المفاسد والآثام وتنطلق المضار والتبعات على الفرد وعلى الاجتماع وعلى الصحة وعلى الأخلاق وعلى البدن والأعضاء وعلى الذرية والأحفاد وعلى الأموال والأعراض وعلى الشرف والاعتبار وعلى الدين والإيمان (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة)المائدة: 91، وقد تصدى بعض العلماء والكتاب لبيان ما في الخمرة من الأضرار الصحية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية والنفسية مع تعداد ما اكتشفه الخبراء المختصون من مضراته ومفاسده، وما خفي ولم يظهر لهم بعد اكثر واكبر ولا زالت الأيام تكشف غير ما كشفته

الماضيات، ويكفينا أن نتذكر أن رسول الله (ﷺ) سمى الخمرة (أم الخبائث) فهي أم الخبائث ولب المفاسد وينبوع المضار ومنطلق السيئات ومبعث الخصال الرذيلات ولذا لم يبعث الله نبياً إلا وكان تحريم الخمرة من أهم أجزاء شريعته وأعظم قوانين ديانته .

وأما منافع الخمر التي أشارت الآية الشريفة إلى وجودها فالمتيقن من المنافع هو التلذذ والانبساط والانشراح الذي يعقب الشرب ثم السكر والثمل الذي يزول العقل معه وتزول معه الهموم والمشاكل أو ينقطع الاحساس بها ويتوقف الشعور والاهتمام لها، مضافاً إلى أرباح الاتجار بها، وهذه منافع رخيصة وفوائد زهيدة في جنب مضاره ومفاسده وهي مؤقتة تزول بعد حين وتنعدم بعد وقت .

وأما الميسر فاثمه واضراره ومفاسده كثيرة أيضاً وانعكاسها على الأفراد والاجتماع والتربية العامة والأخلاق كبير جداً، منها كونه أكلاً لمال الغير بالحرام وتملكاً لمال الغير بالباطل، ومنها انه يورث العداوة والبغضاء بين المتياسرين وينتهي بالنزاع والشحناء بين المتقامرين (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) المائدة: 91، ومنها الهاؤه عن ذكر الله وانساؤه لعبادة الها وصده عن الصلاة لله (وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ)المائدة: 91، حيث ان ممارسة القمار يشغل القلب والفؤاد بالربح والكسب، كما أن النتيجة من الربح أو الخسران وباقي الآثار يلهي الفكر والأعضاء عن أداء الواجبات وممارسة العبادات، ومنها افساد الأخلاق بتعويد النفس الكسل وتدريب البشر على انتظار الرزق من أسباب باطلة وطرق رخيصة محرمة دون الأسباب المحقة والطرق المشروعة نظير التجارة والزراعة والصناعة التي هي أركان العمران وأساس الرقي والازدهار، ومنها خراب البيوت وضياع العوائل والانتقال من الغنى إلى الفقر بساعة قمار خاسرة، وثمة مفاسد كثيرة ومضار كبيرة قد يدركها العاقل اللبيب ويتوصل إلى إدراك بعضها المتفكر الطبيب وبخاصة من لعب القمار في فترة ثم اعتزله فأدرك مضاره في وجوده وكيانه وخصوصياته وشعر بمفاسده في شؤونه وشؤون أصحابه وكيان أقرانه المقامرين .

وأما المنافع التي أشارت الآية الكريمة إلى وجودها في الميسر فهي منافع رخيصة وفوائد ضئيلة جنب مضاره الكثيرة ومساوئه الكبيرة، منها سرور الرابح وارتياحه النفسي بالغلبة والكسب، ومنها صيرورة الفقير غنياً في ساعة لعب رابحة ولحظة قمار غالبة، ومنها انتفاع الفقراء في بعض أنواع الميسر والقمار كاليانصيب والأزلام .

(واثمهما أكبر من نفعهما) والحال ان المضرة والمفسدة الموجودة في الخمر أو في الميسر أكبر من المنفعة وأعظم من الفائدة المتوقعة، وفي كل موضع يتزاحم فيه المفسدة والمصلحة وتتدافع فيه المضرة والفائدة اذا اجتمعا في موضع وتواردا على موقع رجح الأكبر منهما وأثّر الأعظم منهما وغلب الأقوى اثراً منهما، وحيث غلبت المفسدة والمضرة في الخمر والقمار على المنفعة المتوقعة منهما والفائدة المأمولة فيهما ترجح جانب المفسدة وأثمر المنع والتحريم واقتضى النهي والتأثيم، وفي بيان هذه الجملة الشريفة في آية الخمر والميسر فوائد عديدة ومعلومات وفيرة، منها إرشاد الخلق إلى تحريم الخمر والميسر بأسلوب مقنع حيث بيّن سبحانه إنبثاق المنع والتحريم عن مراعاة مصالح العباد ومضارهم دون أن تنبثق من حاجة الخالق إلى التسلط والتجبر والتأمر والاستعباد فانه غني عن طاعتهم وهم محتاجون إلى لطفه ورحمته وإرشاده إلى ما فيه صلاحهم أو فسادهم، ومنها إرشاد الخلق إلى سر التشريع وحكمة التحريم وما يقتضيه العقل السليم عند وجود الضدين وتزاحم المصلحة مع المفسدة من تقديم الأقوى تأثيراً والأغلب مفعولاً والأكثر فعلاً وفاعلية، ومنها اشعار الخلق بأن المنافع المأمولة من الخمر والفوائد المتوقعة من القمار والميسر ضئيلة مغلوبة للمفاسد والمضار القائمة فيهما، بل عند التأمل والتفكر نجد المنفعة بحكم المعدومة في جنب المضار الكثيرة والمفاسد الكبيرة القائمة في الخمر والميسر، ولذا تدعو العقول السليمة إلى الحظر والتحريم وتبعث الأفكار المستقيمة نحو الرفض والمأثمة، وثمة فوائد أخرى في هذا البيان المشتمل على نحو من الإقناع بالحرمة ويخلو من الجبر على الترك، وهذه أجدى طريقة في الإصلاح وأنفع وسيلة في الإرشاد حيث يكون الاجتناب عن طواعية والابتعاد عن رغبة، وهو نحو من اللطف

الإلهي في تشريع مرتبط بأمرين مهمين وفعلين مرتكزين في عادات بعض الأفراد ورغبات بعض الأشخاص بل عموم الأفراد في مبدأ الدعوة المحمدية، فجاءت الآية الشريفة اقناعية إيحائية تحاول اقناع الأفراد بضرر الخمر والميسر واثمهما وتلاشي نفعهما بازاء اثمهما وتبغي الإيحاء إلى الناس بضرورة إبعاده عن طريق حساب المصالح والمنافع جنب المضار والمفاسد .

4- هذه الآية الشريفة وقعت ضمن آيات تحريم الخمر ومنع الميسر، وهما حالتان شائعتان في مجتمع الجاهلية ومبدأ الرسالة المحمدية الإصلاحية فاقتضى اللطف الإلهي أن يتعدد سبيل إعلان التشريع ويتدرج طرق بيان التحريم، فجاءت هذه الآية تقنع وترشد وتوحي إلى العقول وتحرك وتدق ناقوس الخطر في النفوس، ثم تلتها آية الزجر عن قرب الصلاة حالة السكر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ) النساء:43، فأخذ منادي الرسول (ﷺ) ينادي عند اقامة الصلاة: أن لا يقربن الصلاة سكران، ثم تلتها آية الأمر بالاجتناب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ { 90} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) المائدة: 90، 91، وهي ذو لسان قوي شديد وتعبير مقترن بالانكار والتهديد وبيان مشعر بسبق الإيعاز والإشعار وتقدم الحظر والانذار (فهل أنتم منتهون) عن هذه العادات الفاسدة، وهذا استفهام توبيخ وتحذير من سوء العاقبة وعذاب الآخرة بعد تكرر البيانات المانعة والايعازات الحاظرة والارشادات الناهية والتحذيرات المتأكدة ثم قال سبحانه (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ)المائدة: 92، وعليكم يقع الضرر والخسران في المبدأ والمآل.

ومن هذا البيان يستفاد طريقة الاصلاح وشريعة الانكار على المدمنين فينبغي لمن وفقه الله لإصلاح بعض هؤلاء المدمنين المداومين على هاتين الرذيلتين أو إحداهما: أن يتدرج معه في الإصلاح وتتعدد عنده سبل التحويل وطرق التبديل إلى الحال الأمثل والشكل الأكمل، والسبل كثيرة والطرق عديدة

فيخترع العاقل اللبيب مختلف الوسائل الممكنة لإقلاع المدمنين على القمار والميسر وابعاد المداومين على الخمر والمسكر ليكون له شرف النهي عن المنكر ووسام الأمر بالمعروف ولئن يهدي الله بك –أيها المؤمن- شخصاً واحداً من هؤلاء المدمنين كان لك أفضل من الدنيا وما فيها مما طلعت عليه الشمس وغربت، كما قال الحبيب المصطفى (ﷺ) لأخيه المرتضى (عليه السلام) .

5- ومن العجب العجاب بعد هذه البيانات من الرحمن وتلكم الآيات الواضحات من القرآن أن يشكك بعض العباد في هذا الزمان في حرمة الخمر والميسر في آي القرآن، أو يمنع بعض الأشخاص من دلالة آية المائدة على التحريم من الرحمن، وكأن التحريم منحصر بعبارة (حرمت عليكم الخمرة والقمار) أو (نهيتكم عنهما فاجتنبوهما) وكأن القرآن الحكيم والفرقان البليغ لم ينزل بلسان عربي مبين ومنطق عربي فصيح، وكأن هؤلاء نسوا أو جهلوا استعمالات القرآن الفصيحة وبلاغته الأكيدة وكناياته اللطيفة واقناعاته الجميلة، وكأن هؤلاء غفلوا أو جهلوا حالة الأمة وإدمان أفرادها يومئذ ولأجلها اقتضت حكمة الله ولطف المشرع التدرج والإقناع دون أسلوب الحظر والمنع والتحريم المباشر، وكأن هؤلاء جهلوا أو غفلوا عن القانون البياني العربي: (الكناية أبلغ من التصريح) فذهلوا عن السبل البيانية البليغة للقرآن وغفلوا عن الطرق الكنائية الجميلة في الفرقان –وهي التي أذهلت أئمة البلاغة والفصاحة من مشركي العرب فلم يلتفتوا إلى سر البيان وحكمة الإقناع التي تقتضيها حالة الإنسان يومذاك، ولذا جاءت الآية المبحوثة في سورة البقرة بطريقة الإقناع خالية من التهديد والتهكم وعارية عن التوبيخ والتوعد، ثم جاء القرآن الحكيم والفرقان الكريم في مرحلة لاحقة وقد انتشر الإسلام وذاع صيته وتنامت قوته وتوسعت بقعته ففتحت مكة المكرمة وأسقطت أوثانها المهشمة، جاء حينئذ بآية التهديد والتوبيخ وخاطب من دام على الإدمان ولم يقتلع بعد عن الشرب والقمار (فهل أنتم منتهون) ولذا نادى المسلمون من أمثال هؤلاء (قد انتهينا، قد انتهينا) ومختصر القول: ان تحريم الخمر والقمار في أول أيام الهجرة إلى المدينة المطهرة ثابت مقطوع به، قد نزل به القرآن

الحكيم وهو الآية المبحوثة من سورة البقرة ولم يحصل تدرج وتعدد في بيان الحكم حتى وصل إلى التحريم، أي لم يبين القرآن أو السنة كراهة الخمر والميسر أو حسن التعفف والتنزه عنهما ثم بين حرمته وحظره بل الحكم التحريمي ثابت من مبدأ الهجرة ولكن التدرج والتعدد حصل في أسلوب الإصلاح وطريقة المنع وبيان التحريم والحظر فتدرج البيان الجميل من الإقناع والإيحاء بالمضرة الكبرى إلى التعبير المقترن بالتهديد والتوبيخ، وهذا التدرج في البيان والتعدد في أسلوب التعبير أسلوب تربوي توجيهي وطريق إصلاحي حكمي، جل وعلا رب العالمين ومعلم العابدين، وقد كان حال الإنسان يومئذ يقتضيه وارتكاز حلية الخمر والميسر يرتضيه وقد كانوا يومئذ مشغوفين بهما مفتونين بممارستهما ولا يحتملون مباشرة تحريمهما ولا يختص هذا الحال بالخمرة بل يعم الميسر والقمار حتى نقل عن ابن عباس (رض) قوله: (كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله –أي يقامر مع خطر وعوض من الأهل والمال- فايهما قمر –غلب- صاحبه ذهب بماله وأهله، فنزلت الآية الشريفة من سورة البقرة، بل كانوا يفتخرون بتداوله ويستعيبون تاركه ويرمونه اسم (البرم) محركة تعني من لا ينتفع به، وهكذا في جميع العصور ومنها عصرنا يتداوله قوم ويمارسه جمع وقد يرمون تاركه باسم (المعقد) وهي تعني من كان في نفسه عقدة تمعنه عن مشاركة الأسوياء في بعض العادات وان كانت عادة رذيلة أو ضارة قبيحة، فكان مقتضى اللطف الربوبي الحكيم أن يتدرج اسلوب البيان ويتعدد ويتدرج من الاقناع بأغلبية الضرر وأقوائية الأثم والفساد (وإثمهما أكبر من نفعهما) إلى أسلوب التحذير والتوبيخ واشارات الإنذار والتهديد (رجس من عمل الشيطان) (فاجتنبوه) (فهل أنتم منتهون) (واحذروا ان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين) وعليكم ترد الأضرار ويقع الخسران وسوء العاقبة والختام .

6- وهذا الذي شرحناه –من القطع بتحريم الخمر والميسر من أول عهد الهجرة النبوية الشريفة- يوحيه النظر الدقيق المستلهم لروح الشريعة في كتاب ربها وسنة رسولها، وتؤكده السنة الناطقة بأنه (لم يبعث الله نبياً ليس في دينه وشريعته تحريم الخمر) ويؤيده:روح الإسلام وعطف المشرع

الرحمن وشديد رأفته وعظيم لطفه بعباده ليوصلهم إلى أعلى درجات الصلاح والرقي والازدهار، وكيف يصح أن يشرع لهم اباحة شرب الخمر ثم يصعد بها إلى الكراهة ثم ينتقل متدرجاً إلى تشريع الحرمة كما يحاول البعض، بل يمكن القول: إن تحريم الخمرة والقمار قد بينته الشريعة قبل الهجرة وأشارت اليه في مبدأ الدعوة حين نزلت الآية الشريفة في مكة (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) الأعراف: 33، وهذا من أساليب التدرج في بيان التحريم –الحكم الأساس في شريعة الإسلام- حيث حرمت الإثم -الذي هو عنوان منطبق على الخمرة وصادق على المقامرة- بل هما فعلان فاحشان وقد حرم الله في هذه الآية الفواحش ما ظهر منها وما بطن وأي فعل أفحش من شرب الخمر ولعب الميسر والزنا واللواط؟ وكيف لا تكون الخمرة محرمة من مبدأ الدعوة وهي موصوفة بالإثم الكبير، ومن هنا ورد في الأثر عن الوزير المعروف (علي بن يقطين) ان الخليفة العباسي المعروف بالمهدي سأل الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) عن الخمرة هل هي محرمة في كتاب الله عز وجل، فأجاب (نعم، هو قول الله تعالى (إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وأما الإثم فإنها الخمرة بعينها وقد قال الله تعالى في موضع آخر (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) فالإثم في كتاب الله هي الخمرة والميسر واثمهما أكبر من نفعهما كما قال الله .

7- قد تواترت الروايات الشريفة بين المسلمين –بل فاقت التواتر وتعدت الوضوح- في تحريم الخمرة ولزوم اجتنابها حتى صح عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (اجتنبوا الخمرة فانها أم الخبائث، وهي اكبر الكبائر، مدمن الخمر كعابد وثن) (يجئ مدمن الخمر والمسكر يوم القيامة مزرقة عيناه، مسوداً وجهه مائلاً شدقه، يسيل لعابه مشدوداً ناصيته إلى إبهام قدميه، خارجاً يده من صلبه فيفزع منه –أي يخاف منه على هذه الهيئة- أهل الجمع إذا رأوه مقبلاً إلى الحساب) وغير هذه الروايات والمضامين كثير جداً حتى ورد في بعض الأخبار تحريم

سقيها للصبيان والبهائم بل والنصارى واليهود والصابئة، وأمر رسول الله بمقاطعة شاربها ومحاصرته اجتماعياً فلا يزوج إذا خطب ولا يعاد إذا مرض ولا يزكى إذا شهد ولا تشيع جنازته إذا مات ولا يصلى على جنازته ولا يصدق إذا حدث ولا يشفع في حاجة إذا توسط وشفع ولا يؤتمن على أمانة ولا يجالس على مائدة فيها خمر أو مسكر لأن اللعنة إذا نزلت عمت من في المجلس وقد أثر عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قوله: (لو وقعت قطرة خمر في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلاء لم أرعه) وورد في عدة من الروايات الصحيحة لعن رسول الله (ص) في الخمرة عشرة: شاربها وغارسها وحارسها وعاصرها وساقيها وحاملها والمحمولة اليه وبايعها ومشتريها وآكل ثمنها، بل ورد في عدة من الروايات: الإرشاد إلى المنع من التداوي بالخمرة والاستشفاء منها أو التناول لها حال الاضطرار لها اضطراراً شديداً يبيح المحرمات، وورد في عدة الروايات تحريم شرب كل مسكر من قليل أو كثير لأن الله لم يحرم الخمرة لأجل اسم الخمرة بل حرمها لأجل آثارها السيئة وعاقبتها الضارة وإفسادها ها (فما فعل فعل الخمر –أي أثر أثرها وفعل سكرها- فهو خمر) أي حرام مثل الخمر .

8- كما تواترت الروايات الناطقة بتحريم الميسر والقمار ولزوم اجتنابه، والمراد من (الميسر) المذكور في آيات الكتاب هو القمار على إطلاقه وإرساله وعلى سعته وشموله حسبما فسرته السنة المطهرة فقد ورد في الأثر الشريف (كل شئ فيه قمار – أي مغالبة وعوض- من نرد أو شطرنج فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب –جمع كعب: عظم مخصوص معروف يؤخذ من الخروف- إلا ما أبيح من الرهان في الخيل والقرعة في إفراز الحقوق) أي إستثني من الميسر المحرم: القرعة عند الأمر المشكل الغامض من حقوق الناس المتعارضة اذا لم يتضح موقعها، فيقرع لإفراز الحق وهي طريقة مذكورة في الفقه، واستثني العوض والقمار في المغالبة والمسابقة على الخيل لمصلحة أهم هي تدريب الفرد المسلم على إسلوب الدفاع عن بيضة الإسلام لو تعرضت لخطر المداهمة من الأعداء الكفار، وما سوى هذين الموردين كل قمار ومغالبة فهي

ميسر محرم بالنص القرآني والحديث المحمدي، وورد في الحديث المحمدي (ص) بعدما سئل عن لفظة (الميسر) أجاب: (كل ما قومر به فهو الميسر) وورد في الحديث العلوي (ع): (كلما ألهى عن ذكر الله فهو من الميسر)، ويتضح من هذه الروايات وغيرها أن المراد من (الميسر) ما يعم ويشمل اللعب بآلات القمار وهي المعدة للمقامرة والمغالبة مثل الشطرنج والنرد (الطاولة) والدومنة وأنواع الورق وألوان (اليانصيب) المعروفة في زماننا والمشابهة للعب بالأقداح والسهام المعروفة في زمان الجاهلية كما سبق توضيحها ويأتي بيان التشابه بين اليانصيب والقداح، بل الميسر هو مطلق اللعب مع الخطر والعوض للسابق الغالب سواء كان المال أو الجائزة من المغلوب أم من غيره وسواء كان اللعب بالآلات المعدة للقمار والمعروفة باسم القمار أم كان اللعب بغيرها كالكرة ونحوها، كل ذلك حرام بنص الكتاب وتواتر السنة حتى صارت حرمته من الواضحات وقد صح عن رسول الله (ﷺ) نهيه عن اللعب بالشطرنج والنرد وهما اللعبتان المشهورتان من زمانه إلى زماننا وقد وردتا إلى جزيرة العرب من خارجها، وفي بعض الروايات (دعوا المجوسية لأهلها، لعنها الله) (اياكم وهاتين اللعبتين المشؤومتين فانهما من ميسر العجم) النرد والشطرنج من الميسر، وورد في عدة من الروايات تفسير قوله سبحانه (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)الحج: 30 بقوله (الرجس من الأوثان: الشطرنج، وقول الزور: الغناء) وهذا من تفسير اللفظ العام بالمورد الخاص لأهميته ومن تطبيق العنوان الساري إلى عدة أفراد على الفرد الجلي الظاهر عناية به،وقد سئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن الشطرنج وبعض لعب القمار آنذاك فأجاب سائله بقوله مخاطباً إياه: (أرأيتك إذا ميز الله الحق والباطل مع أيهما تكون؟ أي هذه الألعاب تكون يومئذ ممتازة مع الحق أم مع الباطل؟فأجاب السائل: مع الباطل، قال (عليه السلام): فلا خير فيه، وورد في عدة من الروايات المنع عن مجالسة الياسرين المتقامرين بلعبة وآلاته معللاً بأنها مجالس لا ينظر الله إلى أهلها لأنهم باءوا بسخط من الله وغضب عليهم وحقت عليهم اللعنة والعذاب الأليم، وتضمنت بعض الروايات تحريم بيع آلات القمار وأدواته وألاعيبه وجعلت ثمنه سحتاً وأكله حراماً،

كما تضمنت بعضها الآخر ان البيت المشتمل على آلات القمار من شطرنج ونرد ونحوهما لا تدخله الملائكة ولا تجاب دعوات أهله وترفع عنهم البركات وتحل عليهم اللعنات، وورد في بعض الروايات المنع من السلام على اللاهي واللاعب بآلات القمار، وورد في عدة من الروايات جعل الميسر واللعب بالقمار والشطرنج والنرد من المعاصي الكبيرة التي يستحق فاعلها عليها النار وغضب الجبار .

9- بعد كل هذا وذاك وبعد نصوص الكتاب وتواتر الروايات في هاتين الخصلتين المذمومتين بهدف تنزيه مجتمع الإيمان ولغرض تجنيب عباد الرحمن بأساليب من البيان متعددة وطروحات متكثرة حتى صار تحريم الخمر والقمار من واضحات شرع الله بل أوضح من الشمس في وضح النهار، وبعد هذا وذاك يخرج علينا في هذا الزمان بعض الشباب المثقف من أبناء الإسلام منكراً تحريم القرآن للخمر والقمار ومشككاً في تصريح الفرقان بالمنع والحظر ولزوم الاجتناب والترك، وكأنهم استقوا شبهتهم من بعض المسلمين الأوائل واستمدوا إشكالهم من تردد أولئك النفر السوابق حينما لم تنفعهم المواعظ القرآنية الأول بصدد الخمرة والميسر فاستمروا على تناول الخمرة وارتكاب الميسر وقالوا بعد نزول آية البقرة (واثمهما أكبر من نفعهما) انه ما حرم علينا الخمر والميسر، وانما قال: (فيهما أثم كبير) وهذا التشكيك ناشيء من شدة شغفهم بالميسر وقوة تعلقهم بالخمر والمسكر، وهي (شبهة في مقابل بديهة) واضحة وزلة ناشئة من جهل أو خطيئة فاضحة، وكأن التحريم ينحصر بيانه بلفظ التحريم أو مشتقاتها ولا توجد آية في القرآن مصرحة بمثل (حرمت عليكم الخمرة والميسر) حتى تكون الآية صريحة الدلالة على التحريم واستحقاق العقوبة ولكن جهل هؤلاء أو غفلوا عن أقصى درجات البلاغة في تعبيرات القرآن ونزوله بلسان عربي فصيح وبيان معجز بليغ تحدى بلغاء العرب آنذاك بفصاحته وبلاغته وكثرة استعاراته وكناياته، وكأنه غفل عن تأكيدات الفرقان وحسن تعبيراته المشددة على الخمر والمنفرة من القمار (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس) أي قذر مستقبح ونجس مستهجن (من عمل الشيطان) ليس من عمل الرحمن ولا فيه مضراته (فاجتنبوه)

أي اجعلوه جانباً عنكم بعيداً منكم (لعلكم تفلحون) بترك هذه الأمور التي يرجى فيها صلاحكم وفلاحكم ونجاحكم عند الله، ثم يعلل الله حكمه ويبين بعض حكمته (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ) ثم يتحدى مرتكبي الخمرة والمسكر ويوبخ ممارسي القمار والمسير (فهل أنتم منتهون) ثم يؤكد نصحه ويكرر تحذيره ويعود إلى تهديده (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) من غضب الله وسخطه ومن جزاءه وعقابه (فان توليتم) واقترفتم هذه الممنوعات ولم تعتنوا بهذه التحذيرات (فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين) وعليكم الضرر والإثم والحساب وعلى رؤوسكم ينزل الغضب والسخط والعقاب، قال إمام البلاغة الزمخشري: (قوله تعالى: فهل أنتم منتهون) (من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما في الخمر والميسر من المضار الصارفة عن استعمالهما والمانعة من ممارستهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟ وواعجبي اذا كان صاحب الشبهة والاشكال مثقفاً عارفاً بقواعد اللغة العربية كيف غفل عن صراحة تحريم الميسر والقمار في آية (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ) المائدة:3، وتحريم الاستقسام بالأزلام واضح الاستفادة من الآية، والاستسقام بالأزلام هو الميسر المتعارف المتداول عند عرب الجاهلية وهو يعني الضرب بالقداح والاجالة للسهام لتشخيص من له سهم وحظ ونصيب ممن ليس له سهم ونصيب، والأزلام جمع زلم وهي قطع خشبية أو معدنية أو حصى بيض يستقسم بها ويضرب بها لاخراج الفائز بالنصيب، وهو حرام (ذلكم فسق) وخروج عن طاعة الرحمن، وأخيراً وبعد تعدد آيات المنع عن الخمرة (فيهما اثم كبير) البقرة: 219، (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) النساء: 43، (انما الخمر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) المائدة: 90، وبعد تعدد آيات المنع عن الميسر: (فيهما إثم كبير) البقرة: 219، (وان تستسقوا بالأزلام) المائدة:3، (انما الخمر والميسر..رجس) المائدة: 90، (فاجتنبوا

الرجس من الأوثان)الحج: 30، وبعد تواتر الروايات الشريفة في مبغوضية الخمر والقمار وتحذير العباد منهما وإبعادهم عنها بعدة طرق ووسائل، ذلكم الحق وشرع الله (فماذا بعد الحق إلا الضلال) يونس:32 .

10- هذه الآية الشريفة في سورة البقرة واخواتها المحرمة للخمرة تفيد حرمة كل خمرة مصنوعة للشرب والاسكار وينبغي أن يعلم حرمة كل مائع مسكر وان لم يسم بالخمر كالنبيذ الذي يسكر كثيره فقليله حرام أيضاً حسبما دلت الروايات الكثيرة (كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام) (وما كان عاقبته عاقبة الخمر فهو خمر) أي منزل بمنزلته ومحكوم بحكمه، ومن المؤسف أن يستبيح بعض الشباب المسلم من مثقفي العصر بعض أنواع المسكر ويسمونها بأسماء مغايرة لإسم الخمر تمويهاً وايقاعاً لبعض الجهلاء من ضعفاء العقول وقاصري الإدراك في الخطأ والأثم والحرام، بل سمعنا عن بعض بلدان المسلمين استحلال بعض الأنبذة المسكرة وتسميتها بالخمرة الإسلامية وحاشا الإسلام بل جميع الديانات السماوية التمام أن يحلل شرب مسكر من المسكرات بعد تصريح سفير الله ورسوله إلى خلقه مكرراً وإعلانه مؤكداً (كل مسكر خمر وكل خمر حرام) (ما أ سكر كثيره فقليله حرام) .

ويلحق بالخمور في الحرمة السموم المخدرة التي يتناولها بعض الناس في زماننا وتسمى المورفين والهيروئين والكوكائين وغيرها من الأسماء، وهي أضر من الخمور وأسوأ أثراً منها وتفوق عليها في إفساد الأفراد والمجتمعات وفي تعويدها على الكسل والبطالة والاغراق في المحرمات وفي الصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

11- هذه الآية الشريفة في سورة البقرة واخواتها المحرمات للميسر تفيد وتدل –حسب اطلاقها وارسال لفظها- على حرمة التقامر والتغالب بجميع الأدوات والآلات المعدة عرفاً للتقامر والتغالب سواء كان هناك خطر للفائز وعوض للغالب أم لم يكن ثمة خطر وجائزة وعوض، حيث لم تتقيد الآيات بقيد العوض والرهن، وتتوفر جميع الحكم والتعليلات على اللعب بآلات القمار من دون عوض ورهان فانه يصد عن ذكر الله ويلهي

عن اقامة الصلاة ويوقع العدالة والبغضاء بين المتقامرين ويزرع النفورة والشحناء بين اللاعبين ويثير الحقد والكراهية في النفوس بين المتغالبين ومختصر الكلام: كل قمار هو ميسر بنص الأخبار والسنة المفسرة للقرآن، وكل ميسر حرام بنص القرآن والسنة على الاجتماع، فيحرم مطلق التقامر سواء مع العوض ومن دونه، نعم استثنى الشرع المقدس من التقامر الحرام: التغالب -مع الرهن والعوض ومن دونه- بالرماية والسباق بالخيل المتسابقة لمصلحة أعظم من اثم القمار واحتياطاً لحالات طارئة أكبر اثماً من اثم التياسر والتقامر وهي حفظ بيضة الإسلام لو دهمه العدو الكافر فيكون لأبناء الإسلام التدريب والتمرين على الرمي والسبق والقدرة والقابلية على الدفاع عن الوطن والشرف والعرض، وقد اعتنى الفقه الشريف ببيان أحكام السبق والرماية في باب مستقل مستوعب لأحكامه وتشريعاته .

ثم إن أوراق (اليانصيب) المتداولة في زماننا هي نوع من (الميسر) وداخلة في حكمه ومشمولة لمنعه وحظره، بل هي عين (الأزلام) المتعارفة قبل بزوغ فجر الإسلام –وقد حرم الله الاستقسام بها في آي الكتاب- وهو عبارة عن أوراق مطبوعة ذات هيئة خاصة وأرقام معينة تباع بأثمان محددة من قبل شركة خاصة أو جهة عامة ويعين للفائزين فيها مقدار من أموال مجتمعة من بيع أوراقه بعنوان (الجائزة) الأولى والثانية والثالثة وهكذا ثم في وقت معين وميعاد محدد تستحصل الأرقام الفائزة بالجوائز عن طريق القرعة –نظير اجالة الحصى في الخريطة وتحريك القطع الخشبية في الربابة، وقد شرحناها حسب طريقة القداح في الجاهلية- وقد يقال: إن (اليانصيب) لا يبدو منه ضرر العداوة والبغضاء بين المستقسمين – كما يظهر في الاستسقام بأزلام الجزور وقد تقدم شرحه- فتنتفي فيه حكمة التحريم وتتخلف عنه علة الحظر والتأثيم.

والذي يبدو لي: أن الميسر – في أصل وضعه لمعناه اللغوي- مشتق من الميسر وهو السهولة، وهذا العنوان عام شامل ينطبق على القمار ويصدق فيه ويزيد في المعنى عليه وهو أوسع دائرة منه وأشمل إطاراً منه حيث ينطبق (الميسر) على الأزلام التي كانوا في الجاهلية يستقسمون بها كما

ينطبق على شبيهه (الازلام) أعني اليانصيب الذي يستقسمون به في عصرنا ويطلبون بالقرعة قسم الفائز ونصيبه بسهولة ويسر ومن دون عوض أو كسب أو جهد- وحينئذ تشمله آية تحريم الميسر وحظر الأزلام التي يستسقم بها، ثم ان تخلف حكمة التحريم لا يمنع من ثبوت باقي الحكم والتعليلات كما لا يدفع باقي المضار والاثام القائمة في الميسر والاستسقام بالأزلام، والنص الحاظر والدليل المانع يعم هذا وذاك ويشمل الأزلام والأوراق من دون اختصاص ولا استثناء بل العموم والاطلاق في آية تحريم الأزلام خال من العلة وعارٍ عن بيان الحكمة وممنوع عنها على الاطلاق الساري إلى جميع الأنواع والأفراد (حرمت عليكم الميتة والدم ... وأن تستسقموا بالأزلام ذلكم فسق) المائدة:3، ثم بعد ذلك إن أخذ جائزة (اليانصيب) كسب بلا سبب وأكل مال بالباطل من دون حق أو جهد أو عمل وهو خالٍ عن النفع والفائدة، نعم قد استثنى بعض الفقهاء بعض أنواع (اليانصيب) وهي المصنوعة لمصالح العامة والمنشأة للمنافع والخيرات العمومية نظير الأنواع المنشأة لبناء المدارس المنشأة لمحو الأمية أو تعليم الجهلة أوإنشاء الجسور والمعابر العامة أو المستشفيات والمصحات أو لإغاثة الفقراء الملهوفين واكساء العراة البائسين وانقاذ المنكوبين أو نحو ذلك من المصالح والخيرات اذا حصل الوثوق والاطمئنان بنزاهة القائمين على جمع الأموال وصرفها في مثل هذه المصالح العامة والخيرات، فأجازوا –في فتواهم - شراء (اليانصيب) الخيري وبيعه والاشتراك فيه من دون قصد الحصول على الربح والجائزة بل كان بقصد الاشتراك في الخير والفائدة رغبةً في عموم النفع للأمة الصالحة .

12- قال سبحانه (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) المائدة: 90، والمراد من الأنصاب: الأصنام والحجارة التي كان المشركون في الجاهلية وبدو الإسلام يذبحون قرابينهم عندها تزلفاً لها وتقرباً من حضرتها واحتراماً لكيانها وتبركاً بوجودها، نظير ما يصنعه المسلمون بعد بزوغ ضوء الإسلام عند ذبح قرابينهم أو حيواناتهم باتجاه الكعبة امتثالاً لأمر الله سبحانه، والفرق بين

الإثنين ان الأول شرك وكفر وسخافة والثاني ايمان وطاعة ونزاهة .

والمراد من الأزلام: القداح التي كان المشركون قبل الإسلام يستقسمون بها، والقداح قطع رقيقة صغار من الحصى أو الخشب أو المعدن بهيئة السهام يتفاءل بها في الأمور المهمة ويتطير بها في الحاجات الهامة كالخروج إلى سفر أو غزو أو زواج أو بيع فيكتبون على زلم (أمرني ربي) واذا خرج هذا عند الاجالة مضى لقصده ومشى في مراده، ويكتبون على زلم ثان (نهاني ربي) واذا خرج هذا امتنع عن قصده وهجر مراده، ويتركون الزلم الثالث من دون كتابة شيء عليه واذا خرج أعادوا الاستقسام. وهذه العملية كانت متداولة في عصور الجاهلية العمياء يمارسها الكهنة للجهال والبسطاء في مهماتهم يستنطقون لهم الأحجار ويستفهمون بها من آلهتهم الباطلة ومعبوداتهم التافهة لتختار لهم الفعل أو الترك (الأمر أو النهي) ولكي تفرز حظهم ونصيبهم من الخير أو الشر، ولما بزغ فجر الإسلام وأشرق ضوء القرآن حرم عليهم الاستقسام بالأزلام والاستفهام من الأحجار (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ .. وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ) المائدة: 3، أي حرم عليكم أن تطلبوا على ما قسم لكم بطريقة الأزلام ووسيلة الأحجار المتداولة في تلكم الازمان فانه شرك بالرب الرحمن ووسيلة للعلم بالغيب الذي اختص به الرب المنان وهو تعظيم للأصنام وركون إلى الأخشاب والأحجار ورجوع إلى الباطل والالحاد وهو –بعد هذا وذاك- نوع من الخرافة واعتماد الأوهام التي ليس لها أساس ولا يدعمها دليل ولا برهان. ومن المؤسف جداً أن ينزلق في زماننا بعض الناس في نظير هذه الخرافات والأوهام يستخدمهم اللئام المحتالون في تمويه الحقائق واستدرار الأموال باسم (الاستخارة) والتفأل حتى تفنن بعض هؤلاء المحتالين في الدجل والاحتيال وتجاوزوا الحد المعقول من (إفعل) أو (لا تفعل) فأخذوا يستنطقون لهم الجان لإستلهام (المعلومات) والخصوصيات وحاولوا أن يتعرفوا إلى بعض الأرواح الغائبة لاستئصال بعض النصائح والارشادت وفيها الصدق والكذب والحق والباطل فخدعوا ضعاف العقول وأقوياء الواهمة بصدق بعض أخبارهم وحقية بعض كلماتهم وحسبوا كلامهم بأجمعه حقاً

وأخبارهم بتمامها صدقاً، ثم الأدهى والأسوأ أن يصبغوا هؤلاء الدجالين عملهم بصبغة الحق والصدق ويزينوا أقوالهم بصفة الدين الحق ويتفاءلوا بصفحة من القرآن وآية من الفرقان أو يفتنوا ويخدعوا بمسحة من اسم الله أو ذكره أو دعائه أولمعة من (زجاجة) أو (فنجان) فيستدروا بحيلهم وخدعهم الأموال السحت الكثيرة والمنافع الحرام العديدة .

نعم شرع الإسلام يوافق على أمرين ويستحسن طريقتين:-

الأول- التفأل الحسن، وقد كان رسول الله (ص) يعجبه الفأل الحسن كما ورد في الرواية ، والفأل ضد الطيرة التي منع عنها الشرع الشريف وأبطل تأثيرها الدين الحنيف واستبدلها بالتوكل والتصدق المبارك اللطيف وقد كان العرب الأوائل يتشأمون من الطيور اذا ذهبت يميناً أو شمالاً أو نعقت الغراب أو صاتت العقاب حتى صار عندهم (زجر الطير) صناعة وعلم ومعرفة يرجع بها إلى عارفيها أو مبتدعيها وهي خرافة بلا أساس وقد أبطلها الإسلام ومنع من تأثيرها على عقول الأنام واستبدلها بالتوكل على الله والتصدق على الفقير لله دفعاً لشر محتمل وسوء متوقع، وفي المقابل حث الإسلام على التفاءل الحسن والاستبشار من الكلمة الطيبة والفعلة الجميلة اذا أقبل على حاجة أو أقدم على مهمة لينشرح بذلك صدره وتنشط به روحه وينعكس على جسمه ويظهر في حركته واهتمامه وسعيه .

الثاني- الاستخارة الحقة بسبحة أو قرآن عند التردد والحيرة والاضطراب لحاجة مهمة أو فعلة هامة استلهاماً من العليم المتعال وركوناً إلى المحيط المفضال –سبحانه- ليختار له تقديره الأصلح ويعين له تصرفه الأجدر في حاجته ومهمته التي حار في صلاحها واضطرب من تردد أمرها وغموض حالها ومالها، وقد ورد في روايات كثيرة الحث والتأكيد عليها (ما استخار الله عبد مؤمن الا خار له) أو (رماه الله بخير الأمرين) وقد وردت هذه المضامين وأمثالها في غالب جوامع الحديث عن رسول الله (ص) والأئمة من أهل بيته الكرام (ع) والصلحاء الأجلاء وصحابته العظام نكتفي بنقل واحدة مختارة: عن جابر بن عبد الله الأنصاري (رض): (كان رسول الله (ص) يعلمنا الاستخارة كما

يعلمنا سورة من القرآن يقول (ص): (اذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم ان كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وان كنت تعلم ان هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وأجله واصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم إرضني به) ثم يسمي حاجته ويتفأل بالقرآن أو بالسبحة، وثمة طريقة مخصوصة يختارها من طرق منصوصة، ثم يتوكل على الله وما يختاره له رب العباد ويكون راشداً مهدياً وموفقاً ومرضياً .

وينبغي أن تكون الاستخارة بقصد الاستشارة من الرب الحكيم وبعزم الاستخارة من المولى العليم، ثم الأخذ والعمل بما يختاره له المنان العظيم من فعل أو ترك فيمضي على وفقه بعزم ويقين وتوكل على الرب الرحيم، وهذه الاستخارة حق وصدق لا محذور فيها ولا شرك وهي تعمل لله وتفعل للغير بالمجان ويمكن أن يأتيه الإنسان بنفسه ولنفسه اذا شاء، وطريقتها معروفة وفي بعض الكتب مسطورة لا خرافة فيها ولا استغلال، بل هي توجه إلى الله واقبال وهي تضرع إلى المعبود واقرار وركون إلى العليم المحيط، ومن الله التوفيق وعليه الاعتماد .

١٣ - لشدة اهتمام الشاعر المقدس بابعاد مجتمع الإسلام عن هذه الآثام:- الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، ولعظيم عناية المشرع الأقدس بتجنيب مجتمع الإيمان عن دائرة هذه المفاسد وحدود هذه المضار وحفظ أفراده عن الولوج في آثارها وآثامها وأضرارها، صدرت تشريعات عديدة بعضها وقائية وبعضها علاجية تحوطاً على الأمة ووقاية للأفراد فقد أشرنا إلى بعض التشريعات الوقائية مثل تحريم استعماله حتى في حال العطش والاضطرار إلى الشرب والارتواء (المضطر لا يشرب الخمر لأنه لا يزيده إلا عطشا) بل حتى في حال التداوي والاستشفاء (ان الله عز وجل لم يجعل في شئ مما حرم دواء ولا شفاء) (لا يتداوى بالخمر ولا بالمسكر) (ومن اكتحل بميل من مسكر تداوياً – لا بقصد التلذذ والأنس- كحله الله بميل من

نار)، ونظير تحريم الاعانة على صنعه وايجاده ولو من بعيد فقد لعن رسول الله (ص) عشرة: أولهم شاربها ثم غارسها وحارسها وعاصرها وساقيها وحاملها والمحمولة اليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها، ونظير تحريم الأكل أو الشرب أو الجلوس على مائدة تحتوي في مفرداتها الخمر أو المسكر أو القمار (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأكل على مائدة يشرب عليها الخمر) وقد لعن الآكل والشارب من تلك المائدة وإن لم يشرب منها المسكر أو الخمر، ولذا يجب القيام عن ذاك المجلس كما يجب الهجران لنظيره من المجالس التي يعصى الله فيها كمجلس لعب القمار ومجلس الزنا ونحوها لأنها مجالس في معرض نزول العقاب والعذاب وعروض الغضب وسخط الجبار، فما لم يكن مضطراً إلى الجلوس في مجلس الإثم والعصيان لا يجوز المكث فيه والبقاء عنده، نعم من اضطر إلى الجلوس أو البقاء في مجلس العصيان أو كانت له قدرة يتمكن بها التأثير على الشارب أو العاصي في التقريب إلى الطاعة والابتعاد عن المعصية فيجوز له الجلوس أو يجب لغرض المنع عن المنكر والنهي عن المعصية ويؤجر على جهده وسعيه وجلوسه ولا يضيع عند الله عمل عامل وارشاد مرشد حتى لو لم يصل في الآخرة إلى مأموله ولم يدرك مطلوبه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً)

1- هذه الآية الثالثة بعد المائة من آيات سورة النساء، وهي سورة مدنية طويلة وقد تضمنت كثيراً من فرائض القرآن وواجبات

الإيمان وأحكام الإسلام مما يرتبط بالأحوال الشخصية الفردية أو القوانين الاجتماعية العمومية، وهذه الجملة الشريفة قطعة من آية شريفة وقعت ضمن تلكم الآيات التي عنيت بتفصيل أحكام الله وقد تعقبت آيات الجهاد واحكام المجاهدين المحاربين في سبيل الله وصلاتهم، وهي تتولى بيان ضرورة المحافظة على إقامة الصلاة وادائها في الوقت المحدود والزمن المشروع رغم حالة الخوف والحذر التي يعيشها المجاهد والمحارب، ثم عللت ذلك (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً) .

2- (كتاباً) مصدر (كتب يكتب) يراد منه معناه الكنائي ومدلوله الالتزامي وهو الحكم والقضاء والفرض والالزام .

(موقوتاً) : يراد منه ان الحكم المفروض والقضاء المحتوم محدود لوقت معين وزمن محدد لا يجوز تغييره أو تبديله، بل تؤدى الصلاة المفروضة والعبادة المحتومة في أوقاتها لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها .

3- هذه الآية الشريفة –ونظائرها كثير- تعدّ أصلاً عظيماً في تثبيت فريضة الصلاة وتأكيد شرعها وتوكيد حكمها وتركيز عموديتها وركنيتها للاسلام في نفوس المؤمنين وقلوب المسلمين، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً ثابتاً مفروضاً وحكماً واجباً محتوماً وقضاء مؤكداً موجوداً لا يجوز تركها في حال أو تأخيرها عن وقت أو الاعتذار عنها في ظروف سواء في حال الأمن أو الخوف وسواء في حالة الصحة أو المرض أو سواء في حالة السفر أو الحضر أو الكبر أو الحرق أو الغرق.

هذه الآية الشريفة ونظائرها مدعومة ببيانات السنة المطهرة واستمرارية النفوس المسلمة المطهرة على اقامتها واداءها أوجبت أن يصير فرض الصلاة على العباد من الواضحات والضرورات والبديهيات لا تقبل نزاعاً ولا تسمح بخلاف، ولذا لا نحتاج إلى مزيد بيان أو برهان وقد صار فعل الصلاة هوية المسلم الشخصية وبطاقته الايمانية في شرق الأرض وغربها وطولها وعرضها.. وهذه الصلاة المفروضة على العباد هي الوسيلة العظمى نحو القرب والاقتراب من رب العباد وهي الذخيرة الكبرى التي يدخرها الإنسان ليوم المعاد : يوم العرض الأكبر واللقاء الأعظم، واذا تفكر العاقل المسلم جيداً في هذه الذخيرة العظيمة والوسيلة الكبيرة إندفع –لا محالة- إلى الحفاظ

عليها والادامة لها والقيام بها بل إلى تحسينها وتجميلها وتصحيحها وتكميلها لاسيما اذا علم ان صلاته اذا ضيعها أو قصر فيها ولم يأت بها تامة كاملة من حيث الأجزاء أو الشرائط كانت خصمه اللدود يوم العرض الأكبر، أو اذا تذكر ماروته بعض أزواج النبي (ص): كان رسول الله يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله وانصرافاً عما سواه، أو تذكر ما روي عن أهل بيته الكرام من تغير ألوانهم عند حضور وقت الصلاة وتهيؤ جوارحهم للقاء الله وأداء أمانته التي عرضها على السماوات والجبال والأرضين فأبين حملها وأشفقن منها، ومن الله التوفيق للمواظبة على الصلاة الصحيحة التامة –على الأقل- بحيث لا يفوت منها شرط ولا ينقصها جزء ولا يجامعها إخلال مفسد لها أو حاجب مانع عن قبولها .

4- أشارت الآية الكريمة إلى أن الصلاة مكتوبة على المؤمنين لا يجوز تضييعها وموقتة بأوقات لا يجوز تغييرها، قال سبحانه (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)الاسراء: 78، وقد أشارت إلى اوقات ثلاثة للصلاة هي دلوك الشمس أي زوالها عند الظهر وغسق الليل أي ابتداء الليل وانتشار الظلام بعد سقوط قرص الشمس والفجر أي بزوغه وشروق الضياء، وقد اختلف فقهاء الإسلام في بعض خصوصيات الأوقات نوكل البحث فيها إلى علم الفقه الشريف.. لكن ينبغي أن يعلم أن توقيت الصلاة فيه حكمة جليلة وأسرار عظيمة إذ أن تشريع التوقيت في فريضة الصلاة فيه مصلحة التدريب النفسي على الالتزام بالصلاة في أوقاتها وفق نظام موقت واعتياد مطرد وهو يوجب ترسيخ فوائد الصلاة ومنافعها المعنوية في النفس ويقتضي تمركز آثارها الروحية في القلب بغية تكامل المؤمنين في علاقتهم الروحية والمعنوية مع معبودهم وبغية تحصين المصلين من الشبهات الإيمانية والزلازل الشيطانية في أوقات متواصلة ودفعات متصلة فان الصلاة في ذاتها تربية روحية عملية يومية في أوقات متعددة وأزمان مختلفة فيكون لها الأثر الكبير في تواصل التزكية والتطهير للنفس والعقل والروح ولها المفعول الكبير في تذكرة المصلين ببارئهم ومعبودهم وفي تواصل الحؤول والبعد عن عصيانه وسخطه وفي استمرار التنبه إلى حضور ربهم واحاطة

بارئهم وفي التمرن على النظام والرتابة في الوقت والعمل، وفي غير ذلك مما لا تصل اليه الأذهان ولا تدركه العقول ولا يكشفه البيان، فينبغي المحافظة على الصلاة في أوقاتها لنلقى الله يوم القيامة ولنا عهد عنده وصك لديه بالحفاظ على الصلاة في أوقاتها لنفوز بالجنة وننعم بالمغفرة كما وعد رب الرحمة ونفوز بالشفاعة كما وعد رسول الأمة، بل ينبغي التهيؤ والاستعداد قبل حضور وقت الصلاة ومجئ ميقات العبادة كي يؤديها في أول وقتها وأفضل مواقيتها تأسياً برسول الله (ص) وأهل بيته الكرام (ع) والصلحاء الأتقياء من أصحابه وتابعيه إلى يوم المعاد وتأثراً بقول حبيب الله (ص): (ما من صلاة يحضر وقتها إلا نادى ملك بين يدي الله: أيها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فاطفؤها بصلاتكم) واذا دخل وقت الصلاة فتحت أبواب السماء لتصعد الأعمال وتطفأ النيران عن أهل المعاصي والآثام بفعل أقوى المضادات وأفضل القربات إذ لا يوجد -بعد معرفة الله- عمل أفضل من الصلوات، والعاقل اللبيب يستغل الفرصة ويأخذ الحيطة قبل فوات المهلة ويبادر إلى التوبة والصلاة بالعجلة ما لم يكن هناك عذر أو حاجة مهمة لينتفع المصلي من فرض صلاته ومن تبكيرها في أول وقتها ويحوز الفضيلتين ويدرك المنقبتين وقد وردت الروايات العديدة في التأكيد على أداء الصلاة في أوائل وقتها ومبادئ ميقاتها، واذا كان للمؤمن عذر عن ذلك حاول اداءها في وسط وقتها ولا يؤخرها إلى منتهى ميقاتها، وذلك لأن الصلاة مظهر العبودية بل أجلى مظاهرها وهي رباط الربوبية بل أقوى الارتباطات وهي تعبير الوحدانية بل أوضح التعبيرات وهي إقرار بالربوبية وخلع الأنداد وقيام بين يدي الجبار بالذل والمسكنة والخضوع والاعتراف وطلب الإقالة من سالف الذنب والاثام.

قال بعض العلماء المتقين ناصحاً اخوانه المؤمنين: (استحضر عند دخول الوقت انه ميقات جعله الله تعالى لك لتقوم فيه بخدمته وتتأهل للمثول في حضرته والفوز بطاعته، وليظهر على قلبك السرور وعلى وجهك البهجة والحبور عند دخوله لكونه سبباً لقربك ووسيلة إلى فوزك، فاستعد له بالطهارة والنظافة ولبس الثياب الصالحة للمناجاة والعبادة كما تتـأهب عند الورود على ملك من ملوك الدنيا فتلقاه بوقار

وسكينة وخوف ورجاء، فينبغي استحضار عظمة الله وجلاله ونقصان قدرك ودوام احتياجك، وتذكر مبادرة رسول الله وأهل بيته الأطهار إلى الصلاة عند دخول وقتها وكيفية تغير ألوانهم وارتعاد فرائصهم من هيبة لقاء الله ومناجاته في صلاتهم وعباداتهم).

5- واعلم ان روح الصلاة ولب العبادة هي النية والقصد، وهو يعني عزم القلب على فعل الصلاة وتوجه القصد إلى اتيانها تقرباً لله عز وجل واقتراباً من ميدان رضوانه وتزلفاً إلى ساحة قدسه، ويكفي في تحقق النية: الانبعاث القلبي نحو الصلاة: بداعي القرب إلى الله سبحانه، والانطلاق الروحي نحو فعلها بداعي امتثال أمر الرحمن، بحيث لو سئل ما تريد أن تفعل؟ لأجاب: أريد الصلاة الكذائية وارغب في القرب من الله بفعلها، فلا يجب اخطار الصلاة في ذهنه ولا يلزم استحضارها في باله أو استحضار خصوصياتها في قلبه وفكره كما لا يلزمه تلقين نفسه أو نطق لسانه بأجزاء النية وألفاظها وان كان في ذلك جواز ورخصة ولا محذور فيه ولا منع لكنه لا يجب الالتزام به ويكفي دونه ويجزي الأقل منه لكفاية أقل اضافة ونسبة –أعني نسبة الصلاة واضافتها إلى الله سبحانه- بحيث تتحرك عضلاته وتندفع ذاته نحو الصلاة منطلقاً عن أمر الله سبحانه وكأنه يقول في باطنه (أمر الله بالصلاة فأصلي امتثالاً لأمره)، والنية هي هذا القصد الباطني وذاك الاندفاع الذاتي المنبثق عن أمر الله تعالى والمرتبط بالقرب اليه فهي أمر قلبي بسيط وفعل جوانحي يسير بل قد يقال: لا يمكن صدور فعل عن انسان عاقل من دون قصد ونية ومن هنا قال السيد الجليل ابن طاووس (رض): (لو كلفنا الله تعالى عملاً بغير نية كانت تكليفاً بما لا يطاق وهو محال)، وذلك لأن كل عاقل يشعر بتصرفه وعمله اذا سئل ماذا تعمل؟ أو ماذا تريد أن تعمل؟ لأجاب: أعمل كذا، أو أريد فعل كذا، وهذا الارتكاز الباطني هو القصد والنية المطلوبة في العبادات –ومنها الصلاة- وهو لب العبادة وجوهرها عند إضافتها إلى الله متقرباً اليه بامتثال أمره .

ويتعين على المصلي اخلاص عمله لله بمعنى خلوص صلاته عن شائبة الرياء وطلب السمعة ومفسدة العجب فان الرياء في العمل –صلاة أو غيرها- شرك بالله العظيم يفسد

الصلاة ويبطل العبادة ويجعلها هباءً منثوراً، سواء حصل الرياء في ابتداء الصلاة أو في أثناءها وسواء حصل في تمام الصلاة أم في بعض أجزائها أو أركانها.

ومعنى الرياء: أن يأتي بالصلاة بقصد أن يراه بعض مخلوقات الله ممن يهمه أمره أو يحب أن يعرفه مصلياً ومتعبداً، وهكذا طلب السمعة والجاه والاعتبار وقصد الاحترام من صلاته أو عبادته يكون شركاً بالله العظيم فانه يعني كون إتيانه صلاته بداعي امتثال أمر الله وبداعي حصول السمعة والاحترام لدى مخلوق من مخلوقات الله والعياذ بالله، وهكذا العجب فانه رذيلة ومنقصة لصاحبه تبطل صلاته وتفسد عبادته، وهو يعني تعجب المرء من صلاته أو عبادته فيستعظم عبادته وعمله ويستكثر تعبده وصلاته ويستكبر عمله وخيره.

وينبغي أن يعلم أن الرياء والعجب في العبادات على الاطلاق حجاب كبير بين العبد وبين ربه وهما مانع عظيم عن قبول عبادته عند بارئه، ولو تفكر العاقل ساعة في جلال الله سبحانه وجبروته وتأمل عظمته وقدرته وتعرف إلى فضله وخيره وفيضه للقدرة في عضلات عبده ثم تبصر مهانة نفسه وضعفها وعجزها لولا مدد الله وعنايته وفيضه القدرة البدنية عليه وتوفيقه للتعبد بما أقدره الله من أعضاء وحواس وعقل واعتقاد، لو حصل من عاقل مثل هذه التفكرات لابتعد عن هاتين الرذيلتين وأخلص صلاته وعبادته لرب العالمين فلم يقرن بعبادته الرياء ولا حسب لها أي حساب والله مفيض الوجود عليه والاقتدار وهو المستحق للعبادة والاقتراب، وكل ما يصنعه من الأعمال هو صغير جنب كبريائه ولا شيء جنب عطياته وفيوضاته، ولا يحب أن يحمد على صلاته أو عبادته ولا يرغب في طلب السمعة والجاه بأعماله وقد تعهد الأطياب الأطهار أولياء الرحمن بدخول الجنة لمن صلى ركعتين يريد بهما وجه الله خالصة من الشرك والرياء وطلب السمعة والاعتبار كما ورد في الأخبار، لكن لو أبقى المصلي رذيلة الرياء أو طلب السمعة أو العجب في صلاته بطلت صلاته وكان من الأخسرين أعمالاً وممن ضل سعيه في الحياة الدنيا ولعله يحسب انه يصنع حسناً أو يعمل جميلاً والحال انه اساء عملاً .

6- قال سبحانه (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) البقرة:150، وقد وقعت هذه الآية الشريفة ضمن آيات تكفلت الأمر بالتوجه إلى الكعبة –البيت الحرام- عند اقامة الصلاة وهي خطاب لرسول الله (ص)- وهو المخاطب بآيات القرآن- وهو خطاب شامل لأتباعه المؤمنين وانصاره المسلمين ويوجب التوجه شطر المسجد الحرام- أي بعضه وهو بنية الكعبة المشرفة- ومن حيث خرجت وأردت الصلاة فولّ وجهك شظر المسجد الحرام وفي أي بقعة حللت وعزمت على الصلاة فاستقبل بمقاديم بدنك ناحية البيت الحرام- وهذا خطاب للحبيب المصطفى، ثم وجه الخطاب الى أتباعه وأمته- وحيث ما كنتم مستقرين فتوجهوا بأبدانكم نحو البيت الحرام. هذه الآية الشريفة ونظيراتها مستند حكم الفقهاء بوجوب توجه المؤمن حال صلاته باتجاه الكعبة، وهي مصدر سيرة كل متشرع على استقبال الكعبة حال صلاته وقربانه وحال طوافه وذبح حيواناته سواء كان في شرق الأرض أو في غربها، في سهلها أو في جبلها، في برها أو في بحرها، فالاستقبال شريعة عامة وطريقة شاملة عند جميع المسلمين في صلواتهم وفي كثير من عباداتهم وأعمالهم كذبح الحيوانات أو نحرها لقربان أو استطعام ودفن الأموات وقرب الموت –حالة الاحتضار- وحال النوم وفي المجلس وحال القضاء بين الخصوم ونحو ذلك من الأعمال والمهمات، وفي هذا التعميم من التشريع سر وحكمه بل عدة أسرار ولا تصل أفهام البشر اليها ولعل منها أمرين:

الأول:- ان الجهات كلها لله سبحانه وهو محيط بجميع الاتجاهات، وجميع الجهات بالنسبة اليه والى احاطته على السواء (وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) البقرة: 115، لكن الله سبحانه (يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)البقرة:143، وقد اختار لنا جهة البيت الحرام وشطر المسجد الحرام لنستقبله بمقاديم أبداننا، والكعبة بيت لله شريف ورمز للرب اللطيف أراد سبحانه من هذا الاستقبال البدني والتوجه الظاهري: العبور بنا إلى التوجه القلبي نحوه والتفكر الباطني بعلوه وجلاله سبحانه وهذا هو

روح الاستقبال وذاك جسده، بل هذا هو روح الصلاة وروح كل عبادة ولباب كل قربة .

الثاني: ان ضبط الجوارح والأعضاء وتوجيهها نحو القبلة الفاردة والكعبة المشرفة المتحدة في جميع الصلوات والقربات ومن جميع المسلمين والمصلين وفي كل يوم وفي كل بقعة من بقاع الأرض قام عليها مسلم يصلي واستقر عليها مؤمن يتعبد، ان هذا التشريع العمومي تحت راية الإسلام والقرآن يكشف عن حكمة كبيرة ويستبطن فائدة كثيرة هي تذكرة المصلين وتنبيه للمتعبدين على توحيد القلب والموقف وهي تربية عملية ودربة جسدية على نبذ الفرقة وجمع الكلمة وتوحيد الحركة نحو الله الكبير المتعال الواجب الاتباع، وفق الهق المسلمين لتوحيد الله بتوحيد المواقف والقلوب باتجاهه .

7- واعلم ان الغرض الأقصى من تشريع الصلاة بل الهدف الأسمى من كل عبادة لا يتحقق على المصلي ولا يترتب أثره على المتعبد ما لم ينضم إلى الأفعال والحركات: الخضوع والخشوع وحضور القلب وتفرغه عن كل شئ سوى المعبود الذي تصلي له وصرف الذهن والفكر عن كل فكرة وأمر سوى التفكر في حقيقة صلاتك وعبادتك ومعاني حركاتك وأذكارك، وهذا يحصل بالاهتمام بالعبادة وبالاقبال على الصلاة وجمع الهمة والأفكار نحوها رجاء التفهم لحقيقة العبادة وبغية ادراك لب الصلاة والطاعة، قال الله سبحانه (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)الماعون: 4، 5، وقد ذم سبحانه المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون وغافلون غير مهتمين بها وغير مبالين بايقاعها صحيحة واتيانها تامة فأوجب عدم اهتمام المصلين بأمرها شرود الذهن عنها وعدم حضور القلب لديها وسهو النفس عن معانيها مع انهم فاعلون للصلاة محافظون على اقامتها ولذا سماهم المصلين لكنهم غافلون عن حقيقة صلاتهم، وقال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ)النساء: 43، وقد منع سبحانه عن اقتراب الصلاة حالة السكر لأن السكارى لا يعقلون ما يقولون ولا يتوجهون لما يتصرفون ولا يشعرون جيداً بحقيقة ما يصنعون، فتدل الآية الشريفة على عدم رغبة الشارع في مثل هذه الصلاة حتى تحصل عند المصلي حالة الشعور

التام بما يقول وما يفعل، وقال سبحانه (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) المؤمنون: 1، 2، وقد مدح سبحانه المؤمنين الخاشعين في صلاتهم، والخشوع في الصلاة والخضوع في العبادة ينقسم إلى قسمين:-

الأول: خشوع الجوارح وخضوع الأعضاء: وهو أن يتوجه المصلي بجوارحه وأعضائه إلى معبوده الذي يصلي له بأن يغض طرفه لله ويلقي بيديه على فخذيه فلا يلتفت ببصره يميناً وشمالاً ولا يحرك بيديه ولا يفرقع أصابعه ولا يعبث بلحيته أو شعره ولا يراوح بقدميه ولا يتحرك بغير حركات صلاته ولا تشتغل أعضاؤه بغير أفعال عبادته ليعين قلبه وباطنه على التفكير بربه والمناجاة مع معبوده بقلب واعٍ لما يفعل ويتعبد بروحٍ مقبلة على ما تأتي به وتصنع، وهذا القسم من الخضوع هو أضعف الخشوع وهو الوسيلة إلى أقواه والأهم منه وهو:-

الثاني: خشوع القلب وخضوع الباطن والروح: وهو أن يتفرغ المصلي لعبادته ويخلو المتعبد عن كل صنعة أو فكرة ويهجر كل حاجة وان كانت مهمة ويسعى لجمع فكره وتركيز ذهنه نحو معبوده وعبادته ونحو ربه وصلاته نظيرما قاله مولانا جعفر الصادق –كما روي في أصول الكافي- : (إنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة) فيطبق الخاشع في صلاته هذه المقولة ويعكسها على عبادته فتراه يزهد في الدنيا وشوؤنها ساعة صلاته ليفرغ قلبه لاصلاح آخرته باستحضار معاني صلاته وخصوصيات ذكره وعبادته ثم مهما شرد ذهنه عن صلاته أو سهى قلبه واشتغل بحسابات الدنيا ومهامها وزل عقله وفكره إلى حطام الدنيا وخصوصياتها حاول الرجوع بفكره والعودة بقلبه وعقله إلى ربه ومعبوده ونحو التفكر في ركوعه وسجوده وحقيقة قيامه وقعوده وبذلك يفوز بشرف لقاء الله ومناجاته وينجو عن ذل هجران الله وجفاءه الذي يخشى وقوعه فيه لو ترك قلبه شارداً في أفكاره وحساباته.

وينبغي أن يعلم ان التوجه إلى عظمة الله وجبروته والتفكر باحاطة الله ووسيع علمه وخبرته يعين على هذا الخشوع ويساعد على هذا الخضوع، كما ان التوجه إلى جلال الله وغناه عن عبادة خلقه والى عظيم نعمه وتقصير عبده اتجاهه يولد الخشوع ويوجد الخضوع فينبغي تهيئة الأسباب

والمقدمات ليتحقق من المصلي الخشوع والخضوع والاهتمام بالجوارح والأعضاء مقدمة لخشوع الجوانح والأرواح فتكون صلاته بتوجه وتذلل وتخضع وتخشع فيفوز بالقرب الحقيقي والاقتراب الواقعي، والا كانت صلاته جوفاء خالية من الروح عارية عن اللب أبعدنا الله عنها فقد أبصر النبي (ص) رجلاً يعبث بلحيته حال صلاته فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه).

وقد استفاضت الروايات الشريفة في بيان محبوبية الخشوع والتوجه بأفعال الصلاة واذكارها إلى الله وصرف الفكر عن أمور الدنيا وشؤونها وخصوصياتها إلى التفكر في عظمة المعبود وحقيقة العابد و(طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشتغل قلبه بما ترى عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره) (اذا قمت إلى الصلاة فاعلم انك بين يدي الله فان كنت لا تراه فاعلم انه يراك، فاقبل قبل صلاتك) (عليك بالاقبال على صلاتك فانما لك منها ما أقبلت عليه ولا تعبث فيها بيديك ولا برأسك ولا بلحيتك ولا تحدث نفسك... فان ذلك كله نقصان من الصلاة ولا تقم متكاسلاً ومتناعساً ولا متثاقلاً فانها من خلال النفاق) (اذا صليت صلاة فريضة فصلها لوقتها صلاة مودع يخاف أن لا يعود اليها ثم اصرف ببصرك إلى موضع سجودك فلو تعلم من على يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك واعلم انك بين يدي من يراك ولا تراه)، وقد ضرب رسول الله (ص) وأهل بيته الكرام وبعض أصحابه والتابعين لسنته المثل الفاضل والمصداق الناصح لهذا الأدب المحبوب والخلق المطلوب فكانوا اذا قاموا إلى الصلاة تغيرت ألوانهم وإصفرت وجوههم إستشعاراً لهيبة الله وجلاله وعظمه وانشغلت أفكارهم بمن قاموا بين يديه منصرفين عما سواه من المخلوقات واقبلوا بقلوبهم على ربهم ومعبودهم الذي يراهم ويرونه بعقولهم وقلوبهم وخضعت أبدانهم خشوعاً وكأنهم ساق شجرة لا يتحرك منه شئ إلا ما حركت الريح منه، وهذا أفضل درس تربوي عملي للمصلين نحو الاقبال على الله بالصلاة والعبادة ولنا في رسول الله أسوة حسنة وقدوة جميلة وقد قال لنا: (ركعتان خفيفتان في تفكر خير من قيام ليلة) وجاء في بعض وصاياه لبعض أصحابه (يا أبا ذر: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب لاه) أي وقلبه مشغول عن ربه

ومعبوده وفكره مصروف إلى حاجاته ومهماته ومن هنا أفتى الفقهاء باستحباب الخشوع والخضوع في الصلاة والاقبال عليها استحباباً مؤكداً، واعتنى المؤمنون المتقون بهذا الأدب المؤكد والخلق المستحب اعتناءً بالغاً واهتموا به اهتماماً عالياً فينبغي في المصلي أن لا يشرد ذهنه عن صلاته لمعبوده إلى امور دنياه جهد الامكان وأن يهتم بجمع فكره عند الملك الجبار ويعرض عما سواه وان يتخيل قدوم الموت فيصلي صلاة مودع للدنيا مقبل على لقاء الله فتقترن هذه الفكرة بصلاته وركوعه وسجوده وذكره ودعائه ليتفهم معنى عبادته وتحضر في قلبه أسرار صلاته ويقترن الخشوع والخضوع بأفعاله وتنعكس آثار ذلك على أعضائه فيغض طرفه ويلقي ببصره نحو الأرض موضع سجوده ولا يلتفت ولا يعبث بشيء جهد امكانه تبعاً لسنة رسول الله واقتداءً بطريقة أهل بيته الأتقياء والاتباع إلى يوم المعاد، فليست الصلاة قيام وقعود وحسب بل هي أيضاً تفكر وتأمل وهي انصراف عن الخلق وتوجه إلى الحق وخشوع بالقلب وخضوع بالبدن، وبهذا يفوز بالغفران وينعم بالفوائد والنعم والآثار (اذا قام العبد إلى صلاته وكان هواه وقلبه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه) ونختم بالمسك وهو قول الصادق (ع): (اذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله –تعالى- وعاين بسرك عظمة لله عز وجل واذكر وقوفك بين يديه) قال الله تعالى (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)يونس:30 .

8- ورد في بعض الأخبار الشريفة ان (للصلاة أربعة آلاف حد) والظاهر ان المقصود من الحد هنا هو الحكم الشرعي بلحاظ أن للصلاة مقدمات وأجزاء وشرائط وموانع عن صحتها أو قبولها ولها قواطع ولها أحكام متعلقة بتلكم الأجزاء والشرائط ومرتبطة بأنواع الصلوات وأحوال المصلين وخصوصياتهم وفيها الواجب والمندوب والمكروه والحرام، ولعل وجه تسميتها بالحد هو وجود خصوصية الحد فيه –أعني عدم جواز التعدي وعدم امكان التجاوز عن هذه الاحكام المشروعة للصلوات- فاستعيرت اللفظة هنا لهذا المعنى، وحينئذ ينبغي للمؤمن الصادق في ايمانه أن يتفقه حدود الصلاة بتمامها ويتعلم أحكامها بأجمعها

ويتعرف إلى أجزائها الواجبة وشرائطها اللازمة وموانعها وقواطعها ويتعرف إلى أحكام السفر والشك والسهو لكثرة الابتلاء بها وعموم الاحتياج اليها، وقد اعتنى الفقهاء (رض) ببيان أحكامها وخصوصياتها التامة الشاملة للمستحبات والمكروهات والسنن والآداب، وأفتوا بوجوب تعلم المسائل الواجبة التي يكثر الابتلاء بها أو يتوقع الاحتياج اليها بل أفتى بعض أعاظم الفقهاء –وهو الشيخ مرتضى الأنصاري- بفسق من ترك تعلمها، نعم ما يقل الحاجة اليه أو لا يتوقع الاحتياج اليه لا يجب تعلمه بل يستحب ويستحسن تعلمه مؤكداً بدرجة لا تبلغ حد الوجوب والالزام، كل ذلك الوجوب والاستحباب لغرض إحراز مطابقة صلاته مع الواقع المأمور به ولأجل التأكد من موافقة عبادته مع المطلوب منه لينال شرف الامتثال والاطاعة بصدق ويتوقى من خزي العصيان والمخالفة لأمر الله بحق ويتحرز من ذل الجهل ويتحلى بنور المعرفة لاسيما معرفة أعظم العبادات وأفضل القربات وقد قال الصادق (ع) لبعض الرواة (ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون سنة أو سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة)

وقال: (ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة عبدي أكنت عالماً؟ أي هل كنت عارفاً بأحكام دينك وحدود شرعك- فان قال: نعم. قال الله: أفلا عملت بما علمت؟، وان قال: كنت جاهلاً، قال له: أفلا تعلمت حتى تعمل؟ فيخصم، فتلك الحجة البالغة عليه).

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

1- هذه الآية الشريفة هي السادسة من آيات سورة المائدة، وهي من السور المدنية الطوال وتضمنت كثيراً من التفصيلات المرتبطة بأحكام الشرع المبين وحدود الدين المتين، وهي آخر سورة من السور الطوال النازلة على رسول الله وقد تضمنت التصريح باكمال الدين واتمام النعمة على كافة المؤمنين. هذه الآية الشريفة تكفلت ببيان الطهارات الثلاثة التي يفتتح بها الصلوات وبعض العبادات، وقد سبقتها في الكتاب العزيز نظيرتها في سورة النساء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)النساء:43، وهي تأمر بعدم قرب الصلاة حالة السكر أو حالة الجنابة كما تأمر بالتيمم عند وجود العذر عن الطهارة بالماء إلا أن آية سورة المائدة أجلى وأشمل في بيان حكم الطهارات وبعض الخصوصيات .

2- (إذا قمتم إلى الصلاة)

القيام في أصل معناه هو الانتصاب واقامة العود وازالة اعوجاج البدن وصيرورته قويماً منتصباً وقائمًا معتدلاً، ولكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون مراداً في هذه الآية الشريفة إذ لو أريد هذا المعنى كانت الآية تفيد تشريع الوضوء وايجابه عقيب الصلاة –لا قبلها- بقرينة الفاء (فاغسلوا) وتأخر الجزاء عن الشرط عادة في الجملة الشرطية حيث يصير المعنى: اذا انتصبتم لفعل الصلاة فاغسلوا وجوهكم.. والفاء تفيد الترتب والتأخر كما هو مفاد موقع الجزاء في ترتبه على الشرط وتأخره عنه، ولاريب في عدم ترتب الوضوء على الصلاة بل العكس هو الصحيح فلا يمكن ذاك المعنى ولا يصح ارادته، والظاهر كون التعبير المذكور كناية عن ارادة القيام للصلاة تهيؤاً واستعداداً لفعلها وأدائها نظير قوله سبحانه (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله..) النحل:98، أي: إذا أردت قراءة القرآن وعزمت على تلاوته فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا المعنى هو الذي

يفهمه العرف وتساعده القرينة الخارجية في هاتين الآيتين ونظائرهما، وحينئذ يكون معنى الجملة: إذا أردتم الصلاة وقصدتم فعلها وعزمتم على أدائها فاسبغوا الوضوء واغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم .

٣ – (فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ).

الغسل: -بفتح الغين- هو امرار الماء واسالته على العضو المغسول لغرض إزالة ما عليه من الوسخ والقذارة .

(وجوهكم): جمع وجه وهو ما يستقبل الرائي من الشيء وهو عضو معروف في الإنسان .

(أيديكم): -جمع يد- وهو العضد الذي يستعان به على القبض والبسط، وهو عضو في الإنسان معروف .

(المرافق): -جمع مرفق- وهو مفصل الذراع والعضو وملتقى عظمتيهما، وهو معروف في الإنسان .

المسح: هو امرار العضو الماسح واللامس على شئ ملموس، ويتحقق هنا في الوضوء بامرار اليد المصحوبة ببلل الوضوء وبقية مائه على اليد واجرائها برطوبتها على الممسوح والملموس، والفرق بين الغسل والمسح: ان الغسل اسالة الماء على العضو المغسول بحيث يقطر الماء ولو قطرات من ذاك العضو، والمسح إبلال العضو المسموح من دون قطر ماء أو سيلانه عنه، وهذه الجملة تأمر بالوضوء قبل الصلاة.

(الكعبين): -مثنى الكعب- وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم .

4- (وان كنتم جنباً فاطهروا): هذه الجملة معطوفة على بداية الآية، وتقديرها: وان قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فاطهروا، أي اذا أصابتكم جنابة، والجنب مصدر أخذ فيه معنى الوصف والاتصاف بحدث الجنابة .

(فاطهروا): أي فاطلبوا الطهور واغتسلوا من حدث الجنابة لتطهروا منه وهذه الجملة تأمر بالاغتسال من الجنابة لمن كان جنباً.

5- (وان كنتم مرضى أو على سفر): (مرضى) أي أصابكم مرض وهو خروج المزاج والصحة عن حد الاعتدال، وهو على ضربين: مرض يضره الماء المستعمل في الوضوء، ومرض لا يضره

الماء، ومقصود الآية خصوص الضرب الأول –أي وان كنتم مرضى يضركم استعمال الماء في الوضوء أو في الغسل أو يشق عليكم بحيث لا تتحملون أذاه ولا تطيقون ضرره- وذلك بقرينة التعليل بحكمة عدم جعل الحرج والمشقة على العباد وببركة بيان بعض روايات السنة المطهرة الشريفة .

(أو على سفر) أي أو كنتم على سفر بحيث لم تجدوا ماء في سفركم أو ضركم استعماله أو أوقعكم في الحرج والمشقة .

(أو جاء أحد منكم من الغائط): الغائط: في أصل معناه هو المكان المنخفض من الأرض وقد كان يقصده الناس لابراز الفضلات تستراً عن أعين الناظرين، ثم صار هذا اللفظ عند العرف كناية عن الفضلات التي يبرزها البدن من موضع معهود، ومعنى الجملة: أو جاء أحد منكم من الموضع المنخفض الذي يبرز فيه الفضلات –البول والرجيع-، وفي هذا التعبير أدب قرآني رفيع حيث كنّى سبحانه عن معنى قبيح مستهجن فلم يصرح بلفظه وانما كنى بملازمه ثم لم ينسبه إلى واحد كأن يقول: أو جاء أحدكم، بل قال (أو جاء أحد منكم من الغائط) وهذه تربية عملية على نزاهة الألفاظ وهي من أساليب التربية القرآنية على الأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة .

(أو لامستم النساء) :-

الملامسة كناية عن المباشرة والوقاع، وهذه التكنية سنة قرآنية وأدب ربوبي بالتعفف والتنزه عن التصريح باللفظ المستقبح تصريحه أو المستهجن تلفظه فيستبدله سبحانه بلفظ ملازم له ومصادق معه ومشير اليه ويؤدي معناه، وهذا ما يعبر عنه –في البلاغة العربية- بالاستعمال الكنائي والتكنية .

(فلم تجدوا ماء):-

أي لم تجدوا ماء تستعملونه في التطهر والتوضي أو الاغتسال، وعدم وجدان الماء قيد راجع إلى جميع أعذار التيمم المذكورة في هذه الجملة –النقطة الخامسة- ولذا تفرّع عليه قوله سبحانه (فتيمموا..) أي ان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو باشر النساء كل واحد من هؤلاء اذا لم يجد الماء يتيمم صعيداً طيباً، فيتحصل ان السبب الحقيقي

لمشروعية التيمم هو هذا القيد الساري في جميع الأعذار والمنتشر في جميع الحالات .

(فتيمموا صعيداً طيباً):-

والتيمم: هو القصد، أي فاقصدوا وتعمدوا صعيداً طيباً تمسحون منه وجوهكم وأيديكم .

والصعيد: هو الأرض أي وجهها والطبقة الظاهرة منها، وانما سمي وجه الأرض صعيداً لصعوده وارتفاعه فوق أجزاء الأرض الأخرى .

والطيب: هو الطاهر الحلال لا النجس أو المغصوب من احد والمأخوذ قهراً من فرد، فان الطيب في اللغة هو ما طاب وفارق المكروه وتنزه عن الخبيث، ولا ينطبق هذا المعنى إلا على الطاهر الحلال إذ النجس خبيث والحرام مبغوض لا تطيب النفس النزيهة المؤمنة له ولا ترغب فيه، وهذه الجملة الشريفة تفيد وظيفة المحدث الذي فقد الماء ولم يجده فيستعمل طهور الأرض ويتيمم صعيداً طيباً قبل الدخول في الصلاة .

6- (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم):-

الحرج: هو العسر والمشقة والصعوبة التي لا تتحمل ولا يرتكبها العقلاء العاديون الأسوياء، يعني سبحانه من هذه الجملة الشريفة بيان حكمة ودفع شبهة: هي انه سبحانه قد جعل على المصلين استفتاح صلاتهم باحدى الطهارات الثلاثة: الوضوء أو الغسل أو التيمم لا لغرض ايقاعهم في الحرج والمشقة أو إدخالهم في صعوبة أو شدة بل جعلها لغرض عظيم وهدف سامٍ حكيم وهو تنظيف أبدان المؤمنين وتطهيرها وتزكية أرواحهم وتنوير قلوبهم وازالة اثار الحدث والحجاب والقذارة والأوساخ عن المصلين، اذ لو كان غرضه سبحانه من جعل هذه الطهارات التضييق والتشديد دون التوسعة والتيسير لما وسع على المعذورين –الذين لم يجدوا ماءً أو كان لهم عذر من استعماله- بتشريع التيمم عليهم وكفايته لهم عما سواه من الوضوء أو الغسل، ويستفاد من بعض الروايات المأثورة عن رسول الله وأهل بيته (عليهم الصلاة والسلام) ان المولى سبحانه انما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً نقياً من الأدناس وليزكو فؤاده عند القيام بين يدي الجبار وليكون كفارة لما مضى

من ذنوبه وخطاياه إلا المعاصي الكبيرة والمحرمات العظيمة، وانه سبحانه انما امر بالغسل من الجنابة وباقي الأحداث الكبار لينظف جسد الإنسان ويتطهر مما أصابه من أذى الجنابة والحيض وظلمة الحدث وقد ورد في بعض آداب الغسل الدعاء الشريف (اللهم طهر قلبي واشرح لي صدري، اللهم اجعله لي طهوراً وشفاءً ونوراً انك على كل شئ قدير) ويدعو بعد الانتهاء من الغسل: (اللهم طهر قلبي وزك عملي وتقبل سعيي واجعل ما عندك خيراً لي، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) وهذا كله شاهد صدق وبرهان حق على أن الحكمة العالية من تشريع الطهارات هو تطهير القلب وشرح الصدر ليزول حجاب ظلمة الحدث ويحل موقعه نور الطهارة والطهور وضياء الغسل والوضوء، قذف الله في قلوبنا نوراً تنشرح به الصدور ووفقنا سبحانه للتجافي عن دار الغرور والانابة بالأعمال الصالحة إلى دار الخلود .

7- هذه الآية الشريفة أصل معتمد في اشتراط الصلاة بسبق الطهور بالماء أو التراب وانه (لا صلاة إلا بطهور) فما لم يأت مريد الصلاة باحدى الطهارات لا تصح له صلاة، لأن الطهور مفتاح الصلاة وبابها ومدخلها وافتتاحها، وهو ركن من أركانها وعماد من أعمدتها، وهو شطر الإيمان وبعض الإسلام، وقد أشبع الفقهاء في الفقه الشريف بحث أحكام الطهارات وخصوصياتها وحدودها وأجزائها وشرائطها ينبغي لكل مؤمن التعرف اليها والتفقه لها بغية صدور الطهور الصحيح منه .

8- قال سبحانه (وثيابك فطهر) المدثر: 4، وهو خطاب الحبيب المصطفى (ص) بتطهير الثياب بعد أن خوطب بأمر الانذار واكبار الرب عن الاشراك، وقد ذكر في تفسير هذه الآية وجوه واحتمالات ومما يحتمل في مفادها ومعناها: كونها تأمر بتطهير الثياب أي غسلها وتنظيفها من النجاسات والقاذورات مقدمة للصلاة وتكبير الرب، وقد حكي في التاريخ ان المشركين كانوا لا يأبهون بسلامة ثيابهم من النجاسات ولا يطهرون ملابسهم وأبدانهم من القاذورات عند دخول المسجد الحرام وطوافهم حول البيت الحرام فأراد الشارع المقدس من مبدأ البعثة وبروز الدعوة تحلي الرسول والاتباع بالطهارة والنزاهة واستبدال الظاهرة القبيحة بالظاهرة الحسنة الجميلة، ويقوي

هذا الاحتمال: ما روي من أن المشركين في بدء الدعوة ألقوا على رسول الله (ص) سلى شاة –وهي جلدة يكون جنين الشاة داخلها- وكان عليه (ص) ثياب جدد وكان ذلك في حال السجود لله سبحانه في ناحية من المسجد الحرام وقد شق عليه هذا الايذاء ورجع إلى بيته حزيناً وتدثر بثيابه فنزلت عليه الآيات الأول من سورة المدثر .

وفي ضوء هذا الاحتمال المدعوم ببعض القرائن والاثار استدل الفقهاء بالآية على اشتراط (تطهير الثياب قبل الصلاة) وقد ورد به بعض الروايات آمرة بتطهير البدن والثياب وغسلها من النجاسات والقاذورات قبل الصلاة والطواف، فينبغي للمؤمن قبل الشروع في صلاة أو طواف أن ينظف بدنه وثيابه من الأوساخ والقاذورات بدخول الحمام وقص الأظفار وتحسين شعر البدن وتمشيطه وإزالته عن بعض المواضع وتسويك الأسنان بعود المسواك أو بفرشة الأسنان والمضمضة والاستنشاق ونحو ذلك من التنظيفات المندوب اليها في الشرع كيما يدخل المؤمن في نسكه وصلاتهِ وهو طاهر الثوب نقي البدن من الأوساخ والفضلات (رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) التوبة: 108،وبذلك يكون أهلاً للدخول في النسك والعبادة وصالحاً للقرب والمقابلة مع الملك العزيز المتعال والمخاطبة مع المولى القدير الرحمن .

١٠ - وقد ذكر الفقهاء (رض) مفصلاً أحكام الطهارات والتطهيرات من الاحداث والنجاسات فينبغي التعرف اليها والمواظبة عليها لأن (الإسلام نظيف) وينبغي مراعاة باطن البدن في التطهير كما يجب مراعاة ظاهر البدن في التنظيف والتطهير فان الباطن –القلب والروح- هو محل توجه الله جل وعلا وموضع نظر الحق المتعال فانه لا ينظر إلى صور الناس ومظاهرهم فقط، ولكنه ينظر إلى بواطنهم وقلوبهم كما ينظر الى ظاهرهم، فينبغي التوجه للباطن لتزكيته وتنظيفه فينجو من الآثام النفسية والوساوس الشيطانية والجرائم الخلقية وليستوي باطنه وظاهره في النزاهة والنظافة ويكون مصداقاً للمسلم بحق والمؤمن بصدق فيستحق كرامة الله ويفوز برضوانه وحبه وقربه، واعلم ان الباطن لا يتطهر ولا يتنظف إلا بمراعاة الأخلاق الفاضلة التي دلّ عليها القرآن الحكيم ودعت اليها السنة المطهرة وحرص على بيانها هذا الكتاب المتواضع مستمداً من الكتاب والسنة أرجو أن يكون مناراً للرشاد والاهتداء وسبيلاً نحو الصلاح والاتقاء، والله الموفق ومنه المستعان .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

1- هذه الآية الشريفة هي السابعة بعد السبعين من آيات سورة الحج وهي سورة مدنية جليلة عرضت العديد من أصول الدين وأسسه وأنذرت وحذرت وخوفت من ساعة الحساب، كما تعرضت لعدة من أحكام الدين وفروعه المرتبطة بالحج والصلاة والجهاد وغيرها، وهذه الآية الشريفة من تلكم الآيات تأمر بالركوع والسجود وهما ركنان عظيمان وعمادان مهمان في الصلاة وتأمر بفعل الخير وعبادة الله، وهذان –فعل الخير وعبادة الله- خلاصة التشريع الإلهي ومعلمة بارزة من معالم الإسلام .

2- (اركعوا وسجدوا):-

الركوع: في أصل معناه يعني الانحناء بالرأس تعظيماً للغير ومعنى (ركع): طأطأ رأسه وخفضه احتراماً .

والسجود: في أصل معناه يعني الانحناء التام بالرأس والبدن مع التطامن إلى الأرض بحد وضع الجبهة عليها .

(واعبدوا ربكم):-

العبادة: هي الطاعة المقرونة بالخضوع وفي الأصل هي السلوك المتذلل، (يقال: (بعير معبد) أي مذلل، ويقال (طريق معبد) أي مسلوك مذلل، ومعنى عبادة الرب: هي السلوك إلى الرب بذل وخضوع، والاطاعة له مع التذلل والخشوع .

(وافعلوا الخير):- فعل أمر وطلب لفعل الخير .

والخير هو كل فعل مرغوب فيه لدى كافة العقلاء ويستحسنه جميع ذوي الألباب .

(لعلكم تفلحون):- لعل كلمة ترجي واحتمال .

تفلحون: أي تفوزون بالمحبوب، الفلاح هو الفوز بما يغتبط به ويكون صلاحاً لحال الفائز، وفلاح المؤمن فوزه برضوان الله وظفره بثوابه وسلامته من عقابه أو عتابه فان رضوان الله وثوابه ونجاة العبد وسلامته من نار جهنم هو المأمول والمرجو الذي يغبط عليه الفائز به أو يحسد عليه المدرك له .

3- هذه الآية الشريفة أمرت بالركوع والسجود وكأنها قد امرت بالصلاة بتمامها لأن الركوع والسجود ركناها الأساسيان وعماداها الرئيسيان، ثم أمرت بعبادة الله والسلوك اليه بالطاعة

والخضوع والمتابعة والخشوع وأمرت بفعل الخير –وهو كل عمل مرغوب فيه عقلاً أو شرعاً- ومقتضى المقابلة بين الجملتين (واعبدوا ربكم) (وافعلوا الخير) أن يكون الأمر الأول متوجها إلى كل طاعة قربية أي تعمل للتقرب بها منه سبحانه كصوم أو زكاة أو حج أو نحو ذلك من الأفعال القربية المفروضة أو المندوبة، وأن يكون الأمر الثاني متوجهاً إلى كل طاعة وخير مرغوب فيه في كتاب أو سنة مما لا يتوقف على قصد الاقتراب والاخلاص، ثم أشارت الآية الكريمة إلى غاية الأمر وحكمة الندب (لعلكم تفلحون) وهو رجاء الفلاح وأمل الصلاح وكأنه يقول: اعملوا الخير وافعلوا القربات رجاء فوزكم برضوان الله وبأمل ادراك ثواب الله، ومن كلمة (لعل) يستفاد الرجاء والاحتمال، وعبادة الله وفعل الخير مما يرجى بهما الخير ويؤمل منهما الثواب لكن لا يوثق بهما ولا يتيقن منهما لاحتمال فسادهما في ذاتهما برياء أو نفاق أو لاحتمال لحوق عمل بهما يفسدهما ويبطل أثرهما قال رسول الله (ﷺ): قال الله(لا يتكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي فانهم لو اجتهدوا واتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي –أي حقيقتها- فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناني ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا، فان رحمتي عند ذلك تدركهم ومنتي تبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي، فاني أنا لله الرحمن الرحيم وبذاك تسميت) فينبغي في المؤمن أن يعبد الله بشتى العبادات وبفعل الخير بمختلف الأنواع وهو راجٍ مؤمل وخائف متحذر فلا يكون متيقناً بالخلاص أو مطمئناً بالفوز والفلاح ولكن يدعو من ربه بالتوفيق للبلوغ إلى الجنة والرضوان والنجاة من مفسدات العمل ومضلات الفتن .

هذه الآية الشريفة تربية إلهية على الخوف من سوء الخاتمة وعلى الحذر من سوء العاقبة، ونظيرها في الكتاب والسنة عديد وقد كان رسول الله (ص) يكثر من دعاء (اللهم ارزقني حسن العاقبة والختام) تعليماً لأمته وترويضاً على الخوف والرجاء، اللهم ثبتنا على دينك ولا تقلب أحوالنا عن طريقك وسنة حبيبك ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا لصالح الاعتقاد

وحسن الفعال، انك سميع الدعاء مجيب القلب المخلص الأواه، لكن ينبغي أن يعلم ان المواظبة على عبادة الله خالصة لوجهه الكريم –وبخاصة اتيان الواجبات بالشكل الصحيح المطلوب للمعبود سبحانه- وان المداومة على الحلال وابعاد الحرام عن المأكول والملبوس لهما الأثر الكبير في احراز حسن العاقبة وجمال الختام، والعكس صحيح فان التقصير في اتيان الواجبات والعبادات أو الاستخفاف بها ونقصانها (نقر كنقر الغراب) أو الاهمال وعدم الاعتناء بالمطعوم والمشروب وخلطه من الحرام والحلال، لكل واحد من هذين المبغوضين الأثر الكبير في قبح الختام وسوء العاقبة، وقد قال رسول الله (ص): (العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الماء) أي هما متشابهان في عدم الأثر وانتفاء الفائدة .

4- واركعوا واسجدوا: هذه الجملة الشريفة أمرت بالصلاة وهي أفضل العبادات وأعظم الطاعات بعد معرفة الله سبحانه وتوحيده جل وعلا وتنزيهه، وهذا واضح لكل مسلم بل لغير المسلم، يكفينا أن نتذكر قول الله جل جلاله بذاته المقدسة في حديثه القدسي (ما يقرب إلي عبد من عبادي بشئ أحب إلى مما افترضت عليه، وانه ليتقرب إلي بالنافلة –الصلاة المستحبة- حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، ان دعاني اجبته وان سألني أعطيته) وهذا يكشف عن عظيم فضل الصلاة وكبير أثرها ومفعولها وشديد وقعها في نيل حب المعبود لعبده وتقريبه اليه فلذا أرغب الاشارة والتذكرة ببعض أسرار الصلاة وحكم أفعالها وأجزائها وبعض خصوصياتها بعد أن تعرضنا لبعض أسرار شرائطها مستمداً ذلك من كتاب الله ومن كلمات أوليائه الكرام عليهم صلوات الملك العلام، ومن الله التوفيق وهو المستعان .

5- قال سبحانه (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الشعراء:217-220، هذه الآيات خطاب من الحبيب الباري إلى المصطفى الهادي ضمن آيات متعددة يراد منها تطمينه (ص) بنجاح جهوده وجهاده لنشر دعوته وتشير إلى رؤية الله سبحانه إياه حين يقوم لعبادته وينهض لصلاته، والقيام في الصلاة واجب

مفروض على من كان قادراً عليه غير عاجز عنه لكسر أو مرض، والقيام رمز من رموز التعظيم والتوقير وهو مثول بين يدي الملك العزيز وهو تظاهر بالعبودية والخضوع للمعبود وهو إجلال وإعظام لساحة القدس والجود، فينبغي للمؤمن أن يستشعر هذه النكات في صلاته ويستذكر هذه الأسرار من قيامه لتنعكس على أعضائه وجوارحه وتشغل أفكاره وبواطنه أداءً لحق الألوهية وتظاهراً بصدق العبودية قلباً وقالباً وروحاً وجسداً، وينبغي للمصلي أن يتذكر احاطة الله بجميع مخلوقاته –ومنها ذاته ونفسه وحركاته وسكناته- وان يتفكر رؤية الله لعبده حين يقوم واطلاعه عليه حين يصلي فيستشعر عظمة القيام وجلال المقام فانه قيام بين يدي المليك الجبار ووقوف أمام العظيم القهار، واذا لم يتأثر المصلي ولم ينفعل مع العظمة والجلال فليتصور المصلي قبل دخوله في صلاته ملكاً من ملوك البشر وعظيماً من عظمائهم وجباراً من الجبابرة لو وقف بين يديه ومثل في حضرته أي جلال يأخذه وأي هيبة تصيبه؟ وكيف يكون وقوفه بين يديه وذله في محضره؟ ثم ينتقل في تصوره وتفكره إلى الوقوف بين يدي ملك الملوك وجبار السماوات والأرض فكيف ينبغي أن يكون وقوفه؟ وكيف يناسب أن يكون موقفه؟ ثم يتذكر ويتفكر وقوفه بين يدي الله في عرصات يوم القيامة وساحة الحشر والعرض الأكبر يوم يقوم الناس لرب العالمين وتنشر صحف الأعمال وكتب الأفعال فتذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى من هول ما اطلعوا عليه ومن احصاء الكتب والصحف لما صدر من الأفعال عنهم، وحينئذ يكون وقوفه في صلاته وقيامه لعبادته قياماً صادقاً حقيقياً وصلاته روحية مثالية وواقعية، ووا عجباً لمن عرف ربه واعتقد عظمته وقدرته وجلاله وحكمته كيف يغفل عنه وينصرف فكره إلى غيره فيهاب المخلوق ولا يهاب الخالق ويخشى الملوك ولا يخشى ملك الملوك؟ وكيف ينشغل في صلاته وقيامه بغير ربه ومعبوده من سفاسف الدنيا وتوافهها؟ ويا خير عقبى لمن عرف ربه وقام مصليا بين يديه سبحانه مناجياً وذاكراً وتالياً للقرآن وراكعاً وساجداً بخضوع وتخشع وخنوع وتذلل مستأنساً بلقاء الله ومناجاته في صلاته وعبادته، رزق الله المصلين حلاوة المؤانسة حين يقومون بين يديه متعبدين وذاكرين وألبسهم ثوب العبودية

في حال العبادة وفي غيرها من الاحوال والمقامات انه سميع مجيب .

6– ثم اذا قام لصلاته وتهيأ لعبادته أذن وأقام مقدمة لدخوله في عبادة رب الأرباب وملك الملوك، وينبغي تحسين هذه المقدمة وتكميلها فيتذكر نداء يوم القيامة حيث ينادى بقيامها ويعلن ابتداؤها وتساق الموتى إلى عرصاتها، ثم يتفكر –لو تحقق هذا الحال- ويحرك رغبته في الخلاص والنجاة كي تنعكس تفكراته وتصوراته على صلاته التي تهيأ لها وأقدم عليها فتثمر صلاته ثمرتها المرجوة وتحسن كيفيتها بالطريق المطلوبة وتؤتي اكلها يوم الحاجة اليها ولاتكون نقراً كنقر الغراب ولا تكون عاجلة كعجلة الديك .

7- ثم ينوي لصلاته المقصودة ويتوجه إلى معبوده بكيفية من الدعاء مأثورة فيقول: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض على ملة ابراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين) وينبغي أن يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء متفهماً لمعانيه متأملاً في مدلولاته مقبلاً عليه بلسانه وقلبه وجميع جوارحه وأعضائه، ثم يفتتح صلاته بالتكبير (الله اكبر) رافعاً يديه حال التكبير إلى شحمة أذنيه اذعاناً وتسليماً لله واقراراً بربوبيته وعلوه وكبر شأنه وجلال قدره كما يذعن الأسير في الحرب عند تسليمه نفسه إلى خصمه وعدوه، وينبغي للمصلي التفكر في معنى التكبير مع قصد معناه ليكون صادقاً في تكبيره معترفاً بحق علوه وعظمته وانه لا وجود اكبر من وجود الله أو أعظم من ذاته المقدسة فيستصغر كل مخلوق غير الله إذ كل مخلوق هو صغير دون كبريائه سبحانه وكل عظيم هو حقير جنب عظمته وجبروته، فيقصد بتكبيره انه اكبر من كل شئ وأعظم من كل مخلوق مهما كان غيره عظيماً وقادراً وجباراً بل وحتى لو كان محبوباً لديه والا كان مشركاً بالله غيره في العظمة والكبرياء وكان كاذباً في تكبيره وفي دعائه (وما أنا من المشركين) وقد روي عن صادق أهل بيت محمد (صلوات الله عليهم : اذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فان الله تعالى اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره

قال: يا كذاب أتخدعني؟ وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي).

8- ثم بعد احرامه بالتكبير يتعوذ المصلي بربه من الشيطان الرجيم (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ويقصد بقلبه معناه الصحيح ومدلوله الواقع الجليل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) النحل: 98، أي اذا أردت قراءة القرآن في صلاة أو من دونها فابدأ بالتعوذ بالله والاعتصام به والالتجاء اليه والاستجارة به سبحانه من كيد الشيطان المرجوم ومن شره ونفثه ووساوسه وحبائله ومكائده فانه عدو المؤمنين وراصد المصلين بل مترصدهم في جميع أحوالهم وحالاتهم يحاول صرفهم عن الإيمان وعبادة الرحمن ويبذل –هو وجنوده- الجهود العظيمة في شغل قلوب المصلين وابعاد أفكارهم عن الله وعن الصلاة الحقيقية والعبادة الصحيحة .

9- ثم يشرع المصلي في قراءة سورة الفاتحة قال (ص): (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب) وهي قرآن ومن كتاب الله بل هي السبع المثاني وأم الكتاب وام القرآن كما جاء تسميتها في بعض الآثار، وينبغي في المؤمن المصلي أن يكون خاشع القلب عند تلاوة القرآن في صلاته وقيامه وأن يكون متفكراً متأملاً في المعاني مستنيراً بضياء القرآن مستأنساً بلذة تلاوته وترتيل اياته مستحضراً معاني سورة الفاتحة ليتحقق منه حمد الله وثناؤه وتمجيده بتوجه ويتحقق منه دعاؤه وسؤاله بتحقق.. فاذا قال المصلي (بسم الله الرحمن الرحيم) تصور انه يبدأ تلاوته وقرآنه باسم الله ويفتتح قراءته ومناجاته مع ذكر الله ويحضر في قلبه رحمة الله التي وسعت كل شئ، واذا قال: (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم) تصور انه يحمد الله ويثني عليه شكراً لأنعمه ليكون حمده لرحمن الدنيا ورحيم الآخرة حقيقياً وثناؤه على رب العالمين واقعياً، واذا قال: (مالك يوم الدين) تصور انه يناجي رب العباد وملك الملوك ومالك يوم القيامة ثم يجعل تصوره وسيلة للتذكر للاقرار بيوم الدين يوم يقوم الناس لرب العالمين ويوم تشخص فيه الأبصار وترى الناس فيه سكارى من هول المطلع مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وعقولهم جوفاء من الهلع والفزع، وقد روي ان

علي بن الحسين السجاد وجعفر بن محمد الصادق اذا قرأ أحدهما هذه الآية يقرؤها ويكرر قراءتها متفكراً في معناها ومضمونها فتصيبه غشوة يكاد تخرج روحه المقدسة، واذا قال المصلي: (إياك نعبد وإياك نستعين) تصور انه يقر ويعترف بعبادة الله ويحصر عبادته في ذاته المقدسة فلا يعبد سواه ولا يطيع غيره كما يتصور انه يذعن ويسلم بانحصار استعانته به سبحانه وباقتصار استجارته عليه فلا يستعين بمن سواه ولا يلتجأ في حوائجه ومهماته إلى غيره سبحانه إذ كل موجود سوى الله هو مفتقر إلى الله ومحتاج إلى مدده لا يصلح للعبادة ولا ينفع في الاستعانة ما لم تكن الاستعانة التامة بالها سبحانه فانه الذي يصلح للإعانة في المهمات والاغاثة في الملمات، واذا قال المصلي (إهدنا الصراط المستقيم) تصور انه يدعو ربه ويسأل خالقه الهداية والدلالة على الطريق المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، واذا قال: (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصور انه يجدد طلبه ويؤكد دعاءه من ربه الهداية إلى الصراط الذي أنعمه على المؤمنين المتقين الصالحين غير المغضوب عليهم وغير الضالين المنحرفين. روى شيخ المحدثين الصدوق في (عيون أخبار الرضا) بسنده عن الإمام علي الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال: لقد سمعت رسول الله (ص) يقول: قال الله عز وجل: (قسمّت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: (بسم الله الرحمن الرحيم) قال الله جل جلاله: (بدأ عبدي باسمي وحق علي أن أتمم له أموره وأبارك له في أحواله، فاذا قال: (الحمد لله رب العالمين) قال الله جل جلاله: حمدني عبدي وعلم أن النعم التي له من عندي وان البلايا التي دفعت عنه بتطولي أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، واذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله جل جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم أشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه ولأجزلن من عطائي نصيبه، فاذا قال: (مالك يوم الدين) قال الله تعالى: أشهدكم كما اعترف بأني انا المالك يوم الدين لأسهلن يوم الحساب حسابه ولأتقبلن حسناته ولاتجاوزن عن سيئاته، فاذا قال: (إياك نعبد) قال الله عز وجل: صدق عبدي إياي يعبد

أشهدكم لأثيبنه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فاذا قال (وإياك نستعين) قال الله تعالى: بي استعان عبدي والي التجأ أشهدكم لأعيننه على امره ولأغيثنه في شدائده وآخذن بيده يوم نوائبه، فاذا قال: (إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل وقد استجبت لعبدي واعطيته ما أمل وأمنته مما منه وجل) –أي خاف- وقد روي قريب من هذا المضمون في صحيح مسلم وسنن النسائي وسنن أبي داود، وهو مضمون عالٍ ينبغي أن يستفيد منه المسلمون في تلاوتهم وصلواتهم وتعبداتهم فيتدربوا على معرفتها وحفظها وتذكرها واستذكارها عند كل قراءة لسورة الفاتحة حتى تترسخ هذه المعاني في أذهانهم وترتكز في عقولهم فيكونوا ممن وعى أم القرآن وعقلها وهو الموفق .

10- قال سبحانه (واركعوا)، ثم بعد اكمال المصلي قراءته يركع لله وينحني برأسه وصلبه ويمد ظهره وعنقه ويقبض بأصابع يديه على ركبته مطمئناً ساكناً ذاكراً لله (سبحان ربي العظيم وبحمده) أو نحوه من الأذكار المماثلة والركوع رمز الخضوع والخشوع خالصاً وعنوان التواضع والتذلل والخنوع فينبغي للراكع أن يجعل خضوعه لله وتذلـله وخشوعه خالصاً لوجه الله سبحانه لأنه أهل للخضوع والخشوع، وان يستشعر بقلبه ويتصور بعقله ويقصد بباطنه انه يركع خاضعاً لله متذللاً وخاشعاً بقلبه وقالبه وعقله وجسده لأنه مستحق الركوع والخضوع وأهل الكبرياء والجبروت، وبهذا يكون ركوعه حقيقياً وتأثيره على عقله وروحه واقعياً فينال جزاءه ويزينه سبحانه بنور بهائه ويظله في ظلال كبريائه ويكسوه كسوة أصفيائه –كما روي هذا المعنى في بعض الأخبار .

واذا اطمأن في ركوعه وانحنائه ذكر ربه وبارئه فقال: (سبحان ربي العظيم وبحمده) وهو تسبيح لله وتقديس له سبحانه وتنزيه عن كل عيب ونقص وتعظيم لله والحمد لله على كل نعمة وفضيلة وشكر، فينبغي اتيانه بهدوء وسكينة واستقرار وبتفكر وتأمل واستذكار لهذه المعاني الفاضلة والمضامين الراقية فلا يكون ركوعه نقر ديك أو نقر غراب في عجلة أو في

اضطراب، وقد جعل الله التسبيح في الركوع لحكمة –كما روي عن الرضا- هي أن العبد مع خضوعه وخشوعه وتعبده وتورعه واستكانته وتذلله وتواضعه وتقربه إلى ربه يكون مقدساً لله ممجداً مسبحاً معظماً شاكراً لخالقه ورازقه ويستعمل التسبيح والتحميد كما يستعمل التكبير والتهليل يشتغل قلبه بذكر الله ولا يذهب به الفكر والأماني إلى غير الله .

١١ - قال سبحانه (واسجدوا) ثم بعد اتمام الركوع صحيحاً لا سريعاً –كنقر الغراب- يرفع رأسه من الركوع قائلاً (سمع الله لمن حمده) أي استجاب الله لمن سبحه وعظمه وحمده وشكره، ثم يهوي إلى الأرض يخر ساجداً بجبهته وتمام مساجده على الأرض –التي يرجع خلقه اليها ويؤول أصل وجوده منها وهي التي جعلت مسجداً للمسلمين المصلين –ويأخذ حال الاطمئنان والاستقرار ويذكر الله بنظير ذكر الركوع (سبحان ربي الأعلى وبحمده) والسجود رمز أقوى للخضوع والخنوع وتعبير أجلى عن الاستكانة والانكسار والخشوع فينبغي للمؤمن أن يجعل سجوده وخضوعه خالصاً لوجه الله وان يتفكر بلبه ويستشعر بعقله قربه حال سجوده من الله فقد ورد في السنة المطهرة المستفيضة (أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد) والعاقل بعقله وفكره وشعوره بقربه منه سبحانه يستغل قربه ويطلب رضوانه ويسأل حاجته.

وينبغي للساجد أن يتدبر سر سجوده ويلتفت إلى غاية تذلله ومنتهى خضوعه ولا يكون من الغافلين عن حقيقة سجوده ولا من الساهين عن ذله وهوانه على الله وضعفه واحتياجه إلى الله فيعبر عن هذه المعاني بالسجود والخضوع لله بوضع جبهته –التي هي موضع علوه وموقع كبريائه- على الأرض والتراب- الذي منه أصل وجوده واليه عوده ورجوعه – مستكيناً وخاشعاً لله (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً)الاسراء:107-109.

ثم يرفع رأسه من السجدة –بعد تمامها صحيحة كاملة- ويجلس مستريحاً فيعود إلى سجدة ثانية مؤكداً تذلله لخالقه ومكرراً استكانته ومشدداً على الشيطان خيبته وتولوله فانه اذا

رأى الشيطان بشراً ساجداً لله يتذكر خيبته وفشله وطرده ولعنه فيصيح ويولول: (يا ويلاه أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت) كما ورد في الحديث الشريف، قال رسول الله (ص): (اذا قمت في صلاتك فاقبل على الله بوجهك يقبل عليك، فاذا ركعت فانشر أصابعك على ركبتيك وارفع صلبك –أي لا تخفضه كثيراً حيث يستحب استواء الظهر حال الركوع- فاذا سجدت فمكن جبهتك من الأرض ولا تنقر نقر الديك) وفي حديث آخر عنه (ص) وقد رأى رجلاً يصلي من دون أن يتم ركوعه وسجوده: (نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتن على غير ديني).

12- ثم اذا اكمل الركعة الثانية من صلاته على هذا النسق والترتيب تشهد الشهادتين وصلى على محمد واله، والتشهد تجديد العهد لله بالشهادة بوحدانيته وبالشهادة برسالة عبده وحبيبه المصطفى، والتشهد رجوع إلى المبدأ الأعلى عز وجل وتمسك بالحصن الأعظم –والذي من دخله صادقاً كان من الآمنين يوم الفزع الأكبر حين يستغيث الناس برب العالمين- وينبغي للمصلي أن يتذكر معنى التوحيد الذي يشهد به ومعنى الرسالة التي يعترف بها للرسول الأكرم وان يتأثر قلبه وقالبه بهذه الشهادة وتلك وتنعكس على جوارحه بالطاعة التامة في جميع حركاته ويظهر معها الانقياد التام لجميع متطلبات الشهادة حتى يكون صادقاً في توحيده وحقاً في شهادته برسالة حبيبه (ص) ثم اذا أتم شهادته بالتوحيد وبالرسالة وصلها بالصلاة والسلام والدعاء لصاحب الرسالة اقراراُ بحقه العظيم واعترافاً بجميله العميم على الأمة ويعطف عليه آله الأطياب في الصلاة والسلام لتكون صلاته على النبي تامة غير منقوصة وكاملة غير مبتورة، اللهم صلّ على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم انك حميد مجيد .

13- ثم اذا اكمل صلاته وتشهده ختمها بالسلام وتحلل منها بالتسليم على عباد الله الصالحين والترحم على اتباع محمد وأمته أجمعين، وختام الصلاة بالسلام وهو خير ختام ورمز وئام بين الأحبة الصلحاء والاخوة الأتقياء فينبغي في المصلي أن يتوجه بفكره وقصده إلى معنى السلام ويحضر في باطنه وروحه عرض التحية واهداء السلام إلى عباد الله الصالحين وخلقه

المتقين من الأنبياء والأولياء والملائكة والناس والجان الصالحين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

14- واذا أكمل المؤمن صلاته مقرونة بهذه التوجهات والاستحضارات والالتفاتات –جميعها أو بعضها- جهد الامكان إنطبعت آثارها الروحية في باطنه وانعكست أنوارها الالهية في قلبه، وكلما زادت درجته وكثرت متابعته وتعددت ممارسته لها في صلواته كلما ازدادت عليه الأنوار ونمت الآثار وقوي الاقتراب، وحينئذ ليطمئن المؤمن إلى عظيم ثواب الله وتضاعف كرمه وجزائه واقترانه بقبوله ورضوانه وكان من اولئك النفر المومى اليهم بقوله سبحانه (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)المؤمنون:9-11، وكان من تلكم الأفراد المشار اليهم في قوله (ص): (ان العبد اذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وان المصلي لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي؟ ما التفت وان أبواب السماء تفتح للمصلين وان الله يباهي ملائكته بصدق المصلي) ونختم بالمسك: ما روي عن مولانا الحسن بن علي العسكري (ع): (اذا توجه المؤمن في مصلاه ليصلي قال الله عز وجل لملائكته: يا ملائكتي أما ترون عبدي هذا قد انقطع عن جميع الخلائق إلي وأمل رحمتي وجودي ورأفتي، أشهدكم أني أخصه برحمتي وكرامتي، واذا رفع يده وقال: الله اكبر- اثنى على الله قال الله لملائكته: يا عبادي أما ترون كيف كبرني وعظمني ونزهني عن أن يكون لي شريك أو شبيه أو نظير ورفع يده وتبرأ عما يقوله أعدائي من الاشراك، أشهدكم أني سأكبره وأعظمه في دار جلالي وأنزهه في تنزهات دار كرامتي وأبرؤه من آثامه وذنوبه ومن عذاب جهنم ومن نيرانها، واذا قال بسم الله الرحمن الرحيم وقرأ فاتحة الكتاب وسورة قال الله لملائكته: أما ترون عبدي كيف تلذذ بقراءة كلامي، أشهدكم ملائكتي لأقولن له يوم القيامة: إقرأ في جناني وارق درجاتي ولا يزال يقرأ ويرقى بعدد كل حرف درجة من ذهب ودرجة من فضة ودرجة من لؤلؤة ودرجة من جوهر ودرجة من زبرجد أخضر ودرجة من زمرد أخضرو

درجة من نور رب العزة، فاذا ركع قال الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي كيف تواضع لجلال عظمتي؟ أشهدكم لأعظمنه في دار كبريائي وجلالي، فاذا رفع رأسه من الركوع قال الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي أما ترون كيف يقول؟ ارتفع من أعدائك كما اتواضع لأوليائك وانتصب لخدمتك، أشهدكم يا ملائكتي لأجعل جميل العاقبة له ولأصيرنه إلى جناني، فاذا سجد قال الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي أما ترون كيف تواضع بعد ارتفاعه وقال: إني وان كنت جليلاً مكيناً في دنياك فانا ذليل عند الحق اذا ظهر لي، سوف أرفعه وما دفع به الباطل، فاذا رفع رأسه من السجدة الأولى قال الله تعالى: يا ملائكتي أما ترونه كيف قال: اني وان تواضعت لك فسوف أخلط الانتصاب في طاعتك بالذل بين يديك فاذا سجد ثانية قال الله تعالى لملائكته: أما ترون عبدي هذا كيف أعاد التواضع لي لأعيدن اليه رحمتي، فاذات رفع رأسه قائماً قال الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي لأرفعنه بتواضعه كما ارتفع الي بصلاته، ثم لا يزال يقول الله تعالى لملائكته هكذا في كل ركعة حتى اذا قعد في التشهد الأول والتشهد الثاني قال الله تعالى: يا ملائكتي قد قضى خدمتي وعبادتي وقعد يثني علي ويصلي على محمد نبيي لأثنين عليه في ملكوت السماوات والأرض ولأصلين على روحه في الأرواح ..) .

15- واذا اكمل صلاته شرع في التعقيب بالدعاء والذكر وتلاوة القرآن ما أمكن وأحب، وحينئذ ينبغي أن يشكر الله على توفيقه للصلاة ويسجد على الأرض تعبيراً عن شكره وتقديره وثنائه على الله لحسن توفيقه وجميل ارشاده إلى نعمة التقى وفضيلة الإيمان وحسنة الصلاة فان هذه السجدة توجب على ملائكة الرحمن أن يكتبوا له عشر صلوات ويمحوا عنه عشر خطايا عظام كما وعدت به الأخبار، وبهذه السجدة تتم الصلاة ويرضى الرحمن وتعجب الملائكة ويقول الله لملائكته: (انظروا إلى عبدي أدى فرضي وأتم عهدي، ثم سجد لي شكراً على ما أنعمت به عليه) ثم يقول لهم (لأشكرنه كما شكرني) جل جلالك يارب ما أعطفك وأرأفك وأحبك لعبادك الصالحين المتقين.

واذا أمكنه اطالة السجود فليفعل لأنه أحب شئ إلى الله وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد، وينبغي أن يكون

الأنبياء والأولياء والصلحاء قدوته في السجود الطويل القاهر للشيطان وقد اتخذ الله ابراهيم خليلاً لكثرة سجوده على الأرض وقد ضمن رسول الله (ص) لجماعة من أصحابه الجنة اذا أعانوه بطول السجود مع تقوى الله وكان علي بن الحسين السجاد وموسى بن جعفر الكاظم (ع) في طول السجود من طلوع الشمس الى زوالها أو في تمام الليل مضرب المثل بين الصالحين وفي تاريخ المسلمين المتقين بل اشتهر بعض الفقهاء العظام بطول السجود مثل جميل بن دراج ومحمد بن ابي عمير وغيرهما .

ورد في بعض الأحاديث الجليلة: (اذا نزلت بالمؤمن شدة وكربة فليتوضأ ويصلي ركعتين ويسجد ويدعو حاجته) وفي الحديث القدسي عن الجليل جل وعلا: (من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن توضأ ولم يصل ركعتين فقد جفاني، ومن توضأ وصلى ركعتين ولم يدعني فقد جفاني، ومن توضأ وصلى ركعتين ودعاني أجبته ولم أكن رباً جافياً).

16- قال سبحانه: (وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ) البقرة:43 .

هذه الآية الشريفة تأمر بواجب ركني وجزء أساسي من أجزاء الصلاة وهو الركوع، وقد وقعت ضمن آيات تخاطب بني اسرائيل وتطلب منهم الوفاء بعهد الله المأخوذ عليهم والايمان بما أنزله الله عليهم والتصديق لما معهم من كتاب حق ودين صدق وتنهى عن لبس الحق بالباطل وعن كتمان الحق الذي يعلمونه ثم تأمر اليهود بالصلاة والزكاة وهما معلمان بارزان من معالم الاسلام وركنان عظيمان في دين القرآن ثم تأمر بالركوع مع الراكعين ومن المحتمل قوياً ان هذه الجملة دعوة ربوبية لليهود نحو الدخول في دين الإسلام وجماعة المسلمين بعد دعوتهم إلى نبذ الباطل أو كتمان الحق الذي مارسوه مع جمع من أحبار أهل الكتاب ممن عرف الحق وصدق الرسالة المحمدية ومن كتبهم المقدسة وأخفاه حسداً وطمعاً في الدنيا والركوع مع الراكعين هو أمر يشير إلى الدخول في جماعة المسلمين في صلاتهم وجمعهم مقدمة للاشتراك معهم في عقولهم وتفكيرهم وآمالهم واعتقاداتهم واجتماعاتهم فيكونون معهم ويكونون منهم..

هذه الآية الشريفة احتمل قوياً كونها تدعو إلى صلاة الجماعة وتحث عليها بقرينة قوله سبحانه (مع الراكعين) نظير آية اخرى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)الشعراء: 217-219، أحتمل قوياً أن المقصود منها تقلب الرسول الأكرم (ص) في الساجدين الذين كان يؤمهم ويتقدمهم في صلاة الجماعة وهو موضع رؤية الله ومحل إحاطته ومباركته له، وقد طفحت السنة الشريفة المطهرة بالحث عليها والترغيب اليها والدعوة لها والزجر الشديد عن تركها بل ورد في بعض الآثار التاريخية المضبوطة ان رسول الله (ص) هم بأن يحرق بيوت أقوام من المسلمين على أصحابها بحزم الحطب بسبب اعراضهم عن المجئ إلى المسجد للمشاركة في جماعة الصلاة وقد بعث إليهم سفيره يهددهم بقوله (ص): (لتحضرن المسجد أو لأحرقن عليكم منازلكم) ولعل السر في الترغيب الأكيد والحث الشديد على صلاة الجماعة هو رغبة الشرع الأقدس في توحيد قلوب المؤمنين نحو دين الله وتقريب عقول المسلمين تحت راية حب الله، وفي الوحدة قوة الإسلام والمسلمين وحصانة الإيمان والمؤمنين كما يحصل في اجتماع المصلين في المسجد اتصال والتقاء وتعارف وفيه نشر الدين واذاعة أحكام الله وشريعة سيد المرسلين وفيها تصحيح العمل وتعاون المؤمنين على البر والإحسان وفيه التشاور بين المصلين لدفع البأساء والضراء عن الإيمان والمؤمنين وجلب السراء إلى الإسلام والمسلمين وفيه التوجه إلى الله بنحو الاجتماع على العبادة والخشوع والاقبال على الله بنشاط وابتهاج وكلما كبر الاجتماع كثر الخير والثواب وقوي الإقبال على الرحمن والطاعة للمنان والتفقه لدين الحنان.

وينبغي للمصلين في جماعة وائتمام أن يستشعروا الخضوع والخنوع والعبودية الخالصة لله وأن ينتبهوا إلى كون الجماعة الحاضرة مجتمعة على الإسلام والإيمان وعبادة الرحمن وطاعة المنان سبحانه وتعالى فيصفي عقله وقلبه عن شوائب الحقد والضغينة عن اخوانه المشاركين معه في الصلاة والجماعة ليتحقق فيهم اجتماع القلوب وتصافيها كما تحقق فيهم اجتماع الأبدان وتلاقيها، ثم يكون صادقاً في دعائه لهم وسلامه عليهم وفي اختتام صلاته بالتسليم معهم وعليهم .

ثم ان الشرع الأقدس أعطى لإمام الجماعة منصب السفارة عن الله سبحانه والخلافة على المأمومين والشفاعة لهم قال (ص): (إن أئمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون في دينكم وصلاتكم) وقال (ص): (ان امامك شفيعك إلى الله عز وجل فلا تجعل شفيعك إلى الله عز وجل سفيهاً ولا فاسقاً) فينبغي في المؤمن حسن الاختيار لإمام صلاته يكون أهلاً للإمامة وشفيع عبادة صالحاً للشفاعة بغية أن يكون شفيعه إلى الله وقائده إلى رضوان الله وثوابه وضامن قراءته وتلاوته للقرآن في ركعتي صلاته، وينبغي فيه أن يعرف حق امامه ويفي له وقد ورد في الحديث الشريف (حق امامك في صلاتك أن تعلم انه قد تقلد السفارة فيما بينك وبين الله والوفادة إلى ربك وتكلم عنك ولم تتكلم عنه، ودعى لك ولم تدع له، وطلب فيك ولم تطلب فيه، وكفاك هم المقام بين يدي الله والمسائلة فيك ولم تكفه ذلك، فان كان في شئ من ذلك تقصير كان به دونك، وان كان آثماً لم تكن شريكه فيه ولم يكن عليه فضل فوقي –من الوقاية- نفسك بنفسه وصلاتك بصلاته، فتشكر له على ذلك) والله الموفق .

وينبغي في إمام الجماعة أن يكون بحق وصدق مطيعاً لله متقياً نزيهاً مقبلاً على الله في صلاته وامامته منزهاً لقلبه وعمله عن الشرك والنفاق والمخالفة والعصيان ليكون أهلاً للوفادة إلى الله والشفاعة لديه وقدوة صالحة للإمامة في عبادة الله، وليتصور كم له من الخزي والعار اذا كان في الواقع غافلاً عن الملك الجبار المحيط بالأخبار أو كان عاصياً في الخفاء لبعض أوامر الجليل القهار أو كان في المأمومين من هو أوفر حظاً منه في طاعة الله أو أزكى عملاً منه واطهر صحيفة منه في علم الله أو أكثر نصيباً واشد اقبالاً على العبادة والخشوع والتضرع والخضوع .

17- وينبغي في المؤمن أن يلتزم بأداء بعض النوافل والصلوات المستحبة ليكون بها تمام ما نقص من فرائضه كما جاء في الأخبار وقد ورد الحث الأكيد على النوافل اليومية التي هي قرينة الفرائض الخمس اليومية فانها قربان كل تقي وأعظم هذه النوافل صلاة الليل التي يؤتى بها في النصف الثاني من الليل، وقد فصل الفقهاء والمحدثون أعدادها وأحكامها وأوقاتها

وحدودها وتمام خصوصياتها في كتبهم، لكن يحسن بي ويحلو لي الحديث عن صلاة الليل قليلاً.

قال سبحانه وتعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الذاريات: 15-18، وهذا يفيدنا استحقاق المتقين لثوابه العظيم وأخذهم له بسبب كونهم محسنين مطيعين وبسبب نهوضهم في الأسحار مستغفرين فان هجران الفراش والنوم في أحلى ساعة هي السحر وهي الساعة الأخيرة قبل الفجر لإقامة صلاة الليل – والاستغفار رمز لصلاة الليل كما نطقت به الأخبار- هو جهاد نفسٍ ومماطلة شيطانٍ وهو احسان إلى الذات، وقد كان رسول الله قائد المؤمنين إلى الحسنات والخيرات والمثل الأعلى في المواظبة على هذه الصلوات –الركعات الاحدى عشر- فقد حكى بعض أهل بيته الكرام (ع): انه (ص) اذا أتم صلاة العشاء وضع السواك واناء الماء قريباً منه ثم نام ما شاء الله فاذا أحس من نومه جلس فاستاك أسنانه ثم قلب بصره في السماء متدبراً آيات الله وعظيم خلقه وحسن صنعه –سبحانه- وقرأ عدة آيات من سورة آل عمران (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) آل عمران:190-194، ثم يتطهر بالماء ويتوضأ ويصلي أربع ركعات، ثم يرجع إلى نومه ورقاده فاذا استيقظ استاك وقلب بصره في السماء تالياً تلكم الآيات الشريفات بتدبر وتفكر ثم تطهر وتوضأ وصلى أربع ركعات أيضاً ثم يقوم إلى مسجده الشريف بجوار بيته فيصلي الشفع ركعتين ثم يوتر ركعة أخيرة يستغفر ربه في القنوت سبعين مرة ويعقب صلاته بدعاء وذكر وتلاوة قرآن حتى يطلع الفجر فيصلي بالناس فريضة ويرجع (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ

وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)الأحزاب:21، وقد ورد في الأثر الصحيح عن النبي (ص): (شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه كفه –أي امتناعه- عن أعراض الناس) والروايات في فضل صلاة الليل كثيرة بل متواترة، وقد واظب عليها الأولياء والصالحون المحبون لله ولطاعته الراغبون في ثواب الله وجنته (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ)السجدة: 16-18، وقد فصل الفقهاء أحكامها وحدودها، وجاء لها في الأخبار الشريفة الآثار الجميلة والفوائد الجليلة فصلاة الليل ترضي الرب وتوجب الأجر والأمن يوم الفزع الأكبر وتحسن الوجه وتنيره (المتهجدون بالليل خلوا بالله فكساهم الله من نوره) وتذهب الهم والغم وتجلو البصر وتطيب الريح وتحسن الخلق وتصح البدن وتعافيه وتطرد الداء والمرض عنه وتشافيه وتدر الرزق وتزيده –وفي بعض الأخبار: ضمن الله بصلاة الليل قوت النهار- وتقضي الدين وتزيل همه وحزنه وتذهب صلاة الليل أخيراً بما عمله مصليها من ذنب في نهاره الماضي لأن فيها التوبة والاستغفار المزيل للذنوب والاثام.

وينبغي للمؤمن الناهض لها أن يتوجه إلى أنه قام بعض ليله من نومه ولذيذ رقاده للصلاة والاستغفار تقرباً من رب البرية والعباد فيخلص نيته لله في أداء صلاة هي شرفه وكرامته وعلوه وارتفاعه، وينبغي أن يتذكر انها نور في الظلمة وأنس في الوحشة ومناجاة مع العظمة ونداء لذات الجلالة وسنة من سنن الأنبياء واهل الولاية وخصلة توجب الأمن والقرب والجنة وتحرس من العذاب والنقمة وهي ذكر الله وتلاوة آياته وخلوة بالحبيب من دون غريب أو رقيب، واذا تذكر ذلك فينبغي أن يستفيد من قيامه ونهوضه ومن صلاته واستغفاره فينعكس على سلوكه وتصرفه في النهار القادم عليه بعد زوال الظلام فلايدع فريضة إلهية الا أتى بها واذا كان مقصراً تداركها ولايدع معصية إلهية إلا تركها واستغفر الله من الماضيات .

وصلاة الليل ثمان ركعات بعد كل ركعتين تشهد وتسليم وبعدالثمانية: ركعتان صلاة الشفع وبعدها ركعة واحدة تتضمن قنوتاً فيه دعوات واذكار عمدتها سبعون مرة من الاستغفار

وبعدها تعقيب ودعاء، ويراجع الكتب المفصلة للاستيعاب، وأهم شئ هو التوجه إلى الله باخلاص مع استحضار القلب لمعاني الأفعال والاذكار، والله الموفق ومنه قبول الأعمال الصالحات .

18- هذا غيض من فيض وقطرة من بحر من حديث الصلاة وأسرارها، وقد استوعب الفقهاء أحكامها وحدودها وهذه الأسطر اشارة بالمقدار القابل والجهد الممكن إلى بعض الأسرار والحكم والحقائق الباطنة والاداب الظاهرة مستمداً من آيات الله وكلمات رسوله ومن تبع باحسان من الأئمة الأبرار والفقهاء الأخيار وعلماء الاخلاق، وما خفي علينا –جميعاً- أكثر واعظم نسأله تعالى قبول الجهد وتوفيق العبد لأن تكون وريقاته خالصة لوجهه الكريم اكرم الوجوه وأعز الوجوه الذي عنت له الوجوه في صلواتها وخضعت لها الرقاب في عباداتها كما نسأله سبحانه لأن تكون وريقاته نافعة مفيدة لمن أراد التبصرة أو رغب التذكرة -وينبغي أن يعلم ان هذه الوريقات والأسطر بأجمعها مستمدة من كتاب الله أو من سنة رسوله الأعظم وأهل بيته الكرام- جهد الامكان ومن الله التوفيق للسداد .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)

1- هذه الآية الرابعة من سورة المزمل وهي من السور المكية القصار ولعلها من أوائل سور القرآن النازلة في مكة المكرمة، والمزمل هو المتلفف بثوبه عند النوم وفي بعض الأحوال وهي صفة النبي الأكرم (ص)، وقد عنيت هذه السورة الشريفة –على اصلها- ببيان مقومات المرحلة الأولى من نبوته ودعوته الشريفة فأمرته بقيام الليل للتعبد والتهجد وترتيل القرآن واستقبال الوحي بثقله وتذكير المنكرين المكذبين له بسوء العاقبة وهول الآخرة مع ندب المؤمنين المصدقين إلى مزيد المتابعة وتحري الطاعة .

2- (ورتل القرآن ترتيلا) :-

الترتيل هو التلاوة مع الترسل والاسترسال والتمهل والاصطبار وعدم الاستعجال في القراءة بأن يبين الحركات الاعرابية ويوضح الحروف المقرؤة ويجليها على وجه يتمكن السامع من عدها لو أراد أن يعدها، وان يوفي الحروف حقها من الاشباع والادغام والمد والاظهار للحروف والحركات من دون

استعجال أو ادراج حرف في نطق حرف آخر أو دمج حرف في حرف بحيث يضيعان ولا يظهران بوضوح وجلاء، وبعبارة مختصرة: الترتيل هو التأني في القراءة الصحيحة وترك الاستعجال وانما سمي ذلك بالترتيل تشبهاً بالثغر المرتل أي المتناسق الأسنان حيث تكون القراءة المرتلة متناسقة الحروف منضدة الكلمات ظاهرة الحركات فتكتسب بذلك حسناً باهراً وجمالاً ساحراً نظير جمال الأسنان المتناسقة وحسن الثغر المنضدة أسنانه ولحسن انتظامها واستواء ترتيبها .

3- هذه الآية الشريفة أصل عظيم من أصول تلاوة القرآن لأنها تأمر بترتيله عند قراءته وتلاوته وتؤكد الأمر بالترتيل (ترتيلا) وهو يكشف عن شديد العناية بالصفة المحبوبة ومزيد الطلب لها. وقد كان رسول الله (ص) والمخاطب بهذه الآية ومنه انتشر الخطاب إلى أتباعه وسرى إلى أولياءه كان هو وأهل بيته والجمع المؤمن من صحابته وأتباعه وفي جميع العهود يعتنون بترتيل القرآن ويمدون أصواتهم بقراءته مداً ويحسنون تلاوته له تجميلاً ويتدبرون في معاني القرآن تعظيما، وليس المراد من الترتيل المستحسن: مجرد تنضيد الحروف وتبيين الحركات وحسن نظمها، بل المقصود بترتيل القرآن هو تدبر معاني المقروء مقدمة للالتزام بأفكاره وامتثال أحكامه، ولعل الامر بالترتيل ناشيء من عونه على التأمل والتدبر واحضار القلب والفكر لتفهم آياته وتعقل جملاته ومن هنا جاء الأمر الشرعي واستقرت سيرة النبي الأكرم والكرام من أهل بيته وصحابته وتابعيه على انه اذا مروا بآية انذار أو وعيد أو تخويف أصغت مسامعهم إلى معانيها وخشعت قلوبهم من مضامينها واقشعرت جلودهم من تذكر غضب الله وجحيمه وعذابه حتى قد يتخيل بعضهم ان زفير جهنم وشهيقها يستعر في أصول آذانه فيستعيذ بالله سبحانه من غضبه ونقمته ناره وجحيمه، واذا مروا بآية غفران أو تشويق أو ترغيب ركنت قلوبهم اليها طمعاً وتطلعت نفوسهم اليها تشوقاً وظنوا ان رحمة الله نصب أعينهم وسألوا الله سبحانه رضوانه وقربه وجنته ونعيمه، وقد مر رسول الله (ص) مع بعض صحابته بمسلم يقرأ القرآن ويبكي خشوعاً لله وتعظيماً لمعاني كلامه فقال (ص) لأصحابه: (ألم تسمعوا قول الله: ورتل القرآن ترتيلا) هذا الترتيل)، وقد سئل

(ص) : أي الناس أحسن قراءة؟ قال: (اذا سمعته يقرأ رأيت انه يخشى الله)، وقد ورد في الخبر الصحيح عن الإمام الصادق (ع) قوله: (ان هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى فليجل جال بصره –طلب وأمر مشتق من أجال بمعنى طاف أي ليطف طائف ببصره حول آيات القرآن- ويفتح للضياء نظره، فان التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات للنور)) .

وقد استفاضت الروايات الشريفة في الندب إلى الترتيل والحث على القراءة المرتلة والتلاوة المحسنة وقد ورد في الأثر عن رسول الله (ص) : (يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف في أول درجة الجنة ويقال: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرأها)، وروي عن رسول الله (ص) وعن أمير المؤمنين (ع) السؤال منهما عن معنى الترتيل المأمور به في هذه الآية فأجابا : (بينه تبييناً ولا تنثره نثر الدقل –وهو اردأ أنواع التمر- ولا تهذه – أي لا تسرع بقراءته- هذ الشعر وقفوا عند عجائبه- أي عند معانيه العجيبة- وحركوا به القلوب ولا يكونن همّ أحدكم آخر السورة) –أي لا تفكروا في اكمالها وختمها سريعاً حيث يفوت معه التدبر والتفكر في المعاني- ومن قرأ القرآن ورتل آياته بهذا الوصف استحق من المسلمين الاحترام والتقدير والاعزاز والتكريم كما يستحق على الله الكرامة والمثوبة والاعلاء في الدرجة وقد أقسم الجبار -جل وعلا- بعزته وجلاله ان يكرم يوم القيامة من أكرم القرآن في عالم الدنيا- بأن أحسن قراءته وامتثل أوامره واجتنب نواهيه فان هذا هو المعنى الصحيح لاكرام القرآن- بل جاء في بعض الأخبار والآثار ان هؤلاء –المحسنين لقراءته الممتثلين لأوامره- هم أشراف أمة محمد وعرفاء أهل الجنة وهم الأبرار يوم القيامة وفي أعلى درجة من الآدميين ما خلا الأنبياء والمرسلين .

4- يستحب للأبوين العارفين بقراءة القرآن وترتيل آياته ومعاني كلماته أن يعلما أبنائهم وبناتهم القرآن ويسعيا في تعريفهم بفضل تلاوته وفي تعليمهم معانيه حسبما آتاهم الله من المعرفة والجهد فانه ورد في الخبر الصحيح عن الصادق عن آبائه عن جده رسول الله (ص): (تعلموا القرآن فانه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له: أنا القرآن الذي كنت أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك –أي أعطش

نفسه وقت الظهيرة الحار بتلاوة القرآن وترتيله ودراسته- واجففت ريقك وأسبلت دمعك .. فابشر، فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويعطى الأمان بيمينه والخلد في الجنان بيساره ويكسى حلتين، ثم يقال له: اقرأ وارقا –أي اصعد- فكلما قرأ أية صعد درجة، ويكسى أبواه حلتين ان كانا مؤمنين ثم يقال لهما: هذا لما علمتماه القرآن) .

5- اتفق فقهاء الإسلام على استحباب تحسين الصوت عند تلاوة القرآن وترتيله، وقد وردت الروايات الوفيرة تأمرنا بتحسين الصوت واشتهر قول رسول الله (ص): (حسنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً) وقال (ص): (لكل شئ حلية وحلية القرآن الصوت الحسن) وقد كان الإمام علي بن الحسين السجاد والإمام محمد بن علي الباقر (ع) من أحسن الناس صوتاً بالقرآن حتى اذا قاما في الليل يرتلان القرآن رفعا صوتهما به فيمر السقاؤون ونحوهم من عمال الليل ويقفون عند الباب يستمعون إلى الصوت الحسن من تلاوة القرآن وقد يصعق بعضهم من حسن الصوت وجمال الترتيل، ويشترط فيه أمران:-

الأول: يشترط في تحسين الصوت عند الترتيل أن يكون خالصاً لوجه الله وحباً بالله وطلباً لرضوانه –خالياً من الرياء وطلب الجاه والسمعة عند الناس- وقد جعل رسول الله (ص) في المأثور من حديثه (من قرأ القرآن رياءً أو طلباً للجاه والسمعة والاشتهار ممن يقضى عليهم بالعذاب الأليم يوم القيامة، رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم وقرت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل لك –أي أخذت أجرك حين اشتهر عنك ما طلبته في الدنيا وقيل في حقك: هو عالم وهو قارئ القرآن –ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار) فيجب على المؤمن القارئ للقرآن المرتل لآياته ان يطلب الأجر من الله باخلاص قصده وتنزيه نيته عن الشوائب الفاسدة ويتحذر من الرياء والمراءاة للناس ومن طلب الجاه والشهرة عند الناس كي يحذر من نقمة الجبار وغضب القهار وإلا فليتوقع (جب الحزن) ويستعد لاسقاطه فيه- وهو واد في جهنم أعده الله للقراء

المرائين تتعوذ جهنم منه مئة مرة كل يوم وقد نادى رسول الله بأعلى صوته مرات: (يا حامل القرآن تزين به لله يزينك الله به، ولا تزين به للناس فيشينك الله به) وقال (ص): (من تعلم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حب الدنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذين ينبذون –أي يتركون ويهجرون- كتاب الله وراء ظهورهم ومن قرأ القرآن يريد به سمعة –أي شهرة بين الناس- والتماس الدنيا لقي الله يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم وزج القران في قفاه حتى يدخله النار ويهوي فيها مع من هوى –أي سقط-، ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول: رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى فيؤمر به إلى النار، ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقهاً في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما أعطي الملائكة والأنبياء والمرسلون، ومن تعلم القرآن يريد به رياء وسمعة ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء ويطلب به الدنيا بدد الله عظامه –أي فرقها قطعاً متفرقة- يوم القيامة ولم يكن في النار أشد عذاباً منه وليس نوع من أنواع العذاب إلا سيعذبه به من شدة غضب الله عليه وسخطه، ومن تعلم القرآن وتواضع في العلم وعلم عباد الله وهو يريد ما عند الله لم يكن في الجنة أعظم ثواباً منه ولا أعظم منزلة منه ولم يكن في الجنة منزل ولا درجة رفيعة ولا نفيسة إلا وكان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل) .

الثاني: يشترط في تحسين الصوت عند الترتيل أن لا يكون ترتيله شبيهاً بألحان الأغاني المتداولة التي يعتنى فيها باخراج الحروف مقطعة والكلمات مرددة مع تعويج الوجه وتغيير الفم –كما هو المعتاد لدى بعض قراء ومجودي القرآن هذا الزمان ويااللأسف- فانه بدعة حادثة ابتدعها بعض البطالين من الجاهلين بأحكام الشرع والبعيدين عنها، وقد تنبأ رسول الله (ص) بهذه البدعة قبل أربعة عشر قرناً فقد روى ثقة الإسلام الكليني في (أصول الكافي) قول رسول الله (ص): (إقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، واياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، فانه سيجئ من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية لا يجوز تراقيهم – جمع ترقوة أي لا يتعدى العظم

البارز قرب نحره قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم) وروى الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) عن الحكيم عن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان (رض) ان رسول الله (ص) قال: (إقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون اهل الكتابين، وسيجئ بعدي قوم يرجعون بالقران ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم) والحاصل ان ترتيل القرآن –المرغوب فيه- يعني التأني والتمهل في تأدية الحروف بينة واضحة جلية لا تندمج بعضها في بعض ولا تضيع بعضها في بعض، وهو الذي جرت عليه سيرة المتدينين في بداية عصر الرسالة، وهي طريقة بعيدة عن طريق بعض القراء الملحنين قرائتهم بألحان أهل العشق والفسوق والعصيان، فلابد لقراء القرآن من الابتعاد عن الطريقة الغنائية خشية من الله وخوفاً من عقابه .

6- ينبغي للمؤمن التالي للقرآن المرتل لآياته أن يستفيد من هذه الارشادات والأنوار الرحمانية ويستنير بأضوائها ويتعقل حكمها وأسرارها فيكرم القرآن بقراءة حسنة وتلاوة مستحسنة بعد استعمال الطهور وتحصيل الوضوء ويتفهم رفعة الكلام ويتحسس عظمة المتكلم ويندمج بمشاعره وتفكراته مع معاني الكلام والطاف المتكلم ولا ينسى ان أمر الله بالترتيل والترسل وعدم الاستعجال في القراءة انما هو لأجل تمكن المرتل من تعقل المعاني الدقيقة واستيعاب الاشارات اللطيفة والمضامين العالية الرفيعة: فاذا مر بآية تذكر الله سبحانه أو بعض صفاته العليا جدد عهده واعتقاده بها وأكد اذعانه واقراره لها، واذا مر بآية تعد بالجنة والنعيم استبشر بها وتضرع إلى الله سبحانه يرجو بلوغها، واذا مر بآية عذاب أو وعيد بجهنم استعاذ بالله واستجار به من دخولها، واذا مر بآية ركوع أو سجود سجد لله تخضعاً وتخشعاً من جلاله وكبريائه وقرباً لساحة قدسه ورضوانه، واذا مر بآية من آيات أحكامه وشرعه جدد العهد لله بامتثالها ومراعاتها، واذا مر بآية قصة تفكر في خصوصياتها وأسرارها واعتبر بحكمتها وفلسفتها، وقد قال أمير المؤمنين في وصف المتقين في نهج بلاغته ورمز فصاحته (أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم ويستشيرون به دواء دائهم فاذا مروا بآية فيها تشويق

ركنوا اليها طمعاً وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم واذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم..) وخلاصة القول: ينبغي في مرتل القرآن وقاريء آياته أن يكون حاضر القلب متفهم المعاني ومدرك المضامين متدبراً في قراءته متأملاً كأنه يعيش لحظة نزولها على صدر الحبيب (ص) (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها..) محمد: 24، و(لا خير في قراءة لا تدبر فيها) كما قال علي أمير المؤمنين (ع) .

7- من آداب الإسلام: (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون) الاعراف: 204 . وهذه آية تأمر بالاستماع والانصات –أي تأمر باصغاء مسامع المؤمنين واذانهم لتلاوة الكتاب- والاستماع فيه معنى أكد وأزيد من السماع لان الاستماع يتضمن تعمد السماع وتقصده باختيار ورغبة وارادة وتوجه، بينما السماع يمكن أن يتحقق من دون قصد وتوجه أو من دون اختيار ومن غير ارادة، والانصات هو الاستماع إلى الصوت مع هدوء وسكوت ومراعاة لسماعه وتدبر معناه ومدلوله.

هذه الآية الشريفة تأمر السامع القريب من القارئ المرتل بالتوجه إلى صوت القارئ واستماع قراءته وهجر اللغو والصخب واستبداله بالسكون والسكوت والتوجه بالأذن والفكر إلى آيات القرآن المقروءة للتدبر في معانيها والتأدب مع ترتيلها والاكرام والتعظيم لها، لعل الله يرحمه بتأدبه ويحسن اليه وينعم عليه باستماعه .

هذه الآية الشريفة تعطي أدباً رفيعاً مع القرآن وتلاوته وقد جاءت السنة المطهرة بروايات عديدة عن رسول الله (ص) وأهل بيته الكرام (ع) تدل على وجوب الانصات والسكوت والاستماع لتلاوة القرآن في صلاة الجماعة اذا كان المأموم يسمع امام جماعته وتصل قراءته إلى أذنه ومسامعه ثم تطبق الآية الشريفة على هذا المورد الخاص، وهو من تطبيق الآية العامة على المورد الخاص لأهميته وأفضليته وقد أفتى الفقهاء باستحباب انصات المأموم وسكوته استماعاً لقراءة امام الجماعة وانصاتاً لتلاوته، لكن مقتضى الآية الشريفة –وهي مطلقة اللفظ وسيعة المدلول- استحباب الانصات والاستماع في جميع الموارد وعلى كل من يسمع قراءة قران أو تلاوة آياته

وترتيل حروفه سواء في صلاة الجماعة أم في غيرها من الأحوال، بغية ترتب الثمرة القصوى من الاستماع والانصات وهو التدبر المحبوب في آي الذكر المسموعة والله الموفق للسداد .

بسم الله الرحمن الرحيم
(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

1- هذه الآية الشريفة هي الثالثة والثمانون بعد المائة من آيات سورة البقرة الشريفة المطولة وهي تقع ضمن ايات تتكفل تشريع ركن من أركان الإسلام وعماد من أعمدته الخمسة التي بني عليها وتأسس بها كما أشار إلى هذا المعنى سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه صلوات الملك العلام .

2- (يا أيها الذين آمنوا):- هذا خطاب شايع نحو المؤمنين يناديهم مذكراً بأساس العلاقة وأس الرابطة بين المنادي –جل وعلا- وبين المنادى وهي صفة الإيمان، ولعل الغرض من تقديم الآية الكريمة بهذا النداء هو تذكير العباد بالصفة وان النداء من توابع الصفة ولوازم الإيمان ومتطلبات الإسلام لعلهم يستقبلون الخطاب بالامتثال واليقين والاذعان، وقد ورد في الأثر عن مولانا جعفر الصادق (ع) انه قال: (لذة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء) وهو يشير إلى مسلك العبادة عن طريق محبة الله حيث يتعامل العابد مع المعبود معاملة الحبيب اذا خاطبه حبيبه بخطاب او ناداه بنداء فكما يكون المحب مأنوساً بتوجه حبيبه اليه ومخاطبته اياه بحيث تذهب لذة الخطاب وأنس النداء بكل تعب وعناء كذلك ينبغي أن يكون محب الله –وهو المؤمن التابع لأمر مولاه- مأنوساً بنداء الله (يا أيها الذين آمنوا) ومبتهجاً بخطاب الله بحيث اذا استجاب للنداء استجاب عن محبة وانس وابتهاج فلا يبقى في نفسه شئ من تعب العبادة وعناء الطاعة

والامتثال (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)ال عمران: 31، لاسيما لو التفت المؤمن إلى عظمة الله المخاطب ولطفه بعباده ورغبته سبحانه في تقريبهم إلى الصلاح وابعادهم عن الفساد في جميع تشريعاته –ومنها تشريع الصيام- والتفت إلى أن خطابه ونداءه وكتابة تشريعه على عباده هو تشريع وتكريم من الحبيب اللطيف، وبهذه الالتفاتة يندفع إلى العبادة والطاعة وقد زال تعب التكليف واقترن الامتثال بالمحبة والانس والتسليم وصدق من قال (لذة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء).

3- (كتب عليكم الصيام):- الكتابة: هي الخط المكتوب على لوح أو ورقة، وهنا الكتابة كناية عن الفرض والالزام والايجاب نظير قول الشاعر:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

ومعنى الجملة الشريفة هو: فرض عليكم الصيام وأوجبه الله عليكم وأثبته عليكم والزمكم به.

الصيام: مصدر يعني الامساك وترك الانتقال من حال إلى حال، فيقال للصمت: صوم (إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم أنسياً) مريم: 26، لأنه امساك عن الكلام وترك لتحريك اللسان وانتقاله من حال إلى حال ومن موضع إلى موضع، ويقال للريح الراكدة: هي في صوم لأنها أمسكت عن الحركة والهبوب.

والصيام والصوم في شرع الإسلام هو الإمساك في النهار –من طلوع الفجر إلى الليل- عن مجموعة امور- عمدتها الاكل والشرب والتمتع الجنسي- مصحوباً بالقصد والنية الخالصة لله سبحانه، وفي الفقه الشريف تفصيل أحكام الصيام ومنافياته وخصوصياته وأنواعه وحدودها، ثم انه سبحانه لما افصح عن كتابة الصيام وفرضه على هذه الأمة المؤمنة المرحومة وهو تكليف ثقيل لما فيه من الصبر عن الطعام والشراب وعن المتع الجنسية الحلال فضلاً عن الحرام أراد سبحانه أن يخفف من ثقله ويهون من شدته وييسر من عسره فقال سبحانه:-

4- (كما كتب على الذين من قبلكم):-

والكاف (كما) حرف تشبيه وأداة تنظير و(الذين من قبلكم): هم الطوائف الماضية والملل السابقة والأمم المتقدمة

على هذه الأمة المخاطبة بهذا الخطاب، ولم يبين –جل وعلا- من هم الذين من قبلنا ممن فرض عليهم الصيام وظاهر الآية الشريفة يفيد انهم من الملل السماوية والديانات الالهية لأن هؤلاء هم الذين يصح التعبير (كما كتب على الذين من قبلكم) وليس في هذه الآية دلالة على أن الصيام المكتوب على الملل السابقة شبيه الصيام المكتوب علينا بالشبه التام الكامل وفي جميع الخصوصيات والحدود والأحكام، وتكفي المماثلة والمشابهة في أصل الصيام المفروض مع غض النظر عن الأوصاف والخصوصيات والأزمان فانه بهذا القدر تصح المماثلة ويتم التشبيه، وقد علم واشتهر مشروعية الصيام في الملل السالفة والديانات السابقة بل هو عبادة قديمة وتنسب مشروعيتها إلى بعض الملل الوثنية والطوائف المشركة، لكنه ورد في الروايات عن الامام جعفر الصادق (ع) في تفسير الآية الشريفة (انما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الامم ففضل به هذه الأمة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله (ص) وعلى امته) وهذا التفسير لا يصطدم مع ظاهر الآية الشريفة فانها تفيد كتابة الصيام وفرضه على الأمم السابقة وهو مجمل لم يبين فيه نوع الكتابة وعلى جميع الأمة ولعله سبحانه.. كتب الصيام بنحو الفريضة الواجبة الالزامية على الأنبياء والأولياء والعلماء الحواريين وكتب الصيام بنحو الندب والمحبوبية دون الفرض اللازم على باقي الأفراد وعموم العباد، ويؤكد هذا الاحتمال: تواتر الروايات بين المسلمين بوصف صوم الأنبياء السابقين وبعض أتباعهم المقربين دون أن تتحدث عن وصف صيام العباد العاديين، وقد جاء في الصحيفة السجادية قول زين العابدين (ع): (ثم آثرتنا به –أي بصوم شهر رمضان- على سائر الأمم واصطفيتنا دون أهل الملل فصمنا بأمرك نهاره وقمنا بعونك ليله) وهكذا جرت السيرة والسنة في هذه الأمة المرحومة: يصومون بأمر الله نهار شهر رمضان ويقومون بعون الله ليله كل حسب طاقه وقدرته ورغبته، ومن الله القبول .

5- لعلكم تتقون:-

لعل: أداة ترجي، وهي بمثابة التعليل لكتابة الصوم وقضائه على الأمة المرحومة، وفي هذه الجملة اشارة واضحة ودلالة تكاد تكون ناصعة على السر والحكمة البارزة في تشريع

الصيام وكتابته على الأنام، وهو رجاء التقوى وأمل النجوى في الدنيا والاخرى، ومن الملاحظ في شهر رمضان المبارك عند الصائمين المتقين ان فريضة الصيام وعبادة الصوم تعد نفوس الصائمين للتقوى والتقرب من رب العباد والتجنب والابتعاد عن مسالك الشيطان ومهالك العصيان، وتربي الصائمين على تحمل الجوع والعطش والتعفف عن المتع الجنسية الحلال فضلاً عن الحرام، وعلى تحسس آلام الفقراء ممن يتضورون جوعاً باقي الأيام أو يتعذبون لفقد الكساء والفراش، وهذه الفريضة وسيلة تربوية عظمى لتزكية النفوس عن الحرام وتربية الأرواح على أداء الواجبات وتكافل الأنام والرأفة بالفقراء والنزوع لأداء الفرائض الشرعية والزكوات الخيرية والمعونات المادية مع الإقبال على بعض الآداب والمستحبات والدعوات، ويمكن القول: ان فائدة صيام شهر رمضان من الجهات الروحية والمادية الدنيوية والاخروية لا تعد ولا تحصى، ويكفي الصوم فائدة أن يكون الانسان الصائم مرتقياً من حضيض النفس البهيمية الشهوانية إلى ذروة الشباهة وقمة المماثلة بالملائكة السامية الروحانية، وهذا التسامي والارتقاء أمر محسوس ملموس الآثار عند جميع الصيام وغير قابل للجحود والانكار، ولا داعي للاستقصاء بعد الوضوح والجلاء، وحينئذ يتضح جمال التعبير وحسن البيان (لعلكم تتقون) تعقيباً لكتابة الصوم ، وهي جملة شريفة تفيد كون التقوى والنجاة مرجوة الحصول من فعل الصيام المكتوب لما فيه من الإعداد والتهيئة لضبط النفس الجامحة عن السوء والعصيان وتحليتها بالطاعات والقربات بعد امساكها عن جميع منافيات الصيام .

6- هذه الآية الشريفة أصل عظيم في فرض الصيام وايجاب الصوم –الذي هو أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الدين والاسلام على ما صرحت به الأخبار المحمدية ونطقت به الآثار المصطفوية- وقد خصت بعض الأخبار ركنية الإسلام في خصوص صيام شهر رمضان فهو الركن العماد والوتد السناد لشرع الإسلام الرشاد، وتواترت الأخبار عند المسلمين في بيان وجوبه وفرضه على المسلمين حتى أصبح وجوب صوم شهر رمضان من الواضحات ومن ضروريات الدين وبديهيات الشرع الرشيد، والصوم يعني توطين النفس على الامساك عن الأكل

والشرب والمتعة الجنسية وهو نوع خضوع وخشوع للرب ومأثور عن بعض الأمم المتدينة السابقة بل بعض الملل المشركة والوثنية الكافرة بالله سبحانه، وقد أقرّه القرآن كعبادة وامضاه الإسلام كقربة يتقرب به العباد إلى الرحمن المناد –تقدس في علاه- وتتلخص هذه العبادة المأثورة في الامتناع والإمساك عن بعض المشتهيات في بعض الأوقات تخضعاً للرب الجميل وتذللاً للمولى الجليل، وان اختلفت صور تحقيقها من ملة إلى ملة ومن ديانة إلى ديانة ومن طائفة إلى طائفة .

7- جاء لهذه الآية الشريفة تكملة في جوارها (أياماً معدودات) وهي تكملة بالمفعول فيه وبالظرف الواقع فيه هذه العبادة المكتوبة والطاعة المفروضة.. هي أيام محدودة معدودة وقليلة غير مستمرة بل تقف عند حد وتصل إلى عدد ثم تنتهي، وهذا نحو تعبير جميل يراد به تقليل الخطر وتخفيف الأثر وتيسير الثقل المحسوس به من كتابة الفرض وتشريع الصوم هي أيام معدودة لا تستمر طيلة السنة وتمام العمر.. ثم جاءت آية لاحقة لتلك الآيتين بقول مفسر لهذه الأيام المعدودة (شهر رمضان..)البقرة:185، فالأيام المعدودة التي كتب فيها الصيام هي أيام شهر رمضان هذا الشهر الفضيل والزمن الشريف الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس أي لأجل هدايتهم وارشادهم.

ولعل هذا التقطيع في العرض –أثبت بدواً كتابة الصيام ثم أثبت الظرف والزمان اجمالاً ثم اوضحه تفصيلاً- لغرض ونكتة جميلة يحسن بنا التوجه اليها: انه لما اختلفت خصوصيات الصوم المكتوب على الأمم المرحومة بالنوبات والديانات واجتمعت بتمامها على مشروعية أهل الصيام وشاءت الحكمة العلوية والارادة الربوبية تشبيه أمة محمد(ص) بالأمم السالفة جعل سبحانه تعبيره مخصوصاً بأصل الصيام دون قرنه بالخصوصيات لكي يصح التشبيه ويحسن التمثيل ويؤثر اليسر والتخفيف، ثم شاءت الحكمة التعبير بالاختصار والبيان بالاجمال لغرض تطمين الأمة بعدم تشريع الصيام طيلة العمر ودوام الزمان بل هي (أياماً معدودات) ثم صدر البيان التفصيلي والتعبير التوضيحي: (شهر رمضان) لغرض تعيين الأيام وتحديد الزمان المقوم للصيام الذي بني عليه الإسلام .

8- روى المحدثون حديثاً قدسياً وكلاماً ربوبياً مضمونه قوله سبحانه (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فانه لي وأن اجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي) ولعل المقصود بهذا الحديث الشريف: ان أعمال الإنسان غالباً –وهي الأعمال المرتبطة بالله سبحانه طبعاً- هي أعمال اثباتية وأفعال وجودية فتكون ظاهرة للخلق كما هي بارزة للحق –سبحانه- ويمكن أن يتطرق اليها النقص بسرعة وسهولة نظير الرياء أو طلب الجاه والسمعة والشهرة لدى الناس ويمكن أن يصدر العمل من الانسان من دون قصد القربة ومن دون أن يكون مظهراً من مظاهر العبودية، لكنها –أعني الأفعال الوجودية- بخلاف الصوم فانه عمل سلبي وفعل عدمي لابن آدم –يترك اموراً وحسب بقصد القربة- ولا تظاهر فيه أمام الخلق ولا بروز له اتجاه العبد لانه انصراف وامتناع محض عن استجابة نداء الشهوات المادية والغرائز البدنية ويتمكن العبد من الهروب عن امتثاله والفرار من اتيانه بالافطار الخفي لكنه لا يهرب و يفر بل يمتنع عن المفطرات ويمسك فاذا أمسك تقرباً إلى الله وامتثالاً لأمره دلّ هذا على مظهر سامق من مظاهر العبودية وكشف هذا عن معلم واضح من معالم الاذعان بالربوبية، ومن هنا كان الصوم العمل العبادي الوحيد الذي يستحق مثل هذا التكريم (الصوم لي وأنا اجزي به) وكل عمل ابن آدم لابن آدم ما سوى الصيام فانه لله والله بذاته المقدسة يجازي به ويثيب عليه من دون وساطة مخلوق وولاية مملوك، وكما ان العبد صام لله مخلصاً وخالصاً لم يراقب بصومه سواه وكان يمكنه التظاهر بالصيام واخفاء الافطار ولم يفعل ذلك، ولذلك جعل اللطيف الخبير حقاً على ذاته المقدسة أن يجازي هو –وبذاته- ذاك العبد الذي ظهر منه الاخلاص وحق العبودية بالصيام وبذل أقصى درجة الخضوع والتبعية للعليم العلام جل في علاه .

9- قد اطال بعض الكتاب في بيان فوائد الصيام ويحسن بنا أن نشير إلى بعض الفوائد العامة الواردة في أخبار آل بيت محمد –عليهم الصلاة والسلام- ورد في الرواية الصحيحة عن جعفر بن محمد الصادق (ع) وقد سئل عن علة الصيام قال: (انما فرض الصيام ليستوي به الغني والفقير وذلك أن الغني لم يكن ليجد مس الجوع فيرحم الفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً

قدر عليه فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه وأن يذيق الغني مس الجوع والألم ليرق –أي ليكون رقيقاً- على الضعيف و يرحم الجائع) وفي رواية أخرى (ليجد الغني مضض الجوع فيحنو على الفقير) وقد أشارت هاتان الروايتان إلى عدة من فوائد الصيام: منها الفائدة الاجتماعية الانسانية –أعني تساوي الغني والفقير في حال الصيام من جهة الاحساس بالحرمان من المشتهيات- فأراد الله بفريضة الصيام على جميع العباد –غنيهم وفقيرهم- تسويتهم في الاحساس والشعور، مقدمة لفائدة عظيمة أخرى هي الفائدة التعاونية والخيرية حيث أن الصائم الغني يجد ألم الجوع والعرى ويحس مضض الحرمان والأذى فيكون داعياً ذاتياً ودافعاً روحانياً نحو الحنو والعطف على الفقراء والحنان والرأفة بأحوال البؤساء، ولولا فرض الصيام على الأنام قد لا يتحسس أحد من الأغنياء ألم الجوع ومضض الحرمان من الطعام والشراب والزواج الحلال لأن الأغنياء يصلون بأموالهم إلى جميع احتياجاتهم ورغباتهم وتمام اراداتهم ومشتهياتهم ففرض الله الصيام ليتحقق الشعور والاحساس عند هؤلاء وعندالقريب من درجتهم وشبيه مكنتهم ، وفي نهج البلاغة قول علي(ع) (لكلٍ شيءٍ زكاةٌ وزكاة البدن الصيام) ولعله (ع) يشير إلى الفوائد الصحية والروحية المترتبة على الصيام فإنه مطهر للأبدان ومزكيها من المضار والأمراض العديدة (صوموا تصحوا) وقد قرأت في جريدة لطبيب عربي كبير اكتشاف ذوي الاختصاص حماية الصوم الانسان من مئة وسبعين جرثومة ومرضاً وداء ولعل الأيام المقبلة تكشف المزيد لأن ما خفي أعظم حسب اطلاع الرؤوف اللطيف، كما أن الصوم مطهر الأرواح ومزكيها من الأمراض والمضار بل هو يجلب الخير والنفع والزكاة والنماء للأبدان والأرواح (صوموا تصحوا) وفي رواية عن الرضا (ع): (انما أمروا بالصيام لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة، وليكون الصائم خاشعاً ذليلاً –أي لله- مستكيناً مأجوراً محتسباً عارفاً صابراً على ما أصابه من الجوع والعطش فيستوجب الثواب، مع ما فيه من الامساك عن الشهوات ويكون ذلك واعظاً لهم في العاجل ورائضاً لهم –أي مروضاً ومدرباً لهم- على أداء ما كلفهم ودليلاً لهم في الآجل – أي في الآخرون المؤجلة- وليعرفوا شدة مبلغ –أي تأثير- ذلك

على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا فيؤدوا اليهم ما افترض الله لهم في أموالهم) أي من الزكوات والخيرات، فينبغي ويؤمل في الانسان المؤمن اللبيب أن يستفيد من عبادة الصوم روحياً في زكاة بدنه وروحه معاً فلا يكون صيامه مجرد كف النفس عن الطعام والشراب والفراش و(كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش) أو ليس له من صومه إلا تقديم أكلة على الفجر وتأخير أكلة إلى المغرب بل وتعويضها باكلة مضاعفة ويجعل صومه وسيلة إلى التزود من المطعم والمشرب..
فينبغي ويؤمل في المسلم اللبيب ذي العقل الحصيف أن يجعل صومه منطلقاً إلى كف النفس عن المشتهيات الزائفة والشهوات والسفالات التافهة والملذات الزائلة، ومبعثاً على الالتحاق بالنفس إلى ركب الملائكة الروحانية والارتفاع بالقلب عن حضيض النفس البهيمية إلى أعالي المقامات الملكوتية وذلك بقمع الشهوات والسفالات ومنع المعاصي والسيئات واطلاق الرحمات والخيرات، وتعويد النفس على هذه الطريقة لما بعد شهر الصيام والقيام، وحينئذ يكون صومه واجداً لأثاره المأمولة ومنافعه المرجوة (ويا حبذا نوم الاكياس وفطرهم) فيكون نومه في صومه عبادة وافطاره بعد صيامه منفعة ومن دون هذا المسلك يكون الصوم مجرد أداء واجب ومحض دفع عقاب وجلب ثواب وقد يقارنه –لا سمح الله بذلك- اطلاق الجوارح ببعض الآثام وارسال الأعضاء ببعض أسباب الجرائم والعصيان فيفقد صومه أثره وسره وحكمته وجوهره، وأخيراً ينبغي أن يتذكر الصائم قول رسول الله (ص): (انما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته) ولا يفرط فيها استجابة لنداء شهوته واعراضاً عن نداء ربه فيحفظ صيامه وأمانته من الاختلال والفساد ببعض المحرمات أو بعض المفسدات كالرياء أو العجب أو طلب الجاه، والله الموفق للصواب .

10- ذكر الفقهاء للصيام أقساماً عمدتها صوم شهر رمضان فانه ركن قويم وعماد عظيم من عمد الإسلام والدين الحكيم وقد استوعبت كتب الفقه أحكام الصيام وحدوده ومنافياته نوكل اليها هذه التفاصيل، ونرغب هنا أن ندون للقارئ الكريم تذكرة كريمة وخطبة لرسول الله (ص) حكيمة خطبها في المسلمين قرب حلول الشهر الشريف –كما هي عادته في

أعوام عمره الشريف- بعد أن طلب من (بلال) أن ينادي في الناس ويجمعهم في مسجده الشريف المبارك وصعد المنبر خطيباً –صلوات الله عليه وعلى آله وأتباعه باحسان فقال:-

(أيها الناس –خطاب عام إلى جميع الأنام من حضر ومن غاب ومن وجد بعد ذاك الزمان- انه قد أقبل اليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله وجعلتم فيه من أهل كرامة الله، أنفاسكم فيه تسبيح –لما ذكر (ص) ضيافة الله لعباده الصائمين وتكريمه سبحانه لعباده المتقين جاء لبيان أنحاء الضيافة وأشكال الكرامة فبشرنا بأن تنفسنا وحده من دون عمل خير هو تسبيح لله وتقديس يكتب لنا الثواب من دون عمل- ونومكم فيه عبادة- وان لم يصدر من النائم عمل سوى كفه عن المفطرات وامتناعه عن منافيات الصيام- وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فان الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه،وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم وصلوا أرحامكم واحفظوا ألسنتكم –أي صونوا ألسنتكم وامنعوها من الكلام الحرام كالغيبة والنميمة والفحش والسباب والبذاء والتعرض لأعراض الناس ونحوها من محرمات اللسان- وغضوا عما لا يحل النظر اليه أبصاركم- أي غضوا أبصاركم واكسروا أجفان عيونكم عن النظر المحرم على البصر كالنظر إلى المرأة الأجنبية والصور الخليعة والى الكتب الضارة والى بعض الأفعال الضارة –وعما لا يحل الاستماع اليه أسماعكم- أي غضوا أسماعكم وامنعوا آذانكم عن الاستماع المحرم الذي لا يحل لكم كالاستماع إلى الغناء والفحش والشعر الفاسد والكلام الضار الناقص –وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم- فانه قد يأتي أجل أحدكم وتذهب أمواله العظيمة بطريقة وسبب من أسباب الدنيا القاهرة فيبتلي أبناؤه باليتم والفقر والحرمان وحينئذ يكون لتحننه في حياته على أيتام الناس أثراً وضعياً في توجه الله وعنايته لتسخير الأغنياء كي يتحننوا على أيتامه من بنيه وبناته

–وتوبوا إلى الله من ذنوبكم وارفعوا اليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلاتكم فانها أفضل الساعات ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده: يجيبهم اذا ناجوه ويلبيهم اذا نادوه- اذا قالوا مستغيثين: يا الله، أجابهم –لبيك عبدي وسعديك أنا متوجه اليك اتق المحرمات وادعني تجدني مجيباً لدعوتك اذا رأيت فيها صلاحك- ويعطيهم اذا سألوه ويستجيب لهم إذا دعوه أيها الناس: ان أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم –أي ان أنفسكم أسيرة أعمالكم: الخطايا والحسنات ففكوا أسرها بالتوبة الى الله واستغفار ذنوبكم وخطاياكم منه سبحانه، وظهوركم ثقيلةبأعمالكم السيئة فخففوا عن ثقلها بسجود طويل لله خالصاً من الرياء وطلب السمعة فان أقرب ما يكون العبد به إلى الله هو حال السجود ليكون عفو الله بسبب السجود والاستغفار مخففاً عن ظهوركم الثقيلة بأوزاركم ومعاصيكم –واعلموا ان الله أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين، أيها الناس من فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه قيل: يا رسول الله فليس كلنا نقدر على ذلك، فقال –صلوات الله عليه واله-: اتقوا النار ولو بشق تمرة، اتقوا النار ولو بشربة من ماء، أيها الناس: من حسّن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام ومن خفف في هذا الشهر عما ملكت يمينه –من العبيد والاماء وأيضاً من الخدم والصناع والعمال- خفف الله عليه حسابه، ومن كف فيه شره كف الله عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً اكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمة وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار ومن أدى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلاة عليّ ثقل الله ميزانه يوم تخف الموازين –اللهم هذه ليلة النصف من شهر رمضان اكتب فيها هذه السطور وهي ليلة ميلاد سبط حبيبك الحسن بن علي المجتبى، صل اللهم على محمد وآل محمد عدد ما أحصاه علمك- ومن تلا فيه آية من القرآن كان له

أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور، أيها الناس: ان أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عنكم وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم والشياطين مغلولة –أي ممنوعة مكتفة بالأغلال موثوقة بالسلاسل والأصفاد لا تتمكن من الاقتراب إلى العباد ومن اضلالهم وبسبب بركات الشهر الشريف تضعف وسائلهم عن التأثير والاضلال – فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم. قال علي أمير المؤمنين (ع): فقمت وقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: ((يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله)) .

11- ينبغي التحلي في شهر رمضان المبارك بالأخلاق الفاضلة والآداب المستحبة أكثر من كل شهر وينبغي الاعتناء الزائد بالطاعات الواجبة مع العبادات المستحبة أكثر من كل وقت، فيواظب –بعد أداء الواجبات وترك المعاصي المحرمات- على المستحبات المأثورة والدعوات الشريفة والمناجاة الموسومة في كتب الفقه والدعاء الموثوقة المشهورة ليخرج الشهر الفضيل وقد ألقى الصائم ذنوبه عن ظهره وأحرز غفران خطيئاته أو تخفيف اثامه ثم إذا خرج الشهر الشريف وهل هلال العيد يستقبله بالخير والطاعة والزكاة العبادة فيخرج زكاة فطره عن نفسه وأهله ويعطيها لفقير محلته فان لم يوجد يوصلها إلى فقير بلده وان لم يتمكن يوكل ثقة يوصلها إلى فقير أمته ونحلته، ثم يصلي صلاة الليل بعد بزوغ الصباح ويستديم حالة التقى والفلاح والصلاح إلى ما بعد تلكم الساعات من الشهور والأيام بعيداً عما يفعله بعض الناس من الانصراف إلى بعض الملاهي والمحرمات معتقدين انه من مقتضيات العيد ومتطلبات اليوم السعيد، وقد مر الامام المجتبى في يوم عيد بجماعة يضحكون ويلعبون مثل ما نرى من بعض الناس في زماننا فقال لهم الحسن بن علي المجتبى (ان الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه) أي موضعاً لعمل الخلق الخير، وفي نهج البلاغة: (ألا وان المضمار اليوم والسباق غداً –أي العمل الصالح اليوم والاستباق إلى الجنة غداً- يستبقون فيه لطاعته فسبق أقوام –إلى طاعته وتقواه- ففازوا وتخلف أقوام فخابوا- أي فشلوا- فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز

فيه المسارعون –أي المستبقون بالخيرات- وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه والمسئ عن اسائته) أي اشتغل المحسن بفعل الحسن صحيحاً تاماً لينفعه وانصرف المسئ عن اساءته وعصيانه ليدفع عن ذاته السوء والعذاب، فينبغي للمؤمن اللبيب أن لا ينسى الله بمجرد بزوغ هلال العيد فينصرف إلى المعصية بل يذكر الله بالطاعة والمتابعة ويستديم هذا الحال فان عيد المؤمن هو كل يوم لا يعصي فيه الله ولا يقصر في واجب من واجباته وكما قال علي أمير المؤمنين (ع): (كل يوم لا يعصى فيه الله فهو عيد) .

12- وثمة تذكرة أخيرة لمن صام شهر رمضان فبدأت في أثناء الشهر وبعد مضي أيام منه تظهر عليه آثار الصوم الروحية وتبدو أنوار الامساك القلبية: فليشكر الله سبحانه على هذه النعمة حيث فرض عليه عبادة عظيمة مثل الصيام وجعلها من أركان الإسلام وهي عبادة –مع ما فيها من العناء والامساك- قاهرة في الانسان لقواه وكاسرة لسطوه هواه- الذي هو مصيدة الشيطان لعبيد الرحمن ومنه تنبعث الخطايا والاثام- وليتذكر قوله سبحانه في الحديث القدسي (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام إنما يذر –أي يترك الصائم- شهوته وطعامه وشرابه لأجلي فالصوم لي وأنا أجزي به) وليتفكر المؤمن الصائم من مجريات أحداث الآخرة وأهوال التحقيق والحساب في عالم القبر والبرزخ وفي عالم الحساب والقيامة وعسى أن يكون تفكره ساعة من ساعات شهر الصيام ((وتفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة)) داعياً على القرب إلى الله ودوام الحال الصالح السعيد عند الله لاسيما وهو في حال الصيام الكاسر للقوى والقاهر للهوى حيث يكون انضمام التفكر المزبور إلى الحال المذكور مؤثراً فاعلاً في القلب والروح مؤكداً للعزيمة والارادة على استمرار الطاعة واجتناب المعصية وتحصيل المغفرة للذنوب الماضية وبهذا لا يكون يوم صومه كيوم فطره بل يكون يوم صومه خيراً من يوم فطره ومؤثراً في تحسين حاله بعد فطره وخروج شهر صيامه.

ويحلو لي ان أختم بالمسك تذكرة علوية في هذا المقام رواها حفيده السجاد زين العابدين (علي بن الحسين بن علي) انه سمع أباه يحدثه عن أبيه (علي) وكان يحدث الناس

ويخاطبهم بقوله: (إذا كان يوم القيامة بعث الله تعالى الناس من حفرهم عزلاً بهما –أي مجردين عن كل شئ مثل البهائم –جرداً مرداً- أي مجردين من الثياب وعن الشعر- في صعيد واحد يسوقهم النور وتجمعهم الظلمة حتى يقفوا على عقبة في المحشر فيركب بعضهم بعضاً ويزدحمون دونها فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم ويكثر عرقهم ويضيق بهم أمورهم ويشتد ضجيجهم ويرتفع أصواتهم) قال: (وهو أول هول من أهوال يوم القيامة فيشرف الجبار تعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلائق انصتوا واستمعوا، فينادي الجبار فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم فتنكسر أصواتهم عند ذلك وتخشع أبصارهم وتضطرب فرائضهم وتفزع قلوبهم ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت- والمنادي وهو ناحية القدس والجبروت، أي تتوجه ذواتهم بتمامها وعمدة أعضائها نحو الجبار المنادي خائفة من جبروته شاعرة بعظمته- مهطعين إلى الداعي، فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسير فيشرف الجبار تعالى ذكره الحكم العدل عليهم فيقول: انا الله لا اله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي لا يظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه ولصاحب المظلمة بالمظلمة القصاص من الحسنات والسيئات –أي يأخذ للمظلوم من ظالمه حسناته ويعطيها إلى المظلوم أو يأخذ من سيئات المظلوم ويزيدها على سيئات ظالمه- وأثيب على الهبات ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها صاحبها وأثيبه عليها- أي أثيب على هبة مظلمته لظالمه-وآخذ له بها عند الحساب وتلازموا ايها الخلائق واطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدنيا وأنا شاهد لكم بها عليهم وكفى بي شهيداً، فيتعارفون ويتلازمون فلا يبقى أحد له عند أحد مظلمة أو حق إلا لزمه بها، فيمكثون ما شاء الله فيشتد حالهم ويكثر عرقهم –من شدة الموقف وظهور المظالم واشتغال ذممهم بظلمهم في عالم الدنيا- ويشتد غمهم وترتفع أصواتهم بضجيج جديد فيتمنون المخلص –أي الخلاص- منه بترك مظالمهم لأهلها، ويطلع الله تعالى على جهدهم فينادي منادٍ من عند الله يسمع آخرهم كما يسمع أولهم: يا معشر الخلائق انصتوا

لداعي الله تعالى واسمعوا، ان الله تعالى يقول: أنا الوهاب ان أحببتم أن تتواهبوا فتواهبوا، وان لم تتواهبوا أخذت لكم بمظالمكم فيفرحون بذلك لشدة جهدهم وضيق مسلكهم وتزاحمهم، فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلصوا مما هم فيه ويبقى بعضهم فيقول: يا رب مظالمنا أعظم من أن نهبها، فينادي مناد من تلقاء العرش: أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس ؟ فيأمره الله تعالى أن يطلع من الفردوس قصراً من فضة بما فيه من الآنية والخدم، فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصيف والخدم فينادي مناد من عند الله تعالى: يا معشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر، فيرفعون رؤوسهم فكلهم يتمناه، فينادي مناد من عند الله تعالى: يا معشر الخلائق هذا لكل من عفا عن مؤمن، فيعفو كلهم إلا القليل، فيقول تعالى: لا يجوز إلى جنتي ظالم ولا يجوز إلى ناري ظالم لأحد من المسلمين عنده مظلمة حتى يأخذها منه عند الحساب، أيها الخلائق استعدوا للحساب ثم يخلي سبيلهم فينطلقون إلى العقبة فيكرد –أي يدفع- بعضهم بعضاً حتى ينتهوا إلى العرصة –عرصة الحساب- ثم نشرت الدواوين –أي صحف أعمال الخلائق- ونصبت الموازين واحضر النبيون والشهداء ليشهد كل امام على أهل كل عالمه بانه قد قام فيهم بأمر الله تعالى ودعاهم إلى سبيل الله تعالى، فقال له رجل من قريش: يا ابن رسول الله إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة أي شئ يؤخذ من الكافر وهو من أهل النار؟ فقال له علي بن الحسين (ع) يطرح على المسلم من سيئاته بقدر ما له على الكافر، فيعذب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله –أي اتجاهه- من مظلمته، فقال له القرشي: فاذا كانت المظلمة لمسلم عند مسلم مظلمة كيف يؤخذ مظلمته من المسلم؟ قال: يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حق المظلوم فتزاد على حسنات المظلوم، فقال له القرشي: فان لم يكن للظالم حسنات؟ قال: ان لم يكن للظالم حسنات فان كان للمظلوم سيئات يؤخذ من سيئات المظلوم فتزاد على سيئات الظالم) رواه ثقة الإسلام الكليني في (الكافي) .

بسم الله الرحمن الرحيم
(وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

1- هذه الجملة هي النصف الثاني من الاية السابعة بعد التسعين من سورة ال عمران ، وهي سورة مدنية مفصلة ومن طوال السور التي عنيت ببيان اصول الدين وتركيزها في نفوس المسلمين بعد أن إستقر أمر الإسلام والمسلمين في المدينة وتركزت دعائمهم مقداراً ما وثبت للدين كيان على الأرض ووجود كبير في قبال الديانات السابقة وفي مقابل وجود اهل الكفر والاشراك ، كما عنيت هذه السورة ببيان بعض فروع الدين واحكامه واخلاقه الفاضلة التي كانت من سمات هذا الدين الحنيف ، واشارت في بعض اياتها إلى ان هذا الدين إمتداد لتلكم الديانات السماوية والملل الالهية في الاصول وفي الفروع: في توحيده وافكاره وفي اصول احكامه واسس تشريعاته ، وهذه الآية الشريفة من تلكم الايات الكريمة نزلت في العام الرابع بعد هجرة الرسول (ص) وغزوة احد ، وهي تبين وضع الحج على العباد وتشريع وجوبه على الانام ، والحج شريعة سماوية وفريضة الهية سامقة توافقت عليها الديانات

الكبرى من شرع خليل الرحمن – عليه السلام – وحتى شرع خاتم النبوات ورسول الخيرات عليه واله افضل الصلاة والسلام (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) الحج: 26-27 ، روى البيهقي في سننه عن حبر الامة عبدالله بن عباس (رض) قال : (لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت ، قال : رب قد فرغت ، فقال : اذن في الناس بالحج ، قال : يارب وما يبلغ صوتي ، قال : عليك الاذان وعلي البلاغ والاعلام) ، وقد احتفظ العرب قبل دعوة الإسلام بشريعة الحج المشركين منهم فضلاً عن القلة الحنفاء الموحدين فكانوا يحجون إلى البيت الشريف ويطوفون حوله ، فهي شريعة عليا متوراثة ديناً وممتدة تاريخاً من زمن الخليل إلى شريعة الخاتم الجليل – صلوات الله عليهم اجمعين –

2- (حج البيت) : بكسر الحاء حسب القراءة المعتبرة المشهورة ، واللفظة مصدر الفعل (حج) (يحج) بمعنى (قصد) والبيت كناية مطلقة متعارفة عن بيت الله المخصوص وكعبته المشرفة واذا اطلقت هذه اللفظة عند المسلمين انصرفت الاذهان إلى البيت المعهود الذي يحجونه ويقصدونه بالطواف حوله والصلاة باتجاهه ، وحج البيت يعني القصد اليه لاداء المناسك المخصوصة المعروفة عند المسلمين .

(من استطاع اليه سبيلاً) : هذه الالفاظ بدل تابع لكلمة (الناس) المتقدمة و(استطاع) يعني : قدر ، و (سبيلاً) تعني طريقاً أي موصلاً الى البيت الشريف ، ومعنى استطاعة السبيل اليه

الوصول إلى البيت لاداء الحج واتيان مناسكه ، والمستطيع هو المقصود بالايجاب والالزام بالحج .

(ومن كفر) الكفر يعني الجحود والانكار بعد العلم بالشيء ، وهذا هو المعنى الاصلي وهو الصحيح ويبعد ارادة المعنى المصطلح في الفقه فانه اصطلاح حادث لايحمل عليه لفظ القران السابق إلا بقرينة وشاهد .

3- هذه الاية الشريفة بصيغة الجملة الخبرية ومركبة من مبتدأ متأخر (حج البيت) وخبر متقدم (لله) لكنها – بحسب المقصود الواقعي والمراد الجدي والاصلي – تنشيء الوجوب وهي بصدد

تجديد تشريع الحج في هذا الدين الحنيف ، وفي مجال فرضه وايجابه على الناس – من استطاع منهم سبيلاً إلى البيت لحرام وحجه واداء مناسكه المعهودة .
هذه الاية الشريفة تعتبر (حج البيت) واجباً إلهياً (لله) ثابتا على المستطيع القادر ، وبهذا نطقت عدة من الايات الشريفة والروايات المتواترة الكريمة والصحاح الصريحة ولاحاجة إلى ذكرها بعد اشتهار فريضة الحج وذيوع وجوبه بين المسلمين وبعد كونه عمدة من عمد الدين الحنيف وركناً من اركان الإسلام الشريف ، وقد اعتبرت هذه الاية الشريفة من كفر بهذا الواجب وجحده وانكره ضاراً بنفسه ومنخرطاً في سلك الجاحدين ، ولايكون ضاراً لغيره والله غني عن العالمين غير محتاج إلى طاعتهم وعبادتهم وحجهم ، فمن جحد الحج وانكر فرضه ووجوبه بعد علمه بالنداء الالهي وبعد اطلاعه على الاذان الربوبي بواسطة اعاظم سفرائه اساء إلى نفسه والله غني عن العالمين وهم محتاجون اليه سبحانه والى قبول طاعاتهم وصلواتهم وحجهم كما هم محتاجون إلى مدده وألطافه التكوينية وهو سبحانه الغني المطلق ، وقد ورد في بعض الروايات الصحيحة تفسير قوله سبحانه (ومن كفر) : (يعني من ترك) وهذا تفسير صحيح للكفر لكن بلازم معناه الاصلي فان معنى الكفر – في اصل وضعه – هو الجحود والانكار لما علم ثبوته ، وهذا المعنى يلازم الترك ولاينفك عنه ابدا ، اذ الجاحد لشيئ ينكر ثبوته ولايحقق وجوده بل يترك فعله .
4- هذه الاية الشريفة أثبتت شريعة الحج على جميع الناس المؤهلين للتكليف والصالحين لتوجه الخطاب وهم البالغون دون الصبيان والعقلاء دون المجانين والمستطيعون القادرون دون المعذورين ، ثم قد اطلقت الاية لفظتها (من استطاع اليه سبيلاً) واسترسلت كلمتها فلم تبين خصوص استطاعة ولانوع قدرة فتفسر بعمومها واطلاقها وسعتها وتشمل انواع الاستطاعة وألوان القدرة التي لها دخالة وارتباط بهذه الشريعة المفروضة ويتوقف وجوب الحج وفرضه على الاستطاعة المطلقة الشاملة لجميع الجهات الداخلية والنواحي المرتبطة باداء هذه الفريضة مثل القدرة على تحصيل الزاد الكافي المناسب لحاله طيلة فترة سفر الحج -ذهاباً ونزولاً واياباً- ونظير الاستطاعة

لنفقة العيال طيلة فترة الغياب عن البيت والعمل ، وشبه المكنة على توفير الراحلة – يعني واسطة النقل إلى المواضع المشرفة والمشاعر المكرمة – وهكذا تكون له صحة وقدرة في البدن يتيسر له التنقل بين المشاعر المقدسة لأداء المناسك الواجبة ومن دون مرض يعيق عن اداءها أو عجز أو شيخوخة تمنع عن ممارستها أو حالة خاصة يفقد معها الامن والسلامة في الطريق أو في المشاعر ومن دون ضرر اكيد أو حرج شديد يمنع عن مواصلة السفر أو متابعة النسك ، وحينئذ لو وجدت بعض هذه الاعذار الاكيدة النافية للاستطاعة والقدرة ولو من بعض نواحيها وجهاتها الدخيلة في المنع من الوصول إلى المشاعر أو اداء المناسك اوجبت انتفاء فريضة الحج مؤقتاً حتى يزول المانع وتجتمع جهات القدرة وتتم نواحي الاستطاعة فيتحقق الوجوب وتجب المبادرة ويحرم التاخير أو التسويف فان الحج فريضة عظمى ومن دعائم الإسلام واركان الإيمان واسس التدين ومن ضيعه أو قصر فيه أو تهاون واخر حتى مات وهو تارك له مع قدرته عليه واستطاعته له مات يهودياً أو نصرانيا لا مسلماً محمدياً (ففروا إلى الله) ايها المسلمون المتمولون القادرون وحجوا لله بيت ربكم (اني لكم منه نذير مبين) الذاريات: 50 ، ولا تموتوا وانتم يهود أو نصارى منحرفون عن شريعة الإسلام خارجون عن دعامة الإيمان ، واحذروا ان يكون سفركم للسياحة بل اجعلوه للقربة من رب الرحمة .

والحج سفر إلهي نحو مواضع معينة ومشاعر محددة بحالة مخصوصة وكيفية معروفة لاداء مناسك معهودة عند المسلمين متعارفة لدى المؤمنين في اشهر الحج والاعتمار – شوال وذو القعدة وذو الحجة الحرام - ، ومن الواضح لذوي الالباب قصور العقول والمدركات عن ادراك تمام السر وكمال الحكمة في ايجابه والزام العباد بادائه ولذا كان امتثال امره دليلاً على انقياد العبد لامر ربه وانصياعه لرغبة مولاه وشرع باريه ، إلا أنه قد تدرك بعض الاسرار ولو بمعونة بيان الاخيار ، والمستفاد من ايات الكتاب العزيز وروايات السنة المطهرة ومن ملاحظة مجموع ما ورد في شريعة الحج وفي غيرها من ألوان العبادات المشروعة كالصلاة والزكاة والصيام : ان الشرع الاقدس اراد تكميل النفوس وارواح المتعبدين وترقية وجودهم نحوالمعاني الروحية الفاضلة

والقيم الاخلاقية السامية ، وان الدين المقدس قصد تقوية جوانب الروح واضعاف جوانب البدن ورغب في تشريعاته العبادية في تركيز التصور الاخروي وحسر التأثيرات المادية والتوجهات الدنيوية المحضة بل وربط متطلبات الروح مع مشتهيات البدن ، ثم العبادات بصورة عامة – ومنها الحج والعمرة – تكسب العقل والروح رونقاً ونوراً وكمالاً وتصقل الجسم والبدن بروح الإيمان وتكشف عن عمى القلب وتنيره بنور الرحمن وتزكيه من الإغراق في المشتهيات والماديات والرغبات الشهوانية وتشافي النفس الباطنية من العقد والامراض ومن رذائل الصفات والاخلاق ... وهذه جهة عامة وحكمة شاملة وثمرة واسعة يجنيها العباد من التعبدات ويستحصلها التقاة من القربات ، ولعلها الهدف الاقصى والغرض الاسمى من تشريع جميع العبادات ومنها عبادة الحج والعمرة والتي شرعت لفوائد ومنافع عامة وخاصة وهذه الفائدة العامة الاتية من جميع العبادات هي من تلكم الفوائد والمنافع التي يشهدها الحاج في حجه ويكسبها المعتمر من عمرته (ليشهدوا منافع لهم) الحج: 28 ، فينبغي للناسك القاصد لحج بيت الله ان يبذل قصارى جهده وغاية جده في شهود منافع حجه وتحصيل فوائد نسكه الروحية والجسدية : القلب والقالب، ويحاول قدر امكانه إصلاح نفسه وتزكية قلبه وتخليص باطنه ونواياه من الشهوات والرغبات الشيطانية لتنعكس عليه انوار الرحمن وفيوضات المنان وبركات الرضوان .

وثمة منافع خاصة بالحج وبعضها مختص ببعض الافعال والنسك وقد يتوصل العقل وادراك بعضها وتمييز جانب منها نشير اليها ضمن النقاط الاتية عند التعرض لمناسك الحج وأفعال العمرة مستمداً من العبق المحمدي والنور الاحمدي ، ونقدم هنا جملتين ونورين علويين : احداهما ما روي في نهج البلاغة عن علي امير المؤمنين (ع)في خطبة يتعرض فيها لشريعة الحج وحكمته (وفرض عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للانام يردونه ورود الانعام ويألهون اليه ولوه الحمام – أي يفزعون اليه ويعكفون عليه عكوف الحمام – وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته واختار من خلقه سماعاً – جماعة سمعوا نداء الخليل (ع) وبلغتهم دعوة الجليل سبحانه –

اجابوا اليه دعوته وصدقوا كلمته ووقفوا مواقف انبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه يحرزون الارباح في متجر عبادته ويتبادرون – أي يتسارعون – عنده موعد مغفرته ، جعله سبحانه وتعالى للاسلام علما وللعائذين حرما وفرض حجه واوجب حقه وكتب عليكم وفادته) – أي زيارته – فقال سبحانه : (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وثانية الجملتين النورانيتين ما روي عن علي الرضا (ع) في كتاب خطه لبعض الفقهاء من تلامذته (علة الحج : الوفادة إلى الله عز وجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد ، تائباً مما مضى مستأنفاً لما يستقبل ، مع مافيه من اخراج الاموال وتعب الابدان والاشتغال عن الاهل والولد وحظر النفس عن اللذات ، شاخصاً في الحر والبرد ثابتا على ذلك دائماً ، مع الخضوع والاستكانة والتذلل ، مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من في شرق الارض وغربها ومن في البر والبحر ممن يحج..) .

5- يستفاد من هذه الاية الشريفة ان الحج عبادة قربية يتوقف امتثالها على قصد العمل لله خالصاً لوجهه الكريم وامتثالاً لأمره الحكيم (ولله على الناس حج البيت)، ومالم تنضم النية والقربة إلى الافعال والمناسك لايكون العمل صحيحاً والحج حجاً ولاطاعة ولاعبادة لان النية عنصر معنوي عظيم وركن باطني قويم في هذه الفريضة العظمى والعبادة الكبرى ، كما يجب على العبد القاصد إلى البيت الحرام أن ينزه نيته عن الشوائب الفاسدة ويخلص قصده عن الضمائم المفسدة مثل الرياء أو طلب السمعة والجاه عند العباد أو العجب بالبذل والعمل فانها مفسدات للعمل مهلكات للعامل فيجب تخليص النية واخلاص العمل لله فلا يكون بذله الاموال وهجرته الاوطان إلى تلكم الديار يأمل أن يقال عنه : صار حاجا أو اصبح متدينا ، ولايكون حجه مصدر تباهيه عند الخلق بحجته أو محل طلبه لبعض الاغراض الدنيوية أو الجاه والاحترام من العباد ، ولايكون حجه موضع عجب واكبار لعمله وجهده وبذله ولايجعل سفره وسيلة للرفعة والتكبر أو الافتخار أو وصلة إلى التجارة أو السمعة والاشتهار بل يتوجه إلى بارئه في جهوده واتعابه ويخلص النية في بذله

لأمواله وينقب في زوايا قلبه وخفايا باطنه عن شوائب السوء وضمائم الفساد ليصفي قصده منها ويزكي نيته عنها ليصير عمله حجا زاكيا وعملا صافيا من شوائب الشيطان ، ويحذر بذلك الاخلاص عن ذهاب امواله وجهوده ادراج الرياح وهباءاً منثوراً وينجو بتلك التزكية عن صيرورة صحيفة عمله عند الله سوداء قاتمة وقاعاً صفصفاً من فريضة الحج والعمرة ، وهذه النجاة هي الربح المبين ، ومقابلها – إذا ترك علاج نيته – هو الخسران المبين .

وكما يجب اخلاص النية واصلاح السريرة الباطنية وتنزيهها عن الرياء وحب المدح والثناء اداءاً لحق الربوبية وتظاهراً بمظهر الاخلاص والعبودية كذلك ينبغي ان يتجرد – المسافر إلى ربه – عن جميع الافكار والتعلقات الشاغلة للقلب عن ذكر الرحمن حقيقة والمانعة للروح عن استحضار حقيقة النسك واقعا – ليكون بهذا التجرد ضيفا حقيقا على الرحمن ومصداقا واقعيا للايمان – فلا يفكر في شؤون دنياه وتعلقات امواله وخصوصيات اهله واولاده – أو في الاقل يقلل من تفكراته في تلكم الامور ويصرف ذهنه قليلاً قليلاً عن التأمل والتذكر لأمور دنياه ويجعلها وديعة مؤتمنة في يدي القادر الجبار والملك الحنان فانه خير حارس وامين ويصرف فكره ويوجه تأمله إلى أمور آخرته وشؤون حجه ونسكه واسرار سفره ومواقفه ، ثم ليطمئن الناسك إلى عظيم رحمة الله وجميل لطفه وكرمه وبركته وجزيل اجره وخيره ومثوبته مما لم تره عين ولم تسمعه اذن (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)الدخان: 51 ، (فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الدخان: 57 ، ولترونها حق اليقين يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم لترونها عين اليقين ، تلك من اخبارات الرب الضمين ومن انباءات سيد المرسلين واوليائه المتقين .

6- وينبغي للعبد الصالح القاصد للديار المقدسة واداء المناسك المعظمة ان يتفهم حقيقة سفره ونسكه وعبادته القاصد لفعلها والمقدم على إتيانها وأن يعتبر سفرته رحلة إلى الله واقعاً ويرسّخ هذه الفكرة في باله وخاطره ويرتب الآثار العملية على واقعة ويتهيأ لتحقيق مقدماتها وترتيب ممهداتها بشوق ولهفة فيتوب إلى الله سبحانه توبة صادقة نصوحا ويرد مظالم العباد حقيقة وواقعا .

فينبغي – اولا – التوجه إلى الله بتوبة صادقة عن جميع الذنوب الماضية والمعاصي السالفة ويؤوب إلى حضرته سبحانه أوبة خالصة من تمام الآثام والاوزار – ماتعلق منها بالعباد أو برب العباد – ويستغفر الله مغفرة لايعود بعدها إلى ذنب ويندم من سيئاته ندامة لا يرجع بعدها أبداً ثم يعاهد الله عهداً صادقاً أن لايعود لعصيان أو ان يقصر في بعض العبادات أو يتهاون في بعض الواجبات ، ويحسن به ان يصلي صلاة التوبة والاستغفار المأثورة عن رسول (ص) في يوم الاحد من ايام ذي القعدة الحرام كتعبير عن العهد والتوبة ورمز للالتزام والرجعة عن خطر الشيطان والمعصية نحو درب الرحمن والحسنة ، وصفتها : ان يغسل بدنه وثيابه من الأوساخ ثم يتوضأ أو يغتسل بقصد التوبة وتمهيد الصلاة ثم يفتتح صلاته بالنية والتكبير ويقرأ الفاتحة مرة ثم التوحيد ثلاثاً ثم المعوذتين مرة مرة ثم يركع ويسجد ويقوم ويقعد كذلك اربع ركعات بتشهدين وتسليمين ثم إذا انتهى يستغفر الله سبعين مرة ثم يدعو : (لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ياعزيز ياغفار اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات فانه لا يغفر الذنوب الا انت) ، وينبغي ان يحصل منه حال الصلاة: التفكر والتوجه واستحضار القلب والروح مع حركة الجسد بالقيام والقعود والركوع والسجود والذكر والشكر .

وينبغي عليه – ثانياً – التوجه إلى عباد الله ممن بينه وبينه مظلمة أو حق فيرد مظالمهم ويعطي حقوقهم ويفي بديونهم ويصفي معهم حساباتهم ويرضيهم ولا يبقي ذمته مشغولة لأحدٍ منهم ليكون بذلك أهلاً للضيافة على الرحيم الرحمن وللقرب من اللطيف الحنان .

واذا صعب عليه وشق عليه بعض اطراف التوبة فليتذكر انه يسافر إلى ربه بل يسافر إلى آخرته – وقد يسافر اليها حقا وينتقل إلى أخراه واقعا لو جاءه الاجل وحظر عليه العمل – وكل مسافر محتاج إلى الزاد والراحلة والمؤنة والعدة والنفقة فيجعل المسافر إلى الله رد مظالم العباد ووفاء ديونهم وأداء حقوقهم مع توبته الصادقة زاده وراحلته المعنوية ليوم سفره وحين حضور اجله وعدته الروحية لحظة قيام برزخه ونفقته يوم قيام ساعته ونشر كتبه وتطاير صحفه ، واذا تيسر عليه التوبة الصادقة – وقد

بحثناها في هذه الصحائف مستقلاً – فليتصور ان التوبة تعني قطع العلاقات السيئة وهي مقدمة من مقدمات الحج وتمهيد من ممهداته واستعداداته ثم يستحضر انقطاع جميع العلاقات يوما ما بينه وبين عالم الدنيا ويستذكر ان لاشيء ينفعه ويقترن به يومئذ سوى عمله الصالح وفعله الفالح وسلوكه الناجح في هذا العالم فانه القرين النافع له في كنفه ولحده والضميم المقارن له في معاده ومحشره ، نسال الله الثبات يوم التحقيق وساعة الحساب بالقول الثابت والعمل الصالح انه نعم المولى ونعم النصير .

وينبغي لقاصد الحج ان لايغفل عن اهم جهات توبته وهي تطهير امواله من الحرام وتحليلها من التعلقات ولا فرق بين ديون الناس المخصوصين وحقوق الفقراء العموميين –الزكاة والخمس ونحوهما-، ليكون مصرف حجه ومناسكه وثياب احرامه وثمن هديه من الحلال الزكي والطاهر النقي وقد روي ان من حج من غير حله ثم احرم ولبى تلبية الاحرام من دون ان يحلل امواله من الحرام أو التعلقات قال الله عز وجل له : (لالبيك ولاسعديك حتى ترد ما في يديك) أي من مظالم الناس وحقوق الفقراء .

7- ثم إذا اقترب موعد السفر ينبغي له ان يفتتح سفره بصدقة جيدة – أعني أن يصنع براً في موقعه وإحساناً عند أهله- يشتري بها سلامته في سفرته ويقصد بها رضوان ربه في صدقته ، وان يوصي بما يحب ولا سيما بباقي علاقاته المالية المرتبطة بحقوق الناس إذا لم يتمكن من وفاءها لعذر من الاعذار ، ثم يجعل عياله واعزائه وديعة عند الملك الجبار والقادر القهار ويخلفه عليهم وليا راحماً وقيّماً مراعياً ويعتقد بذلك في تمام قلبه ويذعن به في كمال عقله ، ولا ينسى الاداب الشرعية والمستحبات الدينية في هذه الفترة والحالة بل وفي جميع الفترات والحالات في المستقبل ومع العمر الطويل .

ثم إذا بدات رحلته وشرع في سفرته وفارق اهله ووطنه وبلده فينبغي ان يتذكر ايضاً انه مسافر إلى الله وراحل اليه (وان الراحل اليه قريب المسافة) وهو لايحتجب عن خلقه الا ان تحجبهم الاعمال السيئة منهم دونه ، ثم إذا مضت به الراحلة الناقلة فرأى الجبال السود وشهد الصعود والنزول وبلغ به الجهد والتعب فينبغي له ان يعتبر من مراحل سفره ومشاق طريقه

وتوقفات ناقلته واتعاب حركته ثم يتذكر توقفات البرزخ والقبر ومشقات المعاد والمحشر ووحشة الاهل والاحباب وفرقة المعين والناصر ووحدة القرين – وهو العمل – وذلك لتكون هذه التأملات والتفكرات طريقا إلى صلاحه في دنياه وحسن حاله في اخراه فيحصل بذلك على جواز سفره ورخصة تنقله وانيس وحشته ، وينبغي ان يعلم انه قد ورد في الاخبار الكثيرة عن عقبات سفر الاخرة الكؤود وفي توقفات رحلة البرزخ العنود ما يحزن القلب ويزيد الهم فانه بعد هذه الدنيا تبدأ حياة البرزخ بسكرات الموت – وهي اهون العقبات – ثم تتلوها العقبات والمنغصات عقبة بعد عقبة ووقفة بعد وقفة وشدة بعد شدة وتمر بسبعين الف عقبة حتى تقوم الساعة وتحشر العامة ولا ينجو من تلكم العقبات الكأداء أحدٌ بشفاعةٍ اذ لا شفاعة في البرزخ – ولا يخلص منها بشر بوساطة ولا يربح فيها الا المتقون من غضب الله المبتعدون عن معصيته والبكاؤون من مخافته والمواظبون على تحصيل رضوانه وامتثال واجباته واجتناب محرماته .

ثم إذا بلغت به الراحلة مسافة واقترب بناقلته من الديار المقدسة والمحال المشرفة استحضر قلبه وفكره انه خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله مقترباً من ساحة قدسه وميدان رضوانه ثم استذكر انه نودي إلى هذه الهجرة فاجاب وخوطب بحجة الإسلام فاستجاب ، فاذا أشرف بعدئذ على ميقات احرام مخصوص وموضع تلبية محدود تعبأ وإستعد جسدياً لنزع ثياب بدنه ولبس ثوب احرامه ثم تهيأ روحياً لنزع ثياب عصيانه وخلع بدلة طغيانه ليلبس ثوب التقوى ورداء الطاعة .

8- واذا ولج الميقات المخصوص للاحرام إستذكر أنه بداية النسك وابتداء العمل فيتعين عليه وقتئذ ان ينزع ثياب بدنه ويستبدلها بثوبي احرامه مقدمة للشروع في نسك حجه وعمرته .

والحج المشروع على عباد الرحمن المتواجدين في مختلف الافاق والبلدان اقسام وانواع: حج افراد وحج قران وحج تمتع ، وهي متقاربة المناسك متشابهة الاجزاء والاعمال ، لكنه حيث الغالب هو حج المسلمين تمتعا وهو افضل الانواع في نظر الاغلب فنستعرض صورة الحج على طريقة التمتع الافضل

وشكله الامثل والتفصيل لبحوث الفقه الشريف ، وهي تتضمن مرحلتين من العمل وتمر عبر محطتين من النسك :-
المحطة الاولى : وتسمى بالعمرة وهي في معناها الاصلي تعني الزيارة والوفادة ويراد منها زيارة بيت الله الحرام لغرض الطواف والصلاة مسبوقة بالاحرام من الميقات المخصوص والميعاد المحدود وملحوقة بالسعي والاطافة بين الصفا والمروة مع التقصير والقطع لبعض شعر الرأس أو البدن أو بعض اظفار اليد أو الرجل .
المحطة الثانية : وتسمى بالحج وهو في معناه الاصلي يعني القصد ويراد منه قصد المشاعر المقدسة والمواضع المشرفة لأداء المناسك المخصوصة المعهودة وهي تبدأ بالاحرام من الميقات الموعود والموضع المحدود ثم النزوع إلى موقف عرفات للوقوف عندها والحضور لديها زوال يوم التاسع من ذي الحجة الحرام وحتى منتهى النهار ثم الافاضة والاندفاع نحو المشعر الحرام – مزدلفة – للوقوف عندها والحضور لديها من طلوع فجر اليوم العاشر حتى طلوع الشمس ثم الافاضة والاندفاع إلى المنطقة الحرام – منى – لأداء نسكها الثلاثة يوم العاشر وهي رمي جمرة العقبة ثم ذبح شاة أو بقرة أو نحر جمل ثم حلق الرأس من الرجل وقص الشعر من المراة ، وتبيت في (منى) ليلتين بعد ذلك ترمي الجمرات الثلاثة في صبيحتهن ثم ترجع إلى مكة لتطوف حول الكعبة (طواف الزيارة) وتصلي صلاة الطواف عند مقام الخليل – عليه السلام – وتسعى سبعا حول الصفا والمروة ثم تختم بطواف اسبوع اخر (طواف النساء) وصلاة ركعتين تودع به البيت الحرام وتختم به اعمال الحج وتنهي به نسكه .
9- قال سبحانه : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ) البقرة: 197 ، وفرض الحج هو الزام المكلف نفسه بالحج وعزم قلبه عليه وشروع الشخص فيه بالاحرام من الميقات والتلبية في الميعاد ، وحينئذ يتحقق من السالك إلى الله والمسافر لضيافة الرحمن اعمال ثلاثة :-

الاول : الخلع واللبس : خلع ثياب الدنيا ولبس ثوبي الإحرام وهو تمهيد للابتعاد عن متع الدنيا والاقتراب من شظف العيش ، وهذا عقيب الاغتسال بنية الاحرام والتطهر والتنظيف من الاوساخ والشعر والأظفار وبعد صلاة عدة ركعات تؤهله للاحرام وتحريم محرماته . وينبغي للمؤمن ان يتفكر بخلعه ثياب بدنه ويعتبر منه ويتذكر هول المطلع حين ينفخ في الصور وتحشر الارواح من القبور وتزدحم في عرصات يوم الحشر عراء بلا كساء ولا وطاء ومن دون ثياب وتنشر الصحف وتتطاير الكتب ، ثم يعتبر بلبس ثوبي احرامه فيتذكر ثوب كفنه الذي سوف يلبسه في اجله ومستقبله فيتعاهد مع ربه ان تكون ثياب طاعته ولباس تقواه مستمراً عليها دائماً لها فيحرم على نفسه ما حرمه الله على عباده ، فلا يقدم على احدى المحرمات ويوجب على شخصه ما اوجبه الله على عباده فلا يقصّر في أحد الواجبات ليكون بذلك معتبراً من خلعه ولبسه منتفعا من نسكه واحرامه، بل ينبغي أن يلاحظ جميع المؤمنين الحجيج وجميعهم قد خلع ثياب بدنه ولبس ثوبي إحرامه وهم في زي موحد مشابه لزيّ الاموات واكفانهم – فيتذكر الموت واهوال البرزخ والمحشر ويعتبر منه عبرة اولي الالباب فيعمل باتجاه زكاة نفسه وتطهير عمله وتنزيه سلوكه ، وهذا النفع من اعظم المنافع التي يمكن أن يشهدها الحاج في حجه ويستحصلها الناسك من نسكه .

الثاني : القصد والعزم على فرض الحج على نفسه بالاحرام أو الشروع في عمرة التمتع بالتحريم تقربا إلى الله وتزلفاً لساحة قدسه وميدان لطفه ورضوانه ، فيقول الناسك : (اللهم اني اريد ان اتمتع بالعمرة إلى الحج على كتابك وسنة نبيك) ثم يقول في لسانه أو يضمر في قلبه قصده وعزمه على انه يحرم لعمرة التمتع من حجة الإسلام تقربا إلى الله سبحانه ، وبهذا يعقد حجه أو اول منسك من حجة الإسلام إذا تبعه التلبية وهي عمله وجزؤه :

الثالث : التلبية ، وبها يتم انعقاد احرامه وتبدأ عمرة حجه وتمتعه وتشبه في افتتاح النسك تكبيرة الاحرام في افتتاح الصلاة ، وتتحقق التلبية بأن يقول الناسك مقارنا لنيته وعزمه . (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لك لا شريك لك لبيك) وينبغي ان يتذكر حينئذ نداء

خليل الرحمن عندما انتهي من رفع قواعد البيت الحرام فأمره ربه وخليله : (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) الحج: 27 ، وقد صعد التل وصاح باعلى صوته : (أيها لناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم) ، وينبغي ان يتفطن المؤمن إلى كون تلبيته استجابة لنداء الرحمن واذان خليله (ع) وينبغي ان يستحضر فكره وقلبه وعقله عندما يرفع صوته بتلبيته ليستشعر معانيها ومضامينها (لبيك اللهم لبيك) هذا اقرار بالاجابة وتذكار للاطاعة وإعتراف بنفي الشريك عن البارئ الوحيد مع الاذعان باستحقاق الملك والشكر والتحميد على ما انعم به وتفضل من تشريع الحج وإيجاب النسك والتوفيق له (وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) التوبة: 3 ، أي ورسوله بريء من المشركين ايضا ، فيرجو المحرم القاصد إلى بيت الله الملبي لنداء ربه واعلام بارئه وأذان خالقه : ان يكون بريئا من الشرك والمشركين تبعاً لرسول الله (ص) وإلتحاقاً بركب الاولياء وقطار الازكياء وانتهاء بسنة الخليل عليه افضل الصلاة والسلام .
وينبغي للناسك في حالة الاحرام ان يكون دائم الذكر والفكر مع الله مستشعراً عظمته وجلاله وقدسه متخشعا لمقامه متقربا نحو رضوانه متأدباً بآدابه متخلقا بأخلاقه المأثورة عن نبيه واهل بيته وتابعيه المتقين والمرسومة في كتب الفقهاء الصالحين .
كما ينبغي له عند عقد احرامه بالتلبية ان يكون بلسانه ناطقا وبقلبه متفكراً وبباطنه مستحضراً : (اللهم اني اسالك ان تجعلني ممن استجاب لك وآمن بوعدك وإتبع أمرك فاني عبدك وفي قبضتك لا اوفي الا ما وفيت ولا آخذ الا ما أعطيت وقد ذكرت الحج فاسألك ان تعزم لي عليه على كتابك وسنة نبيك وتقويني على ما ضعفت وتسلم مني مناسكي في يسر منك وعافية ، واجعلني من وفدك الذين رضيت وارتضيت وسميت وكتبت ، اللهم اني خرجت من شقة بعيدة وانفقت مالي ابتغاء مرضاتك ، اللهم فتمم لي حجتي وعمرتي ، اللهم اني اريد التمتع بالعمرة إلى الحج على كتابك وسنة نبيك (ص) فان عرض لي عارض يحبسني فحلني حيث حبستني لقدرك الذي قدّرت علي ، اللهم ان لم تكن حجة فعمرة ، احرم لك شعري وبشري ولحمي ودمي وعظامي ومخي وعصبي من النساء

والثياب والطيب ، ابتغي بذلك وجهك والدار الاخرة) ، ثم تلبي وترفع صوتك وتجهر بالتلبية مرة بعد اخرى لتسمع الملائكة الكرام وتشهدها لك وتدوم وتكرر التلبية ما قدرت وما علوت جبلا أو هبطت واديا وماصليت أو تنفلت وتستمر عليها حتى تشاهد بيوت مكة القديمة في عمرة التمتع أو يحل ظهر يوم عرفة في حجة التمتع ، هكذا وردت الروايات الشريفة.

ينبغي له – وقد احرم بالتلبية ويريد أن يقطع المسافة إلى مكة ويبغي الوصول إلى الكعبة – أن يتفكر في حقيقة الاحرام ويتبصر العبرة منه ويعتبر من الحالة الخاصة حيث استوى الغني والملئ مع المتوسط والفقير المتعفف في ثوب واحد وزي فارد ، وحيث تساوى البعيد والقريب في رداء متحد وشكل متوحد فيستفيد من هذه الظاهرة في تذكر الاخرة حيث يتساوى جميع البشر على عرصاتها ويتساوون في ساحاتها لينعكس تذكره هذا على نفسه لتخليتها عن الرذائل وتصفيتها وتحليتها بالفضائل فيفوز بالرضوان وينال الجنان بأمر الملك المنان ، ثم ينتفع من هذه التظاهرة في توحيد كلمته مع اخوته المسلمين واخوانه المؤمنين وفي نبذ الخلاف والخصام معهم متوجها إلى توحيد الله مقبلاً على عبادته وتجلية مظاهر ألوهية بارئه وعبودية نفسه بعيداً عن زخارف الدنيا وحبائل الشيطان وخدع الخادعين فيتجرد عن عاداته السيئة وعن تعلقاته الدنية ويفزع إلى الله جل شانه مع اخوانه بثياب متحدة وقلوب موحدة ويقر بذنوبه الماضية ويعاهد بارئه ان لا يعود اليها ولا يرجع باتجاهها كي يتحلى بواقع التوبة ويتجلى على سلوكه آثار الاوبة بلبس فضائل الاعمال ومحاسن الخصال ، ومن الله التوفيق والسداد .

10- ينبغي للمسافر إلى ربه وحج بيته ان يتعلم قبل احرامه: مناسك حجه وعمرته سواء قبل خروجه من بيته أو في طريقه وقبل وروده الميقات ودخوله في الاعمال وشروعه في المناسك حتى يكون عمله وتنسكه عن معرفة وفقاهة وعلم ، وحيث هو قد احرم من ميقاته وشرع في اوائل حجه وبداية عمرته فينبغي ان يعلم ما حرم الله عليه من فعال حال الاحرام وما دام محرما (فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ) البقرة: 197 ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ... وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ

مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) المائدة: 95 ، 96 ، وقد عرض الفقهاء في كتبهم محرمات الاحرام ومايتعين تركه حال كونه حراماً (مادمتم حرماً) أي الامور التي يجب على المحرم الابتعاد عنها حال احرامه وحتى انتهاء مناسكه وتحلله من عمرته اوحجته فتعود عليه حلالاً كما كانت قبل الاحرام ، فينبغي معرفتها وضبطها من (مناسك الحج) ليتحرز عنها حال احرامه .

11- ثم إذا اقترب براحلته من منطقة الحرم الشريف تذكر انها منطقة محرمة وبقعة مقدسة وموضع حرام جعل الله فيها الأمان والسلامة لمن دخلها فيدخلها بسكينة ووقار وتواضع وخشوع واحترام غير متكبر ولا متجبر، ثم يتضرع إلى الله بدعاء وتوسل أن يؤمنه يوم الفزع الأكبر من عذابه وعقابه وغضبه وسخطه، ثم يسعى بجده وجهده لتحصيل مرضاته في مستقبل أيامه .

ثم إذا اقترب من مكة المعظمة تفطن إلى انه سوف يدخل بقعتها المقدسة بعد لحظات ويشاهد كعبتها المشرفة بعد ساعات وهو البيت العظيم الذي جعله الله قبلة للمؤمنين في صلواتهم وذبائحهم ومطاف المسلمين في حجهم وعمرتهم كما جعله الله مثابة للناس وأمنا مباركاً (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)آل عمران:96، 97 .

ثم إذا دخل مكة المكرمة وقاربت خطواته الكعبة المشرفة والبنية المعظمة ينبغي أن يستشعر عظمة الموضع في قلبه وجلال الموقع على باطنه فانه (بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في اتيانه، فحثهم على طاعته وزيارته وجعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه..) كما ينبغي أن يتوجه إلى أن الله سبحانه قد اتخذ هذا الموضع الشريف بيتاً للعبادة وموضعاً للرقابة دون باقي المواضع وسائر المواقع ليتشرف بعبادة الله فيه من أحب وشاء وليلتحق بركب الموحدين وقطار المتعبدين من رغب وأراد تأسياًبالأتقياء الأولياء ابتداءً من خليل الرحمن ابراهيم عليه الصلاة والسلام وامتداداً بجميع الأنبياء والاوصياء والأولياء والصلحاء .

ثم إذا دخل المسجد الحرام واقترب من الكعبة قبلة الانام خرّ ساجداً لله شاكراً له على ما أنعم عليه وتفضل حيث أبلغه أشرف بقعة واكرم محلة وحيث أدخله في زمرة ضيوفه وجماعة حجيجه وطائفة وفوده، ثم تأمل حشد المؤمنين وجمع الطائفين القائمين والراكعين الساجدين في ساحة بيته وعرصة مسجده وهو مستأنس مبتهج بهذا الموقف متذكر معتبر من هذا المشهد ينتقل بذهنه منه إلى اجتماع يوم المحشر وازدحام الناس وتدافع الخلق في عرصات القيامة مجيبين نداء الله منقسمين إلى مقربين مقبولين ومرفوضين ممقوتين، ثم يدعو الله ويتوسل اليه بأوليائه الكرام –عليهم السلام- أن يكون من المقبولين المقربين .

12- قال سبحانه (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) البقرة: 125، وقال سبحانه (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)الحج: 29، والعهد هو التكليف والأمر، يقال: عهد اليه بمهمة التطهير أي كلفه بالمهمة وأمره بها وطلب اليه تحقيقها وتنفيذها .

ثم يبدأ المحرم وظيفة الطواف ونسك التطواف حول البيت الحرام، وينبغي للناسك أن يقبل على طوافه وقد تطهر قلباً وقالباً، أي بعد أن طهر قلبه من الاوساخ والكدورات والذنوب والآثام بالتوبة والاستغفار والتوضئ أو الاغتسال وبعد أن طهر قالبه –بدنه- من القاذورات والأوساخ والشعر والأظفار، ليكون دخوله في المسجد الحرام وهو طاهر البدن نظيف الجسد زكي القلب أهلاً للقرب من بيت الكعبة والطواف حوله.

ثم يبدأ تطوافه حول البيت العتيق سبعة أشواط حاسر الرأس حافي القدمين متضرعاً إلى الله ومبتهلاً خاشعاً ومتخضعاً ذاكراً، ومتشبهاً بالملائكة الكرام المقربين الطائفين حول عرش الرحمن الرحيم ومتفكراً في عظمة الله وجلاله المنعكس على بيته العتيق وكعبته المشرفة، ومتأملاً في تشريف الله اياه وتوفيقه بصيرورته من زوار البيت وجيرانه ومن الطائفين حوله ومن ضيوف الرحمن ووفود النساك ومن الفارين عن معصية الله إلى أفضل قرباته ونحو أعظم عباداته، كما ينبغي التفطن إلى الأنوار الملكوتية والفيوضات القدسية والأرواح النورانية التي يعبق بها الموضع المقدس ويطيب منها الموقع المشرف من

تخوم الأرض إلى عنان السماء السابعة، وينبغي التطواف بقلبه حول رب البيت كما يطوف بقالبه حول ذات البيت الذي هو مثال لذاته ومظهر لجلاله ومشهد لجماله وكماله سبحانه وقداتخذه بذاته وجعله لعباده مفتاحاً لقربه وباباً للطفه ومدخلاً للولوج إلى حضرة قدسه، وينبغي للطائف أن يستغل فرصة وجوده قريباً من البيت العتيق –وهو موضع التعبد لله وموقع التعوذ من النار- فيستشعر هذه المعاني العظيمة والمدلولات الكبيرة، وانا واثق من احساس الحاج وشعور الطائف ببعض المعاني الروحانية وبعض الموجودات النورانية وبمقدار طواف روحه وقلبه وتأملات فكره وعقله وبمقدار نزاهته وتزكيته من المعاصي والآثام حيث يلمس في ذلك الموضع المقدس ما لا يمكن وصفه ونعته ولا يمكن تقديره بالمقاييس المادية والمعايير الجسمية، بل كلما زاد المرء في نزاهته وروحانيته وقوي في تأمله وتفكره قوي إحساسه وزاد شعوره، ومن لم يصدق فليجرب .

ثم بعد انتهاءه من أشواط طوافه واسبوع نسكه ينطلق نحو المقام (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى)البقرة: 125، امتثالاً لأمره سبحانه فيقف وراء المقام ويعاهد رب الأنام ان يقف عند كل طاعة ويبتعد عن كل معصية ثم يصلي ركعتين تشبهاً بالخليل (ع) وتأسياً بسنة الحبيب (ص) ويتفكر في معاني صلاته ويتأمل في مدلولات ركوعه وسجوده رجاء تشرفه بكرامة القبول وبلوغه شرف الخلة والوصول .

وينبغي للطايف –بعد اكمال طوافه وصلاته- أن يتوجه إلى الحجر الأسعد ليستلمه ويتفكر انه باستلامه كأنه يصافح الله خالقه كما يصالح أخاه وحبيبه، ويقصد بتقبيله كأنه يقبل الله ويقترب من رحمته، فان لم يتمكن من بلوغه ولمسه ومصافحته وتقبيله أشار اليه بيده وتوجه نحوه بقلبه وقال بلسانه ناطقاً وبقلبه متفكراً: (اللهم اليك بسطت يدي وفيما عندك عظمت رغبتي فاقبل سياحتي واغفر لي وارحمني اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ومواقف الخزي في الدنيا والآخرة) كما ينبغي للطائف أيضاً أن يستلم أركان الكعبة وهي يمين الله في خلقه قاصداً باستلامه اظهار البيعة والطاعة لله وابراز الافتقار والاحتياج اليه وكشف الرغبة في النفس إلى قبول الطاعة والعبادة، ثم ينطلق الناسك إلى موضع (بئر زمزم) التي حفرها الخليل (ع)

واذا أشرف عليها أو اقترب منها ونظر اليها عاهد الله أن يشرف على طاعته ويقترب من رضوانه ويبتعد عن عصيانه ثم استقى من مائها وارتوى منها وتبرك بها وأفاض على رأسه ووجهه وجسده تيمناً منها بعد النطق بالبسملة والتحميد لله والتمجيد له ثم يدعو ربه: (اللهم اجعله علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء وسقم) كما ينبغي للناسك أن يصرف وقته الفائض عنده عقيب تمام مناسك عمرته بأن يكثر من الطواف حول البيت حسب قدرته وفرصته وأن يكثر من النظر إلى الكعبة عندما يجلس ويستريح أو يطوف ويدور أو يقوم ويقعد أو يركع ويسجد فان النظر إلى الكعبة عبادة مستقلة وأن يزيد من تأملاته القلبية وتفكراته الروحانية في سر جعل هذا البناء بيتاً ورمزاً ومثالاً له وهو جماد لا يعقل ولا يدرك ولا يتحرك ولا يؤثر شيئاً لا ينفع ولا يضر وهذه التأملات الباطنية هي من المنافع التي يمكن أن يشهدها الحاج في سفرته ومناسكه، ومن أعظم المنافع (ليشهدوا منافع لهم) هي ما يستلهمه المؤمن الحاج في هذا الموضع المقدس والمحل المكرم فيدعو الحاج ربه في بيته العتيق لو أمكنه دخوله أو قربه أن يوفقه لشهود المنافع الروحية وادراك المكاسب القلبية وتحصيل الفوائد النورانية عند تواجده في موضع تزاحم الأرواح الملكوتية وتدافع الأنوار القدسية، وهذه فرصة قد لا تسنح له نظيرتها أو لا تتهيأ له مثيلتها وقد لا يحالفه التوفيق للعودة اليها.

13- قال سبحانه (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا)البقرة: 158، والصفا والمروة دكتان معروفتان وجبلان صغيران يقصدهما الحاج والمعتمر بعد اكمال طوافه واتمام صلاته يبدأ بالصفا كما بدأ الله به في مقاله ويختم بالمروة كما ثنى الله بها في كلامه يطوف بينهما أشواطاً سبعة اظهاراً للذل والخضوع وابرازاً للعبودية والخشوع وامتثالاً للأمر المفروض، راجياً رحمة ربه العطوف وقبول عمله من الرؤوف، وخائفاً من سخط بارئه الجبار وغضب القهار، وآملاً دخوله في سلك الحجيج وزمرة المعتمرين الوافدين على رب العاملين البالغين إلى مقام المرحومين غير المطرودين ولا الضالين المرفوضين، وينبغي للساعي بين الصفا والمروة أن يتأمل حقيقة سعيه ويتفكر لب طوافه وسر ذهابه ومجيئه وهو

تردد وتحرك في فناء ساحة الملك الرحمن وعرصة السلطان المنان يظهر به اخلاصه في العبودية والخدمة وينتظر رحمته وملاحظته وقبوله فانه لا يدري هل يسمح له باللقاء أم لا؟ واذا سمح له باللقاء هل يقابله بعين القبول والرضوان أم يقابله بوجه الرفض والسخط والحرمان؟ ثم يسأل الله الولوج في باحة رضوانه والقرب من ساحة رحمته واحسانه مقبولاً قريباً ومرحوماً كثيراً.

ثم إذا بلغ موضع الهرولة من مسعاه قصد به الهرولة إلى الله من خلافه وعصيانه ونوى به الفرار اليه من سخطه وإغضابه، واذا بلغ موقع الرمل –أي الحركة الهادئة- من مسعاه قصد به الهدوء والسكينة في سبيله نحو ساحة رحمته واحسانه ونوى به الخضوع والرغبة نحو ميدان قبوله ورضوانه، ثم إذا رجع شوطاً لاحقاً تفكر في تردده وتحيره بين كفتي الميزان وفي قلقه واضطرابه من حكم الخالق الرحمن يوم يقوم العباد لرب الأنام يرجو الله حينئذ بتضرع وابتهال أن يخفف حسابه وكتابه ويقصر تردده واضطرابه ويعجل في تسليمه حسناته ويعفو كثيراً عن سيئاته .

14- ثم إذا اكمل الشوط السابع من تطوافه وتردده وختم بالمروة وصعدها معلناً ختام سعيه ومتوجهاً إلى شعر جسمه أو أظفار بدنه مقصراً منها ومخففاً من طولها ليخرج من احرام عمرة تمتعه ويحل له كل شئ حرم عليه بعقد احرامه بقي حينئذ في مكة رهيناً حبيساً ينتظر قدوم موسم حجه ويوم عرفته –الثامن من ذي الحجة يوم التروية- ليتهيأ لسفرته ويتوجه لموقفه نحو عرفات وموضع الرحمة والبركات وينبغي للناسك أن يتفطن إلى حلاوة تقصيره وما يترتب عليه من التحلل من كلفة الاحرام وترك المحرمات ومن الفوز بالملذات المحللات، ثم ينتقل بفكره وتصوره إلى حلاوة الفوز برضوان الله ومرارة الوقوع في غضب الله لو قامت القيامة وانتهى الحساب، ثم يعتبر من تقصيره الجسماني فيجعله وسيلة لتقصيره الروحاني الحقيقي الذي هو قص أنامل العصيان وتقصير أثر الشيطان .

15- قال سبحانه (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ) البقرة:198 .

يظهر من بعض الروايات المأثورة عن تاريخ المسلمين الأوائل انهم كانوا –من تقواهم- يتأثمون من الاتجار والاكتساب في موسم الحج وكانوا يحرمون ذلك على أنفسهم ويمتنعون من مباشرته حذراً من الاخلال بحجهم والتقصير في نسكهم حتى كان بعضهم يقفل حانوته ويغلق محله ويمنه كسبه ويعتقد فساد حج الاجراء المصحوبين بقوافل الحجيج من سائر الافاق لقضاء حوائجهم واداء لوازمهم وتهيئة احتياجاتهم من التنظيف والطبخ والفرش وأمثال ذلك فنزلت الآية الشريفة مصرحة بعدم البأس والجناح: ليس على المسلمين جناح وحرج في الاتجار والارتزاق في موسم الحج والاعتمار إذا لم يكن مقصوداً بالذات ولم يزاحم سائر الواجبات والتعبدات (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) وابتغاء الفضل من الرب هو طلب الخير والرزق من الرب وهو كناية عن الاتجار والاكتساب نظير قوله سبحانه في شأن صلاة الجمعة إذا أقيمت وقضيت (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) الجمعة:10 .

وهذه الرخصة منه سبحانه هي من معالم رحمته بعباده ومن مظاهر لطفه بمخلوقاته تستحق حمداً وتستأهل شكراً وتستدعي إقراراً وإذعاناً بتمام رأفة الله في خلقه وكمال رحمته بعبيده بل وبجميع مصنوعاته،وينبغي بالحاج المؤمن أن لا يكون الاتجار والتسوق والشراء والتبضع غاية همه وأقصى غرضه في هذه السفرة الروحانية والرحلة الالهية فانها رحلة إلى الله –الروح المطلق-ووفادة على الله- الخير المطلق النزيه عن المادة والماديات- فينبغي لضيف الرحمن ووفد المنان أن يختار في ضيافته ووفادته من أطعمة المضيف أطيبها وأنفعها وأفضلها وأفضل أطعمة هذه الضيافة وأنفع تقديمات هذه الوفادة ما يبقى أثره بعد زوال شغله وتعبه وما تدوم فائدته بعد انقضاء وقته وأمده وهي الصلاة والطواف وتلاوة القرآن في محراب الله وقبالة البيت العتيق وفي المشاعر الشريفة (وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ)البقرة:197، بل ينبغي لضيف الرحمن ووفد الحنان أن يحذر من جعل الاتجار والاكتساب غرضه الأقصى ومقصوده الأعلى من سفرته وضيافته من الابتداء وحتى الانتهاء حتى

يكون سفره حجاً لله خالصاً وان لم يحذر كان سفره للحج ظاهراً وقصده للاتجار والتبضع واقعاً فانه القصد الدفين في الباطن والداعي المرتكز في الداخل وهو منافٍ مع الاخلاص لله المطلوب في عباداته، والمؤمن يحذر على حجه وتمام عباداته من الفساد والذهاب في الهواء وقد سمع قول الله حل وعلا (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)ال عمران: 97، وقوله سبحانه (وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ) البقرة: 196، أي خالصة لله سبحانه منبثقة عن أمره ومندفعة عن حب طاعته فيدفع الحاج جهد امكانه قصد التبضع والاتجار عن قصده وباطنه ويجعله غرضاً ثانوياً في رحلته وقصداً أخيراً في سفرته ويكون غرضه الاول ودافعه الاكبر وداعيه المؤثر الأعظم هو الحج والعمرة لله من الابتداء وحتى الانتهاء امتثالاً لأمره واظهاراً لعبوديته واستكانته تجاه ربه وبارئه تبعاً لحبيب الرحمن رسول الأنام محمد –عليه أفضل الصلاة والسلام- والتحاقاً بركب الخليل الجليل نبي الله ابراهيم –عليه أفضل الصلاة والسلام- (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)الأنعام:161-163 .

16- واذا حل يوم التروية على الناسك –أعني اليوم الثامن من ذي الحجة الحرام- اغتسل الناسك في بيته ثم لبس ثوبي احرامه وذهب إلى المسجد الحرام بسكينة ووقار –فان مكة ميقات حجه وأفضلها المسجد الحرام- واذا دخله صلى فيه ركعتين أو ركعات لله خلف مقام ابراهيم- عليه السلام- وبقي في المسجد حتى تزول الشمس ليصلي فريضة الظهر المكتوبة ثم يحرم بالحج ويهل بالنسك ويعقد بالتلبية (لبيك اللهم لبيك، لبيك بحجة تمامها وبلاغها عليك، لبيك اللهم لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك) ويؤدي مراسم الاحرام والتلبية الجسدية والقلبية الباطنية والروحية –وقد تقدمت الاشارة اليها في احرام العمرة- .

ثم يتحرك نحو جبل (عرفات) للوقوف به والحضور عنده في النصف الثاني من نهار اليوم اللاحق –أعني اليوم التاسع من ذي الحجة- تأسياً بسنة خليل الرحمن وخاتم الأنبياء –عليهما صلوات الله- وتوافقاً مع سيرة كافة الاولياء والصلحاء، ثم

يعتبر من هذا الوقوف الحاشد والجمع المؤمن المتواجد فيستذكر الوقوف الأكبر والحضور الأوسع والأشمل بين يدي الله والحساب يوم العرض الأكبر، ثم يتأمل في وحدانية الله سبحانه وعظمته وجلاله وفي تضرع الخلائق واستكانتهم اليه وخشوعهم لديه ويقرأ دعاء الشهيد السبط الحسين بن علي (عليهما السلام) يوم عرفة وهو مليء بمعرفة التوحيد ومظهر الضراعة والاستكانة من العبد الصالح نحو الرب الراحم، وهذه منفعة من منافع الحج يشهدها من حضر عرفة وشهد النسك (ليشهدوا منافع لهم) فيحصل على زيادة معرفة الله وكمال الأنس به وشدة الوله اليه سبحانه وصدق العروج بالروح نحوه، وقد وقف رسول الله (ص) بعرفات في ميسرة الجبل وأخذ الحجيج يتدافعون قرب موقفه وجنب شخصه ووجوده وجوار ناقته فقال لهم: (أيها الناس ليس موضع أخفاف ناقتي الموقف، ولكن هذا كله موقف) وأشار بيده المقدسة إلى عرفات بأطرافها وحدودها فتفرق الناس وانتشروا في عرصة (عرفات)، لكنه لاريب في أفضلية الوقوف في ميسرة الجبل وان كانت عرفات كلها موقفاً للحجيج، وينبغي للحاج أن يخرج إلى جبل الرحمة والبركات ان أمكنه ولو ساعة من حضوره ويطلب من ربه فيوضات رحمته ولطائف عطفه فان جبل عرفات مظهر رحمة الله ومبعث عطفه نحو عباده.

وينبغي للناسك أن يلتفت بفكره ولبه إلى إحاطة الله بعبده وإطلاعه على مخلوقاته –وعلى قلبه الروحاني وجسمه وقالبه- ثم يعزم في ذاك الموضع- وهو منسك متقدس ومشعر محترم- على تحرير قلبه وقالبه من سيادة طاعة الشهوات وذل معصية رب الكائنات، ثم يتأمل في سعة رحمة الله وعظيم لطفه ووسيع خبرته واحاطته بالكائنات ثم ينطلق من تأمله نحو دعاء بارئه ونحو التضرع لخالقه والابتهال إلى صانعه بأنواع الدعوات المقربات وتلاوة آيات الكتاب الشريفات وقراءة ألوان الأذكار المحبوبات وقد ورد في في الأخبار الكثيرة ان يوم عرفة يوم دعاء ومسألة من الملك القادر الغفار بل ورد ان من أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفات ودعى ربه ثم ظن ان الله لم يغفر له، فينبغي أن يجعل دعواته وتلاوته بفكر وحضور قلب .

وينبغي للناسك –حال تواجده في عرفات- أن يتأمل في مواقف الناس وتواجدهم على تلكم العرصة الجرداء وفي تزاحمهم وتجمعهم من كل فج عميق امتثالاً لأمر الله والتحاقاً بركب الحجيج الأخيار من عهد المنادي الأول –خليل الرحمن عليه السلام- وحتى هذا العام وهي حالة تتكرر كل عام ويشهدها كل جيل من الأنام وهي تظاهرة صغرى في يوم الحشر الأصغر يتجلى فيها عزّ الألوهية وذلّ العبودية الصادقة وهي تشبه التظاهرة الكبرى يوم الحشر الأكبر، فينبغي التفكر والاعتبار من هذه الحالة في هذا الموقف العظيم والمشهد الحكيم للإنتقال بالفكر لحالة الاجتماع الأكبر يوم الحشر الأعظم مع التذكر للعقبات والأهوال التي أخبر رسول الله (ص) عن مرور العباد بها حتى يصلوا ساحة الحساب واستلام الكتاب فيكثر البكاء والنحيب مع التضرع والابتهال بالدعوات المأثورات، على أمل أن يكون هذا التفكر والتأمل والتباكي والابتهال منطلقاً نحو الانقياد الأمثل وباعثاً على الانصياع لأوامر الله ونواهيه ليكون حضوره في عرفات في هذا اليوم الشريف والموقف العظيم وقوفاً حقيقياً مؤثراً وحضوراً واقعياً مغيراً نحو الأصلح والأفضل فيكون هذا نفعاً ومكسباً من المكاسب والمنافع التي يشهدها الحاج في حجه ويكسبها من عرفاته .

17- قال سبحانه (فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ) البقرة: 198، والافاضة هي الصدور عن المكان والخروج منه باندفاع وازدحام جماعات .

واذا أفاض الحجيج من عرفات وسط الزحام الشديد والاندفاع الأكيد باتجاه المشعر الحرام –مزدلفة- تأسياً برسول الله (ص) والتحاقاً بركب الخليل (ع) ينبغي أن يكون الاندفاع والافاضة مصحوباً بالسكينة والوقار والخشوع والخضوع والذكر والفكر، فيشعر قلبه وروحه بشعائر أهل التقوى وعلائم أهل الخوف من الله برجاء رحمته وأمل غفرانه وعتقه من ناره وجحيمه (اللهم اعتقني من النار، اللهم ارحم موقفي وزد في عملي وسلم لي ديني وتقبل مناسكي)، وبذلك تكون افاضته نحو منسك بارئه افاضة حقيقية وانطلاقته إلى مشعر ربه واقعية لا صورية وتكون مؤثرة نحو الاصلح ومغيرة نحو الأفلح (ليشهدوا منافع لهم) الحج: 28 .

والواجب هو الحضور في (مزدلفة) ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس يوم العاشر من ذي الحجة الحرام، ومزدلفة معلم من معالم الله ومشعر من مشاعره واقع ضمن منطقة الحرم ولذا قال سبحانه (المشعر الحرام) وينبغي ان لا تفوت الحاج عظمة الموقف وجلالة الموقع فيستغله في العبرة والفكرة فيتذكر ذلك ويتوسل إلى الله ويتضرع نحوه ويبتهل اليه في ذلك الوقت الشريف –ما بين الطلوعين- الذي تشهده ملائكة الله وتحضره ملائكة النهار، وينبغي أن يتوجه الناسك إلى أنه بدخوله في المزدلفة -وهي من الحرم، بعد خروجه من عرفات- يدخل مرة أخرى منطقة الحرم وهي بقعة مقدسة ومنطقة محرمة جعلها الله حرماً وأمناً وسلاماً على داخلها واحتراماً لقدس بيته وكعبته –الواقع فيها- فينشئ شكر الله وحمده على نعمة الإذن في دخول حرمه بعد أن كان خارجاً عنه ويحقق الثناء والتقديس لله على فضيلة التوفيق للولوج في بقعة حرمه وموضع رحمته، ثم يشرع في تذكر أفضال الله وانعامه عليه ويشتغل بالدعاء والابتهال والذكر والفكر – بقلبه وقالبه، بجسمه ولسانه وروحه وباطنه – طلباً لرضوانه وقبوله ثم يعاهد الله ويجدد بيعته على طاعته وتحري قرباته ويؤمل الخير كل الخير في موضعه وموقفه ويرجو الرحمة كل الرحمة في ركن حجه ونسكه ويتخيل نسمات الرحمة والرأفة مطلة عليه وكسوة القبول والرضى مخلوعة عليه .

18- قال سبحانه: (ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) البقرة: 199 .

ثم إذا طلعت الشمس على الحجيج يوم العيد في المشعر الحرام –مزدلفة- وقد التقطوا حصى الجمار- وهي التي يرمون بها الجمرات الكائنة في (منى) أيام التشريق- اندفعوا نحو (مني) وافاضوا اليها وتدافعت ركبهم باتجاهها، فينبغي للناسك أن يتذكر اندفاع الناس من قبورهم يوم حشرهم إلى عرصة القيامة وعرض الحساب، وأن يقصد باندفاعه مع الجمع المؤمن المتنسك أن يؤمن الناس من أذى لسانه ويده ورجله وجميع جوارحه لتكون صحيفته بيضاء وهويته جرداء من السوء والأذى والأثم والعصيان يوم العرض والحساب.

وهذه الآية الشريفة تأمر الحجيج بالإفاضة والاندفاع من المشعر الحرام إلى منى مع الناس والجمع المؤمن المتنسك افاضة واحدة واندفاعة فاردة في وقت واحد متقارب لتتأكد بين المسلمين لحمة الوحدة والاتحاد والتآلف والاقتراب وهي لحمة ربوبية وطريقة توحيدية وسنة حنيفية وتربية إلهية، ثم تأمر الآية بالاستغفار والتوبة واستغلال الفرصة في هذه المرحلة لطلب المغفرة من الغفور الرحيم .

ثم إذا وصل الركب (منى) ووردها الحاج ودخلها سجد لله شكراً على توفيقه وابلاغه اياها ثم انطلق نحو (جمرة العقبة) وهي التل الذي ترائى فيه ابليس اللعين وتمثل عنده لابراهيم الخليل (ع) ليفسد عليه حجه ومناسكه فرجمه الخليل ورماه بسبع حصيات تعبيراً عن بغضه وهجره وعن كراهته وطرده بارشاد من الأمين الجليل جبرائيل (ع) وبأمر من الرب الخليل (جل وعلا) فجرت سنة الحنيفية بذلك وصار منسكاً في الحج واجباً ومعلماً لازماً وهذا هو الواجب الأول في (منى) يوم العيد –أعني رمي جمرة العقبة بسبع حصيات تصيبها اصابة مباشرة داعياً ربه سبحانه (اللهم هذه حصياتي فاحصهن لي وارفعهن في عملي، اللهم تصديقاً بكتابك وعلى سنة نبيك، اللهم اجعله حجاً مبروراً وعملاً مقبولاً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً).

وينبغي للحاج أن يقصد برميه رمي الشيطان ورجم عدو الرحمن وينوي في قلبه ويستحضر في باطنه الانقياد والانصياع لأمر الرحمن وعلى خلاف الشيطان تأسياً بسنة الخليل (ع) وتشبهاً بطريقة الحنيفية الموحدين برجاء أن يكون منهم ومعهم في البدو والختام.

ثم ينبغي أن يتفكر ويطمئن الحاج إلى أن إنقياده لأمر الرحمن هو القاصم لظهر الشيطان والراغم لأنف اللعين فيؤكد قصده ويكرر فكره عند الرمي انه يرمي الشيطان ويبعده عن ساحة فكره وميدان عمله وسلوكه، وبذلك يكون رميه حقيقياً لا صورياً ومؤثراً نافعاً فيحتاج الناسك إلى قلب واع مدرك وعقل مفكر مستحضر لهذه الخصوصيات ليقصدها عند رميه ليفوز بالنفع الأكبر والجائزة العظمى (ليشهدوا منافع لهم) ومن أفضلها منفعة القرب من الرحمن والقطيعة من الشيطان الحاصلة من النسك الحي المصحوب بالفكر والقصد، فينبغي أن

يتخيل الناسك الشيطان قائماً على الجمرة متمثلاً له فيها كما تمثل لخليل الرحمن عليها وترائى له فيها فيرمي ويرجم بحصاته نحوه متخيلاً رمي الشيطان واصابته بحصياته تعبيراً عن رفضه وطرده عن قلبه وعمله وسلوكه .

19- قال سبحانه (وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .... فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) البقرة: 196.

الهدي شعيرة من شعائر الله ومعلم من معالم عبادته وقربه ومظهر من مظاهر دينه وشرعه يضحيه الحاج تزلفاً لربه وتقرباً لبارئه وتفدية لذنوبه، والواجب المطلوب للناسك هو ما تيسر له من الأنعام الثلاثة: من الابل والجمال أو البقر أو الغنم أو السخال، وهذا هو الواجب الثاني في مناسك (منى) يوم العيد، وقد سميت (منى) بهذا الإسم لما يمنى فيها –أي يراق فيها وعلى أرضها- من الدماء، وقد ورد في الخبر الشريف ان رسول الله (ص) قال لبضعته الصديقة فاطمة (ع): (اشهدي ذبح ذبيحتك فان أول قطرة منها يغفر الله بها كل ذنب عليك ويكفر الله بها كل خطيئة عليك) فسمعه بعض المسلمين فقال: يا رسول الله هذا لأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال(ص): (ان الله وعدني في عترتي أن لا يطعم النار أحداً منهم، وهذا للمسلمين عامة) فينبغي للمسلم الناسك أن يتذكر ابتلاء الخليل ابراهيم بذبح ولده وافتداء الجليل عنه بذبح عظيم وكبش سمين فيحضر ذبح ذبيحته أو يشهد نحر ابله ويقصد نحر الطمع وذبح الجشع من نفسه وسلوكه ويقصد الامتثال التام لأمر الرحمن بهذا الذبح والافتداء و(لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) الحج: 37، ويتشبه بخليل الرحمن في الانصياع الكامل والانقياد الشامل لأمر السلطان في هذا الحال والمقام بل في كل حال ومقام اقتداءً بسنة سيد الأنام (ص) في إهراق الدماء رجاء أن تناله كرامة الله وموعدة حبيبه المختار (ص) بالمغفرة والرضوان وبأمل عتقه من النار وبغية عتقه من غضب الجبار بهذا الافتداء، ورد في الخبر الصحيح عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) قوله: (إذا اشتريت هديك فاستقبل به القبلة وانحره أو اذبحه وقل: وجهت وجهي للذي

فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم منك ولك بسم الله وبالله والله اكبر، اللهم تقبل مني) ثم أمر (ع) بامرار السكين على الهدي ونهى عن أن تنخع الذبيحة حتى تموت أي منع عن قطع رقبة الذبيحة قبل موتها واستقرارها، قال سبحانه: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)الحج:27-28، وقال سبحانه (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {36} لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ..)الحج: 36-37، البدن: بضم الباء وسكون الدال جمع بدنة أي الجمل الجزور، والصواف أي صافات مترتبات، وجبت جنوبها أي سقطت أطرافها وهي كناية عن تأكد موتها .

وهذه الآيات الشريفات تبين وترشد إلى وظيفة شرعية عقيب نحر البدن أو ذبح الغنم أو البقر، فاذا ذبح الحاج فداءه أو نحر بدنته وجزوره فوجبت جنوبها وسقطت أطرافها واستقر موتها وانفصلت روحها عن جسدها فكلوا أيها الحجيج من بعضها واطعموا بعضها الآخر: القانع والمعتر وتصدقوا ببعض ثالث على البائس الفقير والسائل المعتر الذي يعتري الحاج ويسأله مما في يده من اللحم، وقد أفتى أكثر فقهاء الإسلام باستحباب الأكل والاطعام والتصدق ونزع جمع إلى الفتوى بوجوبها وفيه بحث موكول إلى بحوث الفقه الشريف، وقد ورد في الأثر ان رسول الله (ص) حج بيت الله الحرام علناً في العام التاسع من هجرته الشريفة وساق معه مائة رأس من الابل الجزور وقد كان علي (ع) مبعوثه إلى اليمن وسفيره إلى أهلها فورد منها إلى مكة مهلاً بالحج باهلال رسوله ومحرماً له باحرام نبيه وحبيبه فأشركه الحبيب في هديه فاذا جاء يوم النحر نحرت بأجمعها فداء وتقرباً لله وأمر (ص) أن يؤخذ من كل بدنة بضعة وقطعة فطبخت وأكل هو وعلي من اللحم المطبوخ بالماء والملح وحسيا من المرق –أي شربا من ماء اللحم- وأمر (ص) باطعام

الباقي على الفقراء البائسين صدقة ومعروفاً، ولنا في رسول الله (ص) أسوة حسنة وقدوة فاضلة وفي سلوكه حكمة عالية ينبغي أن يستن بها حجيج بيت الله ويهتموا بفعلها لأن فيها غفران الذنوب ونيل التقوى واصابتها وبلوغها (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وفيه اطعام البائسين الذين أصابتهم شدة الجوع أو ألم العرى وقشف العيش وقد قال (ص): (انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فاطعموهم)

20- قال سبحانه (وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ) البقرة:196 .

وحلق الرأس لجماعة الرجال أو تقصير الشعر لجماعة النساء شعيرة من شعائر الرحمن ومعلم من معالم دينه وشرعه ومظهر من مظاهر عبادته وقربه يأتيه الحاج عقيب الانتهاء من رمي جمرة العقبة وذبح الهدي وهو الواجب الثالث من واجبات (منى) ومناسكها يوم العيد الأغر، وقد تعرضت الآية الشريفة لحال المحصر –يعني الممنوع عن اتمام الحج أو اكمال العمرة بعد شروعه في النسك وتلبسه بالاحرام- وقد أمرت ببعث ما تيسر من الهدي إلى مكة أو منى أو ذبحه فيها مع المواعدة والاتفاق على وقت مخصوص مع المؤتمن المبعوث بالهدي، حتى إذا بلغ محله وحضر وقته جاز للممنوع والمحصر حلق رأسه ليكون الحلق عقيب الهدي حسب الترتيب الشرعي لمناسك الحج يوم العيد –الرمي ثم الذبح ثم الحلق-.

ثم انه ينبغي للناسك والناسكة أن يريدا ويقصدا بازالة الشعر كلاً أو بعضاً -حلقاً على الرجال وتقصيراً على النساء- وان يبغيا ويطلبا بذلك ازالة الأدناس والأقذار عن رأسهما، وأن ينوي الحاج المؤمن بحلق رأسه حلق الذنوب والاثام عن صحيفته بعد هذا الزمان الذي فاز فيه بغفران الله بعد بلوغ مناسك حجه إلى الذبح والنحر والافتداء وبعد اصابة عفوه ومغفرته بهذه الكوكبة من النسك والقربات حيث يعود كيوم ولدته امه ناصع الكتاب من الذنوب والاثام فيعاهد الله حين حلقه أن يقلع عن العصيان ويحلق من صحيفته الآثام فلا يقدم على معصية بعد اليوم ولا يقصر في واجب ولا يجلب غضب الله بفعل بعد الآن.

وهكذا ينبغي أن تنوي الناسكة المؤمنة بتقصير شعرها قص أظلاف المعصية وقلع أظافر المخالفة وقص شعر المأثمة بعد هذا الزمان الذي أصابت به عفو الله حين افتدت بذبح عظيم أو كبش سمين حيث عادت من المنحر والافتداء كيوم ولدتها امها ناصعة البياض وسالمة الكتاب فتعاهد الله أن تقصر أجنحة العصيان وتقص أظافر الشيطان وجذوره عن سلوكها فلا تقدم على معصية ولا تقصر في فريضة وتؤدي حقوق الله كاملة ولا تمنع حقوق العباد شاملة، وبذلك يكون الناسك أو الناسكة قد شهد منافع حجه وادرك مصالح نسكه وصح له أن يعمل بسنة محمد وآل بيته فقد حج أبو جعفر محمد الباقر (ع) في عام وأمر الحلاق أن يحلق رأسه وسمى الله سبحانه وقال: (اللهم اعطني بكل شعرة نوراً يوم القيامة) وهذه منفعة يدركها الحاج ويشهدها من حجته إذا دعى ربه وسأل بارئه .

21- قال سبحانه (وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) البقرة: 203، والأيام المعدودات هي أيام ثلاثة بعد يوم النحر –اقصد اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة الحرام- وتسمى أيام التشريق بمناسبة تشريق اللحم وبسطه ونشره في الشمس ليجف ويدخر للأيام المقبلة حيث يتوفر اللحم في تلكم الأيام ببركة النحر أو الذبح في منى ويفيض عن الحاجة وتشبع البطون الجوعى الثاغرة فيجفف للاستفادة منه في مستقبل الزمان .

هذه الآية الشريفة تأمر بذكر الله سبحانه في هذه الأيام المعدودات التي يتواجد فيها الحجيج بمنى عقيب يوم العيد ، وتفيد – بالتبع – لزوم الاقامة في منى ووجوب البقاء بها لاجل ذكر الله سبحانه في منى تلكم الايات المعدودات ... وقد افتى الفقهاء بوجوب الاقامة في منى والمبيت عندها ليلاً ولو نصف ليلة في الحادي عشر والثاني عشر فمن احب العجلة في الخروج والنفر عن منى رحل اليوم الثاني عشر بعد مبيت ليلتين وبعد رمي الجمار الثلاثة في نهارين إذا اتقى الله وامتنع عن الصيد حال الاحرام ، وإن أحب التأخر إلى يوم ثالث أوصاد بات في منى ليلة الثالث عشر ورمي الجمار نهارها ثم نفر عنها

إلى مكة وخرج منها اليها ، وهذا التخيير لمن اتقى الله في الصيد حال احرامه وفي الرفث ونحو ذلك مما يحرم على الناسك حال الاحرام والا وجب عليه المبيت ليلة ثالثة وتعين عليه الرمي نهارا ثالثاً ، فهنا واجبان :-

الأول المبيت في منى ليلاً، والثاني : رمي الجمار الثلاثة نهاراً ، والجمار تلال ثلاثة في صقع منى تمثل فيها الشيطان اللعين لابراهيم (ع) فأتاه جبريل (ع) وقال له : إرمه ياإبراهيم ، فرمى الشيطان بسبع حصيات ورجم مثاله الكائن على كل جمرة وتل فصارت سنة ابراهيمية جارية وطريقة حنيفية ماضية، روي عن علي أمير المؤمنين (ع) قوله: (ان الجمار انما رميت لأن جبرئيل حين أرى ابراهيم المشاعر برز له ابليس فأمره جبرئيل أن يرميه فرماه بسبع حصيات فدخل عند الجمرة الأخرى تحت الأرض فأمسك ثم برز له عند الثانية فرماه بسبع حصيات أخر فدخل تحت الأرض موضع الثانية، ثم انه برز له في موضع الثالثة فرماه بسبع حصيات فدخل في موضعها، فجرت به السنة) .

22- قال سبحانه (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) الحج: 29 .

هذه الآية الشريفة وردت عقيب آية ذكر الله على ما رزق من بهيمة الأنعام، وفسرت الروايات العديدة عن أئمة اهل البيت (عليهم السلام) التفث في قوله سبحانه (ثم ليقضوا تفثهم) بالحلق والتقصير من الشعر أو الظفر .

هذه الآية الشريفة أمرت بقضاء التفث ووفاء النذر المتعلق بذمة الحاج ثم الطواف بالبيت العتيق، وقد اختلفت الروايات والأنظار في تعيين هذا الطواف ما بين كونه طواف الزيارة الذي يؤتى به عقيب الافاضة من (منى) يوم العيد أو في الأيام اللاحقة له وما بين كونه (طواف النساء) (طواف الوداع) الذي يؤتى به عقيب طواف الحج والزيارة وصلاته وطواف السعي بين الصفا والمروة ويودع الحاج به البيت وينهي به نسكه وحجه فاذا قضى الحاج تفثه وقصر شعره وحلق رأسه واكمل مناسك منى رجع إلى مكة وأتى بطواف الافاضة حول البيت قاصداً به الافاضة إلى رحمة الله وتجديد العهد مع الله وتوكيد العلقة معه سبحانه وأن يكون طوافه تعبيراً عن العهد المؤكد بالطواف حول طاعاته

وعدم الخروج عن ساحة قرباته إلى ميدان عصيانه ثم يتخذ من مقام ابراهيم مصلى يصلي فيه ركعتين لله سبحانه، ثم يزدلف إلى المسعى فيطوف بين الصفا والمروة سبعاً ويقصد الطواف بين الرجاء والخوف: رجاء رحمة الله وحذر غضب الله وخوف سخطه وينوي الدوران والسعي بين الأمل والحذر، ثم يرجع إلى البيت ثانية ليطوف مودعاً ويتحلل به من النساء والصيد بعد أن تحلل بطواف الافاضة والزيارة من سواهما من محرمات الاحرام ومحظورات التحريم .

وينبغي للحاج أن يتأمل في طوافه وصلاته وسعيه فيستفيد وينتفع (ليشهدوا منافع لهم) الحج: 28، وقد سبقت الاشارة إلى بعض الفوائد الروحية والمكاسب القلبية التي يمكن أن يستفيدها الناسك في طواف العمرة وصلاتها وسعيها، ثم يودع البيت –إذا أراد الخروج إلى بلده وأهله- بالنظر إلى الكعبة والتروي منها والطواف حولها والصلاة خلفها والبكاء عندها بكاء الواله وشوق المحب وفراق الحبيب لبيت حبيبه وهو لا يدري هل يعود إلى بيت الحبيب ورمز الشفيق أم لا يعود؟ ثم يسال الله العودة والاوبة والتوفيق للرجعة اليه بمثل ما جاء اليه ويصلي على النبي المختار واله الاطهار ويطلب من رب العباد أن يقلبه إلى أهله ناجحاً في مهمته مفلحاً في سفرته مستجاباً له دعوته بأفضل ما تنقلب وفوده وترجع به ضيوفه من المغفرة والرضوان والعافية والبركات مناجياً مضيفه ومعبوده: (اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن امتك حملتني على دابتك وسيرتني في بلادك حتى ادخلتني حرمك وأمنك وقد كان في حسن ظني بك أن تغفر لي ذنوبي فان كنت قد غفرت لي ذنوبي فازدد عني رضا وقربني اليك زلفى، وان كنت لم تغفر لي فمن الان فاغفر لي قبل أن تنأى –أي تبعد- عن بيتك داري وهذا أوان انصرافي ان كنت أذنت لي غير راغب عنك ولا عن بيتك ولا مستبدل بك ولا به، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي حتى تبلغني أهلي واكفني مؤنة عبادك وعيالي فانك ولي ذلك) ثم يخر ساجداً لله شاكراً لأنعمه وأفضاله وتوفيقاته معترفاً بذنوبه واثامه راغباً في مغفرة بارئه ورضوانه ليكون وداعه للبيت بذلك وداعاً تاماً صحيحاً ويكون ختامه ختام مسك والله الموفق والمعين .

23- وفي هذا المقام وقد طالت الرحلة الفكرية والسفرة الروحية مع العمرة والحج أود أن أسجل هنا –تيمناً وتبركاً- حديثاً مطولاً للامام جعفر بن محمد الصادق (ع) يتضمن نصائح وارشادات ويحوي حكماً واسراراً تتعلق بالحج ومناسكه يعم به النفع وتزيد به الفائدة يرجى التأمل بالروح عند فقراته ويؤمل التوقف بالقلب عند مضموناته التي هي أضواء ساطعة وأنوار لائحة من نور جده المختار .

قال: (إذا أردت الحج فجرد قلبك لله عز وجل من قبل عزمك عن كل شغل شاغل وحجاب كل حاجب، وفوض أمورك كلها إلى خالقك وتوكل عليه في جميع ما تظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره وودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً فان من ادعى رضا الله واعتمد على شئ ما سواه صيره عليه عدواً ووبالاً ليعلم انه ليس له قوة ولا حيلة إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع واحسن الصحبة وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص) وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة وايثار الزاد على دوام الأوقات، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، واحرم من كل شئ يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته، ولب بمعنى اجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له متمسكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت، وهرول –أي بين الصفا والمروة- هرولة فرار من هواك وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتمن –أي لا ترجو- ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطايا بعرفات وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرب اليه واتقه بمزدلفة واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة

مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعاً لعظمته ولعزته، وودع ما سواه –سبحانه-بطواف الوداع، وصف –أمر بالتصفية- روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفاء وكن بمرأى من الله نقية أوصافك عند المروة، واستقم على شروط حجتك ووفاء عهدك الذي عاهدت به ربك واوجبته له إلى يوم القيامة واعلم بأن الله لم يفترض الحج ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة إلى نفسه بقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت..) ولا شرع نبيه سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه إلا للاستعانة والاشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة..).

وأود أن أسجل هنا –ثانياً- جواهر صافية وأسرار روحية زاكية كتبها بعض الأعلام الاجلاء والفقهاء الازكياء، قال (من أهم ما ينبغي رعايته في هذا السفر احتسابه من سفر آخرته بالمحافظة على تصحيح النية واخلاص السريرة وأداء حقيقة القربة والتجنب عن الرياء والتجرد عن حب المدح والثناء وأن لا يجعل سفره هذا على ما عليه كثير من مترفي عصرنا من جعله وسيلة للرفعة والافتخار بل وصلة إلى التجارة والاشتهار ومشاهدة البلدان وتصفح الامصار وأن يراعي أسراره الخفية ودقائقه الجلية فان الله سبحانه سن الحج ووضعه على عباده اظهاراً لجلاله وكبريائه وعلو شانه وعظم سلطانه، واعلاناً لرقّ الناس وعبوديتهم وذلّهم واستكانتهم وقد عاملهم في ذلك معاملة السلاطين لرعاياهم والملاك لمماليكهم ، وان الله تعالى قد شرف البيت الحرام وأضافه إلى نفسه وإصطفاه لقدسه وجعله قياماً للعباد ومقصداً يؤم من جميع البلاد وجعل ما حوله حرماً وجعل الحرم آمناً وجعل فيه ميداناً ومجالاً، ثم أذن في الناس بالحج ليأتوه رجالاً وركباناً من كل فج، وأمرهم بالاحرام وتغيير الهيئة واللباس شعثاً غبراً متواضعين مستكينين رافعين أصواتهم بالتلبية واجابة الدعوة حتى إذا أتوه كذلك حجبهم عن الدخول وأوقفهم في حجبه يدعونه ويتضرعون اليه حتى إذا طال تضرعهم واستكانتهم ورجموا شياطينهم بجمارهم وخلعوا طاعة الشيطان من رقابهم أذن لهم بتقريب قربانهم وقضاء نفثهم ليطهروا من الذنوب التي كانت هي الحجاب بينهم وبينه وليزوروا

البيت على طهارة منهم ثم يعيدهم فيه بما ظهر معه كمال الرق وكنه العبودية فجعلهم تارة يطوفون فيه ويتعلقون بأستاره ويلوذون بأركانه واخرى يسعون بين يديه مشياً وعدواً ليتبين لهم عز الربوبية وذل العبودية وليعرفوا أنفسهم ويضعوا الكبر من رؤوسهم ويجعل نير الخضوع في أعناقهم ويستشعروا شعار المذلة وينزعوا ملابس الفخر والعزة، وهذا من أعظم فوائد الحج مضافاً إلى ما فيه من التذكر بالاحرام والوقوف في المشاعر العظام لأحوال المحشر وأهوال يوم القيامة، إذ الحج هو الحشر الأصغر، واحرام الناس وتلبيتهم وحشرهم إلى المواقف ووقوفهم بها والهين متضرعين راجعين إلى الفلاح أو الخيبة والشقاء أشبه شئ بخروج الناس من اجداثهم وتوشحهم بأكفانهم واستغاثتهم من ذنوبهم وحشرهم إلى صعيد واحد: إما إلى نعيم مقيم أو عذاب أليم، بل حركات الحاج في طوافهم وسعيهم ورجوعهم وعودهم يشبه أطواف الخائف الوجل المضطرب المدهوش الطالب ملجأ ومفزعاً نحو أهل المحشر في أحوالهم وأطوارهم، وبحلول الحاج في هذه المشاعر والجبال والشعب والطلال ولدى وقوفه بمواقفه العظام يهون ما يلقاه امامه من أهوال البرزخ وعظائم يوم المحشر وشدائد يوم النشر عصمنا الله وجميع المؤمنين ورزقنا رضاه وعفوه وقربه ومغفرته) .

24- بقيت نصيحة أخيرة أوجهها في هذا المقام وكل مقام لمن أراد رضوان الله وقصد العمل الصحيح المقبول: ينبغي لمن أراد الحج أو العمرة وأداء مناسكهما أن يتفقه أحكامهما من كتب الفقه ويتعلم مناسكهما وخصوصياتهما من كتابات الفقهاء فان الحج كثير الأجزاء وفير الشرائط متشعب الجهات متعقد الاحكام لارتباطه بأعمال غير مألوفة ومناسك غير مأنوسة ومواضع غير معروفة وقد تكون غير مشهودة لبعض الحجيج - وهم الصرورة الذين لم يحجوا- وهو متعدد المواقف والمشاعر والمناسك والاحكام وقد تكون فيها وحشة أو غرابة أو قلة أنس، انظر إلى زرارة وهو فقيه عظيم عاصر الامامين الباقر والصادق (ع) وسألهما عن الفقه والاحكام عموماً وعن أحكام الحج خصوصاً ومع ذلك يسأل ويتعجب من تعدد أحكام الحج وتشعبها وعدم استقصاءها فيقول لأبي عبد الله الصادق (ع): جعلني الله

فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني فقال: (يا زرارة بيت حج اليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاماً) فينبغي للمؤمن القاصد للحج أن يتعلم أحكامه في أربعين يوماً على الأقل قبل سفره ولا نقول: أربعين عاماً كما فعل هذا الفقيه، وينبغي أن يصحب معه في سفرته نسخة من (مناسك الحج) ليكون له تذكرة لما تعرف اليه من المناسك والاحكام قبل السفر والاحرام كما ينبغي له أن يجتهد ويجهد نفسه في تصحيح أعماله ومناسكه ويجنبها عام يفسدها ويمحيها وفق فتاوى مجتهد عادل تقي ويبالغ في مجاهدة نفسه الامارة بالسوء من النوايا السيئة والشوائب المنافية للاخلاص في العبادة ليخلص حجه ويصفي نسكه فيخرج من جهاده في حجه ونسكه التقربي بذنب مغفور وسعي مشكور وعمل مقبول، ومن أهم الأمور التي يجاهد نفسه منها في هذه السفرة الحذر من صيرورة حجه وسيلة للرفعة والافتخار وسبباً للأبهة والكبرياء وطريقاً لتحصيل السمعة عند الناس والرياء وهنا جهاد النفس الامارة بالسوء وبه الربح الكبير والنفع الوفير، فاذا تحذر المسلم القاصد الحج من هذه الدواعي والأفكار وسلم عمله العظيم من هذه الشوائب المفسدات صح حجه وترتبت آثاره (ورجع بذنب مغفور وسعي مشكور) واذا لم يحذر من تطرق الدواعي الفاسدة إلى نيته ونسكه ذهبت اتعابه سدى ونفقاته هباءً منثوراً وصارت مناسكه هواءً في شبك ولا ذنب له مغفور ولا عمل له مشكور ولا سعي له مقبول بل زادت ذنوبه ونقصت حسناته ورفضت أعماله عندما تلوثت مساعيه ومناسكه ببعض النوايا الفاسدة والضمائم الماحية والمعاصي المهلكة، وعند ذلك ينبغي أن يسكب العبرات وتكثر الندامات حيث فاتت منه الأموال المبذولة والاتعاب المصروفةبل العبرات تنسكب والندامة تكثر –شاء أم أبى- يوم تعرض الأعمال وتنشر الصحف ويبدأ الحساب.

وقد يعتذر احد بعسر تخليص نيته ومجاهدة نفسه في مثل هذه المواقف العظام، فننصحه بتعميق الدعاء وتشديد التوسل: يدعو الله الكريم المنان دعاء الواله المشتاق لتصحيح القصد وتسليم النية ويتوسل بنبيه وأوليائه توسل الصادق للعون على الخلاص والاخلاص، وسيجد عندئذ من الرب الرؤوف

العون الأكيد والتوفيق الشديد بمقدار ولهه وشوقه وبحد تضرعه وصدقه، وسيجد المجاهد نفسه لتصحيح عمله حسن العاقبة وجمال الآخرة يوم تكشف الصحف وتنشر الكتب ويعطى بيمينه عمله الصحيح مأجوراً ومثاباً ويؤمر له بالجائزة ويفوز بالاحسان و (إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)طه:15، 16.

وقد يدفع الفضول احداً فيحب معرفة ما إذا كان عمله مقبولاً وسعيه بالحج مشكوراً أم لا؟ بعد ان اكتملت مناسكه وختم أعماله وقفل للرجوع والخروج من مكة الحرام، فليختبر حاله وسلوكه فان وجد حاله في حركاته وسكناته وبجميع تعاملاته وكافة سلوكياته وهي بحال أحسن واكثر التصاقاً بالشرع وأوضح موافقة لكتاب الله الكريم وسنة نبيه الحكيم كان ذلك بشارة قبول العمل عند الله، وقد ورد في بعض الأخبار الشريفة ان علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي والمحرمات وقد أخبرني أحد المؤمنين بأنه بعد رجوعه من مكة وحج بيت الله الحرام أخذ يجد في باطنه الكراهية والرغبة عن الغيبة ويلاحظ في نفسه مبغوضية أكل المال الحرام أكثر من قبل، فقلت له: أبشر بقبول حجك ورضوان ربك واطلب زيادة التوفيق من بارئك ولا تعجب فانه فائدة الحج وعلامة القبول وهذا من فضل الرب على العبد المخلص الصادق في نيته وقصده، وكيف يعجب الانسان والمستفاد من روايات الحج وفضله وثوابه انه لا يعدله شئ في ثواب الله إلا الصلاة فيقع الحج في ترتيب فضائل الأعمال في المرتبة الثالثة عقيب معرفة الله والصلاة بل في المرتبة الثانية بعد المعرفة لتضمن الحج الصلاة ولذا كانت الأخبار في عظيم فضله وجزيل ثوابه تبهر العقول وتوجب الحيرة والذهول لمن راجع وقرأ المأثور، ونحن نقتصر على خبر واحد صحيح رواه الصادق عن جده المختار (ص) انه لقيه اعرابي وقد فاته الحج وهو يطلب من رسول الله أن يامره بعمل صالح يكون بديلاً عن الحج الذي فاته ومساوياً له في الثواب فخاطبه الرسول الصادق الامين (ص): (لو أن أبا قبيس –الجبل المعروف- لك ذهبة حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت به ما يبلغ الحاج، ان الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحى عنه عشر

سيئات ورفع له عشر درجات فاذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فاذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فاذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه فاذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فاذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه فاذا رمى الجمار خرج من ذنوبه) ثم خاطب الاعرابي المتمول الذي يطلب بديل الحج في الثواب والخير عند الله (أنى لك أن تبلغ ما يبلغ الحاج؟) أي مع هذا الفضل والجزاء العظيم وغفران الذنوب (ولا تكتب عليه الذنوب أربعة أشهر وتكتب له الحسنات إلا أن يأتي بكبيرة) .

25- وقد جرت السيرة بين المسلمين المؤمنين بالله ورسوله أن يختموا حجهم ويعطروا نسكهم بعد الختام بزيارة سيد الانام (عليه أفضل الصلاة والسلام) وقبور أهل بيته وصحبته الأتقياء معتبرين لذلك متمم حجهم ومكمل نقص نسكهم تبعاً للخبر المأثور (إذا حج أحدكم فليختم حجه بزيارتنا لأن ذلك من تمام الحج) ولاريب في أن لرسول الله حقاً عظيماً وفضلاً جليلاً على الأنام بل وهكذا لأهل بيته الكرام الابرار وصحبه المتقين الأخيار حق كبير وفضل كثير في نشر الدين وتعليم القرآن واذاعة الأحكام وترويج السنن والآداب ولذا كان من الوفاء بحقهم العظيم وفضلهم الجسيم –وكل واحد منهم حسب مقامه وجهده وجهاده وحقه- أن يزدلف الحاج المؤمن بعد ختام حجه إلى مدينة الرسول (ص) لزيارة قبره الشريف وقبورهم اعترافاً بعظيم حقهم وجميل فضلهم وابرازاً لحبهم وتقدير جهادهم في سبيل الله ومن أجله ومصلحته واستبصاراً بنزاهة طريقتهم وضلالة مخالفتهم واستذكاراً لعالم الآخرة ومجريات أحداثه وقد ثبت بين المسلمين كافة ان رسول الله (ص) ندب إلى زيارة قبور الصالحين لما فيها من التذكير بعالم الآخرة بل هو بنفسه المقدسة زار قبر أمه الجليلة آمنة (رضوان الله عليها) وبكى عنده وأبكى من حوله من صحبه واتباعه وقد تضمنت بعض الأخبار توجيهاً حكيماً لندبه –صلوات الله عليه- لزيارة قبور الصالحين وهو تذكير الزائر بعالم الآخرة وتزهيده في الدنيا وملذاتها وابعاده عن محرماتها وسيئاتها واقباله على حسناتها وصلاحها، فينبغي للزائر الكريم ذي اللب الحصيف أن ينتفع من زيارته بتذكر الآخرة وشؤونها وتحفيف الإقبال على

الدنيا وملذاتها كما ينبغي أن يعرف حق الرسول العظيم الذي يزوره في نشر الدعوة وترويج الشريعة حتى انه أوذي –لأجل اصلاحنا- بحد كبير وقدر كثير فاق ايذاء من سواه من النبيين والمصلحين (ما أذوي نبي بمثل ما أوذيت) وينبغي أن يتذكر انه (ص) دنا في معراجه من مقام ربه بحد عجز جبريل (ع) عن صحبته ثم تدلى (ص) فكان قاب قوسين أو أدنى من مقام الجليل (جل وعلا) ثم اقترب اقتراباً من مقام العلي الأعلى (سبحانه وتعالى) ويتذكر انه (ص) خاتم النبيين وسيد المرسلين عند الله وافضل المخلوقين ورائدهم إلى الله وانه (ص) الوسيلة اليه (سبحانه) في المبدأ والمعاد وصاحب الحوض والشفاعة يوم النداء يوم يقوم الناس لرب العباد فينبغي لمن تشرف بزيارته وحضور مسجده أن يعرف حقه العظيم ويتذكر فضله الجسيم وجهاده الحكيم فيدخل حرم حضرته خاشعاً خاضعاً ومستكيناً متواضعاً ومتطهراً داعياً وراكعاً ساجداً، ثم يجدد عهد الإيمان عنده (ص) ويعترف بالطاعة والمتابعة ويكرر التصديق والتسليم عنده بما جاء به وبشر به ليكون شفيعاً إلى الله يوم القيامةوحبيبه وجاره في بقاع الجنة، ثم يعرض عليه حوائجه ومطالبه متوسلاً اليه أن يرفعها إلى مقام العزة والجبروت ومقام الأحدية والملكوت متضرعاً بتمام جده وجهده وصادقاً في ابراز حبه ومتابعته ليفوز بالقبول والاستجابة وينال الجائزة والكرامة .

وقد جاءت الرواية الصحيحة عن الحسين السبط الشهيد (عليه الصلاة والسلام) انه سال جده المختار (ص) وهو صغير: (يا أبتاه ما لمن زارك؟) فأجابه جده المصطفى (ص): (من زارني حياً أو ميتاً أو زار أباك أو زار أخاك أوزارك كان حقاً عليّ أن أزوره يوم القيامة وأخلصه من ذنوبه واستنقذه منها) فينبغي للمؤمن المنتهي من حجه وزيارة نبيه العروج والازدلاف إلى قبور أبنائه الكرام وأصحابه الأتقياء وأحبابه الشهداء وأتباعه النجباء ليسلم عليهم وهو خاشع خاضع متواضع عرفاناً بحقهم وتقديراً لمقامهم واظهاراً لحبهم ومودتهم وقد سمع بعض المحدثين جعفر بن محمد الصادق (ع) يتحدث ويقول: (ان ضيف الله عز وجل رجل حج واعتمر فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله ورجل كان في صلاته فهو في كنف الله عز وجل حتى ينصرف،

ورجل زار أخاه المؤمن في الله عز وجل فهو زائر الله في عاجل ثوابه وخزائن رحمته) والمهم هو الاعتبار والانتفاع من زيارة المشاهد المشرفات وفي الدرجة الثانية تأتي أهمية الدعوات والزيارات بالألفاظ وقد حفلت بها كتب مخصوصة والله الموفق للصواب .

مسك الختام

وبعد هذه الرحلة القرآنية والجولة المحمدية في رحاب الأخلاق الفاضلة طيلة رمضانات ثلاثة –بداية القرن الخامس عشر الهجري- أرجو أن أكون موفقاً لتقديم طعام روحي رمضاني نافع يغتذي به المسلمون الراغبون في تحصيل مرضاة ربهم وقرب بارئهم ويرتوي منه المؤمنون والمتعطشون إلى اكتساب رضوان حبيبهم ولطف رحيمهم، آمل أن يكون هذا الغذاء الروحي والرواء القلبي موضع عناية واغتراف بعد التمعن والتأمل والتأكد والعودة وتكرار النظر والتفكر لغرض استيعاب اكثر من الانوار الالهية والاضواء المحمدية وبهدف التزود بنحو أكبر من نور القرآن وضياء الرحمن ورسوله المختار وأوليائه الأبرار، وغاية مناي ومنتهى أملي ورجائي أن تكون جهودي الرمضانية مثمرة وأتعابي في وقت صيامي مجدية لم تذهب سدى بل تثمر القربى من رب الورى وتؤتي اكلها في كل حين حال الحياة وبعد الممات فتكون صحيفة بيضاء ضمن صحائف الأعمال التي أرجو من ربي أن يعطينيها يوم أقوم من جدثي مع باقي عباده: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وما بغيت بهذه الجهود وما قصدت بهذه الأتعاب إلا اصلاح عباده وتذكرة أنامه واولي الألباب من مخلوقاته من شاء منهم ورغب في الصلاح والاصلاح (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) هود:88، (الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) النمل:59، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ) فاطر: 10، (الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ { 2} الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ { 3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) الفاتحة وهي مسك الختام .

وقد بقيت المسودات محفوظة حتى شاء الله مراجعتها وكان الفراغ من تبييض مسودات هذه الصحائف في آخر ليلة من ليالي الشهر الشريف رمضان الخير على جميع المسلمين – في العالم الثالث عشر بعد المائة الرابعة عشر الهجرية على هاجرها وعلى أوليائه وأحبابه ومن تبعه باحسان إلى يوم الحساب ألف سلام وتحية وصلاة .

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ {23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ {24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ {25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) المطففين 22-26 .